



تفسير ابن كمال بأشارة

(ق: 940 هـ)

من أول سورة البقرة إلى آخر سورة النساء

الجزء الأول

دراسة وتحقيق:
د. عز الدين جولي



1435 هـ / 2014 م

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية

تفسير نكاح بالثمن

(٣: ٩٤٥ هـ)

الفصل الأول

عصر ابن كمال باشا زالحه

✓ المبحث الأول: الحياة السياسية

✓ المبحث الثاني: الحياة الدينية

✓ المبحث الثالث: الحياة العلمية وأثرها في تكوينه

تَفْسِيرُ زَيْنِ كَمَالٍ بِإِثْنَانِ رَحْلَةٍ (ق : 940 هـ)

مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْعَاقَةِ إِلَى آخِرِ سُورَةِ النَّسَاءِ

الجزء الأول

دراسة وتحقيق:
د. عز الدين جوليّد

1435 هـ / 2014 م

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية



مخطوط
جمع جيون

©Copyright

عنوان الكتاب :

تفسير الزمخشري في تفسير القرآن

(ت: 940 هـ)
من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة النساء

الجزء الأول

دراسة وتحقيق: د. عز الدين جولي

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الطبعة الأولى: 1435 هـ / 2014 م

ردمك: 1-47-601-9954-978

الإيداع القانوني: 2014 MO 1736

الطبع والإخراج الفني :

دار أم
قراق

دار أمي قراق للطباعة والنشر

الهاتف : 05 37 20 75 83 - الفاكس : 05 37 20 75 89

البريد الإلكتروني : editionboureg@gmail.com

الدراسة

تقديم

الحمد لله الذي فضل هذه الأمة بكتابه على الأمم أجمعين، وآتاها ما لم يؤت أحدا من العالمين، أنزل كتابه هداية عالمية دائمة، وجعله سبحانه وتعالى خاتمة للشرائع السماوية كلها، فجعله حجة إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

والصلاة والسلام على من كان خلقه القرآن، ووصيته لأئمة القرآن، وميراثه القرآن، سيد المفسرين القائل⁽¹⁾: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وعلى آله وأصحابه ومن تبعه ودعا بدعوته واهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد :

فإن من أهم العلوم الموصلة إلى فهم كتاب الله عز وجل علم «التفسير»، فهو العلم الذي شرف بشرف موضوعه، حيث ازدوج فيه العقل والسمع، واصطحب فيه الرأي والشرع.

قال⁽²⁾ الإمام الشاطبي⁽³⁾: «فلاستدلال بالمنقولات لابد فيه من النظر، كما أن الرأي لا يعتبر شرعا إلا إذا استند إلى النقل».

(1) انظر فتح الباري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه، حديث رقم: 5027.

(2) انظر الموافقات: 43/3.

(3) هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المالكي، المشهور بالشاطبي، أبو إسحاق، كانت وفاته رحمه الله سنة تسعين وسبعمائة. (انظر: إيضاح المكنون: 127/2، والأعلام: 71/1).

وعلم التفسير من العلوم التي يجب على الأمة تعلمها، إذ به تفتح الكنوز والذخائر التي ضمنها الحق سبحانه وتعالى كتابه، فمهما بالغ الناس في ترديد ألفاظه لا يمكنهم الوصول إلى مقاصده إلا بهذا العلم الجليل القدر، فتدبر القرآن الكريم بدون فهم معانيه غير ممكن، وفهم معانيه إنما يكون بمعرفة تفسيره. قال الحق سبحانه وتعالى⁽¹⁾: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾، وقال⁽²⁾: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، وقال⁽³⁾ كذلك: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالًا﴾.

قال جلال الدين عبد الرحمن السيوطي⁽⁴⁾ في بيان الحاجة إلى التفسير: «وإنما احتيج إلى الشروح لأمر ثلاثة:

أحدها: كمال فضيلة المصنّف، فإنه لقوته العلمية يجمع المعاني الدقيقة في اللفظ الوجيز، فربما عُسّر فهم مراده، فقُصِد بالشرح ظهور تلك المعاني الخفية، ومن هنا كان شرح بعض الأئمة تصنيفه أدل على المراد من شرح غيره له.

وثانيها: إغفاله بعض تتمات المسألة، أو شروط لها، اعتماداً على وضوحها، أو لأنها من علم آخر فيحتاج الشارح لبيان المحذوف ومراتبه.

وثالثها: احتمال اللفظ لمعان كما في المجاز والاشتراك، ودلالة الالتزام، فيحتاج الشارح إلى بيان غرض المصنّف وترجيحه، وقد يقع في التصانيف ما لا يخلو عنه بشر من السهو والغلط، أو تكرار الشيء أو حذف المبهم وغير ذلك، فيحتاج الشارح للتنبيه على ذلك.

(1) الآية: 81 من سورة النساء.

(2) الآية: 28 من سورة ص.

(3) الآية: 25 من سورة محمد.

(4) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضير، جلال الدين، إمام حافظ مؤرخ أديب، كانت ولادته رحمه الله سنة 849هـ ووفاته سنة 911هـ. (انظر الكواكب السائرة: 1/226، والأعلام: 302-301).

إذا تقرر هذا فنقول: إن القرآن إنما نزل بلسان عربي في زمن أفصح العرب، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه، أما دقائق باطنه فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر، مع سؤالهم النبي ﷺ في الأكثر، كسؤالهم لما نزل قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾⁽¹⁾، فقالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟! ففسره ﷺ؛ واستدل عليه بقوله: ﴿إِنَّ الشَّرَّ لَظُلْمٍ عَظِيمٍ﴾⁽²⁾، وكسؤال عائشة⁽³⁾ عن الحساب اليسير، فقال: «ذلك العرض»⁽⁴⁾، وكقصة⁽⁵⁾ عدي بن حاتم⁽⁶⁾ في الخيط الأبيض والأسود. وغير ذلك مما سألوا عن آحاد منه؛ ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه، وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر، لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغیر تعلم، فنحن أشد الناس احتياجا إلى التفسير، ومعلوم أن تفسيره بعضه يكون من قبل بسط الألفاظ الوجيزة، وكشف معانيها، وبعضه من قبل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض⁽⁷⁾.

وبدهي أن يتضح للقارئ من خلال هذا التقديم أن العمل بتعاليم القرآن الكريم لا يكون إلا بعد الفهم والتدبر، والوقوف على ما حوى من نصح ورشد، خصوصا في واقعنا المعاصر الذي فسدت فيه ملكة البيان العربي، وابتعد فيه الناس كثيرا عن واقع العرب الخالص، فمن أراد بركة

(1) من الآية: 82 من سورة الأنعام.

(2) من الآية: 13 من سورة لقمان.

(3) انظر ترجمتها في: أسد الغابة: 7/188، والأعلام: 3/240.

(4) انظر مسند أحمد: 6/47.

(5) انظر صحيح مسلم، كتاب الصيام، الباب الثامن، حديث رقم: 1094.

(6) هو عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد، الحشرج، بن امرئ القيس، الأمير الشريفي، أبو وهب، الطائي، صاحب النبي ﷺ، ولد حاتم طيئ الذي يضرب بجوده المثل. (انظر: أسد الغابة: 3/392، والإصابة: 2/468).

(7) انظر: الإتيقان: 171-170/4.

القرآن العظمى فعليه بتدبره وتفهمه والجلوس إلى مائدته للاستفادة من هديه وآدابه، والوقوف من ثم عند أوامره ونواهيه.

وبعد الشروع في العمل، وجدت في ابن كمال المفسر نتاجا تفسيريا مهما في مادته، حيث جمع فيه الرجل آراء السابقين وأقوالهم مع مناقشات مستفيضة، وتحليل متميز، ونقد بناء. أضف إلى ذلك عددا كبيرا من التحجرات والتصديقات، مما نادى به في ما نددت

وفي هدية العارفين: «أحمد بن سليمان شمس الدين المعروف بابن كمال باشا شيخ الإسلام الرومي الحنفي، توفي سنة 940هـ»⁽¹⁾.

وفي الكواكب السائرة: «له من التصانيف تفسير لطيف حسن قريب من التمام، اخترمته المنية ولم يكمله»⁽²⁾.

وفي الفوائد البهية: «ابن كمال باشا أخذ العلم عن الرجال المشهورين»⁽³⁾.

وفي كشف الظنون: «تفسير ابن كمال باشا هو للفاضل العلامة شمس الدين أحمد بن سليمان المتوفى سنة 940هـ، بلغ فيه إلى سورة الصافات، وهو تفسير لطيف، فيه تحقيقات شريفة وتصرفات عجيبه»⁽⁴⁾.

خامسا: مدى الانجذاب الذي أحسست به تجاه هذا التفسير القيم، وأنا أمعن فيه النظر منذ الوهلة الأولى، أضف إلى هذا ما يتمتع به صاحبه من تقدير وإعجاب في عصره.

ومجمل القول إن هذا التفسير الذي أفاض فيه صاحبه من جميع الفنون، فأخرجه على هذه الصورة، مشتملا على علوم لا غنى عنها لباحث العلم، جدير بأن تظهر كنوزه، وتفتح أبوابه عن طريق تحقيقه وخدمته بما يليق بمقام صاحبه الذي تناوله بطريقة متميزة في عصره حسب ما أعتقده.

(1) انظر: هدية العارفين: 5 / 141.

(2) انظر: الكواكب السائرة: 108-2 / 107.

(3) الفوائد البهية، ص: 21.

(4) انظر: كشف الظنون: 1 / 439.

تمهيد

للإلمام بالأحوال الشخصية لأي فرد من الأفراد الذين لهم أثر فعال في ناحية من نواحي الحياة، لابد من الرجوع والإحاطة بالظروف المحيطة به، والبيئة التي ترعرع فيها، لكي نقف على أهم العوامل والمؤثرات التي تؤدي غالبا إلى النبوغ والرقى في مدارج الحياة.

وابن كمال باشا يعد من الذين برزوا في عصرهم وظهروا في أمهم بآراء وأفكار وعلوم مميزة، شهد له بذلك ما تركه من ثروة علمية لا يستهان بها في مختلف العلوم.

فالفرد مهما كان، لابد أن يتأثر بالظروف المحيطة به وبالبيئة التي عاش فيها، حيث يكون لها أثر كبير في تكيف كثير من أموره، وصقلها صقلا خاصا، فالتربية داخل الأسرة الصغيرة وداخل المدرسة، والروح العامة للأسرة الكبيرة، والأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المحيطة بالفرد كلها عوامل بالغة الأهمية في تكوين الأفراد، وفي تحديد توجهاتهم وطرائق مناهجهم.

فحري بنا، ونحن بصدد دراسة حياة علم من أعلام الفكر، وله منهج في التفكير والتأليف، أن نلقي نظرة ولو عاجلة على عصره الذي عايشه والبيئة التي أحاطت به كي يتكشف لنا في الأخير عصر ابن كمال واضحا جليا، ولكي يتم هذا، فقد تناولت حالة هذا العصر من خلال الحياة السياسية والدينية والعلمية.

الباب الأول

ابن كمال باشا زاهد
عصره وحياته

المبحث الأول: الحياة السياسية

عاش ابن كمال في الفترة ما بين منتصف القرن التاسع الهجري إلى قريب نهاية النصف الأول من القرن العاشر الهجري، وهي فترة مازالت فيها الفتوح العثمانية بالبلقان⁽¹⁾ متواصلة.

وحكم بداية هذه الفترة السلطان العثماني محمد الثاني الفاتح المولود في 26 رجب سنة 833هـ الموافق 20 أبريل سنة 1429م، وهو سابع سلاطين هذه السلالة الملوكية، حيث تولى الحكم سنة 855هـ، الموافق 1451م بالغا من العمر اثنين وعشرين سنة، ومدة سلطنته إحدى وثلاثون سنة⁽²⁾.

ولما استقرت الأمور في بداية عهده، بدأ يفكر في مواصلة الفتوح العثمانية، حيث تم له بعد سنتين فتح القسطنطينية⁽³⁾، وذلك سنة 857هـ الموافق لسنة 1453م، وكان لهذا الفتح مغزاه في العالم الإسلامي، إذ كانت القسطنطينية هي المعقل الرئيس للمسيحية طيلة ثمانية قرون، وفتحها يعد منعرجا مهما في تاريخ المسلمين، فاتخذها محمد الثاني عاصمة له بعد أن جدد بناء حصونها، فحول اسمها إلى استانبول، فبدأت جموع المسلمين تقصدها من كل مكان، وذلك للزيادة في عمرانها، ولموقعها الفريد في العالم الإسلامي.

(1) انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 130.

(2) انظر تفصيل أحداث هذه المدة في: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 160، وتاريخ الدولة العثمانية العلية، ص: 64.

(3) هي واحدة من أقدم المدن وأعرقها، واسمها اليوم استنبول. (انظر: معجم البلدان: 4/ 347).

ويذكر المؤرخون أن المسلمين كانوا قد حاصروا هذه المدينة قبل هذا الفتح إحدى عشرة مرة، سبعة منها في القرنين الأولين للإسلام، وكل ذلك لنيل وعد رسول الله ﷺ في قوله: «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»⁽¹⁾.

ثم توالى فتوحات محمد الثاني بالبلقان إثر انتصاره الكبير، فواصل الفتوح في البلاد الأوروبية، فاستولى على بلاد الصرب⁽²⁾ سنة 1458م، وعلى إمارة طرابزون⁽³⁾ بشمال شرقي الأناضول سنة 1461م، كما قضى على نفوذ البندقية⁽⁴⁾ وجنوة⁽⁵⁾ في بلاد الأناضول⁽⁶⁾ والبحر الأسود⁽⁷⁾، كما انتزع ألبانيا⁽⁸⁾ من يد البندقية سنة 1472م، وفي سنة 1426م حارب السلطان بلاد بوسنة⁽⁹⁾ لامتناع أميرها عن دفع الخراج وأسره بعد محاربة عنيفة هو وولده.

وفي يوم 4 ربيع الأول سنة 886هـ الموافق 3 مايو سنة 1481م توفي أبو الفتح السلطان محمد الثاني الغازي عن ثلاث وخمسين سنة تم خلالها مقاصد أجداده، ففتح القسطنطينية، وزاد عليها فتح مملكة طرابزون

(1) انظر: مسند أحمد: 4/235، ومستدرك الحاكم: 2/422. قال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة: 2/268، حديث رقم: 878.

(2) انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 125.

(3) مدينة حصينة في شمال الأناضول على البحر الأسود، بها ميناء متسع. (انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 160).

(4) انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 163.

(5) مدينة قديمة جدا، يقال إنها أنشئت سنة 707 ق.م.، وهي الآن تابعة لمملكة إيطاليا. (انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 162).

(6) انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 84.

(7) انظر المرجع السابق، ص: 123.

(8) انظر المرجع السابق، ص: 130.

(9) البوسنة: هي إحدى جمهوريات الاتحاد اليوغسلافي سابقا، وعاصمتها سراييفو، وأكثرية أهلها من المسلمين. (انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 130).

الرومية والصرب والبوشناق⁽¹⁾ وألبانيا... وجميع أقاليم آسيا الصغرى⁽²⁾ ولم يبق في بلاد البلقان إلا مدينة بلغراد⁽³⁾ التابعة للمجر⁽⁴⁾، وبعض جزائر تابعة للبنادقة، ودفن في المدفن المخصوص الذي أنشأه في أحد الجوامع التي أسسها في الأستانة⁽⁵⁾ «⁽⁶⁾ .

وتولى الحكم بعده ابنه بايزيد خان⁽⁷⁾ الثاني المولود سنة 851هـ موافق لسنة 1447م، لكن بعد صراع مرير مع أخيه «جم» للفرقة بينهما وصراعهما على السلطة. ولم يقتصر الأمر على هذا فقط، بل اتصفت فترة بايزيد بكمالها بعدم الاستقرار.

ففي عهده وبالضبط في سنة 1487م، نشبت الحروب بين العثمانيين وملوك مصر⁽⁸⁾ .

وفي السنين التالية نشبت عدة حروب لم تحصل منها الدولة على نتائج تذكر، حيث لم تفتح مدينة بلغراد التي كانت يتيمة بدون فتح على شاطئ نهر الدانوب⁽⁹⁾ الأيمن الفاصل بين أملاك الدولة والمجر.

(1) انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 170 .

(2) انظر المرجع السابق، ص: 114 .

(3) ومعناها: المدينة البيضاء، مدينة حصينة، وهي عاصمة مملكة الصرب الآن. (انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 155) .

(4) انظر معجم البلدان: 5/ 58 .

(5) ناحية بخراسان. (انظر معجم البلدان: 1/ 174) .

(6) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 176-177 .

(7) كانت بيعته سنة ست وثمانين وثمانمائة للهجرة. (انظر: الشقائق النعمانية، ص: 5) .

(8) انظر: معجم البلدان: 5/ 137 .

(9) انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 176-177 .

ومما زاد من هذا الصراع عصيان أولاده له، وإضرارهم نار الحروب الداخلية، وذلك أن السلطان «بايزيد الثاني» كان له ثمانية أولاد ذكور، توفي منهم خمسة في صغرهم، وبقي ثلاثة وهم: «كركود»⁽¹⁾ و«أحمد»⁽²⁾ و«سليم»⁽³⁾، فكان أولهم مشغلا بالعلوم والآداب ومجالسة العلماء، فمقته الجيش.

أما الثاني فكان محبوبا لدى الأعيان والأمراء، أما الثالث فكان محبا للحرب فأحبه الجند، ونظرا لميولاتهم المختلفة خشي والدهم وقوع الشقاق بينهم، فعين كركود واليا على إحدى الولايات البعيدة، وأحمد على أماسيا⁽⁴⁾ وسليما⁽⁵⁾ على طرابزون، فلم يرض سليم بهذا التعيين، فعصى والده جهارا، وسار بجيش جمعه من قبائل التتر⁽⁶⁾ إلى بلاد الروملي⁽⁷⁾، فأرسل له والده جيشا لإرهابه، فلما أصر ابنه على المحاربة قبل تعيينه بأوروبا حقنا للدماء، ثم صار سليم إلى أدرنة⁽⁸⁾، وأعلن نفسه سلطانا عليها، فأرسل والده إليه من هزمه، وألجأه إلى الفرار ببلاد القرن⁽⁹⁾.

(1) انظر: المرجع السابق، ص: 96.

(2) انظر: المرجع السابق، ص: 96.

(3) انظر: المرجع السابق، ص: 196.

(4) انظر: المرجع السابق، ص: 148.

(5) انظر تاريخ الدول العلية العثمانية، ص: 176-177.

(6) انظر: منهاج السنة النبوية: 5/ 155.

(7) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 130.

(8) هي المدينة الثانية من مدن تركيا، تبعد عن العاصمة بمائة وستين كيلومترا. (انظر دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي: 1/ 119).

(9) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 198.

وأرسل جيشا آخر لمحاربة كاركود بآسيا، فهزمه أيضا، فعفا بايزيد على ابنه سليم بناء على إلحاح الانكشارية⁽¹⁾ لتعلقهم به وإعادة به إلى ولاية سمندرية⁽²⁾، وفي أثناء توجه سليم إليها قابله الانكشارية، وأتوا به إلى القسطنطينية، باحتفال زائد، فساروا به إلى السلطان وطلبوا منه التنازل عن الملك لولده المذكور، فاستقال يوم 8 صفر سنة 918هـ موافق 25 أبريل سنة 1512م.

ولما تولى سليم السلطنة استطاع أن يصل بالدولة إلى أوج عظمتها، حيث بسط سيطرة الدولة العثمانية على الشرق العربي، كما انتصر على «قانسوه الغوري»⁽³⁾ سلطان المماليك في معركة «مرج دابق»⁽⁴⁾ سنة 1516م، واحتل الشام⁽⁵⁾ وبعد سنة أخذ في احتلال القاهرة⁽⁶⁾ سنة 1517م، فقضى على دولة المماليك.

وفي سنة ست وعشرين وتسعمائة توفي السلطان سليم، فقال المؤرخون: إن مدة حكمه تشبه كثيرا مدة حكم جده محمد الفاتح، فتولى السلطنة بعده سليمان خان الأول القانوني⁽⁷⁾ الذي بلغت الدولة العثمانية في عهده أوج عظمتها، حيث أدى دورا كبيرا في السياسة الأوروبية، فتوسع شمالا من جهة المجر حيث دشن عهده باحتلال بلغراد

(1) انظر تاريخ العالم الحديث، ص: 17.

(2) ومعناها: القديس أندريا، تبعد خمسة وأربعين كيلومترا عن بلغراد عاصمة الصرب. (انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 155).

(3) قانسوه بن عبد الله الظاهري أبو النصر: جركسي الأصل، بويغ بالسلطنة سنة خمس وتسعمائة، لكن السلطان سليم غلبه قهرا، فمات. (انظر: الكواكب السائرة: 1/ 294، والأعلام: 6/ 23).

(4) قرية قرب حلب. (انظر: معجم البلدان: 2/ 416).

(5) انظر: معجم البلدان: 3/ 311.

(6) انظر: المصدر السابق: 4/ 301.

(7) ولد غرة شعبان سنة 900هـ موافق 27 أبريل سنة 1495م. (انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 198).

سنة 1521م، وأتبعها بجزيرة «رودس»⁽¹⁾ سنة 1522م، كما عرف عهده بمرونة دبلوماسية في تعزيز الخطط خاصة مع الدول الأوروبية، كما عرف هذا العهد بتأسيس أسطول قوي تم من خلاله شن حرب بحرية على إسبانيا⁽²⁾، وطردها من شواطئ المغرب⁽³⁾، وبالجملية فقد بلغت الدولة العثمانية أعلى درجة من السمعة في عهد سليمان القانوني.

وفي أوائل شهر سبتمبر اشتد مرض السلطان، وتوفي في 20 صفر سنة 974هـ الموافق 5 سبتمبر سنة 1566م، عن أربع وسبعين سنة، وكانت مدة ملكه ثمانية وأربعين قضاها في توسيع نطاق الدولة وإعلاء شأنها. هذا ويمكن أن أقول: إن ابن كمال شارك في معظم أحداث هذه المدة للدولة العثمانية، فقد كان مفتي عاصمتها، ومرشد جنودها، بل كان له دور مهم في تسيير الأمور المالية لسلطنة مصر، حيث عهد إليه السلطان سليم بتنظيم الشؤون المالية لمصر.

(1) هي مدينة قديمة بجنوب بلاد إيطاليا، شهيرة باستخراج زيت الزيتون، وسكانها قليلون، وامتلكها العرب مدة. (انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 176).

(2) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 196.

(3) انظر: معجم البلدان: 5/ 161. والمقصود بالمغرب: تونس والجزائر، فقد احتلت إسبانيا وهران، والجزائر العاصمة الخ. أما المغرب الأقصى فلم تدخله الجيوش العثمانية، باستثناء بعض المحاولات التي باءت كلها بالفشل.

المبحث الثاني: الحياة الدينية

للدين مقام أول في حياة الدولة العثمانية، إذ هنالك سلطة أخرى لها وزنها الكبير في البلاط العثماني، وفي المجتمع عامة هي التي تتمثل في الهيئة الدينية، ومن مسؤوليات هذه الهيئة:

- القضاء الذي يرأسه قاضي العسكر بمساعدة قاضيين، وسلطة القضاء تشمل القضاء العسكري والمدني على السواء، ويأتي في الترتيب بعد قضاة الجيش، العلماء الذين تولوا القضاء في العاصمة والخواضر الكبرى ومستندهم في أحكامهم الشريعة الإسلامية.

- الإفتاء: وهو عملية تبحث في تحديد موقف الشريعة الإسلامية من القضايا التي تجدد على الأمة. وكان مفتي الأستانة يحمل مركزا مهما في الدولة، حيث لقب بشيخ الإسلام، ويعين بقية القضاة في مهامهم.

- الأوقاف: وتعني استثمار الأملاك والعقارات المحبسة لأغراض دينية.

- التعليم: حيث أنيطت مهمة التعليم لمدارس دينية مشهورة بناها السلاطين في أقاليم مختلفة، فكان التعليم مرتبا حسب ثلاثة أطوار:

أولي: حيث بلغ عدد تلاميذه ما يقرب من تسعين ألف تلميذ في ذلك العهد.

ومتوسط وعال: وفي هذا المستوى يتعمق الطلبة في دراسة الفقه والحديث، ويمتحنون في آخر مطافهم أمام المفتي.

وعموماً، فإن الحياة الدينية شهدت نشاطاً مستمراً برز في اهتمام السلاطين بتشييد المساجد، وإنشاء المدارس الشرعية واستقلال القضاء.

ففي عهد السلطان محمد الفاتح تحولت كنيسة «أيا صوفيا» إلى مسجد جامع للمسلمين، ومازال هذا المسجد يؤدي دوره إلى الآن، بل يعد من أعظم مساجد المسلمين في بلاد تركيا⁽¹⁾.

وفي عهد السلطان سليم حولت أجمل الكنائس إلى مساجد، ويذكر المؤرخون⁽²⁾ أن أعظم آثاره العمرانية المسجد الذي شيده باسمه، وذكر المؤرخون أنه لما فتح القاهرة أخذ في زيارة جوامع المدينة، كما أمر ببناء جامع كبير وهو جامع سليمان.

وفي عهد السلطان سليمان توسع أمر بناء المساجد حيث بنى في عهده مسجد السلمانية⁽³⁾ في العاصمة، ومازال هذا المسجد قائماً بدوره إلى الآن. وفي عهده عُدت وظيفة المفتي أكبر الوظائف العلمية حين خضعت لها الهيئات القضائية والدينية كلها.

(1) انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 36.

(2) انظر الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، ص: 50.

(3) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 48.

المبحث الثالث: الحياة العلمية وأثرها في تكوينه

ذكرت فيما سبق أن السلاطين العثمانيين التفوا حول طبقة العلماء، ورفعوا من شأنهم فولوهم كثيرا من المناصب والوظائف الدينية، فنجحت سياستهم وأصبحت دولتهم قمة للعالم الإسلامي علميا وسياسيا، أضف إلى هذا شغف بعض سلاطينهم بالعلم واشتغالهم به.

فالعلماء هم الذين تولوا تربية جل السلاطين، وقاموا بتعليمهم اللغة العربية والعلوم الشرعية، فلم ينس لهم هذا الفضل، ففي هذا العهد كثرت المدارس في كل من مصر والشام حتى بلغت المئات وانتشرت في كثير من المدن كدمشق⁽¹⁾ وحلب⁽²⁾ وحمص⁽³⁾ والقدس⁽⁴⁾، فضلا عن المدارس الموجودة في الحرمين الشريفين⁽⁵⁾، فكان الاهتمام يولى أكثر للعلوم الدينية كالتفسير والحديث والفقه بمذاهبه الأربعة.

ومما يدل على اهتمام السلاطين بالعلم والعلماء بناؤهم لعدد كبير من المدارس، واهتمامهم بسكن طلاب العلم، وإجراؤهم الرواتب عليهم مع حبس الأوقاف عليها، ليضمنوا استمرارها في أداء رسالتها بعد التحاقهم بالرفيق الأعلى.

وهذا الاهتمام كان له أثر طيب في النهضة العلمية وكثرة العلماء، كما كان له أثر في التأليف والإنتاج، فهذه كتب التراجم

(1) هي دمشق الشام، انظر معجم البلدان : 2 / 463.

(2) مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات . (انظر : معجم البلدان : 2 / 282).

(3) بلد مشهور قديم، وهو بين دمشق وحلب في نصف الطريق . (انظر معجم البلدان : 2 / 302).

(4) انظر : معجم البلدان : 4 / 311.

(5) انظر : المصدر السابق : 2 / 243.

تذكر لنا مناقب كثير من علماء هذه الدولة الذين تألقوا ولمعوا، ففي الشقائق النعمانية يذكر لنا المؤلف ما يزيد على أربعمئة ترجمة لهؤلاء العلماء الفطاحل. كما ذكر لنا الدافع إلى تدوينه لهذا الكتاب حيث قال⁽¹⁾:

«لقد دون المؤرخون مناقب العلماء والأعيان مما ثبت بالنقل أو أثبتته العيان، ولم يلتفت أحد إلى جمع أخبار علماء هذه البلاد، وكاد لا يبقى اسمهم ورسمهم على ألسن كل حاضر وباد، ولما شاهد هذا الحال بعض أرباب الفضل والكمال، التمس مني أن أجمع مناقب علماء الروم⁽²⁾، فأجبت إلى ملتمسه، مستعينا بالملك الحي القيوم».

وابن كمال الذي أنا بصدد تحقيق أحد مؤلفاته كان من علماء هذا العصر مشاركاً في نهضته العلمية مشغلاً بالعلم، تجلّى ذلك في كثرة مؤلفاته وتنوعها مما أكد سعة أفقه واطلاعه، وسيؤكد هذا أكثر عند إعمال النظر في تفسيره، مما مكن له في نفوس العلماء فاعترفوا له بالفضل والمكانة.

بل إن السلاطين أنفسهم يقدمون العالم على الأمير، وهو سبب من الأسباب المهمة التي أدت بـابن كمال إلى أن يشتغل بالعلم وتفضيله على غيره، يقول عن نفسه: «إنه كان مع السلطان بايزيد خان في سفر، وكان الوزير وقتئذ إبراهيم باشا بن خليل باشا⁽³⁾، وكان في ذلك الزمان الأمير أحمد بن أورنوس⁽⁴⁾، وكان لا يتقدم عليه أحد من الأمراء، لعظم شأنه، فكنت واقفاً على قدمي قدام الوزير وعنده الأمير المذكور جالسا،

(1) انظر الشقائق النعمانية لطاشكبري زاده، ص: 5.

(2) انظر: معجم البلدان: 3/ 97.

(3) انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 215-230، وهو وزير سليمان القانوني.

(4) انظر الشقائق النعمانية، ص: 5.

إذ جاء من العلماء رجل رث الهيئة، دنيء اللباس، فجلس فوق الأمير المذكور، ولم يمنعه أحد عن ذلك، فتحيرت في هذا الأمر، وقلت لبعض رفقائي من هذا الذي تصدر على مثل هذا الأمير؟ قال: هو رجل عالم مدرس يقال له المولى لطفي⁽¹⁾ قلت: كم وظيفته؟ قال: ثلاثون درهما. قلت: فكيف يتصدر على هذا الأمير ووظيفته هذا القدر؟ فقال رفيقي: العلماء معظمون لعلمهم، فإنه لو تأخر لم يرض بذلك الأمير ولا الوزير. قال -أي ابن كمال- فتفكرت في نفسي فوجدت أنني لا أبلغ رتبة الأمير المذكورة في الإمارة، وأنني لو اشتغلت بالعلم يمكن أن أبلغ رتبة هذا العالم، فنويت أن أشتغل بالعلم الشريف، فلما رجعنا من السفر وصلت إلى خدمة المولى المذكور⁽²⁾.

هذه صورة عامة للحياة السياسية والدينية والعلمية للعصر الذي عاش فيه ابن كمال المفسر، أرجو أن تكون نبذة كافية في إلقاء بعض الضوء على الظروف المحيطة بشيخ العلماء ابن كمال، ولا يخفى أن لها تأثيراً على اتجاهه ونهجه في التأليف.

(1) انظر ترجمته في الطبقات السنية، ص: 22.

(2) انظر: الشقائق النعمانية، ص: 226، والكواكب السائرة: 2/ 107.



الفصل الثاني

التعريف بابن كمال باشا رحمه

✓ المبحث الأول: اسمه ونسبه ونشأته ووفاته

✓ المبحث الثاني: تعلمه وشيوخه وتلاميذه

✓ المبحث الثالث: مكانته العلمية ومؤلفاته

✓ المبحث الرابع: مذهبه وعقيدته

المبحث الأول: اسمه ونسبه ونشأته ووفاته

أولاً: اسمه ونسبه ونشأته

هو أحمد بن سليمان بن كمال باشا، شمس الدين⁽¹⁾ : قاض من القضاة، وعالم من العلماء بالحديث ورجاله، تركي الأصل، مستعرب، ولد سنة 873هـ ونشأ في بيت علم وفضل ومكانة عالية، فجدّه لأبيه «كمال باشا» من أمراء الدولة العثمانية، كان ذا حظوة لدى سلاطينها، حيث كان مربياً لبازيد الثاني، وصار بعدها «نشانجي»⁽²⁾ الديوان السلطاني، وكان عالماً، ومن تلاميذه التفتازاني⁽³⁾، والشريف الجرجاني⁽⁴⁾، وكذلك كان والده سليمان بك بن كمال باشا الذي كان من قادة عساكر السلطان محمد الثاني الفاتح وحامل اللواء في فتح القسطنطينية سنة 857هـ موافق لسنة 1453م، وصار بعد الفتح وكيلاً لجند السلطان.

في كنف هذه الأسرة المشهورة نشأ ابن كمال باشا، وقد حُبب إليه العلم والترقي، ونهل المعارف ليلاً ونهاراً إلى أن صار مدرساً بمدرسة

(1) انظر ترجمته في: الشقائق النعمانية، ص: 266-267-268، والطبقات السنية: 409/1، والكواكب السائرة: 107/2، والفوائد البهية، ص: 21، وشذرات الذهب: 238/8، وهدية العارفين: 141/5، وعقود الجواهر، ص: 217، ومعجم المؤلفين: 238/1، والأعلام: 133/1، وكشف الظنون: 41/1.

(2) أي الذي يختم المراسيم والمكاتيب.

(3) انظر الأعلام: 8/13.

(4) هو علي بن محمد بن علي الجرجاني الحنفي، المعروف بالسيد الشريف، له مشاركة في أنواع العلوم، توفي رحمه الله بشيراز سنة ست عشرة وثمانمائة للهجرة. (انظر: بغية الوعاة، ص: 351، والأعلام: 5/159).

علي بك⁽¹⁾ في أدرنة، فطلب منه السلطان بايزيد الثاني أن يكتب تاريخ العثمانيين⁽²⁾.

وفي سنة 917هـ ولي التدريس بمدرسة أسكوب في اليونان.
وفي سنة 922هـ صار قاضيا لأدرنة، وفي السنة نفسها جعله السلطان سليم الأول قاضي عسكر الأناضول.
وفي سنة 932هـ أصبح مفتي الخلافة العلمية العثمانية.

فنشأة ابن كمال عموما هي نشأة دينية عسكرية في ظل أسرة مرموقة ومشهورة، وجده من أمراء الدولة العثمانية، ووالده من ضباطها في الجيش، فكانت لهذه العوامل آثار مهمة في صفاته، فساعدته كثيرا في حياته العسكرية والعلمية، حتى بلغ ما بلغ.

قال عنه صاحب الطبقات السنية: «الإمام العالم العلامة، الرُّحلة، الفهامة، أوحده عصره وجمال أهل مصره، من لم يخلف بعده مثله، ولم تر العيون من جمع كماله وفضله»⁽³⁾.

وقال عنه صاحب⁽⁴⁾ الشقائق النعمانية: «كان صاحب أخلاق حميدة حسنة، وأدب تام، وعقل وافر، وتقرير حسن ملخص، وله تحرير مقبول جدا لإيجازه مع وضوح دلالاته على المراد»⁽⁵⁾.

(1) انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 339.

(2) ألفه ابن كمال تحت عنوان: تاريخ آل عثمان. (انظر الأعلام: 1/ 133).

(3) انظر الطبقات السنية للتميمي: 1/ 409.

(4) هو طاشكيري زاده: أحمد بن مصطفى بن خليل، أبو الخير: عصام الدين، تركي الأصل، توفي سنة ثمان وستين وتسعمائة للهجرة.

(5) انظر الشقائق النعمانية، ص: 227.

وقال عنه كذلك: « كان في العلم جبلا راسخا، وطودا شامخا، وكان من مفردات الدنيا، ومنبعا للمعارف العليا »⁽¹⁾.

ثانيا: وفاته

كانت وفاته رحمه الله يوم الجمعة الثاني من شوال سنة 940هـ موافق سنة 1534م في عهد سليمان القانوني، ودفن في باب أدرنة بالآستانة، وقيل في تاريخ موته: ارتحل العلم بالكمال، وكتب على قبره: « هذا مقام أحمد »، وعلى أكفانه: « هي آخر اللباس »، وكان يقول رحمه الله وهو يحتضر: « يا أحد، نجنا مما نخاف »⁽²⁾، وصلي عليه صلاة الغائب بمسجد دمشق⁽³⁾.

(1) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(2) انظر: عقود الجواهر، ص: 218.

(3) انظر الكواكب السائرة: 2 / 108.

المبحث الثاني: تعلمه وشيوخه وتلاميذه

أولاً: تعلمه

تذكر كتب التراجم أن ابن كمال باشا بدأ يطلب العلم منذ صباه من علماء أجلاء، فبدأ أولاً بسماع الحديث النبوي الشريف حتى قيل عنه: إنه من العلماء بالحديث ورجاله⁽¹⁾، ثم تابع تعليمه متنقلاً بين العلماء للاستماع إليهم والأخذ منهم، وحيث إنه لا بد لطالب العلم من الارتحال والتجوال في الآفاق والالتقاء بشيوخ العلم المنتشرين في البلاد الإسلامية، فقد بدأ ابن كمال رحلته العلمية إلى القاهرة سنة 923هـ كعبة العلماء ومقصد طلبة العلم، حيث استغل ابن كمال وجوده بها فأخذ من علمائها وناظرهم وحاورهم، يقول صاحب⁽²⁾ الطبقات السنية عن هذه الرحلة: «فأجاز له بعض علماء الحديث بها، وأفاد واستفاد، وحصل بها علو الإسناد، وشهد له علماءها بالفضائل الجمة والإتقان في سائر العلوم المهمة».

وكان في رحلته هذه بصحبة السلطان سليم الذي أمره بترجمة كتاب التاريخ المعروف بالنجوم الزاهرة في أحوال مصر والقاهرة من اللغة العربية إلى اللغة التركية، فقام بهذه المهمة وهو في طريق عودته إلى القسطنطينية، فترجم في كل منزل جزءاً، ثم عرضه على السلطان سليم فأعجبه، وهكذا فعل إلى تمامه⁽³⁾.

(1) انظر: الأعلام: 1/ 133.

(2) انظر: الطبقات السنية: 1/ 356.

(3) انظر: كشف الظنون: 2/ 1932.

فمن خلال هذا كله يمكن أن أقول إن ابن كمال رحمه الله ما انقطع قط عن تحصيل العلم منذ صباه، إلا أنه في فترة من الفترات زرع الله في قلبه أن يتفرغ لهذه المهمة، فكان السبب تلك القصة⁽¹⁾ الطريفة التي لفتت أنظار المترجمين له ودعتهم إلى الإعجاب والتنويه به، فأصبحت هذه القصة السبب الرئيس الذي أدى به إلى أن يتفرغ كلية إلى العلم، وترك ما دونه من الأمور سواء أكانت سياسية أم عسكرية، فتلقى علمه منذ صباه من نخبة من فطاحل العلماء وكبار الشيوخ، وهو ما سأتناوله في المبحث التالي.

ثانياً: شيوخه

التقى ابن كمال باشا في بلده وفي رحلاته مع كثير من أهل العلم والأدب، وأئمة الحديث والفقه، وسمع منهم، وتخرج على أيديهم، لأنه كما قيل عنه كان يواصل التحصيل صغيراً، وتفرغ إليه كبيراً، وهذا شأن كل عالم مخلص يواصل تحصيله العلمي ولا يشغله عنه شاغل مهما كلف الأمر.

غير أن كتب التراجم لم تذكر مع الأسف الشديد شيوخه الذين درس عليهم في مرحلة ما قبل تفرغه للعلم، أما بعدها فقد تتلمذ على جماعة من العلماء الأفاضل والشيوخ المشهورين في عصره عرفوا بمواهبهم ومعارفهم في شتى الميادين، ومن هؤلاء الذين كان لهم أثرهم البالغ والفضل الكبير على ابن كمال باشا زاده:

(1) انظر هذه القصة في الشقائق النعمانية، ص: 226، والكواكب السائرة: 2/ 107، وعقود الجواهر، ص: 217، وقد سبقت الإشارة إليها في الباب الأول: المبحث الأول من الفصل الأول من هذا البحث.

1- المولى مصطفى مصلح الدين القسطلاني: العالم الماهر في العلوم كلها، حيث روي عنه أنه قال: «لو أعطوني المدارس الثمان كلها، لقدرت أن أدرس فيها»، كانت وفاته رحمه الله سنة إحدى وتسعمائة⁽¹⁾.

2- المولى لطف الله بن حسن التوقاتي الرومي الحنفي: فاضل تركي الأصل والمنشأ، تفقه بالعربية، وأقامه السلطان محمد بن عثمان أمينا على خزانة الكتب، كما تولى التدريس بمعظم مدارس الدولة العثمانية. ويروى أنه لما بلغ في العلم منزلة رفيعة كثر حساده، فنسبوه إلى الإلحاد، فحكموا عليه بالزندقة، فقتل سنة أربع وتسعمائة⁽²⁾.

3- المولى خطيب زاده: محيي الدين محمد، المدرس بالقسطنطينية، المشهور بطلاقة اللسان، كانت وفاته رحمه الله سنة إحدى وتسعمائة⁽³⁾.

4- المولى معروف زاده: سنان الدين، يوسف بن خضر بن جلال الدين الرومي الفقيه الحنفي الغزير الاطلاع على العلوم العقلية، من أهل الآستانة، قيل عنه: إن السلطان محمد خان العثماني استوزره سنة 875هـ، ثم غضب عليه وعزله وحبسه، واحتج العلماء وهددوا بإحراق كتبهم، فأطلقه ثم عينه في إحدى المدارس العثمانية، وبعد وفاة السلطان محمد خان أعطاه بايزيد خان مدرسة الحديث بأدرنة، فتوفي بعدها رحمه الله سنة 891هـ⁽⁴⁾.

(1) انظر ترجمته في الشقائق النعمانية، ص: 87، والفوائد البهية، ص: 21.

(2) انظر ترجمته في الكواكب السائرة: 1/ 301، والشقائق النعمانية، ص: 169، والأعلام: 5/ 242.

(3) انظر ترجمته في الفوائد البهية، ص: 204.

(4) انظر ترجمته في الفوائد البهية، ص: 228، والأعلام: 8/ 228.

هؤلاء إذا هم أهم وأشهر العلماء الذين ذكرتهم كتب التراجم، ولا يراودني شك أن هذا العالم الجليل قد تلقى عن الكثير، إلا أن التاريخ لم يحفظ لنا أسماءهم.

ثالثاً: تلاميذه

إن تلاميذ ابن كمال الذين جلسوا إليه ودونوا مصنفاته كثيرون لكثرة المدارس التي قام فيها ابن كمال بالتدريس لمدة لا تقل عن ثلاثين سنة، سواء أكانت هذه المدارس مدارس رسمية أو ما قام به من دروس خاصة، مما يدل على أن عددا كبيرا قد انتفع بعلمه، مما زاد من شرف هذا العالم على مدى الأيام، فعدد التلاميذ سيصعب بلا شك تعدادهم، وما عساي إلا أن أذكر بعضهم على سبيل المثال لا الحصر ليعلم القارئ أن هذا العالم تخرج على يديه تلاميذ اشتهروا فيما بعد وأصبحوا علماء أفذاذا.

1- محمد بن محمد الحنفي: وهو أحد المدرسين في المدارس الثمان بالقسطنطينية، كانت وفاته رحمه الله وهو قاض بأدرنة سنة إحدى وأربعين وتسعمائة⁽¹⁾، روي عنه أنه كان عالي الهمة رفيع القدر، له أدب ووقار وحظ وافر من العلوم المتداولة⁽²⁾.

2- هداية الله بن بار علي عجمي، المتوفى سنة تسع وأربعين وتسعمائة⁽³⁾.

3- محمد بن عبد الله الشهير بمحمد بك، رغب في العلم وترك طريق الإمارة، وقرأ على جماعة من العلماء، ثم خدم ابن كمال باشا

(1) انظر ترجمته في الكواكب السائرة: 15/2.

(2) انظر المصدر نفسه.

(3) انظر ترجمته في الشقائق النعمانية، ص: 297.

وصار معيدا لدرسه، ثم درس بمدرسة الوزير مراد باشا بالقسطنطينية، ثم ببعض المدارس، ثم بإحدى المدرستين المتجاورتين بأدرنة، ثم ولي قضاء دمشق سنة ست وأربعين وتسعمائة، وبعدها ولي قضاء مصر. أما وفاته فكانت رحمه الله تعالى سنة خمسين وتسعمائة للهجرة⁽¹⁾.

4- عبد الكريم الويزوي، العلامة المشهور صاحب الفضل، المتوفى سنة إحدى وستين وتسعمائة⁽²⁾.

5- درويش محمد المتوفى سنة اثنتين وستين وتسعمائة⁽³⁾.

6- محمد بن عبد القادر، محيي الدين المشهور بالمعلول، والمتوفى سنة ثلاث وستين وتسعمائة، روي عنه أنه كان عالما نظارا فارسا في البحث، إذا حضر كان هو المشار إليه في المشكلات، بلغ رتبة الفضل والكمال، واشتهر بين أعيان الطلبة⁽⁴⁾.

7- محيي الدين، محمد بن حسام الدين، المعروف كذلك بفضله وسعة علمه، وأخذه عن كثير من الشيوخ، كانت وفاته رحمه الله سنة خمس وستين وتسعمائة⁽⁵⁾.

8- محمد بن عبد الوهاب، العالم العلامة المشهور في زمانه، وشيخ محمود بن سليمان الكفوي⁽⁶⁾.

(1) انظر ترجمته في الشقائق النعمانية، ص: 294، والكواكب السائرة: 38/2.

(2) انظر ترجمته في الشقائق النعمانية، ص: 302.

(3) انظر ترجمته في المصدر نفسه، ص: 307.

(4) انظر الفوائد البهية، ص: 178.

(5) انظر ترجمته في الشقائق النعمانية، ص: 297.

(6) انظر الفوائد البهية، ص: 4.

9- أبو السعود بن محيي الدين محمد العمادي، الشيخ الكبير والعالم النحرير، لا في العجم له مثل، ولا في العرب له نظير، انتهت إليه رئاسة الحنفية في زمانه، وبقي مدة العمر في الجلالة وعلو الشأن، وكان يجتهد في بعض المسائل ويخرج ويرجح بعض الدلائل، وله في الأصول والفروع قوة كاملة وقدرة شاملة وفضيلة تامة وإحاطة عامة، روي أن أباه علمه الفنون الأدبية حتى برع في حياته وأخذ العلم عن كثير منهم العالم العلامة ابن كمال باشا.

وأبو السعود غني عن التعريف، فهو صاحب التفسير المعروف بـ «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، كانت وفاته رحمه الله سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة⁽¹⁾.

10- مصلح الدين مصطفى المنتشوري المتوفى سنة أربع وستين وتسعمائة.

هذه بعجالة شديدة نبذة عن بعض تلاميذ ابن كمال باشا زاده، وما ذكرته ليس إحصاء تاماً، وإنما هو عرض لبعض النماذج خلال مدة تزيد على ثلاثين سنة، وهي المدة التي تنقل فيها ابن كمال بين مدرسة وأخرى.

(1) انظر ترجمته في الفوائد البهية، ص: 81.

المبحث الثالث: مكانته العلمية ومؤلفاته

أولاً: مكانته العلمية

كان ابن كمال باشا زاده علامة في كل فن، إماماً قدوة في كل علم، شهد له معاصروه بالفضل، فاستفاد منه رجال أفاضل، كما كشفت مؤلفاته عن شخصيته العلمية المرموقة، فاعتبر بحق من أكابر العلماء العثمانيين، ومصنفاته في الآداب واللغة والدين، والتاريخ، والشعر، فضلاً عن مئات الرسائل والمقالات جعلت علماء عصره يثنون عليه بما هو أهل له، قال عنه طاش كبرى زاده⁽¹⁾: «كان يشغل بالعلم ليلاً ونهاراً، ولم يفتر قلمه، وصنف رسائل كثيرة في المباحث المهمة والغامضة... وكان صاحب أخلاق حميدة حسنة، وأدب تام، وعقل وافر، وتقرير حسن ملخص، وله تحرير مقبول جداً لإيجازه مع وضوح دلالاته على المراد.

وبالجملة أفضى -رحمه الله تعالى- ذكر السلف بين الناس، وأحيا رباع العلم بعد الاندراش، وكان في العلم جبلاً راسخاً وطوداً شامخاً، وكان من مفردات الدنيا، ومنبعا للمعارف العليا، روح الله تعالى روحه، وزاد في غرف الجنان فتوحه».

أما التميمي⁽²⁾ فقال في وصفه: «كان إماماً بارعاً في التفسير والفقه والحديث والنحو والتصريف والمعاني والبيان والكلام والمنطق

(1) انظر الشقائق النعمانية، ص: 227.

(2) هو تقي الدين بن عبد القادر التميمي الغزي الحنفي. (انظر: معجم المؤلفين: 91/3).

والأصول، وغير ذلك، بحيث إنه تفرد في إتقان كل علم من هذه العلوم،
وقلما يوجد فن من الفنون إلا وله مصنف فيه أو مصنفات»⁽¹⁾.

وعده التميمي شبيها بجلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911هـ
عند العرب، فقال: «كان رحمه الله في كثرة التأليف، وسرعة التصنيف،
ووسع الاطلاع، والإحاطة بكثير من العلوم في الديار الرومية نظيرا للحافظ
جلال الدين السيوطي في الديار المصرية، وعندني أن ابن كمال أدق نظرا
من السيوطي، وأحسن فهما، وأكثر تصرفا، على أنهما كانا جمال ذلك
العصر، وفخر ذلك الدهر، ولم يخلف أحد منهما بعده مثله»⁽²⁾.

ثانيا: مؤلفاته

اشتهر ابن كمال بتصانيفه الكثيرة في مختلف علوم المعرفة: في
الفقه، والأصول، والتفسير، والحديث، والفرائض، والعربية، ما بين
كتاب في مجلدات، ورسالة في ورقات، وهي كلها بدون استثناء غزيرة
علما وفائدة، وبلغة سهلة، وعبارة جامعة مانعة، بل مع استيفاء كامل
للبحث.

ومن له أدنى اطلاع على ما كتبه ابن كمال سيعترف للرجل أن
تصانيفه تستحق الدراسة والتحقيق لغزارة علمه، واستيعابه لعلوم
مهمة، فلا غرو إذا أن يرحب بها أهل عصره، وتنال من الشهرة حظا
وافرا، أضف إلى ذلك ما امتاز به الرجل من إجادة تامة للغة العربية
والتركية والفارسية، ليقف في الأخير على أسرار هذه اللغات مجتمعة،
ويؤلف في فقهها المقارن، فضلا عن القيمة العلمية التي امتازت بها
مؤلفاته، حيث إن كتب التراجم تناولت حرص طلاب العلم على

(1) الطبقات السنية: 1/ 409.

(2) انظر الطبقات السنية: 1/ 412.

اقتنائها، وتملكها، بل التفاخر بها، قال التميمي: « وكل مؤلفاته مقبولة، مرغوب فيها، متنافس في تحصيلها، متفاخر بتملك الأكثر منها، وهي لذلك مستحقة، وبه جدرة »⁽¹⁾.

أما ما يرتبط بعدد هذه المؤلفات، فقد اختلفت كتب التراجم في عددها، فقليل: مائة⁽²⁾، وقيل: ثلاثمائة⁽³⁾، وقيل غير هذا. بل إن طاش كبرى زاده لما ذكر بعض مؤلفات ابن كمال قال: « هذا ما شاع بين الناس، وأما ما بقي في المسودة فأكثر مما ذكر »⁽⁴⁾.

وسأتحدث عن هذه المؤلفات، مبينا إن شاء الله تعالى المخطوط منها والمطبوع، ومكان وجودها، معتمدا في ذلك على بعض هذه المؤلفات نفسها، وعلى كتب الفهارس والتراجم، وقد رتبت هذه المؤلفات حسب حروف الهجاء، وهي:

- 1- أربعون في الحديث⁽⁵⁾.
- 2- أسرار النحو.
- 3- أشكال الفرائد⁽⁶⁾.
- 4- الإصلاح والإيضاح⁽⁷⁾.
- 5- إظهار الإظهار على أشجار الأشعار في الأدب⁽⁸⁾.

(1) الطبقات السنية: 1 / 412.

(2) الشقائق النعمانية، ص: 227.

(3) الطبقات السنية: 1 / 411، والفوائد البهية، ص: 21.

(4) الشقائق النعمانية، ص: 227.

(5) كشف الظنون: 1 / 554، وهدية العارفين: 5 / 141.

(6) هدية العارفين: 5 / 141.

(7) الشقائق النعمانية، ص: 227، والكواكب السائرة: 2 / 108، وهدية العارفين: 1 / 141.

(8) هدية العارفين: 1 / 141.

- 6- إعجاز القرآن⁽¹⁾ .
- 7- أفضلية محمد ﷺ⁽²⁾ .
- 8- الآيات العشر في أحوال الآخرة والحشر⁽³⁾ .
- 9- بنكارستان (مؤلف في الفارسية)⁽⁴⁾ .
- 10- تفسير سورة الملك⁽⁵⁾ .
- 11- تفسير سورة النبأ⁽⁶⁾ .
- 12- تفسير سورة الفاتحة والفجر⁽⁷⁾ .
- 13- تواريخ آل عثمان⁽⁸⁾ (مؤلف بالتركية) .
- 14- تجريد التجريد في علم الكلام (متن وشرح)⁽⁹⁾ .
- 15- تحقيق مقال القائلين بالحال من أصحابنا وأصحاب الاعتزال⁽¹⁰⁾ .
- 16- تصحيح لفظ الزنديق وتوضيح معناه الدقيق⁽¹¹⁾ .

(1) عقود الجواهر، ص: 218 .

(2) بحث أعده الطالب عبد العزيز بن سالم بن محمد العمر، لإكمال نيل درجة الماجستير لعام 1405هـ/1985م، بإشراف عبد الله الشاذلي بكلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية .

(3) هدية العارفين: 5 / 141 .

(4) الشقائق النعمانية، ص: 227 .

(5) هدية العارفين: 5 / 141 .

(6) تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان: 2 / 669 .

(7) تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان: 2 / 669 .

(8) الشقائق النعمانية، ص: 227، والفوائد البهية، ص: 22 .

(9) الشقائق النعمانية، ص: 227، والكواكب السائرة: 2 / 108، والفوائد البهية، ص: 22 .

(10) كشف الظنون: 1 / 860 .

(11) هدية العارفين: 5 / 141 .

- 17- التعريفات ⁽¹⁾ .
- 18- التعريف والأعلام ⁽²⁾ .
- 19- تعريب الكلمة الأعجمية ⁽³⁾ .
- 20- تعلية على الغرر والدرر لملا خسرو ⁽⁴⁾ .
- 21- تعليم الأمر في تحريم الخمر ⁽⁵⁾ .
- 22- تغيير التنقيح في الأصول ⁽⁶⁾ .
- 23- تغيير المفتاح للسكاكي ⁽⁷⁾ .
- 24- تلخيص البيان في علامات مهدي آخر الزمان ⁽⁸⁾ .
- 25- التنبيه على غلط الجاهل والنبية ⁽⁹⁾ .
- 26- التوسعات ⁽¹⁰⁾ .
- 27- حاشية على شرح الطوسي للإشارات لابن سينا ⁽¹¹⁾ .

(1) كشف الظنون: 1/ 422.

(2) هدية العارفين: 5/ 141.

(3) ضبط وتحقيق محمد سواعي، دمشق، 1991.

(4) هدية العارفين: 5/ 141.

(5) نفسه: 5/ 141.

(6) الشقائق النعمانية، ص: 227، وهدية العارفين: 5/ 141، والأعلام: 1/ 133.

(7) هدية العارفين: 5/ 141.

(8) المصدر نفسه.

(9) كشف الظنون: 1/ 488.

(10) رقمها في جامعة الملك سعود: 9/ 2501، انظر: الشقائق النعمانية، ص: 227، وهدية العارفين:

5/ 141، والأعلام: 1/ 133.

(11) معجم المؤلفين: 1/ 238.

- 28- حاشية على شرح المصباح للشريف الجرجاني⁽¹⁾ .
- 29- حاشية على الكشف للزمخشري⁽²⁾ .
- 30- حاشية على التلويح للتفتازاني⁽³⁾ .
- 31- حاشية على التهافت للمولى خواجه زاده⁽⁴⁾ .
- 32- حاشية على شرح المفتاح للشريف الجرجاني⁽⁵⁾ .
- 33- حاشية على الهداية⁽⁶⁾ .
- 34- حاشية على شرح السيد الشريف للكشاف⁽⁷⁾ .
- 35- حاشية على شرح المواقف في الكلام⁽⁸⁾ .
- 36- حاشية على لوامع الأسرار شرح مطالع الأنوار لسراج الدين الأرموي⁽⁹⁾ .
- 37- حواش على أوائل تفسير البيضاوي⁽¹⁰⁾ .
- 38- دقائق الحقائق في اللغة⁽¹¹⁾ .

(1) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان: 5/ 251.

(2) الشقائق النعمانية، ص: 227.

(3) هدية العارفين: 5/ 141، والشقائق النعمانية، ص: 227.

(4) الفوائد البهية، ص: 22، والشقائق النعمانية، ص: 227.

(5) الفوائد البهية، ص: 22، والكواكب السائرة: 2/ 108.

(6) الفوائد البهية، ص: 22.

(7) هدية العارفين: 5/ 141.

(8) المصدر نفسه.

(9) هدية العارفين: 5/ 141.

(10) مخطوط مكتبة سراي، طبقو زاده برقم عام 5855.

(11) هدية العارفين: 5/ 141.

- 39- راحة الأرواح في رفع عاهة الأشباح ⁽¹⁾ .
- 40- رسائل في القضاء والقدر ⁽²⁾ .
- 41- رسالة في آداب الخلاء لقضاء الحاجة ⁽³⁾ .
- 42- رسالة في أشكال الفرائض ⁽⁴⁾ .
- 43- رسالة في إيمان أبوي الرسول ﷺ ⁽⁵⁾ .
- 44- رسالة في بيان استخلاف الجمعة ⁽⁶⁾ .
- 45- رسالة في بيان الأسلوب الحكيم ⁽⁷⁾ .
- 46- رسالة في بيان القضاء والقدر ⁽⁸⁾ .
- 47- رسالة في بيان ما إذا كان صاحب علم المعاني يشارك اللغوي في البحث عن مفردات الألفاظ ⁽⁹⁾ .
- 48- رسالة في بيان مزية اللسان الفارسية على سائل اللغات ما خلا العربية .
- 49- رسالة في تحقيق التغليب ⁽¹⁰⁾ .

(1) المصدر نفسه .

(2) تحقيق: محمد السيد الجليند . (انظر: الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل، ص: 454) .

(3) كشف الظنون: 1 / 540 .

(4) كشف الظنون: 1 / 105 ، وهدية العارفين: 5 / 141 .

(5) فهرس المكتبة الأزهرية: 1 / 198 .

(6) حاشية ابن عابدين: 1 / 750 .

(7) تحقيق الدكتور محمد بن علي الصامل، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

(8) كشف الظنون: 1 / 871 .

(9) دراسة وتحقيق الدكتور محمد حسين أبو الفتوح، كما قام بتحقيقها الدكتور حامد قنبيي .

(10) تحقيق الدكتور ناصر الرشيد .

- 50- رسالة في تحقيق معنى كاد⁽¹⁾.
- 51- رسالة في تحقيق الخواص والمزايا.
- 52- رسالة في تحقيق معنى النظم والصياغة⁽²⁾.
- 53- رسالة في التضمنين⁽³⁾.
- 54- رسالة في التعريب⁽⁴⁾.
- 55- رسالة في تقسيم المجاز⁽⁵⁾.
- 56- رسالة في تلوين الخطاب وتفصيل شعبه التي منها الالتفات⁽⁶⁾.
- 57- رسالة في التوسع⁽⁷⁾.
- 58- رسالة في الجبر والاختيار⁽⁸⁾.
- 59- رسالة في جواز الاستئجار على تعليم القرآن⁽⁹⁾.
- 60- رسالة في حد الخمر⁽¹⁰⁾.
- 61- رسالة في الخطاب⁽¹¹⁾.

(1) تحقيق الدكتور ناصر بن سعد الرشيد، مدير مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة، وذلك سنة 1401هـ الموافق 1980م.

(2) مخطوط بجامعة الملك سعود تحت رقم: 18 / 1-2501.

(3) دار الكتب المصرية، 389 مجاميع.

(4) كشف الظنون: 1 / 853.

(5) مخطوط بجامعة الملك سعود برقم: 28 / 2501.

(6) دار الكتب المصرية، 389 مجاميع.

(7) تحقيق الدكتور ناصر بن سعد الرشيد.

(8) الأعلام: 1 / 133.

(9) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان: 2 / 668.

(10) كشف الظنون: 1 / 860.

(11) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان: 3 / 352.

- 62- رسالة في رفع ما يتعلق بالضمائر من الأوهام⁽¹⁾ .
- 63- رسالة في الروح⁽²⁾ .
- 64- رسالة في سجود السهو⁽³⁾ .
- 65- رسالة في شرح المقالة المفردة⁽⁴⁾ .
- 66- رسالة في طبيعة الأفيون⁽⁵⁾ .
- 67- رسالة في علم المعاني والبيان⁽⁶⁾ .
- 68- رسالة في العلم وماهيته⁽⁷⁾ .
- 69- رسالة في الفصاحة⁽⁸⁾ .
- 70- رسالة في قد .
- 71- رسالة في الكلام على خلق القرآن⁽⁹⁾ .
- 72- رسالة في الكلمات المعربة .
- 73- رسالة في الماهية⁽¹⁰⁾ .

(1) تحقيق الدكتور ناصر بن سعد الرشيد، 1401هـ موافق 1980م.

(2) كشف الظنون: 1/ 871.

(3) نفسه: 1/ 871.

(4) هدية العارفين: 5/ 141، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم: د: 2763.

(5) كشف الظنون: 1/ 894.

(6) دار الكتب المصرية، 389 مجاميع.

(7) كشف الظنون: 1/ 878.

(8) لها نسخة مخطوطة في جامعة الملك سعود برقم: 2500/ 55.

(9) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان: 2/ 668.

(10) كشف الظنون: 1/ 888.

- 74- رسالة في المجاز⁽¹⁾ .
- 75- رسالة في المشاكلة⁽²⁾ .
- 76- رسالة في من التبعية⁽³⁾ .
- 77- شرح بعض كتاب الهداية⁽⁴⁾ .
- 78- شرح الجامع الصحيح للبخاري⁽⁵⁾ .
- 79- شرح فرائض السراجية⁽⁶⁾ .
- 80- شرح القصيدة الخمرية لابن الفارض⁽⁷⁾ .
- 81- شرح مشارق الأنوار للصاغاني⁽⁸⁾ .
- 82- شرح مشكاة المصابيح⁽⁹⁾ .
- 83- شرح مفتاح العلوم للسكاكي⁽¹⁰⁾ .
- 84- طبقات الفقهاء⁽¹¹⁾ .

(1) نفسه: 1 / 846 .

(2) تحقيق الدكتور ناصر بن سعد الرشيد .

(3) كشف الظنون: 1 / 894 .

(4) الشقائق النعمانية، ص: 227 .

(5) هدية العارفين: 5 / 141 .

(6) المصدر نفسه .

(7) المصدر نفسه .

(8) المصدر نفسه .

(9) معجم المؤلفين: 1 / 238 .

(10) مخطوط مكتبة اسكوريال، مدريد، رقم 220 .

(11) تاريخ آداب اللغة، جرجي زيدان: 3 / 352 .

- 85- طبقات المجتهدين⁽¹⁾ .
- 86- فرائد الفوائد⁽²⁾ .
- 87- فريدة التحري⁽³⁾ .
- 88- الفلاح في شرح المراح⁽⁴⁾ .
- 89- قواعد الحملات⁽⁵⁾ .
- 90- كتاب في الفرائض⁽⁶⁾ .
- 91- كتاب في المعاني⁽⁷⁾ .
- 92- الكلام على البسملة والحمدلة⁽⁸⁾ .
- 93- اللغة الفارسية⁽⁹⁾ .
- 94- اللواء المرفوع⁽¹⁰⁾ .
- 95- محيط اللغة⁽¹¹⁾ .

(1) المصدر نفسه .

(2) هدية العارفين : 5 / 142 .

(3) المصدر نفسه .

(4) حاشية الشهاب الحفاجي على البيضاوي : 1 / 399 .

(5) هدية العارفين : 5 / 142 .

(6) الكواكب السائرة : 2 / 108 .

(7) الشقائق النعمانية، ص : 227 .

(8) هدية العارفين : 5 / 141 .

(9) الشقائق النعمانية، ص : 227 .

(10) هدية العارفين : 5 / 141 .

(11) كشف الظنون : 2 / 1621 .

- 96- مدح السعي و ذم البطالة ⁽¹⁾ .
- 97- مرآة الجنان ⁽²⁾ .
- 98- مفرج الكروب في العقيدة .
- 99- المنيرة في المواعظ ⁽³⁾ .
- 100- مهمات المسائل في الفروع ⁽⁴⁾ .
- 101- النجوم الزاهرة في أحوال مصر والقاهرة (ترجمة) ⁽⁵⁾ .
- 102- نزاع الحكماء والمعتزلة بالأشاعرة ⁽⁶⁾ .
- 103- نزهة الخاطر ⁽⁷⁾ .
- 104- يوسف وزليخا ⁽⁸⁾ .

هذه إذاً بعض مصنفات ابن كمال باشا وبعض رسائله، وهي تفوق ثلاثمائة، لكنني اقتصر على ما وقعت عليه عيناى في كتب التراجم.

(1) هدية العارفين: 142/5 .

(2) المصدر نفسه .

(3) نفسه: 142/5 .

(4) المصدر نفسه .

(5) كشف الظنون: 1932/2 .

(6) هدية العارفين: 142/5 .

(7) المصدر نفسه .

(8) هدية العارفين: 142/5 .

ثالثاً: المطبوع من مصنفات ورسائل ابن كمال

- 1- أسرار النحو⁽¹⁾.
- 2- الأسلوب الحكيم⁽²⁾.
- 3- أفضلية محمد ﷺ⁽³⁾.
- 4- تعريب الكلمة الأعجمية⁽⁴⁾.
- 5- تغيير التنقيح في الأصول⁽⁵⁾.
- 6- تفسير سورة الملك⁽⁶⁾.
- 7- الخواص والمزايا في الأسلوب البلاغي⁽⁷⁾.
- 8- رسائل ابن كمال⁽⁸⁾.
- 9- رسائل ابن كمال باشا اللغوية⁽⁹⁾.
- 10- رسالة في أوصاف أم الكتاب.
- 11- رسالة في بيان ما إذا كان صاحب علم المعاني يشارك اللغوي في البحث عن مفردات الألفاظ⁽¹⁰⁾.

(1) حققه الدكتور أحمد حسن حامد، الأردن، دار الفكر.

(2) دراسة بلاغية تحليلية قام بها الدكتور محمد بن علي الصامل سنة 1416هـ.

(3) تحقيق عبد العزيز بن سالم بن محمد آل عمر.

(4) هو من ضبط وتحقيق محمد سواعي، دمشق 1991، كما قام بتحقيقه الدكتور حامد قنبيي.

(5) تحقيق جمال أفندي، مطبعة سي استامبول، 1308هـ.

(6) تحقيق حسن ضياء الدين عتر، بيروت، دار البشائر الإسلامية، سنة 1407هـ موافق 1986م.

(7) تحقيق حامد صادق قنبيي.

(8) تحقيق أحمد جودت، استانبول، 1316هـ.

(9) حققه ناصر بن سعد الرشيد، طبعة الرياض، النادي الأدبي، سنة 1401هـ موافق 1980م، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية بالأرقام التالية: 90 مجاميع، 116 مجاميع، 389 مجاميع، 626 مجاميع، 7 مجاميع تيمور.

(10) تحقيق محمد حسين أبو الفتوح.

- 12- رسالة في تحقيق التغليب⁽¹⁾ .
- 13- رسالة في تحقيق معنى كاد⁽²⁾ .
- 14- رسالة في تحقيق وضع كاد⁽³⁾ .
- 15- رسالة في التوسع⁽⁴⁾ .
- 16- رسالة في الجبر والاختيار⁽⁵⁾ .
- 17- رسالة في رفع ما يتعلق بالضمائر من الأوهام⁽⁶⁾ .
- 18- رسالة في الكلمات المعربة⁽⁷⁾ .
- 19- رسالة في مدار التجوز في اللفظ⁽⁸⁾ .
- 20- رسالة في المشاكلة⁽⁹⁾ .
- 21- رسالة في المعرب⁽¹⁰⁾ .
- 22- رسالة في معنى قد .

-
- (1) تحقيق الدكتور ناصر بن سعد الرشيد، مدير مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة سنة 1401هـ الموافق 1980م .
 - (2) تحقيق الدكتور ناصر بن سعد الرشيد سنة 1401هـ/1980م .
 - (3) تحقيق محمد حسين أبو الفتوح .
 - (4) تحقيق الدكتور ناصر بن سعد الرشيد سنة 1401هـ/1980م .
 - (5) انظر الأعلام: 1/ 133 .
 - (6) تحقيق الدكتور ناصر بن سعد الرشيد سنة 1401هـ/1980م .
 - (7) تحقيق الدكتور سليم البخاري .
 - (8) الناشر: مجلة المعجمية، العدد الرابع، سنة 1408هـ/1988م .
 - (9) تحقيق الدكتور ناصر بن سعد الرشيد سنة 1401هـ/1980م .
 - (10) تحقيق الدكتور سليمان إبراهيم العابد .

- 23- الرواية المنيرة في الكلام⁽¹⁾ .
- 24- شرح أربعين حديثا .
- 25- طبقات المجتهدين⁽²⁾ .
- 26- غلط العوام في اللغة .
- 27- الفرق بين العلم بالوجه وبين العلم بالشيء⁽³⁾ .
- 28- الفرق بين من التبعية ومن التبيينية⁽⁴⁾ .
- 29- الفلاح شرح المراح في النحو .
- وبالخزانة العامة بالرباط مخطوط جمع أكثر من ثلاثين رسالة من رسائل ابن كمال باشا⁽⁵⁾ .

رابعاً: تحقيق نسبة كتاب «رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه» لابن كمال.

إن كتب التراجم التي أشارت إلى مؤلفات ابن كمال باشا زاده، ذكرت أن من ضمن مؤلفاته هذا الكتاب، فقد ذهب جرجي زيدان⁽⁶⁾ على أنه من كتب ابن كمال فقال: « طبع بمصر مرارا، وهو من الكتب التي نُجِّل الأدباء عن مطالعتها، وإنما ذكرناه لبيان انحطاط الآداب في ذلك العصر، ونأسف لأنه ترجم إلى اللغة الإنجليزية وطبع مع الأصل

(1) تحقيق رشيد عبد الرحمن العبيدي .

(2) تحقيق أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري الرياض سنة 1404هـ .

(3) تحقيق أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري، الرياض، سنة 1404هـ .

(4) تحقيق محمد حسين أبو الفتوح سنة 1409هـ / 1988م .

(5) يوجد تحت رقم: 642 ك .

(6) هو جرجي بن حبيب زيدان، صاحب التصانيف الكثيرة، ولد ببيروت سنة 1278م، وتعلم بها، ورحل إلى مصر. كانت وفاته سنة 1332هـ . (انظر: الأعلام: 2 / 117) .

والملاحظات في لندن»⁽¹⁾. كما أدرجه صاحب الأعلام⁽²⁾ ضمن مؤلفات ابن كمال.

وعَدَّته منشورات الجمل⁽³⁾ بألمانيا من مؤلفات ابن كمال باشا زاده. ومن خلال مطالعتي المتواضعة لمؤلفات ابن كمال بالخزانة العامة⁽⁴⁾ بالرباط وجدته منسوباً إليه.

لكنه بعد التحري وجدت أن هناك خلافاً واضحاً في نسبة هذا الكتاب إلى ابن كمال باشا زاده.

قال صاحب الأعلام بعد أن نسبته إلى ابن كمال: «سيأتي ذكره في ترجمة التيفاشي»⁽⁵⁾.

قال صاحب كشف الظنون: «رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه، أوله: الحمد لله الذي خلق الأشياء بقدرته، ترجمه المولى أحمد بن سليمان الشهير بابن كمال باشا المتوفى سنة 940هـ بإشارة السلطان سليم خان»⁽⁶⁾.

أما صاحب إيضاح المكنون فقد نسبته صراحة إلى التيفاشي، وجعله من مؤلفاته⁽⁷⁾، من هنا يمكن أن نقول: إن كلمة «ترجمة» المنسوبة لابن

(1) انظر تاريخ آداب اللغة العربية: 3/353، أما طبعه بلندن فكان سنة 1898م.

(2) انظر الأعلام: 1/133.

(3) انظر منشورات الجمل بألمانيا سنة 1991م.

(4) يوجد تحت رقم: د 2969 وص: 322.

(5) انظر الأعلام: 1/133، والتيفاشي هو أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن حمدون، شرف الدين القيسي التيفاشي: عالم بالحجارة الكريمة، غزير العلم بالأدب وغيره، تعلم بمصر، وولي القضاء في بلده، ثم عاد إلى القاهرة، وتوفي بها سنة 651هـ. (انظر ترجمته في الأعلام: 1/273، وشجرة النور الزكية، ص: 170).

(6) كشف الظنون: 2/835.

(7) انظر: إيضاح المكنون: 2/549.

كمال، وبإشارة من السلطان سليم خان العثماني تقتضي أن نعيد النظر في نسبة الكتاب إلى ابن كمال، بل نستطيع أن نقول: إن أصل الكتاب يعود إلى التيفاشي وذلك من خلال القرائن الآتية:

1- إن في الكتاب قصصا مصرية قديمة لا يمكن معرفتها إلا بالموثوث بها مدة من الزمن، وهو أمر حصل للتيفاشي ولم يحصل لابن كمال الذي زارها مرة واحدة.

2- أسلوب الكتاب وطريقته في التأليف، ثم ركاكته لا تتناسب ومكانة ابن كمال العلمية.

3- إن الناظر في الكتاب ليجد تفاوتاً كبيراً بينه وبين مؤلفات ابن كمال من حيث العرض والطريقة والموضوع.

4- نسبة عدد من أصحاب كتب التراجم والطبقات الكتاب إلى التيفاشي، وقد ذكرت بعضها.

وأستطيع أن أقول في الأخير إن النفس من خلال هذه القرائن غير مطمئنة إلى أن الكتاب من تأليف ابن كمال، وهو الذي اختار له هذا الاسم.

خامساً: مميزات مصنفات ابن كمال

إن ابن كمال باشا زاده في كل ما صدر عنه من مؤلفات بدا وكأنه موسوعي فرض نفسه في عصره، فهو حينما يكتب التاريخ يكتبه بعقلية الفقيه إذا احتاج الخبر إلى دليل، كما أنه فسر القرآن الكريم بأمانة المحدث، ويؤلف في اللغة آخذاً بمنهج رجال الحديث ومنهج الأصوليين، ويكتب التراجم بوجدان الأديب، وهكذا لو تيسر لي أن أعمل النظر في كل مؤلف من مؤلفات ابن كمال لحاولت أن أبين للقارئ الرباط

الوثيق لكل مؤلف بهذه الخلفية العريضة من صنوف المعرفة، وأستطيع أن أقول: إن ابن كمال لم يترك علما من علوم زمانه إلا وكتب فيه عددا غير قليل من المؤلفات.

على أنني من خلال تتبعي لمؤلفاته في مختلف مظانها أستطيع أن أصنفها تحت رؤوس الموضوعات الآتية:

- 1- تفسير القرآن الكريم وعلومه.
- 2- الحديث الشريف وعلومه.
- 3- الفقه والشريعة.
- 4- الفلسفة.
- 5- الآداب.
- 6- المنطق.
- 7- التصوف.
- 8- الأخلاق.
- 9- علوم العربية ونحوها.
- 10- مصنفات باللغة الفارسية.
- 11- مصنفات في موضوعات متنوعة.

فاعتنى ابن كمال في عصره اهتماما كبيرا بالقرآن الكريم وعلومه، ولعل تفسيره الذي بين أيدينا يشهد له بذلك، على الرغم من وجود كتب أخرى ألفها ابن كمال في علوم القرآن وتفسيره.

كما كان حافظا لأحاديث رسول الله ﷺ، وفقهيا محدثا عالما من علماء اللغة المشهورين، لأن اللغة عنده تشكل أداة لفهم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، كما تساعد في تجلية المشكلات واستنباط الأحكام.

ولقد عني ابن كمال بعلم التاريخ والتراجم والطبقات عناية خاصة، مما هيأ له مكانا رحبا بين المؤرخين الذين عاصروه، وكذا الذين عاشوا قبله.

كما أعطى ابن كمال كثيرا من اهتمامه للأدب وتاريخه، ذلك أن لابن كمال في ميادين الدراسات الأدبية تأليف مهمة، وتصانيف وفيرة. وعموما، إن مؤلفاته امتازت بسمات هذه أهمها:

- 1- العناوين الدقيقة والمعبرة عن الموضوع أصدق تعبير.
- 2- تفاعلها مع الواقع لحل مشكلاته والدفع به إلى الأحسن.
- 3- كما تميزت بالاختصار وعدم التطويل، لكنها تفي بالمقصود.
- 4- اتجاهه إلى الاشتغال بالدراسات المقارنة، مثل مؤلفه في تعريب الكلمة الأعجمية، ورسالته في الكلمات المعربة، ورسالته في بيان مزية اللسان الفارسية على سائر اللغات ما خلا العربية.
- 5- خوضه في بحوث صعبة وحساسة لتصحيح ما علق بعقول كثير من الناس، مثل رسالته في تصحيح لفظ الزنديق وتوضيح معناه الدقيق، والتنبيه على غلط الجاهل والنبیه، ورسالته في إيمان أبوي الرسول ﷺ.
- 6- مشاركته لمعاصريه في وضع بعض الحواشي على الكتب المعتمدة كحاشيته على الهداية، وحاشيته على الكشاف، وحاشيته على شرح المفتاح، وغيرها كثير.
- 7- صلته بالسلطين والأمراء جعلته يقف على الأخبار التاريخية والأحداث موقفا متميزا، إذ إنه يوثق بخير مصدر وأثبتته، وذلك لاعتماده على المشاهدة والمعاينة مثل تأليفه «تواريخ آل عثمان».

8- التزامه بالمنهج الإسلامي في كل مؤلفاته، وذلك بالإشارة والتصحيح والتصويب إن اقتضى الحال، مثل رسالته في نزاع الحكماء والمعتزلة بالأشاعرة.

9- خلو كتاباته من التعقيد ومن التكلف.

10- ميله إلى دراسة الظواهر وتحقيقها وذلك أنه لما ألف في النحو سمي مؤلفه «أسرار النحو»، وكذلك رسائله في تحقيق التغليب، وتحقيق معنى كاد.

11- خلو مصنفاته من التناقض والاضطراب.

ومجمل القول في مجال مؤلفات ابن كمال أنه كان من المؤلفين الموسوعيين الذين كتبوا في مختلف فنون المعرفة، وهو عدد ليس بالعدد الكبير على عالم دقيق عبقرى، كرس جهده وحياته للعلم، واتخذ من بيته معبدا ومحرابا يؤمه الناس للتزود من علم صاحبه.

المبحث الرابع: مذهبه وعقيدته

أولاً: مذهبه

قال ابن العماد الحنبلي⁽¹⁾ في «شذرات الذهب» عند ترجمته للعلامة ابن كمال باشا زاده: «شمس الدين أحمد بن سليمان الحنفي الشهير بابن كمال باشا العالم العلامة، الأوحد المحقق الفهامة، صاحب التفسير»⁽²⁾.

وقال عنه البغدادي⁽³⁾ في هدية العارفين: «ابن كمال أحمد بن سليمان شمس الدين المعروف بابن كمال باشا، شيخ الإسلام الرومي، الحنفي، توفي سنة أربعين وتسعمائة للهجرة»⁽⁴⁾.
كما أدرجه اللكنوي⁽⁵⁾ ضمن طبقات الحنفية⁽⁶⁾.

وقد نقل عن ابن كمال أنه كان مهتماً بالمذهب الحنفي، فوضع له متونا فقهية، كما تناول بالدرس والتحليل متون علماء الحنفية، ومن أمثلة ما أقول: تأليفه لتغيير التنقيح في الأصول، وتغيير السراجية في الفرائض، ولم يمنعه هذا أن يطلع على المذاهب الفقهية الإسلامية.

(1) هو عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد العسكري، الحنبلي، أبو الفلاح، مؤرخ فقيه، عالم بالأدب، توفي رحمه الله بمكة سنة 1089هـ. (انظر الأعلام: 61/4).

(2) شذرات الذهب: 238/8.

(3) هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، أبو بكر، المعروف بالخطيب: أحد الحفاظ المؤرخين المقدمين، مولده سنة 392هـ، ووفاته سنة 463هـ. (انظر: معجم الأدباء: 248/1، والأعلام: 172/1).

(4) هدية العارفين: 141/5.

(5) هو محمد عبد الحي بن محمد عبد الحليم الأنصاري اللكنوي الهندي، من فقهاء الحنفية. (انظر: الأعلام: 29/7).

(6) انظر: الفوائد البهية في تراجم الحنفية، ص: 22.

كما أن من مؤلفاته في فروع الفقه الحنفي: مؤلفه الذي سماه «المهمات في فروع الفقه الحنفي»⁽¹⁾.

وأما الشروحات والخواشي فإن ابن كمال له تعليق جيد على «غرر الأحكام»⁽²⁾، وهو كتاب في فروع الحنفية لملا خسرو⁽³⁾، حيث شرحه وسماه «درر الحكام في شرح غرر الأحكام».

ومما يدل على مدى التزام ابن كمال باشا بمذهبه الحنفي إشارته إليه عند مناقشاته الأصولية، فعند تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَنْ أَحْصِرَهُمْ﴾⁽⁴⁾، قال: وقال الفراء⁽⁵⁾ وأبو عمرو الشيباني⁽⁶⁾: هما بمعنى المنع في كل شيء مثل: صده وأصده. وعن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم: من كسر أو عرج فقد أحصر، وهو مذهب أصحابنا.

(1) كشف الظنون: 2/ 1916.

(2) نفسه: 2/ 1199.

(3) هو محمد بن فرامرز بن علي المعروف بملا (أي المولى) خسرو، عالم بفقه الحنفية والأصول، رومي الأصل، ولي القضاء بالقسطنطينية، وتوفي بها رحمه الله سنة خمس وثمانين وثمانمائة. (انظر: الفوائد البهية، ص: 184، والأعلام: 7/ 219).

(4) من الآية: 196 من سورة البقرة.

(5) انظر: وفيات الأعيان: 2/ 228، والأعلام: 8/ 145-146.

(6) هو إسحاق بن مرار الشيباني، عالم اللغة، توفي رحمه الله سنة ست ومائتين للهجرة. (انظر: تاريخ بغداد: 329/ 6، وبغية الوعاة: 1/ 192).

ولما تعرض لبيان صلاة الخوف اكتفى بذكر مذهب أبي حنيفة (1) وقال بعده: كذلك رواه ابن مسعود (2) وابن عمر (3) رضي الله عنهم (4).

كما تميز تفسيره بالاستدلالات التي اعتمدها الحنفية في منهجهم كالقياس والاستحسان، ومراعاته للعرف والعادة، وبأن تقييد مطلق القرآن نسخ، لأنه زيادة على النص، كما أجاز نسخ الكتاب بمشهور السنة ومتواترها، فأورد بصريح العبارة بعض المصطلحات الخاصة بالحنفية، فعند تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَا مَرْءُونَ بِالْمُعْرُوفِ﴾ (5)، قال: «الأمر بالمعروف قد يكون واجبا ومندوبا، على حسب ما يؤمر به، وكذا النهي عن المنكر، فإنه يكون واجبا إن كان المنهي عنه محرما أو مكروها كراهة تحريم، ويكون مندوبا إن كان المنهي عنه مكروها كراهة تنزيه».

كل هذا جعل متأخري الحنفية يعتمدون على آرائه الفقهية في الفروع والمسائل، ومن الأمور التي تؤكد ما أقول ما أشار إليه الحصكفي (6) من أنه اعتمد على كتب ابن كمال الفقهية، حيث ذكر في مقدمة كتابه

(1) هو النعمان بن ثابت، التميمي بالولاء، الكوفي أبو حنيفة: إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، ولد بالكوفة سنة 80 هـ. أراد المنصور العباسي على القضاء ببغداد، فأبى، فحلف عليه ليفعلن، فحلف أبو حنيفة أنه لا يفعل، فحبسه إلى أن مات سنة 150 هـ. (انظر: تاريخ بغداد: 13/ 323، والنجوم الزاهرة: 2/ 12، والبداية والنهاية: 10/ 107، والأعلام: 8/ 36).

(2) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن، أحد السابقين، أسلم قديما، وهاجر الهجرتين، توفي في المدينة في خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة اثنتين وثلاثين للهجرة. (انظر: الإصابة: 2/ 368، والأعلام: 4/ 137).

(3) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، أبو عبد الرحمن القرشي، أسلم وهو صغير، وهو ممن بايع تحت الشجرة. (انظر: سير أعلام النبلاء: 3/ 203، والإصابة: 2/ 347، وأسد الغابة: 3/ 227).

(4) انظر تفسيره للآية: 102 من سورة النساء.

(5) من الآية: 114 من سورة آل عمران.

(6) هو محمد بن علي بن محمد الحصني المعروف بعلاء الدين الحصكفي، مفتي الحنفية في دمشق، توفي سنة ثمان وثمانين وألف. (انظر: الأعلام: 7/ 188).

« الدر المختار » أنه اطلع على ما ألفه ابن كمال وأفاد منه، وذكره من جملة العلماء المتأخرين الذين حرروا المسائل الفقهية ⁽¹⁾.

وحينما ترجم له ابن عابدين ⁽²⁾ عدّه من علماء الحنفية الذين لا يغفل قولهم في الفقه ⁽³⁾.

ثانياً: عقيدته

إن عقيدة ابن كمال باشا هي عقيدة أهل السنة والجماعة، ومن له أدنى اطلاع على تفسيره الذي بين أيدينا سيجد أن ابن كمال أسهم إسهاماً واضحاً في خدمة عقيدته، مستدلاً ومصححاً ومفنداً إن اقتضى الحال، ولتوضيح هذا المعنى فما علينا إلا أن نستأنس ببعض الآيات القرآنية التي لها صلة بهذا الباب من خلال تفسيره القيم:

1- عند تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ ⁽⁴⁾، قال: ﴿ فيغفر لمن يشاء ﴾ من أهل المغفرة، ﴿ ويعذب من يشاء ﴾ من أهل العقوبة، وهذا صريح في نفي وجوب التعذيب، وفي الآية دلالة على وقوع الحساب، فيكون حجة على من أنكره من المعتزلة ⁽⁵⁾ والروافض ⁽⁶⁾.

(1) انظر الدر المختار: 18/1.

(2) هو محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين، الدمشقي، إمام الحنفية في عصره، ولد في دمشق سنة ثمان وتسعين ومائة وألف، وكانت وفاته سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف. (الأعلام: 6/267).

(3) انظر حاشية ابن عابدين: 18/1.

(4) سورة البقرة: الآية 283.

(5) انظر: المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب: 241/2.

(6) انظر الفرق بين الفرق، ص: 21.

2- في تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿الْزَيْنِ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾⁽¹⁾، قال: أي بما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة، حيث لا يدركه واحد منهما لا بالبدية ولا بالاستدلال، يعني أحوال البعث والجنة والنار... ولقوة غيبته حيث غاب عن مظهري الحس والعقل، عبر عنه بالمصدر كما يقال لمن بلغ الغاية في العدالة: عدل، ولكماله في معنى الغيبة حيث لم يمكن استحضاره لا بالبدية ولا بالنظر عرف بتعريف الجنس، كأن معنى الغيبة إنما تم فيه، وباقي الغائبين بمنزلة الشاهد نظرا إليه، ففيه إشارة إلى قوة تصديقهم برسول الله عليه السلام، ووفور اعتقادهم بنبوته، حيث صدقوه في أخبار لا طريق إلى العلم بصدقها لا بالحس ولا بالعقل، لا بالبداية ولا بالكسب، وعدم التعرض للتصديق بالمبدئ للتنبيه على أن شأنه تعالى أظهر الأمور، بحيث كان التصديق به تصديقا بأجلى المعلومات، فلا يناسب ذكره في مقام المدح بالتصديق بأخفى المجهولات، وفيه نفي على الدهرية⁽²⁾ على وجه أبلغ.

3- تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾⁽³⁾، قال: والآية الكريمة لا تنتهز حجة على الكرامية⁽⁴⁾، لأنهم يشترطون في كون الشهادتين إيمانا عدم مخالفة القلب اللسان أعم من أن يكون موافقا له، أو فارغا عنهما.

(1) من الآية: 3 من سورة البقرة.

(2) هم الذين يسمون بمعطلة العرب، صنف منهم أنكر الخالق والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المحيي، والدهر المفني. (انظر: الملل والنحل: 582/2).

(3) سورة البقرة: الآية 7.

(4) الكرامية بخراسان ثلاث فرق: حقائقية وطرائقية، وإسحاقية، لكن هذه الفرق الثلاث منها لا يكفر بعضها بعضا، فعدناها كلها فرقة واحدة، وزعيمها المعروف محمد بن كرام، وفضائحهم كثيرة. (انظر الفرق بين الفرق، ص: 215).

4- تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَوْلَا أَصْدَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁽¹⁾، قال: ولا متمسك للحشوية⁽²⁾ في هذه القصة على عدم عصمة الأنبياء عليهم السلام.

5- تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁽³⁾، قال: «﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة العفو، ومعنى الشكر في اللغة، عرفان الإحسان بالجنان، ونشره باللسان، وتفسير «لعل» بـ«كي» مردود بأن جمهور أئمة اللغة اقتصروا في بيان معناها الحقيقي على الترجي والإشفاق وعدم صلاحها لمجرد معنى العلية والفرضية مما وقع عليه الاتفاق، ألا ترى تقول: دخلت على المريض كي أعوده، وأخذت الماء كي أشربه، ولا يصح «لعل»، وحملها على الإرادة إنما يصح على أصل الاعتزال، وأما على أصل أهل الحق فلا صحة له.

(1) من الآية: 39 من سورة البقرة.

(2) الحشوية: فرقة من فرق المرجئة. (انظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: 1/ 285).

(3) من الآية: 52 من سورة البقرة.

الباب الثاني

تفسير ابن كمال باشا

الفصل الأول

التعريف بتفسير ابن كمال

✓ المبحث الأول: وصفه.

✓ المبحث الثاني: ظروف تأليفه.

✓ المبحث الثالث: صداه.

✓ المبحث الرابع: ابن كمال المفسر.

– أولاً : عنايته بالحديث النبوي الشريف .

– ثانيا : عنايته الفائقة باللغة العربية وعلومها .

– ثالثا : عنايته بالفقه وأصوله .

يعد تفسير ابن كمال باشا من التفاسير التي حظيت بعناية فائقة من لدن كثير من العلماء، وذلك لما امتاز به من قيمة علمية وأهمية عظيمة؛ إذ إن صاحبه أضفى عليه من غزير علمه وثقافته، ما جعله مصدرا من مصادر التفسير في عالمنا الإسلامي. فمؤلفه هو الإمام العلامة ابن كمال الإمام في التفسير، والحديث، والنحو، واللغة، والأدب، وصاحب التصانيف البديعة في شتى علوم المعرفة.

وقد التزم ابن كمال في تفسيره هذا، التفسير بالمأثور من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، كما اعتمد فيه أقوال الصحابة والتابعين رضي الله عن الجميع، كما أبان فيه عن عناية فائقة باللغة؛ إذ هي عنده الطريق للوصول إلى معاني الألفاظ القرآنية وفك مدلولاتها، كما تعرض فيه للألفاظ من حيث اشتقاقها وما ورد فيها من الوجوه الإعرابية، فضلا عن اهتمامه البالغ والواضح بالقراءات القرآنية وتوجيهها على المعاني، وهو طابع تميز به تفسيره من البداية إلى النهاية، أضف إلى هذا ما أظهر فيه من جمال النظم القرآني وبلاغته، وما امتاز به كذلك من الإحاطة بعلوم البلاغة والبيان والإعراب.

فابن كمال جمع كل هذه الوسائل التي لا بد منها للمفسر، فألف لنا هذا التفسير العظيم عالي الشأن.

المبحث الأول: وصفه

استعرض ابن كمال باشا في تفسيره هذا كثيرا من الآراء وناقشها، بل إن النقاش في كثير من الأحيان يقوده إلى ذكر البراهين المختلفة، ويستعمل في مثل هذا قوله: فإن قلت: ... أو فإذا قيل: ...، ثم يورد الاعتراض بقوله: قلت: ... أو فالجواب. وهو خطاب وأسلوب معروف عند المؤلفين القدامى.

وفي التفسير مراجعة لكتب النحو والتفسير واللغة والأصول والطبقات والحديث، وفيه إشارة إلى أسماء السور التي يستشهد بآياتها. أما لغة التفسير فتكاد تكون سهلة في الغالب، إذا استثنيت المواضع التي استعمل فيها طرائق المتكلمين في النقاش.

المبحث الثاني: ظروف تأليفه

ليس بين يدي ما يدل على زمن تأليف التفسير أو السنة التي ألف فيها، فلم أظفر بما يشير إلى ذلك، كما لم تسعفني المصادر التي اطلعت عليها بشيء من هذا. والذي بدا لي أنه من مصنفاته المتأخرة، ويتضح ذلك جلياً من خلال ما أودعه ابن كمال في تفسيره هذا من آراء في النحو والتفسير والأصول تتسم كلها بالنضج والدقة والتمرس.

والتفسير بعد هذا كله، جاء عصارة التصانيف الكثيرة التي ألفها ابن كمال باشا. ومن الطبيعي أن المؤلف كلما تقدمت به السن زادت تجاربه، ونضجت أحكامه، واقتربت أعماله من الكمال.

ومما يجعلني أطمئن إلى ما ذكرته، أنه ألفه خوفاً من ذهاب الموت بما جمعه من مادة في الموضوع، يقول طاشكبرى زاده: «وله من التصانيف تفسير لطيف حسن قريب من التمام وقد اخترمته المنية ولم يكمله»⁽¹⁾. وقال⁽²⁾ الغزي⁽³⁾ نفس ما قاله طاشكبرى زاده.

(1) انظر: الشقائق النعمانية، ص: 227.

(2) انظر: الكواكب السائرة: 2/107.

(3) هو محمد بن محمد الغزي العامري، الدمشقي، أبو المكارم. ولد في دمشق، وتوفي بها سنة 1061هـ. (انظر الأعلام: 292/7).

المبحث الثالث:

صداه

يعد تفسير القرآن الكريم لابن كمال باشا من التفاسير التي جمعت عصارة أقوال المتقدمين حول القرآن الكريم كتاب الله الخالد؛ حيث ضم فيه صاحبه أقوال المفسرين والمحدثين إلى مباحث الفقهاء والأصوليين إلى مسائل العربية وآراء أرباب الفصاحة والبيان، فجاء فريداً في فنه، شريفاً في أغراضه. لكنه مع الأسف، لم يكن معروفاً عند جل الباحثين، ولا متداولاً بين الطلاب والدارسين، شأنه في ذلك شأن الكثير من مؤلفات ابن كمال باشا زاده. فظل تفسيره هذا مطموراً في زوايا النسيان إلى أن تناقلته أيدي العلماء والنساخ فأصبح موضع عناية، وظهر ذلك جلياً من خلال ما يأتي:

1- عناية الخزانين بحفظه والاهتمام به؛ حيث عُدَّ من مخطوطات الأوقاف بالخزانة العامة بالرباط⁽¹⁾ تحت رقم 460ق، كما اعتنت به خزانة تمكروت⁽²⁾ بمدينة ورزازات⁽³⁾.⁽⁴⁾

2- التحبيسات الموجودة على أوائل بعض النسخ الكائنة بالمكتبة الوطنية بتونس⁽⁵⁾؛ ففي بعض منها كتب ما يأتي: «الحمد لله، أشهد صدر الوزارة وعضد الملة والإمارة محيي رسوم العمران بعد عفائها، ومنبه جفون المعارف بعد إغفائها، رافع راية المجد باليمين، الصدر

(1) عاصمة المملكة المغربية.

(2) منطقة موجودة بمدينة ورزازات بالمملكة المغربية.

(3) انظر الورقة رقم: 3 من مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

(4) مدينة موجودة بالجنوب الشرقي بالمملكة المغربية.

(5) انظر ما يتعلق بدولة تونس الحالية: معجم البلدان: 2/60.

الهمام أمير الأمراء، خير الدين⁽¹⁾ حمد الله تعالى مساعيه وأدام في سبيل الخيرات دواعيه أنه حبس جميع هذا الجزء الأول من تفسير ابن كمال باشا على منطقة أصيلة⁽²⁾، للانتفاع به بشرط أن لا يخرج من مكتبة الجامع الأعظم جامع الزيتونة⁽³⁾ عمره الله تعالى بدوام ذكره، شارطا في تحبيسه هذا أن يجري فيه على مقتضى الترتيب الممضى من الحضرة العلية الملكية أيدها الله تعالى في إدارة المكتبة⁽⁴⁾.

وفي نسخة أخرى: «الحمد لله، أشهد مولانا أمير المؤمنين، المجاهد في سبيل الله رب العالمين، المعتمد على فضله المتين، المراقب له في كل حين، المحفوظ بسر السور والآي، مولانا وسيدنا الباشا علي الباشا⁽⁵⁾، الواضع طابعه هنا -أيده الله ونصره، ولكل خير ومعروف سدده وبصره آمين- أنه حبس ووقف جميع هذا الجزء، من تفسير القرآن العظيم لابن كمال باشا الذي أوله سورة الفاتحة وآخره تمام سورة الصافات على من يتعاطى العلم بمدرسته الشرقية الباب، التي أحدث بناؤها في سوق العشاشين من محروسة تونس -عمرها الله بدوام ذكره- ينتفع به بأي وجوه الانتفاعات أراد، بشرط أن لا يخرج منها إلى غيره. حبس ما ذكر على من ذكر، حبسا مؤبدا، لا يغير عنه ذلك أبدا، وذلك على مقتضى مذهبه الحنفي الزكي، وشهد عليه بذلك وهو على أكمل حال المشهدين، بتاريخ أوائل محرم الحرام من عام أربعة وستين ومائة وألف، ومثله -حفظه الله- لا يجهل⁽⁶⁾.

(1) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 127-133.

(2) انظر معجم البلدان: 1/212.

(3) هو الجامع الموجود بتونس الحالية.

(4) انظر: اختيارات ابن كمال باشا الفقهية في تفسيره، ص: 121، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه الدولة في علوم القرآن من دار الحديث الحسنية، إعداد: نوح مصطفى محمد العلي، سنة 1418هـ/1997م.

(5) انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 134.

(6) انظر نفس المرجع، ص: 121-122.

3- ثناءات العلماء، وسيأتي ذكرها في المبحث الثالث من الفصل الثاني في هذا الباب.

4- تزايد شهرته يوما بعد يوم في أوساط الطلبة والباحثين؛ فقد أشرت قبل قليل في الهامش إلى ما يدل على هذه العناية والشهرة، وما أنا بصدد من دراسة جزء منه وتحقيقه، إلا دليل على أن هذا التفسير سترجع له مكانته العلمية كما كانت له في العهود الأولى.

المبحث الرابع: ابن كمال المفسر

التفسير لغة: هو الإيضاح والتبيين، ومنه قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الفرقان: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَحَسَنِ تَفْسِيرٍ﴾⁽¹⁾ أي: بيانا وتفصيلا، وهو مأخوذ من الفسر وهو الإبانة والكشف، قال ابن منظور⁽²⁾: «الفسر: البيان، فسر الشيء يفسره بالكسر ويفسره بالضم فسرا. وفسره: أبانه. والتفسير مثله... ثم قال: الفسر: كشف المغطى، والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل»⁽³⁾.

والتفسير: علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه. واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات. ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ»⁽⁴⁾.

وقد خطا علم التفسير خطوات مهمة عبر تاريخه؛ حيث عرف محاولات هامة سعت كلها لخدمة كتاب الله المقروء الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا الكتاب الذي لفت إليه بقوة عيون العلماء، فاعتنوا به أسوة بعناية الرسول ﷺ به، الذي اتخذ كتابا للوحي من أصحابه مع تشريع قراءته في الصلاة سواء أكانت فرضا أم نفلا، سرا أو جهرا، ليلا أو نهارا.

(1) الآية: 33 من سورة الفرقان.

(2) هو محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفي الإفريقي، صاحب لسان العرب: الإمام اللغوي الحجة، كانت ولادته سنة 630هـ، ووفاته بمصر سنة 711هـ. (انظر فوات الوفيات: 2/ 265، والأعلام: 7/ 108).

(3) انظر لسان العرب: فسر.

(4) انظر: البرهان في علوم القرآن: 1/ 13.

كما رغب ﷺ في تلاوته ولو في غير صلاة ومن غير وضوء لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْغَيْنِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِنْ رِزْقِنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُولَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾⁽¹⁾، وقوله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن وهو يتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»⁽²⁾، وقوله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن وهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»⁽³⁾. ولم تقف عنايته ﷺ بالقرآن عند هذا الحد، بل اهتم بتعليمه وإذاعته ونشره، وذلك من خلال قراءته على الناس عن طريق خطب الجمعة، أو الدروس، أو عن طريق الفتوى والقضاء.

لأجل هذا كله، تضافرت جهود العلماء عبر تاريخ هذه الأمة لنيل الشرف في خدمة القرآن الكريم والإسهام في خدمته المكتبة القرآنية، وابن كمال واحد من هؤلاء الذين تسابقوا وكرسوا جهودهم لخدمة كتاب الله عز وجل، فأسهم -رحمه الله- بمؤلفات مهمة وغنية في مادتها، لخدمة النص القرآني خاصة، وعلم التفسير عامة. ومن أشهر ما ألف في هذا الميدان، المؤلفات الآتية:

— إعجاز القرآن⁽⁴⁾.

— تفسير آية الكرسي⁽⁵⁾.

(1) الآيتان 29 و30 من سورة فاطر.

(2) انظر الكامل في ضعفاء الرجال: 3/396، عن عائشة رضي الله عنها.

(3) انظر: مسند أحمد: 3/9-6-3.

(4) هدية العارفين: 5/141.

(5) عقود الجواهر، ص: 218.

- تفسير سورة الملك⁽¹⁾
- تفسير سورة الفجر.
- تفسير سورة النبأ⁽²⁾.
- تفسير الفاتحة والمملك باللغة الفارسية⁽³⁾.
- حاشية على تفسير البيضاوي⁽⁴⁾.
- حاشية على حاشية الجرجاني على الكشاف⁽⁵⁾.
- حاشية على كشاف الزمخشري⁽⁶⁾.
- رسالة في تفسير سورة الفاتحة⁽⁷⁾.
- رسالة في تفسير ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...﴾⁽⁸⁾.
- رسالة في سورة الإخلاص⁽⁹⁾.
- شرح العشر في معشر الحشر، وهي عشر آيات بينات في أحوال الحشر⁽¹⁰⁾.

(1) تحقيق الدكتور حسن ضياء الدين عتر، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، 1407هـ/1986م.

(2) انظر: تاريخ الأدب العربي لبروكلمان: 2/669.

(3) انظر: كشف الظنون: 1/451.

(4) الطبقات السنية: 1/411.

(5) هدية العارفين: 5/141.

(6) الشقائق النعمانية، ص: 227.

(7) مخطوطة بمركز البحث العلمي وإحياء التراث بمكة المكرمة، تحت رقم: 246 مجاميع، تفسير وعلوم القرآن.

(8) مخطوطة بمركز البحث العلمي وإحياء التراث بمكة المكرمة تحت رقم: 253 مجاميع، تفسير وعلوم القرآن.

(9) مخطوطة بمركز البحث العلمي وإحياء التراث بمكة المكرمة تحت رقم: 256 مجاميع، تفسير وعلوم القرآن.

(10) انظر: كشف الظنون: 1/1042، وهدية العارفين: 141/141.

هذا ما استطعت أن أجمعه من مصنفات ابن كمال باشا زاده المشار إليها في كتب الطبقات وفهارس المخطوطات، والمتعلقة بتفسير القرآن وعلومه، ولا يراودني شك أن هناك جملة من مؤلفاته في التفسير وعلومه غير ما ذكرت، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يعينني ويعين الباحثين من هذه الأمة على اكتشافها للانتفاع منها وبها.

أولاً: عنايته بالحديث النبوي الشريف

أنزل الحق سبحانه وتعالى القرآن الكريم على رسوله محمد ﷺ ليكون نظاماً لحياتهم، وشفاء لصدورهم، ونبراساً لمن أراد الفلاح في الدارين؛ ففي القرآن الكريم التشريع، والآداب، والترغيب، والترهيب، والقصص، والتوحيد. وقد تلقته الأمة عن رسول الله ﷺ مشافهة نقلاً متواتراً، وللرسول ﷺ في ذلك مهمة أخرى غير تبليغه إلى الناس وهي تبينه، وشرح آياته، وتفصيل المجمل من أحكامه، وبيان ما فيه من أحكام أو غير ذلك.

من خلال هذا يمكن القول بأن المسلمين في حاجة إلى معرفة بيان رسول الله ﷺ مع الحاجة إلى معرفة ما تضمنه القرآن من أحكام. ولا يمكن أن يفهم القرآن الكريم إلا بالرجوع إلى سيد المفسرين ﷺ، الذي أنزل عليه القرآن الكريم ليبينه للناس فاتفق المسلمون قاطبة على أن سنته ﷺ من قول أو فعل أو تقرير هي مصدر من مصادر التشريع الإسلامي، الذي لا يمكن الاستغناء عنه بأي حال من الأحوال لمعرفة الحلال والحرام؛ فالسنة النبوية بينت في كثير من مواضع القرآن الكريم مراد الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم؛ ففي آية السرقة بينت أن المراد بالقطع قطعهما إلى الكوعين لا إلى المرفقين، وأن المراد بالسارق، سارق نصاب محرز. كما بينت أحكام القرآن من حيث تقييد مطلقها، أو تفصيل مجملها،

أو تخصيص عامها، مثل الأحاديث النبوية الشريفة التي فصلت أحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج والبيع والمعاملات الواردة مجملة في القرآن الكريم، كما دلت سنته ﷺ على أحكام سكنت عنها القرآن الكريم مثل الأحاديث التي أثبتت حرمة الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، وأحكام الشفعة، ورجم الزاني المحصن، وتغريب الزاني البكر، وإرث الجدة وغير ذلك. كل هذا وأضرابه جعل العلماء يدركون طبيعة العلاقة بين السنة النبوية الشريفة والقرآن الكريم، فاعتنوا بها حفظاً ودراية.

وابن كمال باشا زاده واحد من هذه السلسلة الذهبية الذين كان لهم اهتمام بالسنة النبوية الشريفة؛ فإلى جانب إمامته في التفسير هو إمام في الحديث أيضاً، وذلك راجع إلى أمور عدة أهلتة إلى هذه المرتبة أذكر منها:

أولاً: تعلمه لعلم الحديث النبوي الشريف في بداية حياته العلمية على يد عدد كبير من شيوخ الحديث؛ حيث تلقى علم الحديث بأدرنة⁽¹⁾ على يد الشيخ العالم العلامة المولى اللطفي⁽²⁾، الذي يعد أول شيوخ ابن كمال بعد عزمه ترك جميع المناصب التي أسندت إليه والانقطاع كلياً إلى العلم، وقصته مشهورة في هذا الجانب، وقد تناولتها في بداية هذه الدراسة. والمولى اللطفي يعد من كبار المحدثين في عصر ابن كمال باشا زاده.

ثانياً: ما ألفه ابن كمال باشا زاده في علوم الحديث النبوي الشريف، وإليك بعض هذه التأليف:

(1) هي المدينة الثانية من مدن تركيا، تبعد عن العاصمة بمائة وستين كيلومتراً. (انظر: دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي: 1/ 119).

(2) انظر ترجمته في الفوائد البهية، ص: 21.

1- أربعون في الحديث، جمع فيه الأحاديث النبوية الشريفة، وشرحها شرحا وافيا⁽¹⁾.

2- شرح مشارق الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية، وكتاب مشارق الأنوار للصاغاني⁽²⁾، وقد جمع في مؤلفه هذا الأحاديث الصحيحة، وعددها ألفان ومائتان وستة وأربعون حديثا، كما بين في آخر كل باب من الأبواب الحديثية نوع وعدد الأحاديث وقال:

هذا كتاب أرتضيه وأستضيئ بضياءه والعقل هذا يقتضي⁽³⁾

وشرح ابن كمال لهذا الكم الكبير من الأحاديث فيه جهد لا يستهان به وفائدة عظيمة لقارئه.

3- شرح مصابيح السنة للبغوي⁽⁴⁾.

4- شرح صحيح البخاري⁽⁵⁾، وصحيح البخاري يأتي في المرتبة الأولى ضمن كتب الحديث النبوي الشريف؛ فقد تلقته الأمة بالقبول، وتناوله شراح أجلاء من خلال شروحاتهم المتميزة، وشرف ابن كمال بانضمامه إلى هؤلاء الشراح الكبار.

(1) انظر: كشف الظنون: 1 / 54.

(2) هو حسن بن محمد بن الحسن بن حيدر، العدوي، الصاغاني، عالم من أهل اللغة في عصره، كان فقيها محدثا، ولادته في لاهور بالهند، ورحل إلى اليمن وبغداد، له مجمع البحرين في اللغة، ومشارق الأنوار في الحديث. كانت وفاته رحمه الله ببغداد سنة خمسين وستمائة. (انظر: الفوائد البهية، ص: 63، والأعلام: 2 / 232).

(3) انظر: كشف الظنون: 2 / 1689.

(4) هو حسين بن مسعود بن محمد، الفراء، أبو محمد، الملقب بمحيي السنة، فقيه ومحدث ومفسر ينسب إلى بُغا من قرى خراسان. من مؤلفاته: شرح السنة في الحديث، ومعالم التنزيل في التفسير، ومصابيح السنة في الحديث، كانت وفاته رحمه الله سنة عشر وخمسمائة. (انظر: وفيات الأعيان: 1 / 145، والأعلام: 2 / 284).

(5) انظر: كشف الظنون: 1 / 554.

ثالثا: ما قاله العلماء السابقون في حق ابن كمال باشا زاده، واعترافهم له بالمكانة العلية والبارزة في علوم الحديث النبوي الشريف . قال اللكنوي⁽¹⁾ : دخل ابن كمال القاهرة⁽²⁾ صحبة السلطان سليم لما أخذها من يد الجراكسة⁽³⁾ ، وشهد له أهلها بالفضل والإتقان⁽⁴⁾ .

أما التميمي⁽⁵⁾ فقد قال في حقه -رحمه الله- : « وأجاز له بعض علماء الحديث بها (أي القاهرة) وأفاد واستفاد، وحصل بها علو الإسناد، وشهد له علماؤها بالفضائل الجمة . والإتقان في سائر العلوم المهمة⁽⁶⁾ . بل إن التميمي عند مقارنته بين السيوطي⁽⁷⁾ وابن كمال ذهب إلى تفضيل هذا الأخير قائلا : « وعندي أن ابن كمال أدق نظرا من السيوطي، وأحسن فهما وأكثر تصرفا، على أنهما كانا جمال ذلك العصر، وفخر ذلك الدهر⁽⁸⁾ .

رابعا: ما نقل عنه -رحمه الله- من اهتمام بالسنة النبوية الشريفة، التي تعد الأصل الثاني من الأصول التي اعتمدها في تفسيره القيم؛ فقد

(1) هو محمد عبد الحي بن محمد عبد الحليم، الأنصاري، اللكنوي، الهندي، أبو الحسنات، من فقهاء الحنفية، صاحب الفوائد البهية في تراجم الحنفية، توفي رحمه الله سنة 1304 هـ. (انظر الفوائد البهية، ص: 248، والأعلام: 59/7).

(2) هي عاصمة جمهورية مصر الحالية.

(3) تعرف بدولة المماليك الجراكسة. (انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 90-261).

(4) الفوائد البهية، ص: 22.

(5) هو تقي الدين بن عبد القادر التميمي، الغزي، الحنفي، عالم بالأدب، توفي بمصر رحمه الله سنة 1010 هـ. (انظر معجم المؤلفين: 91/3).

(6) الطبقات السنية: 411/1.

(7) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضير السيوطي، جلال الدين: إمام حافظ مؤرخ أديب، كانت ولادته سنة 849 هـ، ووفاته سنة 911 هـ. (انظر الكواكب السائرة: 226/1، وشذرات الذهب: 51/8، والأعلام: 302-301/3).

(8) الطبقات السنية: 412/1.

بين أنها ركن من أركان الشريعة، فعند تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾⁽¹⁾. يقول ابن كمال: «الكتاب: القرآن، والحكمة: السنة المنقسمة إلى القولية والفعلية كالحكمة، وفيه تنبيه على أن السنة التي هي إحدى أركان الشريعة من قبيل الوحي غير المتلو».

وعموما فقد أورد ابن كمال في تفسيره كثيرا من الأحاديث، وأضافها إلى من خرجها من الأئمة كالبخاري ومسلم، لكنه لا يذكر سندها في الغالب ولعله سار على هذا المنهج للاختصار، غير أنه لا يلتزم الصحة في السند في بعض الأحيان فيأتي بالأحاديث الضعيفة، وتارة يذكر راوي الحديث، وأخرى يترك ذكره، وقد يقوم بتخريج الحديث، وقد لا يقوم به في بعض الأحيان:

أولا: عنايته — رحمه الله — بالأحاديث الصحيحة والاقتصار عليها والدعوة إلى التمسك بها، فمن توظيفات ابن كمال للسنة النبوية الصحيحة، مع تخريج الحديث النبوي الشريف، ما ذكره عند تفسير قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽²⁾ قال: «وإطلاق الرب على غيره تعالى لا يجوز شرعا، لا مطلقا ولا مقيدا لما رواه الشيخان عن أبي هريرة⁽³⁾ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: «لا يقل أحدكم أتعلم ربك، وضئ ربك، اسق ربك، ولا يقل أحدكم ربي، وليقل سيدي»⁽⁴⁾. وأما قول يوسف⁽⁵⁾ عليه

(1) الآية: 113 من سورة النساء.

(2) من الآية: 1 من سورة الفاتحة.

(3) هو عبد الرحمن بن صخر المشهور بأبي هريرة، توفي رحمه الله سنة تسع وخمسين، ودفن بالبقيع. (انظر ترجمته في الإصابة: 203/4، أسد الغابة: 318/6، طبقات ابن سعد: 362/3، سير أعلام النبلاء: 578/2، حلية الأولياء: 378/1).

(4) انظر: فتح الباري، كتاب العتق، باب: كراهية التطاول على الرقيق، حديث رقم: 25522: 177/5.

(5) انظر تاريخ الطبري: 128/1.

السلام: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾⁽¹⁾، ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾⁽²⁾، فمحمول على الحكاية على الله تعالى، لأنه عليه السلام كان يتكلم بالعبرية، فلا حاجة إلى ما قيل: إنه ملحق بقوله تعالى: ﴿وَاخْرُؤْ لَهُ مَجْدًا﴾⁽³⁾ في الاختصاص بزمانه، بل لا وجه كما لا يخفى. ويجوز لغة، ولو مطلقا، كما وقع في شعر الحارث بن حلزة⁽⁴⁾ من شعراء الجاهلية يمدح ملكا:

وَهُوَ الرَّبُّ وَالشَّهيدُ عَلَى يَوْمِ الْحَيَارَيْنِ وَالْبَلَاءِ بَلَاءٌ⁽⁵⁾

ثم ما ذكره عند تفسير قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَقْدُمُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾⁽⁶⁾ قال: جاء في الأحاديث الصحاح: أن الأعمال نفسها تتجسد يوم الجزاء وتوجد نفسها.

ثانيا: ابن كمال يورد بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة في تفسيره: رغم حرص ابن كمال في نقل الأحاديث النبوية الشريفة والاستشهاد بها؛ فقد أورد -رحمه الله- في تفسيره بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ولم يعقب عليها أو يذكر مدى درجتها من الصحة.

(1) من الآية: 49 من سورة يوسف.

(2) من الآية: 23 من سورة يوسف.

(3) من الآية: 100 من سورة يوسف.

(4) هو الحارث بن حلزة بن مكروه بن يزيد اليشكري الوائلي: شاعر جاهلي، من أهل بادية العراق، وهو أحد أصحاب المعلقات. كان أبرص فخورا، ارتجل معلقته بين يدي عمرو بن هند الملك بالحيرة، توفي سنة 50 قبل الهجرة. (انظر: خزنة البغدادى: 1/ 158، والأعلام: 2/ 154).

(5) انظر: الخزنة 1/ 158

(6) من الآية: 110 من سورة البقرة.

ومن أمثلة ذلك، ما ذكره -رحمه الله- عند تفسير قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَرِئَاءَكُمْ⁽¹⁾ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ⁽²⁾﴾؛ حيث فرق ابن كمال بين الربيبة وأُمها فقال رحمه الله:

«والمعنى: ولا يجوز أن يكون «اللاتي» وصفا لـ «نساءكم»، من قوله تعالى: ﴿وَأُمّهَاتِ نِسَائِكُمْ﴾، لعدم الحاجة في إفادة المعنى المراد إلى قوله: «من نساءكم»، والكلام البليغ يجب صونه عن الحشو، والرسول فرق بين أم المرأة وبناتها، فقال⁽³⁾ في رجل تزوج امرأة وطلقها قبل أن يدخل بها: لا بأس أن يتزوج ابنتها، ولا يحل له أن يتزوج أمها. والباء في «بهن» للتعدية.

والمعنى: أدخلتموهن الستر وهي كناية عن الجماع وعندنا يقوم اللمس⁽⁴⁾ مقامه، وهذا الدخول شرط بالإجماع، بخلاف كون الرئائب في حُجُورهم، فإنه خرج على الأغلب، وليس بشرط عند عامة العلماء»، انتهى.

فالظاهر أن الحديث الذي استشهد به ابن كمال ضعيف من حيث سنده، وتركه وعدم الاحتجاج به أولى.

وعند تفسير قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَكِيمٌ غَبِيرٌ⁽⁵⁾﴾ استشهد

(1) الربيبة: هي بنت الزوجة من رجل آخر. (انظر: أحكام القرآن للجصاص: 2/173، والفقهاء الإسلاميين وأدلتهم للزحيلي: 7/133).

(2) الآية: 23 من سورة النساء.

(3) لحديث رواه الترمذي في الجامع الصحيح تحت رقم: 1126، وقال عنه: هذا حديث لا يصح من قبل إسناده، ونص العلماء على ضعف إسناده. (انظر: إرواء الغليل للالباني: 6/286).

(4) المراد أن اللمس يقوم مقام الدخول عند الحنفية والمالكية، أما الحنابلة والشافعية فيشترطون الدخول، وهو الراجح والظاهر من النص القرآني، والله أعلم.

(5) انظر: بداية المجتهد: 2/25، وأحكام القرآن لابن العربي: 1/486).

(5) الآية: 97 من سورة آل عمران.

ابن كمال بحديث موضوع؛ حيث قال رحمه الله: «وضع» كفر» موضع «لم يحج» تأكيداً لوجوبه، وتعليظاً على تارك الحج، وتشديداً عليه، ولذلك قال عليه السلام: (من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا) (1).

وعموماً إن الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة والموضوعة لم يسلم منها تفسير من التفاسير؛ إذ كانت مهمة المفسرين الأوائل -رحمهم الله- جمع كل ما يستطيعون من الروايات والأحاديث النبوية الشريفة ومختلف النصوص، تاركين المهمة للمحققين ليميزوا الصحيح من السقيم.

ثالثاً: نسبته الحديث النبوي الشريف لغير النبي ﷺ: ومن أمثلته، تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَالُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ إِلَّا نَارٌ لَأَخْرَجْنَا مِنْهُ نَارًا تَنْبُتُ السَّيِّئِينَ﴾ (2)، حيث قال: «أي على حب المال والشح به كما قال (3) علي (4) رضي الله عنه، لما سئل: أي الصدقة أفضل؟ أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح، تأمل العيش وتخشى الفقر»، انتهى.

رابعاً: استشهاده -رحمه الله- بالحديث دون ذكر سنده أو درجته أو مصدره من كتب الحديث النبوي الشريف، ومثاله عند تفسير قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ (5)؛ حيث قال: «الختم والطبع: الأثر

(1) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح تحت رقم: 809، كتاب الحج، وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده مقال.

(2) من الآية: 177 من سورة البقرة.

(3) هو ليس من كلام علي رضي الله عنه، بل هو حديث صحيح عن النبي ﷺ. (انظر: صحيح البخاري، كتاب الوصايا، الباب السابع، حديث رقم: 2748، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم: 1032).

(4) هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ... أمير المؤمنين. (انظر: أسد الغابة: 91/4).

(5) من الآية: 7 من سورة البقرة.

الحاصل عن نقش، ويتجاوز به عن الاستيثاق من الشيء والمنع منه، نظرا إلى ما يحصل بالختم على الكتب والأبواب بالمنع، وقد يقال ذلك ويعني به بلوغ آخر الشيء نظرا إلى أنه آخر فعل في إحراز الشيء، ومنه ختمت القرآن، ولم يرد به هنا الختم في بدء الفطرة ليكون التكليف ضائعا ويخالف ما روي⁽¹⁾ عن النبي عليه السلام شائعا من أن كل مولود يولد على الفطرة؛ أي: على الخلقة القابلة للإسلام»، انتهى.

ومنه كذلك تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَسْمِعُوا لِلصَّابِرِ وَالصَّلَاةِ﴾⁽²⁾؛ حيث قال -رحمه الله-: «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه⁽³⁾ أمر فزع إلى الصلاة»، انتهى.

ومنه تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَتَخَفُوا آيَاتَ اللَّهِ هَزْوَ﴾⁽⁴⁾؛ حيث قال رحمه الله: «بالإعراض عنها والتهاون في العمل بما فيها، من قولهم لمن لم يجد في الأمر: إنما أنت هازئ، كنى بالنهي عن الهزء عن الأمر بالجد، قيل: كان الرجل يطلق ويعتق ويتزوج، ويقول: كنت لاعبا، فنزلت⁽⁵⁾، وعن⁽⁶⁾ النبي عليه السلام: (ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: الطلاق والنكاح والرجعة) انتهى.

(1) انظر: فتح الباري: كتاب التفسير، باب: لا تبديل لخلق الله، حديث: 4775.

(2) من الآية: 45 من سورة البقرة.

(3) انظر: مسند أحمد: 1/206.

(4) من الآية: 231 من سورة البقرة.

(5) انظر: لباب النقول، ص: 46.

(6) انظر: سنن ابن ماجه، كتاب الطلاق، رقم الباب: 13، حديث رقم: 2039.

خامسا: اكتفاؤه — رحمه الله — بالإشارة إلى مضمون الحديث أو معناه أو موضوعه أو بالاكتفاء بموضع الاستشهاد فقط .

ومثله عند تفسيره قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِن عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾⁽¹⁾ قال رحمه الله: «يعني لا يهون على أحد إلا على الخاشعين، لأنه استثناء مفرغ من كلام موجب، فلا بد من تأويل النفي . والخشوع: هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع، وفيه إشارة إلى أن الصلاة التي تخف على غير الخاشعين مسماة باسمها، وليست هي في حكمها، فإن قيل: هلا يلزم أن يكون ثواب غير الخاشع أكثر، لما جاء في الخبر أن: «أكثر الأعمال ثوابا أشقها»⁽²⁾ . قلنا: لا يلزم ذلك، لأن مفهوم الخبر أن الأعمال المتساوية في اشتمال الأركان والشرائط، وسائر ما يجب رعايته أو يستحب أكثرها ثوابا أشقها»، انتهى .

والمثال الآخر، ما ذكره عند تفسير قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَنَبِّئُوهُمْ وَرَدِّ نَصْرَهُمْ﴾⁽³⁾ قال «النبذ: الرمي والإبعاد . وفي الحديث⁽⁴⁾: «إنه مرقب قبر منتبذ عن القبور، أي منفرد بعيد عنها . والوراء كما يطلق على الخلف، يطلق على الأمام؛ فإضافته إلى الظهر لتعيين معنى الخلف»، انتهى .

سادسا: اعتماده — رحمه الله — على الحديث الشريف في بيان معاني الألفاظ القرآنية .

(1) من الآية: 45 من سورة البقرة .

(2) انظر: مسند أحمد: 5/150، والتفسير الكبير: 2/236 .

(3) من الآية: 187 من سورة آل عمران .

(4) انظر: سنن الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء في الصلاة على القبر، حديث رقم: 1037: 3/346 .

استعان ابن كمال - رحمه الله - بالحديث الشريف في تفسير كثير من الألفاظ القرآنية الواردة في تفسيره، وهو منهج غلب على تفسيره من بدايته إلى نهايته. وسأكتفي بذكر بعض النماذج.

النموذج الأول: ما ذكره عند تفسير قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب﴾⁽¹⁾؛ حيث قال: «أي تحسر أو هلاك، روى⁽²⁾ عثمان⁽³⁾ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عن النبي ﷺ: (الويل: جبل في النار) وفي رواية⁽⁴⁾ أبي سعيد الخدري⁽⁵⁾ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واد في جهنم». انتهى.

النموذج الثاني: تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿والصلاة الومصر﴾⁽⁶⁾ قال: «أي المتوسطة بين الصلوات الخمس: ثنتان يوميتان، وثنان ليليتان، وهي صلاة العصر لما روي⁽⁷⁾ أنه عليه السلام قال يوم الأحزاب⁽⁸⁾: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم ناراً»، انتهى.

(1) من الآية: 79 من سورة البقرة.

(2) انظر: سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنبياء عليهم السلام: 320/5. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث ابن لهيعة.

(3) هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، يجتمع هو ورسول الله ﷺ في عبد مناف... وهو ذو النورين، وأمير المؤمنين. (انظر: أسد الغابة: 584/3). وكانت ولادته سنة 47 قبل الهجرة، ووفاته سنة 35 هـ. (انظر الأعلام: 210/4).

(4) انظر: مسند أحمد: 75/3، وهو مروي كذلك في الجامع: 167/2، وصححه. وفي المستدرک، كتاب التفسير، من سورة المدثر: 507/2.

(5) هو سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي، أبو سعيد، صحابي، كان من ملازمي النبي ﷺ. ولد سنة 10 قبل الهجرة، وتوفي سنة 74 هـ. (انظر: تهذيب التهذيب: 479/3، والأعلام: 87/3).

(6) من الآية: 238 من سورة البقرة.

(7) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، رقم الباب: 42، رقم الحديث: 4533.

(8) كانت هذه الغزوة سنة خمس من الهجرة، وفي شهر شوال. (انظر: سيرة ابن هشام: 220/2، وكتاب المغازي: 590/2، والرحيق المختوم، ص: 355).

النموذج الثالث: تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْتَرَلُوا النساء في المحيض ولا تقربوهن﴾⁽¹⁾؛ حيث قال: «وأصل الاعتزال، العدول عن الشيء. ولما كان الإنسان قد يتحمل الأذى ولا يراه محرماً، صرح بالحكم ولم يكتف بذكر العلة. وإنما أكد بصيغتي نهى وأمر مبالغة في المنع لما أن الزوجين يجتمعان غالباً ومعهما داعيان إليه ظاهراً، والدليل على أن المراد: الاجتناب عن مجامعتهم قوله عليه السلام: (إنما أمركم أن تعتزلوا مجامعتهم إذا حضن، ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم)⁽²⁾ وهو الاقتصاد بين إفراط اليهود وتفريط النصارى فإنهم كانوا يجامعونهن ولا يبالون بالمحيض»، انتهى.

سابعاً: استشهاده بالحديث النبوي الشريف، للدلالة على حكم شرعي أو مسألة فقهية.

والأمثلة في هذا كثيرة جداً في تفسيره، وسأكتفي بمثالين اثنين فقط للإيجاز.

أ- ما ذكره عند تفسير قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقْرَبُ الْيَتَامَى أموالهم﴾⁽³⁾؛ حيث قال: «قال عليه السلام: (لا يتم بعد الحلم)⁽⁴⁾؛ أي لا يجري عليه أحكام اليتيم، ولا يحتاج إلى الولي. والمراد في الآية: البلوغ على الاتساع لقرب عهدهم بالصغر، حثاً على أن يدفع إليهم أموالهم أول بلوغهم قبل أن يزول عنهم هذا الاسم. روي أن

(1) من الآية: 222 من سورة البقرة.

(2) انظر: صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب: جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله: 138/1-139.

(3) من الآية: 2 من سورة النساء.

(4) انظر: سنن أبي داود، كتاب الوصايا، باب ما جاء: متى ينقطع اليتيم، حديث رقم: 2873، وانظر: كشف الخفا: 2/499.

رجلا من غطفان⁽¹⁾ كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ طلب المال منه، فمنعه فنزلت⁽²⁾ فلما سمعها العم، قال: أطعنا الله ورسوله، نعوذ بالله من الحوب⁽³⁾ الكبير»، انتهى.

ب- تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ﴾⁽⁴⁾؛ حيث قال: «قال عليه السلام لامرأة: «دعي الصلاة يوم قرئك»⁽⁵⁾، أي: حيضك. وقال⁽⁶⁾ لعبد الله بن عمر⁽⁷⁾: «إن من السنة أن يطلقها في كل قرئ تطليقة»، أي في كل طهر.

وقال أبو حنيفة: إن المراد من القرء هنا الحيض. وقال الشافعي⁽⁸⁾ : المراد: الطهر، وقوله⁽⁹⁾ عليه السلام (طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان) صريح في الأول، وإنما جاء المميز على جمع الكثرة دون القلة، التي هي الأقراء، اعتبارا لما في المطلقات من معنى العموم، فإن المعنى:

(1) وغطفان حي من قيس عيلان، وهو غطفان بن سعد بن قيس عيلان. (انظر اللسان: غطف).

(2) انظر: أسباب النزول للواحدي، ص: 142.

(3) والحوب والحوب والحباب: الإثم. (انظر اللسان: حوب).

(4) من الآية: 228 من سورة البقرة.

(5) انظر: سنن الترمذي، كتاب الطهارة، حديث رقم: 126، وسنن أبي داود، كتاب الطهارة، حديث رقم: 126، ونصب الراية: 1/ 201.

(6) انظر صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتْكُمْ وَالْحَصْوَ الْعَدَّةُ﴾ حديث رقم: 5251.

(7) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمن: صحابي، من أعز بيوتات قرش في الجاهلية... وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة سنة 73هـ. أما ولادته فكانت 10 قبل الهجرة. (انظر: الإصابة، ترجمة 4825، وابن خلكان: 1/ 246، والأعلام: 4/ 108).

(8) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي، أبو عبد الله: أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة... ولد في غزة بفلسطين سنة 150هـ، وتوفي ببغداد سنة 204هـ. (انظر: تهذيب التهذيب: 9/ 25، والوفيات: 1/ 447، وغاية النهاية: 2/ 95، وصفة الصفوة: 2/ 140، وحلية الأولياء: 9/ 63، والأعلام: 6/ 26-27).

(9) انظر: سنن أبي داود، كتاب الطلاق، حديث رقم: 2189.

ليتربص كل واحدة من المطلقات ثلاثة قروء، فلما أسند إلى جماعتهم، والواجب على كل واحدة منهن ثلاثة، أتى بلفظ القروء ليدل على الكثرة المرادة»، انتهى.

ثامنا: توضيحه — رحمه الله — لبهم القرآن الكريم وتفصيل مجمله بالسنة النبوية الشريفة.

ومثاله: ما ذكره عند تفسير قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَتَمُوا الْعِمَّ وَالْعَمْرَ لِلَّهِ فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا امْتَسِرْ مِنَ الْعَمْرِ﴾⁽¹⁾؛ حيث قال: «أي: منعتهم، يقال: أحصر فلان، إذا منعه أمر من خوف أو مرض أو عجز. قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْغَنِينَ أَحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾»⁽²⁾ وقال ابن ميادة⁽³⁾:

وما هجر ليلي أن تكون تباعدت عليك ولا إن أحصرتك شغول⁽⁴⁾

ويقال: حصر، إذا حبسه عدو عن المضي أو سجن، هذا هو الأكثر في كلامهم. وقد نص⁽⁵⁾ عليه الخليل⁽⁶⁾؛ حيث قال: الحصر: الحبس، والإحصار أن يحصر الحاج عن بلوغ المناسك بمرض أو غيره، ويوافقه

(1) الآية: 196 من سورة البقرة.

(2) من الآية: 272 من سورة البقرة.

(3) هو الرماح بن أبرد بن ثوبان الذبياني الغطفاني، أبو شرحبيل، شاعر رقيق، يحكى عنه أنه كان كثير الهجاء وكثير المدح للوليد بن يزيد، وميادة أمه، كانت وفاته سنة 149هـ. (انظر الأعلام: 3/31).

(4) انظر: تفسير القرطبي: 50/4، و 248/2.

(5) انظر: مجاز القرآن: 69/1، ومعاني الأخفش: 355/1.

(6) هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليجمدي، أبو عبد الرحمن: من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، ولد ومات في البصرة (170-100هـ). (انظر: وفيات الأعيان: 1/172، والأعلام: 314/2).

قول الكسائي⁽¹⁾ وأبي عبيدة⁽²⁾. وقال الفراء⁽³⁾ وأبو عمرو الشيباني⁽⁴⁾: هما بمعنى المنع في كل شيء مثل: صده وأصده. وعن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم: «من كسر أو عرج فقد أحصر»⁽⁵⁾ وهو مذهب أصحابنا»، انتهى.

وأخيراً، يمكن القول إن ابن كمال كان فائقاً في عنايته بعلوم الحديث النبوي الشريف، دراية ورواية، حيث استطاع أن يسخر هذا العلم في تفسيره ليخدم به الدرس القرآني في أبوابه، فكانت استشهاداته بالأحاديث النبوية الشريفة قوية في مجالاتها. وتفسيره الذي بين أيدينا خير شاهد على ذلك، وقد نجد ابن كمال لا يلتزم في بعض الأحيان، من خلال تفسيره بهذا المنهج؛ حيث نجده يستشهد بأحاديث في غاية الضعف وهو في هذا لا يعد نشازاً بل هو أمر غلب على أهل التفسير بدون استثناء؛ حيث نجدهم في بعض الأحيان لا يعتمدون على كتب الحديث المعتمدة، ويوردون ما يجدونه من روايات من تفاسير السابقين دون تمحيص وتدقيق، فكان ابن كمال -رحمه الله تعالى- واحداً من هؤلاء.

(1) هو علي بن حمزة بن عبد الله، أبو الحسن، المعروف بالكسائي، مقرئ، لغوي شاعر، نشأ بالكوفة، واستوطن بغداد. توفي رحمه الله سنة 189هـ. (انظر تاريخ بغداد: 11/ 403، ومعجم المؤلفين: 7/ 84).

(2) هو معمر بن المثنى، أبو عبيدة البصري، لغوي وأديب ونحوي، كانت ولادته بالبصرة سنة 112هـ، وكانت وفاته سنة 210هـ. (انظر: تاريخ بغداد: 13/ 252، ومعجم المؤلفين: 12/ 309).

(3) هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، مولى بني أسد (أو بني منقر) أبو زكرياء، المعروف بالفراء: إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، ولد بالكوفة سنة 144هـ، وتوفي في طريق مكة سنة 207هـ. (انظر: وفيات الأعيان: 2/ 228، ونزهة الألباء، ص: 126، والأعلام: 8/ 145-146).

(4) هو زبَّان بن عمار التميمي المازني البصري، أبو عمرو، ويلقب أبوه بالعلاء، من أئمة اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة، ولد بمكة سنة 70هـ، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة سنة 154هـ. (انظر: فوات الوفيات: 1/ 164، وابن خلكان: 1/ 386، والأعلام: 3/ 41).

(5) رواه الإمام في المسند: 3/ 450، وأبو داود في السنن، كتاب المناسك، حديث رقم: 1862، والترمذي، كتاب الحج، حديث رقم: 940، وابن ماجه، كتاب المناسك، حديث رقم: 3077.

ثانياً: عنايته الفائقة باللغة العربية وعلومها

تعتبر اللغة العربية من أهم الوسائل لتعلم القرآن الكريم وفهمه ومعرفة ما فيه من عقيدة وشريعة؛ فكلما ازداد الإنسان علماً باللغة العربية وفنونها، ازداد ثراء بالدراسات القرآنية، لأنها هي اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾⁽¹⁾، وقال جل شأنه: ﴿نَزَّلَهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾⁽²⁾.

كان لابد من تعلم اللغة العربية باعتبارها شرطاً ينبغي أن يتوفر عليه المفسر مع الشروط الأخرى، كمعرفة علوم القرآن من ناسخ ومنسوخ، وقرآيات قرآنية، وعلوم حديث وأصول وعقيدة وغيرها، قال⁽³⁾ مجاهد⁽⁴⁾ —رحمه الله— وهو من كبار المفسرين الأوائل: «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب».

وإذا كنت بصدد الحديث عن ابن كمال، باعتباره مفسراً، ودراسة كتابه، باعتباره كتاب تفسير، فإنني وجدت توافراً لهذا الشرط عنده بالإضافة إلى الشروط الأخرى التي ذكرها العلماء؛ فابن كمال جعل اللغة العربية أصلاً من أصول التفسير عنده، وأساساً من أسس منهجه الذي أقام عليه تفسيره، وذلك لنبوغته في هذا العلم. ويظهر هذا جلياً من خلال ما يأتي:

(1) من الآية: 2 من سورة يوسف.

(2) الآيات: 193-194-195 من سورة الشعراء.

(3) انظر البرهان للزركشي: 292/1.

(4) هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي مولى السائب بن أبي السائب، قال سفيان الثوري: خذوا التفسير من أربعة: مجاهد وسعيد بن جبيرة وعكرمة والضحاك. توفي سنة 104 هـ. (انظر طبقات ابن سعد: 466/5، تهذيب التهذيب: 42/10، والأعلام: 279/5).

أولاً: ما ألفه من مؤلفات في اللغة العربية وعلومها، وذلك من خلال تنويه بعض العلماء الذين ترجموا له، قال التميمي: «وله كتاب سماه «دقائق الحقائق»، أبدع فيه إلى الغاية، حتى لو قيل: لو لم يكن له في اللسان إلا هذا لكفاه دليلاً على تبحره فيه، وإطلاعه على دقائقه»⁽¹⁾.

ومن المؤلفات التي لها مكانتها المتميزة بين الباحثين «مفتاح العلوم» للسكاكي⁽²⁾، وهو الكتاب الذي جمع فيه صاحبه مختلف فنون اللغة، فعزم ابن كمال في حياته على شرحه، فغير النص وسماه «تغيير المفتاح»، ثم وضع عليه شرحاً لم يتممه، فجاء بعده العالم المشهور بـ «علي منق» فكتب على حاشية ابن كمال شرحاً سماه «إفاضة الفتاح في حاشية تغيير المفتاح»⁽³⁾.

ولم تقف همة ابن كمال عند هذا الحد، بل له مؤلفات في المعاني والبيان والمشكلة والتصريف والحال والمجاز والتوسع والتغليب⁽⁴⁾.

وقد ذكرت جلها حينما تحدثت عن مؤلفات ابن كمال في الباب الأول من هذا البحث.

ثانياً: ما تمتع به من مناقشات لغوية في ثنايا تفسيره؛ حيث اعتمد على اللغة في بيان كثير من المعاني، مع التأكيد على ذلك بأشعار العرب وتطرقه للإعراب إلى آخره، فنجده كثيراً ما يحدد المعنى اللغوي، وعلى

(1) انظر: الطبقات السننية: 1/412.

(2) هو يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي، سراج الدين. عالم بالعربية والأدب، ولد بخوارزم، وتوفي بها سنة 626هـ. (انظر: بغية الوعاة، ص: 425، والفوائد البهية، ص: 231).

(3) انظر: كشف الظنون: 2/1766.

(4) انظر: الشقائق النعمانية، ص: 227.

أساسه يفسر الكلمة أو يستنبط حكما من الأحكام الشرعية من الآية .
وسياتي تبسيط كل هذا من خلال أمثلة عملية .

ثالثا: اعتماده على الدراسات اللغوية المقارنة وذلك لتضلعه
—رحمه الله— في معرفة العديد من اللغات، ومن مؤلفاته في هذا:
« تعريب الكلمة الأعجمية »، كما أن له إبداعا في إنشاء الموسوعات
اللغوية مثل مؤلفه « محيط اللغة »، الذي قام من خلاله بترجمة بعض
اللغات إلى الفارسية⁽¹⁾ . ومن أبرز مؤلفاته في هذا الفن: رسالته في بيان
مزية اللسان الفارسية على سائر اللغات ما خلا العربية⁽²⁾ .

رابعا: تميزت دراساته اللغوية بالتصحيح والتصويب كرسالته:
التنبيه على غلط الجاهل والنبیه؛ حيث عالج من خلالها اللحن، الذي
تفشى بين العرب، وذلك لاختلاطهم بغيرهم، مما أدى إلى ابتعاد الناس
عن السليقة العربية .

وبالجملة، فإن ابن كمال عرض قضايا وأبحاثا لغوية مختلفة تعد
في جملتها ركيزة أساسية واتجاها واضحا في تفسيره، كما دلت على
مدى تمكنه من اللغة العربية ورسوخ قدمه فيها .

هذا وسأحاول، إن شاء الله، تناول الموضوعات والأبحاث اللغوية
التي أوردها ابن كمال في تفسيره من خلال ما يأتي:

1— المعاني .

2— اللغات .

3— الاشتقاق .

4— النحو والصرف .

(1) انظر التفصيل في هذا: كشف الظنون: 2/ 1621 .

(2) ذكرت هذه الرسالة في كشف الظنون: 1/ 887 .

5-البلاغة .

6-الشعر .

7-الأمثال .

1 - المعاني:

إن منهج ابن كمال في هذا هو أن يأتي باللفظ القرآني، ثم يذكر أصله اللغوي، ثم يشرع في بيان معناه أو المعاني التي ترد عليه، ثم يذكر هدفه الذي أقامه على المعنى . والأمثلة في هذا كثيرة جدا في تفسيره . وسأكتفي بذكر بعض منها:

أ- ما ذكره عند تفسير قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِلَٰهَ أُمَانِي﴾⁽¹⁾؛ حيث قال : « والأمانى : جمع أمنية أفعولة من التمني ، وهو التقدير ، ولها معان ثلاثة :

التمنيات : لأن المتمني يقدر في نفسه ما يشتهي ويتخيله .
أو الأكاذيب : إذ الكاذب يقدر في نفسه ويتخيل شيئا لا وجود له .
أو المقروءات : لأن القارئ يقدر عنه قراءته في نفسه أن كلمة كذا بعد كذا ...

فالمعنى : ولكن يعتقدون أكاذيب من المحرفين أو مواعيد فارغة سمعوها منهم » ، انتهى .

ب- تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلُ﴾⁽²⁾ ؛ حيث قال : « من البهلة -بفتح الباء وضمها- وهي اللعنة ، وأصل الابتهاال ،

(1) من الآية : 78 من سورة البقرة .

(2) من الآية : 61 من سورة آل عمران .

الالتعان، ثم استعمل في كل دعاء يجتهد الإنسان عليه، وإن لم يكن التعانا. والمباهلة: الملاعنة؛ أي نتباهل بأن نقول: بهلة الله على الكاذب منا ومنكم»، انتهى.

ج- تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿عَوْجًا﴾⁽¹⁾؛ حيث قال: «والعوج -بكسر العين- الميل والانحراف في المعاني، وافتحها في الخبث؛ أي تطلبون اعوجاجا وميلا عن الاستقامة»، انتهى.

د- تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَنُونَ بِالْجِبْتِ وَالْهَافُوتِ﴾⁽²⁾، حيث قال -رحمه الله-: «الجبت في الأصل: اسم صنم، ثم أطلق على كل ما عبد من دون الله»، انتهى.

ولم يكتف ابن كمال بهذا المنهج في تفسيره، بل كان اعتماده على كثير من أئمة اللغة العربية وأئمة التفسير في شرح معاني الألفاظ القرآنية واضحا، ومن أمثلة ما أقول ما يأتي:

1- قوله: «قال جمع أئمة التفسير والعربية: إن معنى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾⁽³⁾: هذا الكتاب»، انتهى.

2- قوله: «قال⁽⁴⁾ الراغب⁽⁵⁾ في الفرق بين الشك والريبة والريب أن الشك: وقوف النفس بين شيئين متقابلين بحيث لا يترجح أحدهما على الآخر بأمانة.

(1) من الآية: 99 من سورة آل عمران.

(2) من الآية: 50 من سورة النساء.

(3) من الآية: 2 من سورة البقرة.

(4) انظر: المفردات، ص: 272.

(5) هو الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب، أديب، من الحكماء العلماء، لم يذكر الرواة تاريخ ولادته، لكنهم ذكروا سنة وفاته التي كانت 502هـ. (انظر: كشف الظنون: 36/1، والبداية والنهاية: 183/12، والشذرات: 34/4، والأعلام: 255/2).

والمرية: التردد في المتقابلين وطلب الأمانة، مأخوذ من مري الضرع؛ أي مسحته للذر فكأنه يحصل مع الشك تردد في طلب ما يقتضي غلبة الظن.

والريب: أن يتوهم في الشيء أمانة إثم ينكشف عما توهم فيه، انتهى.

3- عند تفسيره قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ورفعنا فوقكم الصور﴾⁽¹⁾؛ حيث قال: «قال⁽²⁾ الواحدي⁽³⁾: الطور: الجبل بالسريانية وقد تكلمت به العرب»، انتهى.

4- قوله عند تفسير قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وأحاطت به خشيته﴾⁽⁴⁾: «قال القفال⁽⁵⁾: كل ذنب خطأ وخطيئة، لأنه ليس بصواب، وفي الأساس أخطأ في المسألة وفي الرأي، وخطئ خطأ: إذا تعدد الذنب»، انتهى.

5- قوله: «قال ابن جني⁽⁶⁾: العرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه، ومنع صرفه للعجمة والتعريف، ومعناه: عبد الله⁽⁷⁾»، انتهى.

(1) من الآية: 63 من سورة البقرة.

(2) انظر: الوسيط:

(3) هو علي بن أحمد بن محمد بن علي بن مُتَوَيْة، أبو الحسن الواحدي: مفسر، عالم بالأدب، نعتة الذهبي بإمام علماء التأويل، مولده بنيسابور، ووفاته بها سنة 468هـ. (انظر: النجوم الزاهرة: 104/5، والوفيات: 1/333، والأعلام: 4/255).

(4) من الآية: 81 من سورة البقرة.

(5) هو محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي، القفال، أبو بكر: من أكابر علماء عصره بالفقه والحديث واللغة والأدب، مولده سنة 291هـ في الشاش (وراء نهر سيحون)، ووفاته بها سنة 365هـ. (انظر: وفيات الأعيان: 1/458، وطبقات السبكي: 2/176، والأعلام: 6/274).

(6) هو عثمان بن جني الموصل، أبو الفتح: من أئمة الأدب والنحو، وله شعر، ولد بالموصل، وتوفي ببغداد سنة 392هـ. (انظر: ابن خلكان: 1/313، وشذرات الذهب: 3/140، والأعلام: 4/204).

(7) انظر: تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قل من كان عدوا لجبريل﴾ من الآية: 97 من سورة البقرة.

6- تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَعْلَمُونَ النَّامُوسَ السَّحَرِ﴾⁽¹⁾؛ حيث قال: «وهو في أصل اللغة: الصرف، حكاه الأزهري⁽²⁾ عن الفراء ويونس⁽³⁾»، انتهى.

7- قوله: «قال أبو حيان⁽⁴⁾: وله نظير في نثر العرب ونظمها. وأما حذفها على الإضافة إلى أحد، وجعل الجار جزءا منه فمردود بأن الجار مؤثر فيه، وجزء الشيء لا يؤثر في الشيء»⁽⁵⁾.

8- قوله: «نقل سيبويه⁽⁶⁾ عن بعض العرب مطجع في مضطجع وقال: ومضطجع أكثر فدل على أن مطجعا كثير فلا يكون لغة مرذولة»⁽⁷⁾.

9- قوله: «قال صاحب العين: نعق الراعي بالغنم إذا صاح بها زجرا⁽⁸⁾».

(1) من الآية: 102 من سورة البقرة.

(2) هو محمد بن أحمد بن طلحة بن نوح بن الأزهر الهروي الشافعي، توفي رحمه الله سنة 370هـ. (انظر سير أعلام النبلاء: 315/16، ووفيات الأعيان: 334/4).

(3) هو يونس بن حبيب النحوي، كان بارعا في النحو، روى عنه سيبويه، وسمع منه الكسائي والفراء. قال أبو عبيدة: اختلفت إلى يونس أربعين سنة أملا كل يوم ألواح من حفظه. من مصنفاته: معاني القرآن، اللغات، النوادر، الأمثال. كان وفاته رحمه الله سنة 182هـ. (انظر ترجمته في النجوم الزاهرة: 113/2، الأعلام: 261/8، إنباه الرواة: 74/4).

(4) هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، الغرناطي، الأندلسي، أبو حيان الشافعي، أخذ عنه تقي الدين السبكي، كانت وفاته رحمه الله سنة 745هـ، ودفن بالقاهرة. (انظر طبقات الشافعية: 31/6، وبغية الوعاة، ص: 121، ومعجم المؤلفين: 130/12).

(5) انظر تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِالْإِذْنِ اللَّهِ﴾ من الآية: 102 من سورة البقرة.

(6) هو عمرو بن عثمان بن قنبر، أبو بشر مولى الحارث بن كعب، أخذ اللغة عن الأخفش، وكانت وفاته سنة 180هـ. (انظر: نزهة الألباء، ص: 71، وبغية الوعاة، ص: 366).

(7) انظر تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ لَظُفِرْهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ من الآية: 126 من سورة البقرة.

(8) انظر تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَنْعَقُ بِهَا لَا يَسْمَعُ﴾ من الآية: 171 من سورة البقرة.

10- تفسيره لقوله تعالى: ﴿من الغمام﴾⁽¹⁾ قال: «قال الثعالبي⁽²⁾ في «سر الأدب»: أول ما ينشأ هو النشء فإذا أسحب في الهواء فهو السحاب فإذا تغيرت له السماء فهو الغمام».

11- قوله: «قال القرطبي⁽³⁾: يقال: سخرت منه، وسخرت به، وضحكت منه وضحكت به، وهزئت منه، وهزئت به كذلك، يقال: حكاه الأخفش⁽⁴⁾»⁽⁵⁾.

12- تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إن كن يومئذ بالله واليوم الآخر يعولتمن﴾⁽⁶⁾؛ حيث قال -رحمه الله-: «وإنما سمى زوج المرأة بعلا، لأنه سيدها ومالكها، ذكره الأزهري».

13- تفسيره لقوله تعالى: ﴿فرهان مقبوضة﴾⁽⁷⁾؛ حيث قال: «قال الجوهري⁽⁸⁾: كأنه يجمع رهن على رهان، ثم يجمع على رهن، مثل فراش وفُرش، ولا يجمع فَعْل على فُعْل إلا قليلا شاذًا»، انتهى.

(1) من الآية: 210 من سورة البقرة.

(2) هو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور، الثعالبي: من أئمة اللغة والأدب. من أهل نيسابور، كان فراء يخطط جلود الثعالب، فنسب إلى صناعته. ولد سنة 350هـ، وتوفي سنة 429هـ. (انظر: ابن خلكان: 1/290، وشذرات الذهب: 3/246، والأعلام: 4/163-164).

(3) هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرَح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله، القرطبي: من كبار المفسرين، صالح متعبد. من أهل قرطبة، رحل إلى الشرق واستقر بمكنية ابن خصيب (في شمالي أسبوط بمصر)، وتوفي فيها سنة 671هـ. (انظر: نفح الطيب: 1/428، والديباج، ص: 317، والأعلام: 322/5).

(4) هو سعيد بن مسعدة المجاشعي، أبو الحسن المعروف بالأخفش الأوسط، من تلاميذه سيبويه، توفي سنة 215هـ. (انظر: بغية الوعاة، ص: 436، وشذرات الذهب: 2/36).

(5) انظر تفسيره لقوله تعالى: ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ من الآية: 212 من سورة البقرة.

(6) من الآية: 228 من سورة البقرة.

(7) من الآية: 283 من سورة البقرة.

(8) هو إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر: أول من حاول الطيران... لغوي، من الأئمة.. أشهر كتبه الصحاح... قيل: مات وهو يحاول الطيران وذلك سنة 393هـ. (انظر: معجم الأدباء: 2/269، والنجوم الزاهرة: 4/207، ولسان الميزان: 1/400، ونزهة الألبا، ص: 418، والأعيان: 1/313).

2 - اللغات

المقصود باللغات: الوجوه الواردة في اللفظ القرآني، وابن كمال يعد من المفسرين الذين تعرضوا لهذا الموضوع. وإليك بعض النماذج من خلال الأمثلة الآتية:

المثال الأول: ما ذكره عند تفسير قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾⁽¹⁾؛ حيث قال: «وفي جبريل: ثمان لغات قرئ بهن: أربع في المشهورات: جبرئيل كسلسبيل، وجبرئيل - بحذف الياء -، وجبريل - بفتح الباء وكسرهما وحذف الهمزة -، وأربع في الشواذ: جبرائيل وجبرائل - بالمد - فيهما، و- حذف الياء - في الثانية، وجبرال - بحذف الياء وتشديد اللام -، وجبرين».

المثال الثاني: تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الْبُحُورَ﴾⁽²⁾؛ حيث قال: «قال الواحدي: الطور، الجبل بالسريانية، وقد تكلمت به العرب».

المثال الثالث: قال: «نقل سيبويه عن بعض العرب مطجع في مضطجع، وقال: ومضطجع أكثر فدل على أن مطجعا كثير فلا يكون لغة مرذولة»⁽³⁾.

المثال الرابع: «وقيل: كرها، وهما لغتان فيه. وقيل - بالضم - : المشقة، و- بالفتح - : ما يكره عليه»⁽⁴⁾.

(1) من الآية: 97 من سورة البقرة.

(2) من الآية: 63 من سورة البقرة.

(3) انظر تفسيره لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اضْطَرْجِ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ من الآية: 126 من سورة البقرة.

(4) من الآية: 19 من سورة النساء.

3 - الاشتقاق:

تعرض ابن كمال في تفسيره للاشتقاق اللغوية ورام من خلالها بيان معاني الألفاظ المشتقة والاستعانة بها في توضيح وتفسير معاني الألفاظ القرآنية ومدلولاتها، ومن بين الأمثلة ما يأتي:

أ- عند تفسيره قوله تعالى: ﴿مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْفَى نَارًا﴾⁽¹⁾؛ حيث قال: «والنار: جسم لطيف حار محرق، اشتقاقها من نار ينور نورا: إذا نفر، لأن فيها حركة واضطرابا»، انتهى.

ب- عند تفسير قوله تعالى: ﴿اتَّامَرُونَ النَّاسَ بِالْبَرِّ﴾⁽²⁾؛ حيث قال: «والبر: التوسع في أفعال الخير، واشتقاقه من البر الذي هو الفضاء الواسع، ويتناول كل معروف».

ج- عند تفسيره قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾⁽³⁾؛ حيث قال - رحمه الله - : «والبرهان مشتق من البره، وهو القطع، أو من البرهنة، وهي البيان».

4 - النحو والصرف:

إن منهج ابن كمال في تفسيره، في مجال اهتماماته بالمسائل النحوية والصرفية، هو بيان أوجه الإعراب في اللفظ القرآني، ثم بيان ما يترتب عليها من المعاني. والأمثلة جد كثيرة في تفسيره في هذا المجال، وسأكتفي باختيار بعض منها عسى أن تفي بالمقصود.

(1) من الآية: 17 من سورة البقرة.

(2) من الآية: 44 من سورة البقرة.

(3) من الآية: 111 من سورة البقرة.

أ- يقول ابن كمال عند تفسيره قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرْكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾⁽¹⁾: «ولا يبصرون»: في موضع الحال، أو «في ظلمات»: في موضع الحال فيتعلق بمحذوف. و«لا يبصرون»: حال أيضا، إما من الضمير في «تركهم» وإما من الضمير المستكن في المجرور. وإن ضمن ترك معنى صير يكون ثاني المفعولين في ظلمات، ولا يبصرون: حال. ولا يجوز العكس، لأن الخبر لا يكون مؤكداً.

ولم يقتصر دور ابن كمال في هذا المجال بنقل الآراء والأقوال، بل كثيرا ما يحكم عقله فيها، ومن أمثلة ما أقول:

أ- قوله: «وعطف الأمر لمخاطب على الأمر لمخاطب آخر، مما أخطأ في منعه النحاة، لوقوعه قطعا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾⁽²⁾ وتقف على تنمة هذا الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَاقِيَا حُدُودَ اللَّهِ﴾⁽³⁾ انتهى.

ب- عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾⁽⁴⁾؛ حيث قال: «فمن قال: «من» للتبويض، ثم علل بما ذكرناه آنفا، فقد اختار المذهب المردود، وهو أن يكون الوجوب على البعض من غير تعيين، وأما الاستدلال على أنه لا يحب على الكل بعدم الوجوب على الجاهل فمردود، لأنه إذا ترك بالكلية فذلك الجاهل أيضا أثم، ولولا الوجوب عليه لما أثم».

(1) من الآية: 17 من سورة البقرة.

(2) من الآية: 29 من سورة يوسف.

(3) من الآية: 227 من سورة البقرة.

(4) من الآية: 104 من سورة آل عمران.

وبالإضافة إلى ما تقدم فمن الأمثلة التي ذكرها ابن كمال في موضوع النحو والصرف ما يأتي:

أ- ما ذكره عند إعراب «آمين»؛ حيث قال: «مبني على الفتحة كـ «أين» لالتقاء الساكنين، وجاء مد ألفه وقصرها، والأصل فيه القصر. وإنما مد ليرتفع الصوت بالدعاء كذا قال: ابن خالويه⁽¹⁾ في إعراب القرآن، وذكر ابن درستويه⁽²⁾ أن القصر ليس بمعروف⁽³⁾».

ب- تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾⁽⁴⁾؛ حيث قال: «الاستحياء: استفعال من الحياة؛ أي يبقون بناتكم للخدمة سمين بما يؤول إليه أمرهن، ولما في صيغة الاستفعال من الدلالة على أن إبقاءهن كان لمصلحتهم، كأن المذكور من جملة الشدائد».

ج- ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾⁽⁵⁾؛ حيث قال: «من أَلَه، كَعَبَدَ، وزنا ومعنى وتصرفا، أو من أَلَه بمعنى فزع، أو من أَلَه بمعنى ولع، أو من أَلَه بمعنى تحير، أو بمعنى سكن، أو من وَلَه، كَعَلَه وَدَلَه، وزنا ومعنى وتصرفا، أي تحير ودهش، أو بمعنى وَلَه بمعنى طرب، أو من لَاه بمعنى ارتفع، أو بمعنى احتجب، أو بمعنى استتر، فمجموع الأقاويل هو المعبود للخواص والعوام، المفزوع إليه عند الأمور

(1) هو الحسين بن أحمد بن خالويه بن حمدان، وكنيته: أبو عبد الله، لم يذكر الرواة سنة مولده، لكنهم ذكروا سنة وفاته، حيث أجمعوا على أنه توفي بحلب سنة سبعين وثلاثمائة. (انظر: العبر: 38/3، والشدات: 128/3، والأعلام: 231/2).

(2) هو عبد الله بن جعفر بن محمد بن درستويه، ابن المرزبان، أبو محمد: من علماء اللغة، فارسي الأصل، ولد سنة 258هـ، وتوفي ببغداد سنة 347هـ. (انظر: بغية الوعاة، ص: 279، وابن النديم: 63/1، والوفيات: 251/1، ونزهة الألبا، ص: 356، والأعلام: 76/4).

(3) انظر أواخر تفسيره لسورة الفاتحة.

(4) من الآية: 49 من سورة البقرة.

(5) من سورة الفاتحة.

العظام، المرتفع عن الأوهام، المحتجب عن الأفهام، الظاهر بالأعلام، الذي تحير في صفاته الأحلام، وسكنت في عبادته الأجسام، وولعت به نفوس الأنام، وطرب إليه قلوب الكرام»، انتهى.

5 - البلاغة:

تعد الصور البلاغية من أهم القضايا التي تناولها ابن كمال في تفسيره؛ حيث اعتمد عليها في فهم النصوص القرآنية، وكان منهجه — رحمه الله — في هذا الجانب على الشكل الآتي:

أولاً: توظيفه للنكات البلاغية: وذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجْمُ الْبَيْتِ مِنْ امْتَحَانٍ إِلَيْهِ سُبُلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾⁽¹⁾؛ حيث قال: «وضع «كفر» موضع «لم يحج» تأكيداً لوجوبه وتغليظاً على تارك الحج، وتشديداً عليه، ولذلك قال عليه السلام: (من مات ولم يحج فليمت إن شاء الله يهودياً أو نصرانياً)⁽²⁾. وقد أكد أمر الحج في هذه الآية من وجوه: الدلالة على وجوبه بصيغة الخبر وإبرازه في صورته الاسمية، وإيراده على وجه يفيد أنه حق واجب لله تعالى في رقاب الناس، وتعميم الحكم أولاً، وتخصيصه ثانياً، فإنه كالأيضاح بعد إبهام، وتنبيه وتكرير للمراد، وذكر الاستغناء فإنه في مثل هذا الموضع مما يدل على المقت والخذلان. وقوله: «عن العالمين» يدل عليه، لما فيه من مبالغة التعميم»، انتهى.

(1) من الآية: 97 من سورة آل عمران.

(2) قال عنه الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده مقال. (انظر كتاب الحج، حديث رقم: 809).

ثانيا: بيانه لأهمية بعض التعبيرات القرآنية في الدلالة على الأحكام: مثل ما أورده عند تفسير قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾⁽¹⁾؛ حيث قال: «إقامة الشيء جعله قائما، والقيام انتصاب القامة. ولما كانت هيئة الانتصاب أكمل هيئات من له القامة وأحسنها، استعيرت الإقامة للتكميل والتحسين، ومنه أقام الأمر: إذا أتمه وجاء به معطى حقوقه. وأيضا لما كان استعمال من له القامة بإقامتها استعيرت الإقامة للاستعمال أيضا، ومنه: أقام القوم سيوفهم: إذا استعملوها ولم يعطلوها.

فالمعنى على الأول: يعدلون أركانها، ويكملون حدودها.

وعلى الثاني: يحافظون عليها في مواقيتها ولا يعطلونها».

ثالثا: إظهاره لأهمية بعض الوجوه البلاغية كالتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والزيادة والحذف، والإطلاق والتقييد، والإفراد والجمع. وسأكتفي بذكر مثال واحد للتقديم والتأخير وذلك للإيجاز.

والمثال: ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَامْتَثِمُوا شِمَائِلَ مَنْ رَجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَلِمَرْأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾⁽²⁾؛ حيث قال: «فإن قيل كيف قال: (أن تضل) وإنما الإقامة المذكورة للإذكار لا للإضلال؟ قلت: أجاب عنه سيبويه بأن الضلال سبب الإذكار، فتقدم عليه لأنه سبب العلة، لا لأنه العلة؟ كما يقال: أعددت هذا للحائط أن يميل فأدعمه، وإنما أعددته للدعم لا للميل، لكن قدم عليه الميل لأنه سببه والعدول عن الظاهر للاعتناء بشأن التذكير؛ فإن إفضاء الفعل وكونه مقصودا من الفعل بلغ

(1) من الآية: 3 من سورة البقرة.

(2) الآية: 282 من سورة البقرة.

مبلغا صار المهروب عنه مطلوباً لأجله، ومن حيث كان مفضياً إليه .
وأجاب عنه الفراء بأنه بمعنى الجزاء»، انتهى .

رابعا: الكناية، وذلك عند تفسير قول الحق سبحانه وتعالى:
﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾⁽¹⁾؛ حيث قال -رحمه
الله-: «كنى بمجموع قوله: «الرفث إلى نسائكم» عن الجماع، وقد كنى
عن الجماع في جميع القرآن بلفظ مستحسن لا يدل على معنى القبح،
مراعاة للأدب، ولا أدب كأدب التنزيل كقوله تعالى: ﴿وقد أفضى
بعضكم إلى بعض﴾⁽²⁾، ﴿فلما تفشاها﴾⁽³⁾، ﴿بأشروهن﴾⁽⁴⁾، ﴿لو
لا مستم النساء﴾⁽⁵⁾، ﴿دخلتم بهن﴾⁽⁶⁾، ﴿فاتوا حرثكم﴾⁽⁷⁾، ﴿من قبل أن
تمسوهن﴾⁽⁸⁾، ﴿فما استمتعتم به منهن﴾⁽⁹⁾، ﴿ولا تقربوهن﴾⁽¹⁰⁾ إلا هاهنا،
فإنه كنى عنه بما دل على معنى القبح استهجاناً لما ارتكبه، ولذلك
سماه جنابة» انتهى .

خامسا: الاستعارة، ومثله عند تفسيره قول الحق سبحانه وتعالى:
﴿ونحن نسبح بحمده ونقدهم لك﴾⁽¹¹⁾، قال: «أصله من السبح، وهو

(1) من الآية: 187 من سورة البقرة .

(2) من الآية: 21 من سورة النساء .

(3) من الآية: 189 من سورة الأعراف .

(4) من الآية: 187 من سورة البقرة .

(5) من الآيتين: 43 من سورة النساء و6 من سورة المائدة .

(6) من الآية: 23 من سورة النساء .

(7) من الآية: 223 من سورة البقرة .

(8) من الآيتين: 237 من سورة البقرة و49 من سورة الأحزاب .

(9) من الآية: 24 من سورة النساء .

(10) من الآية: 222 من سورة البقرة .

(11) من الآية: 30 من سورة البقرة .

سرعة الذهاب في الماء، واستعير لمر النجوم في الفلك، ولجري الفرس .
والتقديس: التطهير من قدس في الأرض: إذا ذهب فيها وأبعد، ثم
استعمل في التطهير لأن مطهر الشيء مبعدة عن الأقدار، ومعنى «نقدس
لك»: «نقدسك»، انتهى .

ومن أمثلة الاستعارة كذلك، ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿فَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾⁽¹⁾؛ حيث قال رحمه الله: «والامتراء من مريت
الناقة: إذا مسحت ضرعها، واستعير للتردد في الأمر»، انتهى .

سادسا: المجاز: ومنه ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿لَوْ أَشِدَّ ذِكْرًا﴾⁽²⁾؛
حيث قال رحمه الله: «قال القفال: ومجاز اللغة في مثل هذا معروف،
يقول الرجل لآخر: افعل كذا إلى شهر، ثم يقول: أو أسرع منه، وإنما
يريد به النقل عن الأول إلى ما هو أقرب وقتا منه»، انتهى .

6 - الشعر:

إن المتأمل في تفسير ابن كمال - رحمه الله - يلحظ بجلاء ظاهرة
الاستشهاد بالشعر العربي في مجالاته المتعددة . وسأحاول أن أذكر بعض
الأمثلة لمجال مهم من هذه المجالات المختلفة وذلك ببيان المعاني الألفاظ
القرآنية وتوضيح غريبها من خلال الشواهد الشعرية:

المثال الأول: ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿صَمَّ بَصْمٍ فَهَمَّ
لَا يَرْجِعُونَ﴾⁽³⁾؛ حيث قال: ««عمي» من العمى: الأعمى في العين،
وجمعه العمى: ومن القلب العمى، وجمعه العمون، قال تعالى:

(1) من الآية: 147 من سورة البقرة .

(2) من الآية: 200 من سورة البقرة .

(3) من الآية: 18 من سورة البقرة .

﴿بَلْ هُمْ مِنْهُمْ عَمُونَ﴾⁽¹⁾ لما سدوا مسامعهم عن الإصاخة إلى الحق، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم، ويتبصروا الآيات بأبصارهم، جعلوا كأنما فقدت مشاعرهم، ولم يخلق قواهم. وإيراد هذه الصفات مع سلامة حواسهم تشبيهه بليغ؛ إذ شرط الاستعارة: الإعراض عن المستعار له صفحا، ونسيانه مطلقا، وهاهنا وإن حذف المبتدأ الذي هو ضمير المنافقين، لكنه في حكم المقدر المنوي لاستناد الخبر إليه، ونظيره قوله:

صُمْ إِذَا سَمِعُوا خَبْرًا ذُكِرَتْ بِهِ وَإِنْ ذُكِرَتْ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا⁽²⁾

المثال الثاني: ما ذكره عند تفسيره قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾⁽³⁾؛ حيث قال رحمه الله: «أي منعتم، يقال: أحصر فلان، إذا منعه أمر من خوف أو مرض أو عجز. قال الله تعالى: ﴿لِلْفَقْرِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾⁽⁴⁾. وقال ابن ميادة:

وَمَا هَجَرُ لَيْلَى أَنْ تَكُونَ تَبَاعَدَتْ عَلَيْكَ وَلَا إِنْ أَحْصَرْتَكَ شُغُولُ⁽⁵⁾

المثال الثالث: ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾⁽⁶⁾؛ حيث قال: «السنة: ثقله من النعاس وفتور يعتري المزاج قبل النوم، وليست بداخلة في حد النوم على ما دل عليه قول عدي بن الرقاع⁽⁷⁾ :

(1) من الآية: 68 من سورة النمل.

(2) نسب للشاعر قعنّب بن أم صاحب. (انظر اللسان: شور).

(3) من الآية: 196 من سورة البقرة.

(4) من الآية: 272 من سورة البقرة.

(5) انظر تفسير القرطبي: 4/ 50، 2/ 248.

(6) من الآية: 255 من سورة البقرة.

(7) هو عدي بن الرقاع العاملي الشاعر، مدح الوليد بن عبد الملك، وهجا جرير بن الخطفي، وقيل: كان أبرص، آية في الشعر. (انظر: سير أعلام النبلاء: 5/ 110، وتاريخ الطبري: 3/ 517، والفهرست: 1/ 224، وتفسير الطبري: 3/ 6).

وَسَنَانٌ أَقْصَدَهُ النَّعَاسُ فَرَنْقَتٌ فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمٍ⁽¹⁾

7 - الأمثال:

وقد تعرض لها ابن كمال في تفسيره في مواضع متعددة، فذكرها -رحمه الله- وما تعود عليه من توجيه لمعاني الألفاظ القرآنية. ومن أمثلة ما أقول، ما يأتي:

- يقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿الْعَمَّ لِلَّهِ﴾⁽²⁾؛ حيث قال: «وقول العرب في المثل السائر: «عند الصباح يحمد القوم السرى»⁽³⁾»، انتهى.
- ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَيْكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ﴾⁽⁴⁾؛ حيث قال: «والمفلح: الظافر بمطلوبه، والفلاح: الخير المقطوع، ومنه يقال: «الفلاح للمكاري والأكار لقطعهما الأرض في الكراء والكراب، وفي المثل: «الحديد بالحديد يُفْلَحُ»⁽⁵⁾؛ أي يُقَطَّعُ وَيُصْلَحُ.

- ما أورده عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً﴾⁽⁶⁾؛ حيث قال: «وقد جاء في الإنجيل تمثيل غل الصدر بالخنالة. ومعارضة السفهاء بإثارة الزنابير. وفي كلام العرب: «أَصْرَدُ مِنْ جَرَادٍ وَأَسْمَعُ مِنْ قُرَادٍ»⁽⁷⁾»، انتهى.

(1) انظر اللسان: رنق، والكشاف: 1/ 384.

(2) من الآية: 1 من سورة الفاتحة.

(3) انظر: مجمع الأمثال للميداني: 2/ 3، رقم المثل: 2382.

(4) من الآية: 5 من سورة البقرة.

(5) انظر: ابن دريد: 2/ 177.

(6) من الآية: 26 من سورة البقرة.

(7) انظر: مجمع الأمثال: 1/ 349.

— ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿اسْجُدُوا لِلَّهِ﴾⁽¹⁾؛ حيث قال رحمه الله: «قال أبو عمرو⁽²⁾: يقال: سجد، إذا طأطأ رأسه وانحنى، فالسجود التطامن مع خفض الرأس، وبه يفارق الركوع، وأما التذلل فاعتباره في مفهومه العرفي دون اللغوي، وقد جاء في المثل: «أَسْجَدُ مَنْ هُدُودٍ»⁽³⁾ وليس في سجوده تذلل»، انتهى.

ثالثاً: عنايته بالفقه وأصوله

1 - ابن كمال الفقيه الحنفي

ترعرع ابن كمال العالم العلامة في ظل الدولة العثمانية التي عرفت باهتمامها بالفقه الحنفي الذي يعتبر المذهب الذي التزمت به في جميع شؤونها، وبدهي أن يكون ابن كمال فقيهاً حنفياً بارعاً. ومن الأدلة التي تؤكد ما أقول ما يأتي:

1— جل الذين ترجموا لحياة ابن كمال اعترفوا له بالمكانة العلية في الفقه الإسلامي عموماً، وفي الفقه الحنفي خصوصاً، قال صاحب⁽⁴⁾ «هدية العارفين»: «ابن كمال أحمد بن سليمان شمس الدين المعروف بابن كمال باشا شيخ الإسلام الرومي الحنفي»⁽⁵⁾. وقال ابن العماد⁽⁶⁾

(1) من الآية: 34 من سورة البقرة.

(2) هو إسحاق بن مرار الشيباني بالولاء، أبو عمرو: لغوي أديب، من رمادة الكوفة، سكن بغداد، وتوفي بها سنة 206 هـ. أما ولادته فكانت سنة 94 هـ. (انظر: وفيات الأعيان: 1/ 65، وتاريخ بغداد: 6/ 329، والأعلام: 1/ 296).

(3) انظر: مجمع الأمثال: 1/ 356.

(4) هو إسماعيل باشا البغدادي، انظر ترجمته في: هدية العارفين: 1/ 22، والأعلام: 1/ 326.

(5) انظر: هدية العارفين: 5/ 141.

(6) هو عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد العكري، الحنبلي، أبو الفلاح، مؤرخ فقيه، عالم بالأدب. توفي بمكة رحمه الله سنة 1089 هـ. (انظر الأعلام: 4/ 61).

الحنبلي: «شمس الدين أحمد بن سليمان الحنفي الشهير بابن كمال باشا العالم العلامة الأوحى المحقق الفهامة صاحب التفسير»⁽¹⁾.

2- مواقفه الفقهية التي بثها في مصنفاته وما كتبه في جميع الفنون. وخير دليل على هذا، التفسير الموجود بين أيدينا اليوم.

3- توليه منصب مفتي عاصمة الدولة العثمانية، هذا المنصب الذي لزمه ابن كمال إلى أن لقي الله تعالى⁽²⁾.

4- ما ألفه -رحمه الله- في الفقه الحنفي، فقد ألف كتابا سماه «المهمات» في فروع الفقه الحنفي⁽³⁾ وتصحيحه لكتاب «الوقاية» لصدر الشريعة⁽⁴⁾.

أما في مجال الشروحات والحواشي فلا بن كمال تعليقات على غرر الأحكام⁽⁵⁾، وكتاب غرر الأحكام كتاب في فروع الحنفية لملاخسرو⁽⁶⁾. كما أن له شرحا على فرائض السراجية⁽⁷⁾ للسجاوندي⁽⁸⁾ الحنفي، كما أن له شرحا على كتاب «الهداية» لمؤلفه برهان الدين المرغيناني⁽⁹⁾.

(1) انظر: شذرات الذهب: 8 / 238.

(2) انظر: الطبقات السنية: 1 / 410.

(3) انظر: كشف الظنون: 2 / 1916.

(4) هو عبيد الله بن مسعود بن محمود بن أحمد البخاري الحنفي، صدر الشريعة الأصغر، وهو ابن صدر الشريعة الأكبر، كانت وفاته رحمه الله سنة سبع وأربعين وتسعمائة. (انظر: الأعلام: 4 / 354).

(5) انظر: كشف الظنون: 2 / 1199.

(6) هو محمد بن فرامرز بن علي المعروف بملاخسرو، عالم بفقه الحنفية والأصول، كانت وفاته رحمه الله سنة خمس وثمانين وثمانمائة. (انظر: الأعلام: 4 / 354).

(7) انظر: كشف الظنون: 2 / 1247.

(8) هو سراج الدين محمد بن محمد بن عبد الرشيد السجاوندي الحنفي، مفسر، فقيه، فرضي، حاسب. (انظر ترجمته في معجم المؤلفين: 11 / 233).

(9) هو علي بن أبي بكر بن عبد الجليل الفرغاني، المرغيناني، برهان الدين، أبو الحسن، من كبار فقهاء الحنفية، كانت وفاته رحمه الله سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة. (انظر الأعلام: 5 / 73).

2 - نماذج لبعض القضايا الفقهية التي أثارها ابن كمال في تفسيره

النموذج الأول: وذلك بسرده لأقوال الأئمة الأعلام عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمُرَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَمَّ الْبَيْتَ لَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَصُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرٌ فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾⁽¹⁾؛ حيث قال ابن كمال: «روي أن إساف كان على الصفا، ونائلة على المروة، وهما صنمان. وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما، فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام تخرج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك فنزلت. واحتمال الجناح لا يندفع بالوجوب، فإن اليمين على المعصية يجب نقضه وفيه جناح، ولهذا تلزمه الكفارة. ومن هنا اتضح وجه الحاجة إلى الإخبار عن عدم الجناح في الطواف المذكور بعدما بين أنه من معالم الدين.

واعلم أنه لا خلاف في أنه مشروع في الحج والعمرة، وإنما الخلاف في وجه مشروعيته؛ فعن أحمد⁽²⁾ أنه سنة، وبه قال أنس⁽³⁾ وابن عباس⁽⁴⁾ رضي الله عنهم، لقوله تعالى: ﴿فَلَا جَنَاحَ﴾؛ فإن الظاهر المتبادر منه التخيير المنافي للوجوب، وقد مر وجه دفعه، ولا نصرة في قراءة⁽⁵⁾ ابن مسعود⁽⁶⁾ عَنِ اللَّهِ «فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما» لما ذكر، لأن

(1) الآية: 158 من سورة البقرة.

(2) هو أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله الشيباني الوائلي: إمام المذهب الحنبلي، وأحد الأئمة الأربعة. أصله من مرو، وكان أبوه والي سرخس، ولد ببغداد سنة 164هـ، وتوفي سنة 241هـ. (انظر: صفة الصفوة: 2/190، وتاريخ بغداد: 4/412، والبداية والنهاية: 10/325، والأعلام: 1/203).

(3) هو أنس بن مالك بن النضر الأنصاري، الخزرجي، أبو حمزة، خادم الرسول ﷺ. ولد قبل الهجرة بعشر سنين، وتوفي سنة 93هـ. (انظر التاريخ الكبير: 2/27)، الإصابة: 1/71).

(4) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، بن هاشم، القرشي، كانت ولادته قبل الهجرة بثلاث سنوات. (انظر ترجمته في: طبقات ابن سعد: 2/365، وأسد الغابة: 2/342، والإصابة: 2/322).

(5) هي قراءة شاذة. (انظر: مختصر شواذ القرآن لابن خالويه، ص: 11).

(6) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن، أحد السابقين، أسلم قديماً، وهاجر الهجرتين، قال عنه رسول الله ﷺ: من سرّه أن يقرأ القرآن غصاً كما نزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد. توفي رحمه الله بالمدينة في خلافة عثمان عَمَّا بِيَّاهُ سنة اثنتين وثلاثين للهجرة. (انظر الإصابة: 2/368، وغاية النهاية: 1/458، وحلية الأولياء: 1/124، والأعلام: 4/137).

موجب تفريعه على ما تقدم أن تكون « لا » زائدة لعدم تسبب انتفاء الجناح عن عدم الطواف بهما لما تقدم من كونهما من شعائر الله. وعند أبي حنيفة وأصحابه أنه واجب يجبر بالدم، وبه قال سفيان الثوري⁽¹⁾ وعامة أهل العلم. وعند مالك والشافعي هو ركن، لقوله عليه السلام: (اسعوا فإن الله تعالى قد كتب عليكم السعي)⁽²⁾. ويرد عليه أن دلالة على الوجوب دون الركنية، انتهى.

النموذج الثاني: عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَلَا يَحْتَسِبُ لَهُ مِنْ يَوْمٍ شَيْءٌ فَلْيَمْسِكْ ظَلَامَ لَيْلٍ فِي الْيَوْمِ الْعَظِيمِ أَذْهَبْتُمْ طَوَافَ الْأَرْضِ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ فَأُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ صُحُفٌ لَهُمْ فِيهَا فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعِمْرَةِ فَلْيَمْسِكْ ظَلَامَ لَيْلٍ فِي الْيَوْمِ الْعَظِيمِ أَذْهَبْتُمْ طَوَافَ الْأَرْضِ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ فَأُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ صُحُفٌ لَهُمْ فِيهَا فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعِمْرَةِ فَلْيَمْسِكْ ظَلَامَ لَيْلٍ فِي الْيَوْمِ الْعَظِيمِ أَذْهَبْتُمْ طَوَافَ الْأَرْضِ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ فَأُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ صُحُفٌ لَهُمْ فِيهَا﴾⁽³⁾؛ حيث قال رحمه الله: « ذلك » : إشارة إلى التمتع عند أبي حنيفة وأكثر الأئمة، لأنه مختص بالآفاقي عندهم، فلا متعة ولا قران عند حاضري المسجد الحرام؛ فمن فعل ذلك فعليه دم وجناية. وإلى الحكم المذكور عند الشافعي « لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام »؛ أي للذي لا يسكن ثمة، وإنما ذكر الأهل، لأن الظاهر أن الإنسان يسكن حيث سكن أهله، فعبر بسكون الأهل عند سكون نفسه. وحاضرو المسجد الحرام عند أبي حنيفة هم أهل مكة⁽⁵⁾، ومن كان منزله داخل الميقات. وعند الشافعي أهل مكة ومن كان من الحرم على مسافة القصر عنده. وعند مالك أهل مكة وأهل ذي طوى⁽⁶⁾، انتهى.

(1) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أبو عبد الله، أمير المؤمنين في الحديث، ولد ونشأ في الكوفة. توفي رحمه الله سنة 161هـ. (انظر طبقات ابن سعد: 257/6، وتاريخ بغداد: 151/9، والأعلام: 104/3).

(2) قال الذهبي: لم يصح. (انظر: مستدرک الحاكم: 70/4).

(3) الذي بمكة، كان أول من بناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يكن له في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر جدار يحيط به. (انظر معجم البلدان: 124/5).

(4) من الآية: 196 من سورة البقرة.

(5) انظر ما يتعلق بمكة: معجم البلدان: 181/5.

(6) انظر معجم البلدان: 50/4.

3 - ابن كمال الأصولي

أدرج العلماء ابن كمال باشا ضمن طبقات الأصوليين، لما له من مكانة متميزة وعالية بين أقرانه ومعاصريه، ولما له من أثر بالغ في هذا العلم بالغ الأهمية. قال صاحب «الفتح المبين في طبقات الأصوليين»⁽¹⁾: «وقد ظهر من رجال الأصول في القرن العاشر جلال الدين السيوطي، وهو مصري المولد والنشأة، ويعد من العلماء المبرزين في شتى العلوم، ومن مؤلفاته كتاب: «جزيل المواهب في اختلاف المذاهب»، عرض فيه علم الأصول في صورة تدل على تمكنه من هذا العلم مع سهولة الأسلوب وعذوبة الألفاظ، شأن تأليفه العديدة النافعة.

كما ظهر في الأستانة ابن كمال باشا الحنفي المتوفى سنة أربعين وتسعمائة، وله في الأصول «متن تغيير التنقيح وشرحه»، مما يدل على أن ابن كمال تناول المؤلفات الأصولية في عهده بالدرس والشرح، كما فعل في كتاب: «التنقيح لصدر الشريعة عبيد الله بن مسعود»⁽²⁾، حيث غير متنه وسماه تغيير التنقيح، وصرح ابن كمال في التغيير أنه قام بإصلاحات عدة، كما أشار إلى مواقع السهو والتساهل، وفرغ منه -رحمه الله- في شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة⁽³⁾.

4 - نماذج لأهم القضايا الأصولية التي عالجها ابن كمال في تفسيره

أ- موقفه من القواعد الأصولية اللغوية

- المثال الأول: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

(1) هو عبد الله مصطفى المراغي. (انظر: 59/3).

(2) سبق التعريف به.

(3) انظر: كشف الظنون: 1/499.

ومنه ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الظَّالِمِينَ مَنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾⁽¹⁾؛ حيث قال رحمه الله: «إن النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس⁽²⁾ الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه، وقيل: منع المشركون رسول الله ﷺ أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية⁽³⁾. وكيف كان فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولذلك، أي لقصد تعميم الحكم قيل: «مساجد الله» مع أن المنع والتخريب وقع على مسجد واحد، وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام».

- المثال الثاني: النكرة في سياق النفي دالة على العموم

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَتَقُولَ يَوْمَئِذٍ كُلُّ نَفْسٍ لِّمَا كَانَتْ تَفْتَحُ أَصْحَابُهَا﴾⁽⁴⁾؛ حيث قال ابن كمال: «أي لا تقضي نفس ما من النفوس عن نفس -أي نفس كانت- حقا من الحقوق... وضمير الجمع في «ولا هم ينصرون» يرجع إلى ما دلت عليه النفس المنكرة في سياق النفي الدالة على العموم»، انتهى.

- المثال الثالث: عدم جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة

ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَّبِعَ لِكُلِّ الْغَيْظِ الْإِبْيَاضُ مِنَ الْغَيْظِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾⁽⁵⁾ حيث قال: «بيان لهما، أما كونه بيانا للأول فظاهر، وأما كونه بيانا للثاني فلأنه باعتبار انتهائه إليه واتصاله به يعد منه.

ومثل هذا التوسع في البيان ليس بعزيز، ولهذا قدم الخيط الأبيض على قرينه فإنه على تقدير اختصاص البيان له حقه التأخير عنه. ومن هنا

(1) من الآية: 114 من سورة البقرة.

(2) انظر ما يتعلق ببيت المقدس: معجم البلدان: 166/5.

(3) الحديبية: قرية قريبة من مكة، وفيها بايع الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان. (انظر: معجم البلدان: 299/2).

(4) من الآية: 48 من سورة البقرة.

(5) من الآية: 187 من سورة البقرة.

اتضح أنه لا وجه لأن تكون «من» المذكورة للتبويض وبالبيان المذكور خرج الكلام من احتمال الاستعارة، وإنما زيد مع أن الاستعارة أبلغ من التشبيه لفقد شرطها وهو تعذر الحقيقة.

قال سهل ⁽¹⁾ بن سعد الساعدي: نزلت هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْغَيْكُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْغَيْكِ الْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل قوله تعالى ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له منهما، فأنزل الله بعد ذلك قوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فعلموا أنما يعني بذلك الليل والنهار ⁽²⁾. وهذا حديث صحيح عند أئمة الحديث كالبخاري ومسلم، لا يقال: إنه غير مقبول عند أئمة البلاغة، لأن الكلام المذكور بدون البيان المزبور ساقط عن درجة البلاغة، لفقدان قرينة الاستعارة على ما نبهت عليه آنفاً، وعند عامة الأصوليين لما فيه من تأخير البيان عن وقت الحاجة. ولا خلاف في امتناعه عند من لا يجوز تكليف المحال، وإنما الخلاف في التأخير عن وقت الخطاب لأننا نقول: كفى قوله «لكم» قرينة للاستعارة، وذلك أن في التخصيص المستفاد من تقديمه دلالة على أن التبيين المذكور مما يختلف فيه، فيتحقق لبعض الرائيين دون بعض. وعلى تقدير الحقيقة لا مجال لهذا الاختلاف، وإنما يتحقق مع تقدير الاستعارة لاختلاف المطالع، ولما كان في هذا البيان من الدقة اشتبه على بعض اللسان فاحتيج إلى زيادة البيان بقوله «من الفجر»، انتهى.

- المثال الرابع: مفهوم الغاية

(1) هو سهل بن سعد الخزرجي الأنصاري، من بني ساعدة، صحابي من مشاهيرهم. من أهل المدينة. توفي رحمه الله سنة 91هـ. (انظر الأعلام: 3/ 143).

(2) انظر صحيح البخاري، كتاب التفسير، حديث رقم: 4511، وصحيح مسلم، كتاب الصوم، حديث رقم: 35.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾⁽¹⁾؛ حيث قال: «فلا تبالوا بقتالهم ثمة، فإنهم الذين هتكوا حرمة، وهذا تصريح بمفهوم الغاية»، انتهى.

ب - موقفه من القواعد الأصولية التشريعية

- المثال الأول: التكليف بالمحال ممكن غير واقع. ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾⁽²⁾؛ حيث قال: «وفيه دلالة على عدم التكليف بالمحال، وأما أنه ممتنع فلا دلالة عليه، بل الظاهر من الأخبار عن عدم وقوعه إمكانه»، انتهى.

- المثال الثاني: الكفار غير مخاطبين بالفروع

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾⁽³⁾؛ حيث قال رحمه الله: «أمرهم بفروع الإيمان بعدما أمرهم بأصوله، فيحتمل أن يكون الأمر الثاني مشروطا بالامتثال بالأول، فلا تكون الآية حجة على المنكرين لكون الكفار مخاطبين بالفروع».

ج - التزامه بأصول المذهب الحنفي

وذلك من خلال إشاداته المتكررة في تفسيره، ومن أمثلة ما أقول: ما صرح به عند استناده إلى السنة النبوية الشريفة بأنها هي الركن الثاني من أركان الشريعة الإسلامية عند بيان المحصر بالحج وأنه يشمل المكسور والأعرج والمريض؛ حيث قال: «وهو مذهب أصحابنا»⁽⁴⁾. ثم ما ذكره عند بيان حجية مفهومي الوصف والشرط؛ حيث قال: «كلا المفهومين ليسا بحجة عندنا»⁽⁵⁾.

(1) من الآية: 191 من سورة البقرة.

(2) من الآية: 286 من سورة البقرة.

(3) من الآية: 43 من سورة البقرة.

(4) انظر تفسيره للآية: 196 من سورة البقرة.

(5) انظر تفسيره للآية: 25 من سورة النساء.

الفصل الثاني

منهجه في تأليفه وعرضه

✓ المبحث الأول: منهجه في العناية بعلوم القرآن الكريم

✓ المبحث الثاني: الإسرائيليات

✓ المبحث الثالث: المنحى العقدي في تفسير ابن كمال

ورده على الفرق

✓ المبحث الرابع: مصادر التفسير عند ابن كمال

المبحث الأول: منهجه في العناية بعلوم القرآن الكريم

أولاً: القراءات القرآنية

القراءات جمع قراءة، وهي في اللغة: مصدر قرأ، يقال: قرأ يقرأ قراءة وقرآنا بمعنى تلا، فهو قارئ.

وفي الاصطلاح: علم بكيفيات أداء كلمات القرآن الكريم من تحقيق وتشديد واختلاف ألفاظ الوحي في الحروف⁽¹⁾.

وعلم القراءات علم له فوائده الكبيرة أهمها حفظ كتاب الله عز وجل من التحريف والتيسير في حفظ القرآن وفقه معانيه، أضف إلى هذا أن القرآن الكريم لا يمكن بأي حال من الأحوال قراءته والتعبد بتلاوته كما أمر الحق سبحانه وتعالى إلا بمعرفة كيفية النطق بالألفاظ والوقوف على أداء الكلمات القرآنية، ليبقى النص القرآني بعيداً عن اللحن والانحراف، وعلى هذا الأساس لابد من معرفة وتعلم هذا العلم. وابن كمال واحد من الذين أسهبوا في تفاسيرهم في الاستشهاد بالقراءات القرآنية.

موقف ابن كمال من القراءات القرآنية

اعتنى ابن كمال في تفسيره بالقراءات القرآنية؛ حيث اعتمدها أداة من أدوات التفسير المهمة من بداية تفسيره إلى نهايته، وموقفه من القراءات القرآنية قائم على دعامتين أساسيتين:

الأولى: موقفه رحمه الله من القراءات الصحيحة الثابتة.

الثانية: موقفه من القراءات الشاذة.

(1) انظر: لمحات في علوم القرآن ل محمد الصباغ، ص: 107، طبعة بيروت سنة 1974.

1 - موقفه من القراءات الصحيحة: وتمثل منهجه في هذا بإيراد القراءات الصحيحة الواردة في اللفظ القرآني وتوجيهها على المعاني، مع التنبيه إلى أنها قراءات صحيحة، والقراءات الصحيحة هي ما صح سندها ووافقت أحد المصاحف العثمانية، ووافقت أوجه اللغة العربية. ومن أمثلة ما أقول:

— عند تفسير قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّى يَكْمُنَ﴾⁽¹⁾ قال: «بيان لغايته، أي يخرج من الحيض بانقطاع الدم، وإذا كان أيامها عشرة، فكما انقطع حل وطئها. وإذا كانت دون ذلك وانقطع واغتسلت فكذلك. وإذا لم تغتسل ومضى عليها وقت صلاة فكذلك، خلافاً لزر⁽²⁾ والشافعي، فإنهما قالا: لا يحل بحال قبل الاغتسال. واحتجاً بقراءة التشديد، فإن التطهر الاغتسال، ونحن نعمل بالقراءتين في حالين، وفيه نظر لأن شرط العمل بالمفهوم أن لا يكون مخالفاً للمنطوق، ومفهوم قراءة التخفيف مخالف لمنطوق قراءة التشديد، ونحن نقول ليس العمل بقراءة التخفيف بطريق المفهوم بل بطريق المنطوق، فإن الدلالة على انتهاء الحكم عند الغاية بحسب الوضع، ثم إن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَكَمَّنَ فَاتَوَهَّنَ﴾⁽³⁾ ظاهر في تأخير جواز الإتيان عن الغسل».

ففي هذا المثال، ذكر للقراءات الواردة، مع التنبيه إلى نوع القراءات، ثم توجيه القراءات على المعاني مع الترجيح بالدليل وهو القرآن الكريم.

(1) من الآية: 222 من سورة البقرة.

(2) هو زفر بن الهذيل بن قيس العنبري من تميم، أبو الهذيل: فقيه كبير، من أصحاب الإمام أبي حنيفة، أصله من أصبهان، ولد سنة 110هـ، وتوفي بالبصرة سنة 158هـ. (انظر شذرات الذهب: 1/243، والأعلام: 3/45).

(3) من الآية: 222 من سورة البقرة.

— ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَكِيمٌ﴾⁽¹⁾ بتبيينه أصل القراءة بقوله رحمه الله: «وقرئ «حج» بالكسر، وهو لغة نجد»، انتهى.

— تصحيحه لقواعد اللغة العربية بالقراءة الصحيحة، وذلك عند قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْحَامُ﴾⁽²⁾، قال رحمه الله: «بالنصب، عطف على محل الجار والمجرور، وينصره قراءة: ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامُ﴾، أو على الله، أي اتقوا الله، واتقوا الأرحام، فصلوها ولا تقطعوها، وقرئ بالجر عطفًا على الضمير المجرور، وما ذهب إليه البصريون من امتناع العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار والضعف في إضماره يرده هذه القراءة الثابتة بالتواتر، فإنها مما يحتج به، لا مما يحتج عليه إلا عند من لا اعتماد له على القراءات الثابتة، ولا اعتداد لزعمة الفاسد.

وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: والأرحام كذلك، أي مما يتقى، أو مما يتساءل به. وقد نبه تعالى إذ قرن الأرحام باسمه على أن صلتها بمكان منه، وعنه عليه الصلاة: (الرحم معلقة بالعرش، تقول: ألا من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعته الله)⁽³⁾»، انتهى.

2 - موقفه من القراءات الشاذة

القراءات الشاذة هي ما لم يصح سندها، فلا يقرأ بها ولا يعول عليها. وموقف ابن كمال من القراءات الشاذة يتمثل فيما يأتي:

أ— تعرضه للقراءات الشاذة الواردة في اللفظ القرآني، وتنبيهه إلى أنها غير مقبولة. ومن أمثلة ما أقول، ما ذكره عند تفسير قول الحق

(1) من الآية: 97 من سورة آل عمران.

(2) من الآية: 1 من سورة النساء.

(3) انظر: مسند أحمد: 2/163-190-192-209.

سبحانه وتعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ﴾⁽¹⁾ قال رحمه الله: «وقراءة: «وأقيموا الحج والعمرة» شاذة، فلا تصلح حجة»، انتهى.

ومثله تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾⁽²⁾ قال: «وفي القراءة الشاذة «غلف» بضم اللام، جمع غلاف وهو الغشاء، والوعاء كالشهاب والشهب. معناه قلوبنا أوعية العلم تفهم وتعي ما يقال، ويخاطب به لكن لا تفهم ما تقول، ولا تفقه ما تحدث. فلو كان حقا وصدقا لفهمته وفقته، يدعون به إبطال ما يقول: قلوبنا أوعية، العلوم، فلا حاجة بنا إلى علمك أو نحن مستغنون بما فيها عن غيره، ويأبى عن حمل القراءة المتواترة على هذا التصريح بالمعنى الأول في موضع آخر»، انتهى.

ب- تنبيهه إلى أن القراءة الشاذة مخالفة للإجماع، مثل ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿أَن يَصُوفَ بِهِمَا﴾⁽³⁾ قال: «ولا نصرة في قراءة ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما - لما ذكر، لأن موجب تفريعه على ما تقدم أن تكون «لا» زائدة، لعدم تسبب انتفاء الجناح عن عدم الطواف بهما عما تقدم من كونهما من شعائر الله»، انتهى.

ج- اكتفاؤه بالتنبيه إلى أن في اللفظ قراءة شاذة، وذلك عند قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾⁽⁴⁾، قال: «وفي جبريل: ثماني لغات قرئ بهن، أربع في المشهورات: جبرئيل كسلسبيل، وجبرئيل بحذف الياء، وجبريل بفتح الياء وكسرهما وحذف الهمزة، وأربع في الشواذ: جبرائيل وجبرائل بالمد فيهما، وحذف الياء في الثانية، وجبرال بحذف الياء وتشديد اللام، وجبرين»، انتهى.

(1) من الآية: 196 من سورة البقرة.

(2) من الآية: 88 من سورة البقرة.

(3) من الآية: 158 من سورة البقرة.

(4) من الآية: 97 من سورة البقرة.

د- عدم التنبيه إلى أن القراءة شاذة

وسأكتفي بإيراد ثلاثة أمثلة من هذا النوع:

المثال الأول: عند قوله تعالى: ﴿وخلق منها زوجها﴾⁽¹⁾ قال: «وقرئ: وخالق وباث على حذف مبتدأ تقديره: هو خالق وباث»، انتهى.

المثال الثاني: عند قوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾⁽²⁾ قال: «لا ينقص من الثواب الموعود، ولا يزيد في العقاب المعهود، أصغر شيء كالذرة، وهي النملة الصغيرة، ويدل عليه قراءة: مثقال نملة..»، انتهى.

المثال الثالث: عند قوله تعالى: ﴿ونصله جهنم﴾⁽³⁾ قال رحمه الله: «وندخله فيها، أي أن نخذله في الدنيا، ونعذبه بالنار في الآخرة، وقرئ: نصله بفتح النون من صلاه»، انتهى.

وأخيراً يمكن أن أقول: إن مادة القراءات القرآنية في جزئه هذا من تفسيره أذهلتني لكمها الضخم، مما يدل دلالة واضحة على علو كعبه رحمه الله في هذا العلم.

ثانياً: المكي والمدني

قال الزركشي⁽⁴⁾: «اعلم أن للناس في ذلك ثلاثة اصطلاحات:

أحدها: أن المكي ما نزل بمكة، والمدني ما نزل بالمدينة⁽⁵⁾.

(1) من الآية: 1 من سورة النساء.

(2) من الآية: 40 من سورة النساء.

(3) من الآية: 115 من سورة النساء.

(4) هو محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين، عالم بفقهاء الشافعية والأصول، تركي الأصل، مصري المولد سنة 745هـ، ومصري الوفاة كذلك سنة 794هـ. (انظر: شذرات الذهب: 6/335، والأعلام: 60/6).

(5) انظر ما يتعلق بالمدينة: معجم البلدان: 82/5.

والثاني: -وهو المشهور- أن المكي ما نزل قبل الهجرة، وإن كان بالمدينة، والمدني ما نزل بعد الهجرة، وإن كان بمكة.

والثالث: أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة⁽¹⁾.

وابن كمال -رحمه الله- واحد من المفسرين الذين تناولوا موضوع المكي والمدني في تفاسيرهم، وقد حدد -رحمه الله- موقفه من الطريقة الموصلة إلى معرفة كل منهما وهي النص. كما بين موقفه -رحمه الله- من ضوابط معرفة المكي من المدني، ومن أمثلة ما أقول:

- ما ذكره عند بداية سورة الفاتحة حيث قال: «وأما تسميتها بالسبع المثاني، فلأنها سبع آيات تثني في الصلاة، وقيل: لأنها تثنت في النزول فإنها نزلت بمكة حين فرضت الصلاة وبالمدينة حين حولت القبلة. وفيه أن الوصف المذكور قد ثبت لها بمكة بدلالة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾⁽²⁾ يعني فاتحة الكتاب على ما نص عليه النبي ﷺ حيث قال في رواية أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فاتحة الكتاب، إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته⁽³⁾. والآية مكية بالنص، وبذلك استدلو على مكية هذه السورة، قد مر دليل مكيتها آنفاً، ووجه الدلالة ظاهر، والمكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها، سواء نزل بالمدينة أو في سفر من الأسفار»، انتهى. فالملاحظ أن ابن كمال، من خلال هذا المثال، اختار التعريف الذي عليه جمهور العلماء.

(1) انظر: البرهان: 1/ 187، والإتقان: 1/ 23.

(2) الآية: 87 من سورة الحجر.

(3) انظر سنن الدارمي: كتاب فضائل القرآن، باب: فضل فاتحة الكتاب، حديث رقم 3373، وسنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجر حديث رقم: 3125، ومسند أحمد: 2/ 357.

— ما ذكره عند بداية تفسيره لسورة آل عمران حيث قال: «سورة آل عمران مكية في قول عكرمة⁽¹⁾ والحسن البصري⁽²⁾، ومدنية في قول عامة أهل التفسير». وقوله رحمه الله: «ومدنية في قول عامة أهل التفسير» يدل دلالة واضحة على إحاطته — رحمه الله — بهذا العلم الجليل، وهو القول الذي نص عليه الزركشي في «البرهان»⁽³⁾ إذ قال: «ذكر ترتيب ما نزل بالمدينة وهو تسع وعشرون سورة، فأول ما نزل فيها سورة البقرة، ثم الأنفال، ثم آل عمران... إلخ».

وقال السيوطي في «الإتقان»⁽⁴⁾ «نزلت بالمدينة سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والحج... إلخ».

— ما ذكره عند بداية تفسيره لسورة النساء حيث قال: «سورة النساء مدنية». وقد مر بنا قبل قليل ما يثبت مدنيته على ما نص عليه ابن كمال.

ثالثاً: أسباب النزول

سبب النزول علم من العلوم المهمة التي لها صلة وطيدة بعلوم القرآن الكريم، وقد ذكر له الزركشي في «البرهان»⁽⁵⁾ فوائد في غاية الأهمية:

منها: وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

(1) هو عكرمة بن عبد الله البربري، أبو عبد الله، تابعي، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي، توفي رحمه الله سنة 105هـ. (انظر: حلية الأولياء: 3/326، والأعلام: 1/244).

(2) هو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد: تابعي، كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمانه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك، ولد بالمدينة سنة 21هـ، وتوفي بالبصرة سنة 110هـ. (لسان الميزان: 2/259، والأعلام: 2/226-227).

(3) انظر البرهان: 1/194.

(4) انظر الإتقان: 1/27.

(5) انظر البرهان: 1/22-23.

ومنها: تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب.

ومنها: الوقوف على المعنى.

ومنها: أنه قد يكون اللفظ عاما ويقوم الدليل على التخصيص، فإن محل السبب لا يجوز إخراجه بالاجتهاد والإجماع.

ومن الفوائد أيضا دفع توهم الحصر.

وقد تناول ابن كمال علم أسباب النزول في تفسيره وأولاه عناية بالغة؛ فقلما تناول آية من كتاب الله عز وجل بدون أن يذكر لها سبب النزول. كما تميز - رحمه الله - بتوخي الصحة في نقله من المصادر مع الدقة في هذا النقل، فاستعمل - رحمه الله - صيغا مختلفة بعضها يغلب عليها النص الصريح في السببية كأن يقول - رحمه الله - : نزلت في كذا وكذا، أو نزلت السورة، أو الآية نزلت، والبعض الآخر يقول فيه: قيل... فنزلت أو قيل... نزلت أو روي... فنزلت.

ويمكن توضيح منهجه في هذا كله على الشكل الآتي:

1- تعرضه لسبب النزول كما ورد في كتب الصحاح، ومن أمثلته ما ذكره عند تفسير قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَعْضَلُوهُمْ أَنْ يَنْكَحُوا أَرْوَاحَهُمْ﴾⁽¹⁾ قال:

«العضل: المنع مع تضيق يقال: عضلت الدجاجة ببيضها، والمرأة بولدها. والخطاب لا يجوز أن يكون للأزواج بدلالة ما روى البخاري⁽²⁾

(1) من الآية: 232 من سورة البقرة.

(2) هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله: حبر الإسلام والحافظ لحديث رسول الله ﷺ، وصاحب الجامع الصحيح المعروف بصحيح البخاري، ولد في بخارى سنة 194هـ، وتوفي سنة 256هـ. (انظر: تذكرة الحفاظ: 2/122، وتهذيب التهذيب: 9/47، والوفيات: 1/455، والأعلام: 34/6).

والترمذي⁽¹⁾ وأبو داود⁽²⁾ أن الآية نزلت في معقل بن يسار⁽³⁾، وكانت أخته تحت ابن عم له، فطلقها طليقة، فلما انقضت عدتها خطبها وهي تريد أن ترجع إليه، فقال معقل: لا أزوجكها أبدا، فأنزل الله هذه الآية، فدعاه النبي عليه السلام، فتلاها عليه فقال: سمعنا لربي وطاعة»، انتهى.

2- تعرضه لذكر سبب النزول من غير إشارة إلى مصدره أو سنده، ومن أمثله ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾⁽⁴⁾؛ حيث قال -رحمه الله-: «زيادة عطاء وهو الربح بالتجارة، قيل: كان عكاظ⁽⁵⁾ ومجنة⁽⁶⁾ وذو المجاز⁽⁷⁾ أسواقهم في الجاهلية يقيمونها مواسم الحج، وكانت معاشهم منها، فلما جاء الإسلام تأثموا منها فنزلت، فرفع عنهم الجناح في ذلك، وإنما يباح ما لم يشغل عن العبادة الواجبة»، انتهى.

(1) هو محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمى البوغي الترمذي، أبو عيسى: من أئمة علماء الحديث وحفاظه... تتلمذ للبخاري، وشاركه في بعض شيوخه، ولد سنة 209هـ، وتوفي بترمذ سنة 279هـ. (انظر: تهذيب التهذيب: 387/9، وتذكرة الحفاظ: 187/2، والأعلام: 322/6).

(2) هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني أبو داود، إمام أهل الحديث في زمانه، أصله من سجستان، ولد سنة 202هـ، وتوفي بالبصرة سنة 275هـ. (انظر: تذكرة الحفاظ: 152/2، وتهذيب ابن عساكر: 244/6، وابن خلكان: 214/1، والأعلام: 122/3).

(3) هو معقل بن يسار المزني، البصري، أبو علي: شهد بيعة الرضوان، وكان إسلامه قبل الحديبية. توفي بالبصرة في آخر خلافة معاوية. (انظر: سير أعلام النبلاء: 576/2، والإصابة: 247/3).

(4) من الآية: 198 من سورة البقرة.

(5) هو اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية، وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ في كل سنة، ويتفاخرون فيها، ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر، ثم يتفرقون. (انظر: معجم البلدان: 4/142).

(6) اسم سوق للعرب كان في الجاهلية. (انظر معجم البلدان: 58/5).

(7) موضع سوق بعرفة. (انظر: معجم البلدان: 55/5).

ما قاله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾⁽¹⁾، حيث قال: «وبسبب ما أخرجوا في نكاحهن «من أموالهم» في مهورهن ونفقاتهن. روي أن سعد بن الربيع⁽²⁾ نشزت عليه امرأته فلطمها فانطلق بها أبوها إلى رسول الله ﷺ فشكا، فقال علي: «لتقتص منه»، فنزلت فقال: «أردنا أمرا وأراد الله أمرا، والذي أراد الله خير»، انتهى.

3- ذكره لروايات متعددة في سبب نزول الآية الكريمة دون ترجيح

بينها:

ومن أمثله:

— قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُو فِثْمَ وَجْهِ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾⁽³⁾ حيث قال: «بمصلحتهم وأعمالهم في الأماكن كلها. وعن ابن عمر — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — أنها نزلت في صلاة المسافرين على الراحلة، وعن عطاء⁽⁴⁾: عميت القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة فلما أصبحوا، تبينوا أخطاءهم فعذروا، أي في الفعل»، انتهى.

— قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يِقَاتِلُونَكُمْ﴾⁽⁵⁾ عن الربيع بن أنس — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ —: هي أول آية نزلت في القتال بالمدينة، وكان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتل، ويكف عمن كف، أي قاتلوا الذين يناجزونكم القتال دون المحاجزين، فعلى هذا يكون منسوخا بقوله تعالى:

(1) من الآية: 34 من سورة النساء.

(2) هو سعد بن الربيع بن عمرو من بني الحارث بن الخزرج: صحابي، من كبارهم، استشهد يوم أحد سنة 3هـ. (انظر: صفة الصفوة: 1/ 191، والأعلام: 3/ 85). ووقد نشزت عليه امرأته حبيبة بنت سويد بن أبي زهير، فلطمها. (انظر كنز العمال: 2/ 387-388 عن علي، والرازي في تفسيره: 10/ 88 عن ابن عباس، وأحكام القرآن لابن العربي: 1/ 415 عن الحسن).

(3) من الآية: 115 من سورة البقرة.

(4) هو سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس بن مالك الأغبر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج الأنصاري الخزرجي، قتل يوم أحد 3هـ شهيدا. (انظر أسد الغابة: 2/ 348).

(5) من الآية: 190 من سورة البقرة.

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾⁽¹⁾، أو الذين يناصرونكم القتال دون غيرهم كالشيوخ والنساء والصبيان والرهبان أو الكفرة كلهم، لأنهم أعداء المؤمنين قاصدين لقتالهم؛ فهم في حكم المقاتلة، قاتلوا أو لم يقاتلوا، فيكون غير منسوخ.

وقيل: لما صد المشركون رسول الله ﷺ وأصحابه -رضي الله عنهم- عام الحديبية⁽²⁾ وصالحوه على أن يرجع من قابل، فيخلوا له مكة ثلاثة أيام، فيرجع لعمره القضاء، خاف المسلمون أن لا يفي لهم قريش⁽³⁾ ويقاتلونهم في الحرم وفي الشهر الحرام، وكرهوا ذلك فنزلت، انتهى.

4- ذكره لسبب نزول الآية مع الإشارة إلى السند

ومن قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْغَيْكُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْغَيْكِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾⁽⁴⁾ قال ابن كمال: «قال سهل بن سعد الساعدي: نزلت هذه الآية: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْغَيْكُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْغَيْكِ الْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل قوله تعالى: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له منهما، فانزل الله تعالى بعد ذلك قوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فعلموا أنه إنما يعني بذلك الليل والنهار. وهذا حديث صحيح عند أئمة الحديث كالبخاري ومسلم⁽⁵⁾، انتهى.

(1) من الآية: 36 من سورة التوبة.

(2) هي قرية متوسطة ليست بالكبيرة... بينها وبين المدينة تسع مراحل، وبينها وبين مكة مرحلة. (انظر: معجم البلدان: 2/229).

(3) انظر ما يتعلق بهذه القبيلة وتسميتها ونسبتها: معجم قبائل العرب: 3/947.

(4) من الآية: 187 من سورة البقرة.

(5) هو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، أبو الحسين، حافظ من أئمة المحدثين، ولد بنيسابور سنة 204هـ، وتوفي بظاهر نيسابور سنة 261هـ. (انظر: تاريخ بغداد: 13/100، وتذكرة الحفاظ: 2/150، والأعلام: 7/222).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾⁽¹⁾ قال — رحمه الله —: «على ما فعلوه، قيل: إنها نزلت في أحبار حرفوا التوراة، وبدلوا نعت الرسول ﷺ، وحكم الأمانات وغيرهما، وأخذوا على ذلك رشوة»، انتهى.

5- ذكره لمعنى الآية القرآنية مع الترجيح بالسبب

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّمْلِكَةِ﴾⁽²⁾ قال: «بالإسراف وتضييع أسباب المعاش؛ فإن المال وقاية النفس، فتضييعه يفضي إلى تضييعها أو بالكف عن الغزو والإنفاق فيه، فإن ذلك يقو العدو ويسلطه عليكم. ويؤيده ما روي عن أبي أيوب الأنصاري⁽³⁾ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ —: أنا أعلم بهذه الآية، فإنها نزلت فينا حين رجعنا إلى إصلاح الأموال، وتركنا القتال بعدما فشا الإسلام وكثر أهله. والهلاك، انتهاء الشيء في الفساد، وبه سمي الموت هلاكاً»، انتهى.

رابعاً: النسخ والمنسوخ

النسخ لغة: الإزالة، ومنه: نسخت الشمس الظل. وقد يراد به النقل والتحويل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾⁽⁴⁾. واصطلاحاً: هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه، على وجه لولاه لكان ثابتاً⁽⁵⁾.

وابن كمال، واحد من العلماء الذين بينوا أدلة ثبوته في الشريعة الإسلامية، وبينوا ما يقع فيه النسخ وما لا يقع فيه. كما يعد — رحمه

(1) من الآية: 77 من سورة آل عمران.

(2) من الآية: 195 من سورة البقرة.

(3) هو خالد بن زيد بن كليب، الخزرجي البصري، توفي سنة 52هـ، ودفن بأصل حصن القسطنطينية. (انظر طبقات ابن سعد: 3/184، وأسد الغابة: 2/94).

(4) من الآية: 29 من سورة الجاثية.

(5) انظر: إرشاد الفحول، ص: 312، وأصول الفقه لشلبي، ص: 535، والإحكام للآمدي: 3/161.

الله— من الذين قالوا بوقوعه؛ وذلك لما كان يتمتع به —رحمه الله— من إحاطة تامة بهذا العلم الذي يعد أصلا من أصول التفسير. قال —رحمه الله— عند قوله تعالى: ﴿لَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ لَوْ نَسَخْنَا فَآتَتْ بِخَيْرٍ مِنْهَا لَوْ مِثْلَهَا﴾⁽¹⁾: «والنسخ في اللغة: هو النقل والتحويل، ومنه انتساخ الكتاب وهو نقله من نسخة إلى أخرى... ففي الآية دلالة على جواز النسخ، بل على وقوعه»، انتهى.

وفي إشارته —رحمه الله— إلى بيان نوع من أنواع النسخ قال: «ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها أو حكمها أو بهما جميعا»، انتهى.

من خلال هذا، يمكن حصر اهتمامات ابن كمال بهذا العلم في هذا الجزء من تفسيره فيما يأتي:

1- تصريحه بالسند الذي اعتمده حين قال بالنسخ، ومثله عند قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁽²⁾؛ حيث قال —رحمه الله—: «وعن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أنه منسوخ بآية السيف. والغاية التي يتعلق بها الأمر، إذا كانت لا تعلم إلا شرعا لم يخرج ذلك الوارد من أن يكون ناسخا، دل على ذلك انتساخ حكم التوراة والإنجيل بظهور نبينا عليه السلام مع ما فيهما من بيان انتهاء حكمهما بظهور النبي الأمي».

2- إعراضه عن ذكر السند، ومنه قوله تعالى: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْأُولَادِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾⁽³⁾؛ حيث قال: «كان هذا الحكم في بدء الإسلام، فنسخ

(1) من الآية: 106 من سورة البقرة.

(2) من الآية: 109 من سورة البقرة.

(3) من الآية: 180 من سورة البقرة.

بعد نزول آية المواريث بقوله **﴿الْيَتَامَى﴾** : (إن الله أعطى كل ذي حق حقه، ألا لا وصية لوارث) ⁽¹⁾ . فإنه وإن كان من الآحاد، إلا أن الأمة تلقتة بالقبول حتى لحق بالمتواتر، لعلمنا بأنهم لا يتلقون بالقبول إلا الثابت الذي صحت روايته»، انتهى .

ومنه قوله تعالى : **﴿وَعَلَى الْغَنِيِّينَ فَدِيَةٌ لِّصُعَامٍ مَّسْكِينٍ﴾** ⁽²⁾ ؛ حيث قال : «رخص لهم ذلك في أول الأمر لما أمروا بالصوم فاشتد عليهم، لأنهم لم يتعودوا، ثم نسخ»، انتهى .

ومنه قوله تعالى : **﴿فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ﴾** ⁽³⁾ ؛ حيث قال - رحمه الله - : « قيل : كان ذلك عقوبتهن في أوائل الإسلام، فنسخ بالحد»، انتهى .

3- رده لبعض الأقوال بحجة عدم توافر شروط النسخ، ومنه قوله تعالى : **﴿إِنَّ الْغَنِيِّينَ آمَنُوا وَالْغَنِيِّينَ هَادِلُوا وَالصَّابِغِينَ مِنْ آمَنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا﴾** ⁽⁴⁾ ؛ حيث قال : « والمعنى : من آمن من هؤلاء الكفرة إيماناً صادقاً مصداقاً بقلبه بجميع ما يجب تصديقه، عاملاً بتقتضى شرع نبي أرسل إليه . وما قيل في تفسيره : من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ، لا يناسب المقام، لما عرفت أن المراد من «الذين آمنوا» المنافقون والصابغون لم يثبت لهم دين سماوي، ولذلك اختلف في حل نكاحهن»، انتهى .

(1) رواه الترمذي في كتاب الوصايا، باب ما جاء : لا وصية لوارث، رقم الحديث : 2204، وقال عنه : هذا حديث حسن صحيح . (انظر : الجامع الصحيح : 294/3) . كما رواه النسائي في السنن في كتاب الوصايا، باب : إبطال الوصية للوارث . (انظر : سنن النسائي : 247/6) . ورواه أحمد في المسند : 186/4 .

(2) من الآية : 184 من سورة البقرة .

(3) من الآية : 15 من سورة النساء .

(4) من الآية : 62 من سورة البقرة .

ومنه قوله تعالى: ﴿لَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ لَوْ نَسَخْنَا نَأْتِيَ بِخَيْرٍ مِنْهَا لَوْ مِثْلَهَا﴾⁽¹⁾؛ حيث قال -رحمه الله-: «قيل: وذلك لأن الأحكام شرعت، والآيات نزلت لمصالح العباد وتكميل نفوسهم، فضلا من الله ورحمة، وذلك يختلف باختلاف الأعصار والأشخاص، كأسباب المعاش، فإن النافع في عصر قد يضر في غيره، وكأن هذا القائل غافل عن قوله تعالى: ﴿فَبَطَّلُوا مِنْ الْغَيْنِ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ لَهِيَّاتٍ لَحَلَّتْ لَهُمْ﴾⁽²⁾ أو عن دلالة على أن النسخ قد يكون غضبا على قوم، ثم إن قوله: «وذلك يختلف باختلاف الأعصار» إلى آخره، مبناه الغفول. على أن النسخ قد يكون قبل العمل بالمنسوخ»، انتهى.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْغَنَزِ﴾⁽³⁾؛ حيث قال: «ولما كان المتبادر من الحرمة المضافة إلى العين حرمة التصرف فيه مطلقا، زاد عبارة اللحم في قوله: ﴿وَلَحْمَ الْغَنَزِ﴾ قرينة صارفة عنه، دالة على أن المحرم أكل العين المذكورة، لا الانتفاع به مطلقا، حتى يلزم انتساخ النص بالحديث في جلد الميتة، وإنما خص اللحم بالذكر لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان وسائر أجزائه كالتابع، وهذا الوجه أيضا لا يساعد تقديرا لانتفاع العام للأكل وغيره»، انتهى.

4- تمسكه بالمذهب الحنفي في بعض معاني النسخ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا لَوْ عَلَى مَفْرَقَةٍ مِنْ أَيَّامِ الْخُرُوجِ﴾⁽⁴⁾؛ حيث قال: «إطلاقه اقتضى التخيير بين الجمع والتفريق، ولا يجوز تقييده

(1) من الآية: 106 من سورة البقرة.

(2) من الآية: 159 من سورة النساء.

(3) من الآية: 173 من سورة البقرة.

(4) من الآية: 185 من سورة البقرة.

بالتتابع بخبر الواحد، لأن التقييد نسخ⁽¹⁾ ولا يجوز نسخ الكتاب بأخبار الآحاد»، انتهى.

5- استعماله بعض الألفاظ لتأكيد النسخ، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ قَاتِلْ فِيهِ كَبِيرٌ﴾⁽²⁾ قال - رحمه الله -: « ذنب كبير والأكثر على أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتَهُمْ﴾⁽³⁾، خلافا لعطاء»، انتهى.

خامسا: المحكم والمتشابه

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾⁽⁴⁾.

قال جلال الدين السيوطي: « وقد حكى ابن حبيب النيسابوري⁽⁵⁾ في المسألة ثلاثة أقوال:

أحدها: أن القرآن كله محكم، لقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ﴾⁽⁶⁾.

الثاني: كله متشابه، لقوله تعالى: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾⁽⁷⁾.

الثالث: وهو الصحيح، انقسامه إلى محكم ومتشابه، للآية المصدر بها.

(1) جمهور العلماء ذهبوا إلى أن التقييد هنا لا يكون نسخا مطلقا، وإنما هو من قبيل التخصيص. أما الحنفية فيقولون: إن الزيادة على النص نسخ، والراجح، والله أعلم، ما عليه الجمهور، لأن علماء الأصول فرقوا بين النسخ والتخصيص. (انظر: أصول السرخسي: 1/112، والمستصفي، ص: 264).

(2) من الآية: 217 من سورة البقرة.

(3) من الآية: 5 من سورة التوبة.

(4) من الآية: 7 من سورة آل عمران.

(5) هو محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري، أبو القاسم نجم الدين: مفسر لغوي، توفي رحمه الله نحو 550هـ. (انظر: الأعلام: 7/167).

(6) من الآية: 2 من سورة هود.

(7) من الآية: 23 من سورة الزمر.

والجواب عن الآيتين أن المراد بإحكامه: إتقانه وعدم تطرق النقص والاختلاف إليه، وبتشابهه: كونه يشبه بعضه بعضا في الحق والصدق والإعجاز⁽¹⁾.

ولابن كمال - رحمه الله - وقفات متميزة ومهمة في موضوع المحكم والمتشابه، سواء أكان الأمر متعلقا بتعريف كل منهما أو الرد على بعض التعاريف.

1 - تعريفه - رحمه الله - للمحكم والمتشابه:

أ- المحكم: قال - رحمه الله - عند قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾⁽²⁾ «أحكمت بظهور دلالتها على المعنى المراد. ﴿هن أم الكتاب﴾ أي أصله الذي تحمل المتشابهات عليه وترد إليه، وإنما أفرد الأم تجريدا للكلام، للدلالة على ما يساق له.

ب- المتشابه:

وذلك عند قوله تعالى: ﴿متشابهات﴾⁽³⁾: محتملات لأكثر من معنى واحد أو غير ظاهر الدلالة.

2 - تصويبه ورده لبعض التعاريف؛ وذلك بقوله - رحمه الله - «ومن وهم أنه لو كان كله محكما لتعطل الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله تعالى إلا به، فقد وهم؛ إذ لا يلزم من ترك التأمل في معرفة معاني الألفاظ تركه في ترتب البعض على البعض واستنباط ما فيها من العلل والنكات والفروع وغير ذلك. ويزداد حرصهم على تحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد من المتشابهات والتوفيق بينها وبين المحكمات» انتهى.

(1) انظر: الإتيان: 3/3.

(2) من الآية: 7 من سورة آل عمران.

(3) من الآية: 7 من سورة آل عمران من تفسيره.

3 - فائدة معرفة المتشابه

قال - رحمه الله - : « وفائدته : بعث النفوس على النظر والتفكر، وتحريض القلوب على التأمل والتدبر، لتتمرن في الاستدلال، واستخراج الدقائق وإبراز مكنونات الحقائق، فإن الإنسان بذلك ينال من الثواب والدرجات ما لا ينال بالتقلب في العبادات، والمواظبة على سائر القربات » انتهى .

ومن تطبيقاته - رحمه الله - لهذه القاعدة في تفسيره ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿لَا يُولِخُذْكُمْ اللَّهُ بِاللُّغُو فِي إِيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُولِخُذْكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾⁽¹⁾ ، قال : « اللغو، الشيء الساقط الذي لا يعتد به من كلام وغيره؛ فاللغو من اليمين هو الذي لا عقد له كما سيق به اللسان أو تكلم به جاهلاً بمعناه كقول العرب وغيرهم في أثناء الكلام للتأكيد، لا والله وبلى والله، ولا يخطر ببالهم الحلف بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ يُولِخُذْكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْإِيْمَانَ﴾⁽²⁾ ، ﴿وَلَكِنْ يُولِخُذْكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ . وهو قصد القلب لعقد اليمين . والمعنى : لا يؤاخذكم الله بعقوبة ولا كفارة بما لا قصد معه، ولكن يؤاخذكم بواحد منهما بما قصدتم من الإيمان » ، انتهى .

وقد خالف ابن كمال في هذه المسألة مذهبه، لأن الحنفية ذهبوا إلى أن اللغو في اليمين هو اليمين على الشيء يظن الرجل على أنه على يقين منه . قال - رحمه الله - : « وقال أبو حنيفة : اللغو، أن يحلف الرجل بناء على ظنه الكاذب »⁽³⁾ انتهى .

(1) من الآية : 225 من سورة البقرة .

(2) من الآية : 91 من سورة المائدة .

(3) من الآية : 225 من سورة البقرة من تفسيره .

سادسا: إعجاز القرآن

وتحقيق القول في هذا الموضوع أن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز، من أجل هذين المطمحين نزل، وفيهما تحدث، وعليهما دل. فكل علم يتصل بالقرآن من ناحية قرآنيته، أو يتصل به من ناحية هدايته أو إعجازه، فذلك من علوم القرآن⁽¹⁾.

وقد اعتنى ابن كمال -رحمه الله- في تفسيره بموضوع إعجاز القرآن الكريم، وعرض له عند تفسير الآيات القرآنية الكريمة، وأثبت إعجاز القرآن من خلال ما يأتي:

- 1- عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَلَنُكْتِمَنَّ فِي رَيْبٍ مَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾⁽²⁾؛ حيث قال -رحمه الله-: «لما قرر وحدانيته، وبين الطريق الموصل إلى العلم بها، عقبه بذكر ما هو الحجة على نبوة محمد⁽³⁾ عليه الصلاة والسلام وهو القرآن المعجز بفصاحته، وعرف ما يتعرف به إعجازه ويتيقن أنه من عند الله»، انتهى.
- 2- ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾⁽⁴⁾؛ حيث قال: «وقوله تعالى: ﴿أَنِّي يُحْيِي﴾: على هذا، استعظام لقدرة المحيي واعتراف بالمعجز عن معرفة طريق الإحياء، ولهذا اشتهر أنه كان عزيزا⁽⁵⁾»، انتهى.

(1) مناهل العرفان: 24/1، وانظر: إعجاز القرآن للباقلاني: 1/1، ومعتزك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي: 1/1، والبرهان في علوم القرآن: 90/2.

(2) من الآية: 23 من سورة البقرة.

(3) هو محمد رسول الله ﷺ، وهو ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، من قريش، من عدنان، من أبناء إسماعيل بن إبراهيم الخليل النبي العربي، كانت وفاته سنة 11هـ. (انظر الأعلام: 218/6).

(4) من الآية: 259 من سورة البقرة.

(5) انظر تاريخ الطبري: 1/556.

3- عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾⁽¹⁾؛ حيث قال: «... وغير الله ينتظم الجن والملك، وفيه دلالة على أنه كلام الله تعالى. وأما إعجازه فالثابت به أنه ليس من كلام البشر، ولا يلزم منه أن يكون كلام الله تعالى»، انتهى.

4- عند قوله تعالى: ﴿فَلْتَقِمْ لَهَافَةً مِنْهُمْ مَعْكِ وَلِيَاخِزُولِ أَسْلِحَتِهِمْ﴾⁽²⁾؛ حيث قال: «يصلون، وتقوم الطائفة الأخرى تجاه العدو، وأما ﴿وَلِيَاخِزُولِ﴾ أي المصلون. ﴿أَسْلِحَتِهِمْ﴾: ولا يجوز أن يكون الضمير للطائفة الأخرى، لأنه حينئذ تتفرق الضمائر، فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن والقانون الذي وقع عليه التحدي على طريقة التقدير دون التصوير، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر»، انتهى.

سابعاً: فواتح السور

قال السيوطي - رحمه الله -: «اعلم أن الله افتتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام، لا يخرج شيء من السور عنها:

الأول: الثناء عليه تعالى.

الثاني: حروف التهجي في تسع وعشرين سورة.

الثالث: النداء في عشر سور، خمس بنداء الرسول ﷺ: الأحزاب والطلاق والتحريم والمزمل والمدثر. وخمس بنداء الأمة: النساء والمائدة والحج والحجرات والممتحنة.

الرابع: الجمل الخبرية.

الخامس: القسم في خمس عشرة سورة.

(1) من الآية: 82 من سورة النساء.

(2) من الآية: 102 من سورة النساء.

السادس: الشرط في سبع سور: الواقعة والمنافقون والتكوير والانفطار والانشقاق والزلزلة والنصر.

السابع: الأمر في ست سور: قل أوحى، اقرأ، قل يا أيها الكافرون، قل هو الله أحد، قل أعوذ، المعوذتين.

الثامن: الاستفهام في ست سور: عم يتساءلون، هل أتاك، ألم نشرح، ألم تر، أرايت.

التاسع: الدعاء في ثلاث: ويل للمطففين، ويل لكل همزة، تبت.

العاشر: التعليل في لإيلاف قريش⁽¹⁾.

وقد تناول ابن كمال موضوع فواتح السور في هذا الجزء من تفسيره عند تفسير قوله تعالى: ﴿الم﴾⁽²⁾ وبين —رحمه الله— وجه الفائدة من افتتاح السور بهذه الحروف وهو الإعجاز القرآني.

كما بين أن الله تعالى تحدى بها العرب أن يفهموا سرها ويفقهوها كنهها مع أن القرآن الكريم نزل بلغتهم وهم العرب الخالص. قال —رحمه الله—: «في الفواتح المقطعة أوجه، والأوجه أنها أسماء السور، وعليه الأكثر... والمروي عن الصدر الأول في التهجي أنها أسرار بين الله تعالى ونبيه... والمقطعات في أوائل السور من هذا القبيل فإنه تعالى قد وضعها مع نبيه عليه السلام في وقت لا يسمعه فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ليتكلم بها معه على لسان جبرائيل عليه السلام بأسرار وحقائق لا يطلع عليها جبرائيل عليه السلام. ويدل على هذا ما روي⁽³⁾ في الأخبار أن جبرائيل عليه السلام لما نزل بقوله تعالى: ﴿كميعص﴾، فلما قال: كاف، قال عليه السلام: علمت، فقال: ها، قال: علمت،

(1) انظر: الإتيقان: 316/3، والبرهان: 164/1، ومناهل العرفان: 225/1.

(2) من الآية: 1 من سورة البقرة.

(3) انظر التفسير الكبير: 2/6-7.

فقال: يا، قال: علمت، فقال: عين، قال: علمت، فقال: صاد، قال: علمت، فقال جبرائيل: كيف علمت ما لم أعلم»، انتهى.

ثامنا: الوقف والابتداء

قال الزركشي: «وهو فن جليل، وبه يعرف كيف أداء القرآن. ويترتب على ذلك فوائد كثيرة، واستنباطات غزيرة. وبه تتبين معاني الآيات، ويؤمن الاحتراز عن الوقوع في المشكلات»⁽¹⁾.

وقد عرض ابن كمال في جزئه هذا من تفسيره لموضوع الوقف من خلال العديد من الآيات القرآنية أختار منها ما يأتي:

1- قوله تعالى: ﴿هَمِي لِلْمُتَّقِينَ﴾⁽²⁾ قال -رحمه الله-: «وإنما لم يقل «هدى للضالين» لئلا يندرج تحت عموم المطبوع على قلوبهم. ﴿هَمِي﴾ مبتدأ خبره ﴿فِيهِ﴾ قدم عليه محققا على قراءة⁽³⁾ من وقف على ﴿رَبِّ﴾ ومقدرا على قراءة⁽⁴⁾ من وقف على ﴿فِيهِ﴾ للعناية والاهتمام، تنبيهها على أن المقصود من الإخبار كون الكتاب متضمنا لهدايتهم لا كونهم مهتدين به، وللمحافظة على الفاصلة، وإيثار الظرف على الضمير المنفصل، للإشارة إلى أن الهداية من بعض الفوائد التي تضمنها»، انتهى.

2- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾⁽⁵⁾ قال: «أي مأمون عن الضياع خبر الذين، وإذا أريد كون الصلة سببا لحصول الخبر للموصوف ضمنت معنى الشرط، وأدخل الفاء في الجزاء وإن لم يقصد ذلك فلا. كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِنْهُمَا﴾

(1) انظر البرهان: 1/ 339.

(2) من الآية: 2 من سورة البقرة.

(3) انظر: منار الهدى: 29-30.

(4) انظر: المكتفى، ص: 158-159.

(5) من الآية: 274 من سورة البقرة.

ولا أخس لهم أجرهم عند ربهم»⁽¹⁾ وقيل: للعطف، والخبر محذوف؛ أي ومنهم الذين، ولهذا جوز الوقف على قوله: وعلانية»، انتهى.

3- قوله تعالى: ﴿لَا تَضَارُّ وَالِدَةَ بَوْلِهَا وَلَا مَوْلُودَ لَهُ بَوْلَهُ﴾⁽²⁾ قال: «وقرئ⁽³⁾ لا تضار بالسكون مع التشديد على نية الوقف»، انتهى.

4- قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ضَلُّوا مِنْهُمْ﴾⁽⁴⁾ قال: «وقراءة زيد بن علي⁽⁵⁾ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ ضَلُّوا﴾ واقفا على حجة⁽⁶⁾، مستأنفا للجملة، مصدره بـ«إلا»، للتنبيه. دلت على كونه ليس بحجة»، انتهى.

5- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لِلَّهِ إِبْرَاهِيمُ إِلهًا إِلَّا هُوَ﴾⁽⁷⁾ قال: «الأفصح أن يوقف على ميم كما وقف على ألف ولام، كما هو قراءة أبي بكر⁽⁸⁾ في رواية عن عاصم⁽⁹⁾»، انتهى.

(1) من الآية: 261 من سورة البقرة.

(2) من الآية: 233 من سورة البقرة.

(3) انظر: المحتسب: 123-124/1.

(4) من الآية: 150 من سورة البقرة.

(5) هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الإمام، أبو الحسين العلوي الهاشمي القرشي، ولد سنة 79هـ، وتوفي سنة 122هـ. (انظر الأعلام: 59/3).

(6) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَنَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ من الآية: 150 من سورة البقرة.

(7) الآيتان: 1-2 من سورة آل عمران.

(8) أبو بكر بن الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واسمه: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التيمي، أبو بكر الصديق بن أبي قحافة، واسم أبي قحافة: عثمان، وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وهي ابنة عم أبي قحافة... قال ابن إسحاق: توفي أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم الجمعة لسبع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة 13هـ. وقال غيره: توفي عشي يوم الاثنين، وقيل: ليلة الثلاثاء، وقيل: عشي يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة. (انظر: أسد الغابة: 309/3 وما بعدها).

(9) هو عاصم بن أبي النجود... أبو بكر، أحد القراء السبعة، تابعي من أهل الكوفة، ووفاته فيها سنة 127هـ. (انظر: تهذيب التهذيب: 38/5، وغاية النهاية: 346/1، وميزان الاعتدال: 5/2، والأعلام: 248/3).

المبحث الثاني: الإسرائيليات

أولاً: التعريف

الإسرائيليات عند علماء المسلمين هي القصص والمرويات والأساطير المستمدة من التوراة والإنجيل، مما له علاقة بأحوال الأمم الماضية وقصص الأنبياء والمرسلين، وما له صلة ببدء الخليقة والتكوين⁽¹⁾.

هذا وقد تعرض العلماء للإسرائيليات ووضعوا لها شروطاً لصحتها والحكم عليها بالقبول أو الرد، فقسموها إلى ثلاثة أقسام:

1- ما علم صحته مما بين أيدينا مما يشهد له بالصدق، فهذا صحيح.

2- ما علم كذبه بما عندنا مما يخالفه، فهذا مردود باطل.

3- ما سكت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، ونتوقف فيه. وغالب هذا مما لا فائدة فيه، ولا يعود على أمر ديني⁽²⁾.

ثانياً: موقف ابن كمال من الإسرائيليات

اجتهد ابن كمال في تفسيره هذا في الاستغناء عنها وعدم اعتمادها أو سوقها، وأستطيع أن أقول إن محاولته هذه غدت واضحة كل الوضوح في هذا الجزء الذي سأقتصر فيه على بعض الأمثلة

(1) انظر: التفسير والمفسرون للذهبي: 1/165، وتفسير ابن كثير: 1/14، ومقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ص: 44، ومقدمة ابن خلدون، ص: 439.

(2) انظر التفسير والمفسرون للذهبي: 1/165.

للإسرائيليات في تفسيره . ومنهجه - رحمه الله - اقتصر على النقل دون التنبيه أو التعليق .

- المثال الأول : ما جاء به عند قوله تعالى : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ⁽¹⁾ قال - رحمه الله - :

« قال وهب ⁽²⁾ : لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم ، والدنيا عالم منها ، تنبيهها على أنهم وإن كثروا قليلون في جنب عظمته وكبريائه ، وأما جمعه بالياء والنون ، فلتغليب العقلاء منهم » ، انتهى .

قال ابن كثير ⁽³⁾ - رحمه الله - معلقا : « وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح » ⁽⁴⁾ .

وقال الزجاج ⁽⁵⁾ : العالم : كل ما خلق الله في الدنيا والآخرة ⁽⁶⁾ .

- المثال الثاني : عند تفسير قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ ﴾ ⁽⁷⁾ ؛ حيث قال : « قيل : كانوا ستمائة ألف ، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلا » ، انتهى .

(1) من الآية : 1 من سورة الفاتحة .

(2) وهب بن منبه الأبنائوي الصنعاني الذماري ، أبو عبد الله ، ولد بصنعاء سنة 34 هـ ، وتوفي بها سنة 114 هـ . (انظر : تاريخ الإسلام للذهبي : 5/ 14-16 ، وشذرات الذهب : 1/ 150 ، ووفيات الأعيان : 2/ 180 ، وحلية الأولياء : 4/ 23 ، وكشف الظنون : 1328 ، والأعلام : 8/ 125) .

(3) هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوين درع القرشي البصري ، ثم الدمشقي ، أبو الفداء ، عماد الدين ، حافظ مؤرخ فقيه ، ولد بالشام سنة 701 هـ ، وتوفي بدمشق سنة 774 هـ . (انظر : شذرات الذهب : 6/ 231 ، والبداية والنهاية : 14/ 324 ، والأعلام : 1/ 320) .

(4) تفسير ابن كثير : 1/ 24 .

(5) هو إبراهيم بن السري بن سهل ، أبو إسحاق الزجاج ، عالم بالنحو واللغة ، ولد ومات في بغداد (- 241 هـ) 311 هـ . (انظر : نزهة الألبا ، ص : 308 ، ووفيات الأعيان : 11/ 1 ، والأعلام : 1/ 40) .

(6) انظر : معاني الزجاج : 1/ 7 .

(7) من الآية : 60 من سورة البقرة .

- المثال الثالث: ما ذكره عند أواخر سورة الفاتحة، حيث قال: «وروي عن كعب الأحبار⁽¹⁾ أنه قال: آمين خاتم رب العالمين يختم به دعاء عبده المؤمن»، انتهى.

- المثال الرابع: ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً﴾⁽²⁾؛ حيث قال -رحمه الله-: «ولهذا كان تمثيل الله تعالى آلهتهم بالبعوضة فما فوقها في المعنى الممثل له من الحقارة؛ أي ما هو أحقر منها كجناحها. وكما قيل: أقل من لا شيء في غاية الحسن والجزالة ونهاية الفصاحة والبلاغة، كما تقول: فلان أقل قدرا من الكلب، فيقول: صاحبك وفوق ذلك، أي في قلة القدر. وقد جاء في الإنجيل تمثيل غل الصدر بالنخالة ومعارضة السفهاء بإثارة الزنابير. وفي كلام العرب: أصرد من جراد، وأسمع من قراد»، انتهى.

(1) هو كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري أبو إسحاق: تابعي، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر، وقدم المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيرا من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة. وخرج إلى الشام، فسكن حمص، وتوفي فيها عن مائة وأربع سنين، ووفاته كانت سنة 32هـ. (انظر: تذكرة الحفاظ: 1/ 49، والإصابة: ترجمة 7492).

(2) من الآية: 26 من سورة البقرة.

المبحث الثالث: المنحى العقدي في تفسير ابن كمال ورده على الفرق

أورد ابن كمال في تفسيره أحكاماً عقدية حددت في جملتها أصوله العقدية، كما أبرزت موقفه من الفرق المختلفة وغالبا ما يتبعه بتعليق يفصح عن مدى التزامه بعقيدة أهل السنة والجماعة. ومن أمثلة ما أقول:

أولاً: الرد على الدهرية في إطار ما يسمى بالمغيبات: وهو ما غاب عن الحواس مما لا يوصل إليه إلا بالخبر دون النظر. قال -رحمه الله- عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾⁽¹⁾: «أي بما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة؛ حيث لا يدركه واحد منهما لا بالبديهة ولا بالاستدلال، يعني أحوال البعث والجنة والنار، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَصْلِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلْمَسْكِينِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتِ اللَّهِ﴾⁽²⁾.

ولقوة غيبته -حيث غاب عن مظهري الحس والعقل- عبر عنه بالمصدر كما يقال لمن بلغ الغاية في العدالة عدل، ولكماله في معنى الغيبية -حيث لم يمكن استحضاره لا بالبديهة ولا بالنظر- عرف بتعريف الجنس، كأن معنى الغيبة إنما تم فيه، وباقي الغائبين بمنزلة الشاهد نظراً إليه، ففيه إشارة إلى قوة تصديقهم برسول الله عليه السلام، ووفور اعتقادهم بنبوته؛ حيث صدقوه في أخبار لا طريق إلى العلم بصدقها،

(1) من الآية: 3 من سورة البقرة.

(2) الآيات: من 22 إلى 26 من سورة المعارج.

لا بالحس ولا بالعقل، لا بالبداهة ولا بالكسب، وعدم التعرض للتصديق بالمبدء للتنبيه إلى أن شأنه تعالى أظهر الأمور؛ بحيث كان التصديق به تصديقا بأجلى المعلومات، فلا يناسب ذكره في مقام المدح بالتصديق بأخفى المجهولات، وفيه نفي على الدهرية على وجه أبلغ»، انتهى.

ثانيا: الرد على الكرامية، وذلك عند حديثه عن الإيمان عند قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾⁽¹⁾؛ حيث قال -رحمه الله-: «والآية الكريمة لا تنتهز حجة على الكرامية، لأنهم يشترطون في كون الشهادتين إيمانا، عدم مخالفة القلب للسان أعم من أن يكون موافقا له، أو فارغا عنهما، لأن احتجاجهم بأنه تواتر أن الرسول عليه السلام، والصحابه رضي الله عنهم، والتابعين رضي الله عنهم حينئذ كانوا يقنعون بالكلمتين ممن أتى بهما، ولا يستفسرون عن علمه وتصديقه القلبي وعمله، فيحكمون بإيمانه بمجرد الكلمتين، فعلمنا أنه الإيمان بلا علم ولا عمل صريح في عدم الاشتراط بالقيد المذكور. بل لأن كلامهم على ما دل عليه سياق احتجاجهم في الإيمان الشرعي المعتبر عندنا في إجراء أحكام الإسلام في الدنيا، لا الإيمان الحقيقي المعتبر عند الله تعالى المنجي عن الخلود في النار، فلا يندفع قولهم بالإجماع على أن المنافق كافر، ولا بالإجماع على أن من هم بالشهادتين فمنع مانع من خرس أو خوف مؤمن»، انتهى.

ثالثا: الرد على الحشوية، وذلك عند تناوله موضوع النبوات، فأثبت -رحمه الله- أن الأنبياء معصومون عن الخطأ والصغائر والكبائر. قال -رحمه الله- عند قوله تعالى: ﴿لَوْلَيْكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁽²⁾: «ولا متمسك للحشوية في هذه القصة على عدم عصمة الأنبياء عليهم

(1) من الآية: 8 من سورة البقرة.

(2) من الآية: 40 من سورة البقرة.

السلام، لأن مبناه على أن يكون آدم⁽¹⁾ عليه السلام حينئذ نبيا، وأن يكون النهي تكليفا، وأن لا تكون التوبة إلا عن معصية، وواحد منها غير مسلم»، انتهى.

رابعا: الرد على المجسمة أو الحلولية⁽²⁾، عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾⁽³⁾؛ حيث قال: «إخبار بأن سجيتهم الظلم، يرشدك إلى هذا قوله تعالى في موضع آخر: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾⁽⁴⁾ والاتخاذ المذكور يدل على أنهم مجسمة أو حلولية»، انتهى.

خامسا: الرد على المعتزلة، عند قوله تعالى: ﴿لَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁽⁵⁾؛ حيث قال: «وتفسير «لعل» بـ «كي» مردود، بأن جمهور أئمة اللغة اقتصروا في بيان معناها الحقيقي على الترجي والإشفاق وعدم صلاحها لمجرد معنى العلية والفرضية مما وقع عليه الاتفاق. ألا ترى تقول: دخلت على المريض كي أعوده، وأخذت الماء كي أشربه، ولا يصح «لعل». وحملها على الإرادة إنما يصح على أصل الاعتزال، وأما على أصل أهل الحق فلا صحة له، لأن إرادته تعالى تستلزم الوقوع عندهم ولم يقع، فلا بد من الحمل على كونهم في سورة من يرجى منه الشكر، وإن لم يتعلق به الإرادة»، انتهى.

(1) انظر ما يتعلق بآدم عليه السلام: تاريخ الطبري: 89/1.

(2) انظر الفرق بين الفرق، ص: 254، وفيه ذكر لأصناف الحلولية، وبيان خروجهم عن فرق الإسلام، وهم في الجملة عشر فرق.

(3) من الآية: 51 من سورة البقرة.

(4) من الآية: 148 من سورة الأعراف.

(5) من الآية: 52 من سورة البقرة.

سادسا: الرد على المعطلة، عند قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾⁽¹⁾؛ حيث قال: «أي الجهال من المعطلة والدهرية والمشركين الذين لا كتاب لهم»، انتهى.

سابعا: الرد على الروافض، عند قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِر لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾⁽²⁾؛ حيث قال: «من أهل المغفرة ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ من أهل العقوبة، وهذا صريح في نفي وجوب التعذيب، وفي الآية دلالة على وقوع الحساب، فيكون حجة على من أنكره من المعتزلة والروافض»، انتهى.

(1) من الآية: 113 من سورة البقرة.

(2) من الآية: 284 من سورة البقرة.

المبحث الرابع: مصادر التفسير عند ابن كمال

تعتبر المصادر التي يعتمد عليها المفسر المادة العلمية التي يقوم عليها تفسيره، ومن الأصول التي كثيرا ما يبني عليها منهجه، فكان من الضروري أن أتحدث عن مصادر ابن كمال في هذا الجزء من تفسيره، باعتبارها الزاد الرئيس الذي كان له تأثير على تفسيره، فبدا جليا هذا الأثر على ميول ابن كمال واتجاهه في تفسيره. ومصادره -رحمه الله- كثيرة ومتنوعة؛ فمنها ما هو من كتب التفسير، ومنها ما هو من القراءات القرآنية، ومنها ما هو من كتب اللغة والنحو، ومنها ما هو من كتب الفقه والحديث.

وأحب أن أشير هنا أنني لن أتناول مصادر ابن كمال على وجه الاستقصاء والتتبع، لأن المقام لا يتسع لذلك، وإنما سأذكر أهم هذه المصادر من خلال بعض النماذج والله المستعان.

أولا: مصادر ابن كمال من كتب التفسير

اعتمد ابن كمال في تفسيره على أهم المفسرين الأوائل أمثال: مقاتل بن سليمان⁽¹⁾، وابن جرير الطبري⁽²⁾، والإمام الرازي⁽³⁾،

(1) هو مقاتل بن سليمان بن بشر الأزدي، أبو الحسن، ومن المفسرين الأوائل. توفي سنة 150هـ. (انظر: ميزان الاعتدال: 4/273، ومعجم المؤلفين: 12/317).

(2) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر: المؤرخ المفسر الإمام، ولد في أصّل طبرستان سنة 224هـ، واستوطن بغداد وتوفي بها سنة 310هـ. (انظر: إرشاد الأريب: 423/6، وتذكرة الحفاظ: 351/2، والوفيات: 456/1، والبداية والنهاية: 145/11، وميزان الاعتدال: 35/3، ولسان الميزان: 100/5، وتاريخ بغداد: 162/2، وكشف الظنون: 436، والأعلام: 69/6).

(3) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، فخر الدين الرازي، الإمام المفسر، أصله من طبرستان، ومولده في الري، ونسبته إليها، ألف في التفسير والكلام والإلهيات والهندسة والفلسفة، توفي رحمه الله

وابن عطية⁽¹⁾، ومجاهد، والزجاج، والواحدي، والقرطبي، وعطاء، وأبو حيان... واللائحة طويلة. فمن خلال هذا السرد أصبح واضحاً أنه -رحمه الله- قد اعتمد في مجال التفسير على مصادر مشرقية ومغربية.

1 - نماذج من مصادره المغربية

- من تفسير ابن عطية -رحمه الله- «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» وذلك عند قوله تعالى: ﴿سَوْءَ عَلَيْهِمْ أَنْزَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْزِرْهُمْ﴾⁽²⁾ قال -رحمه الله-: «وقال ابن عطية: ولا يكاد يكون إلا في تخويف يسع زمانه الاحتراز، فإن لم يسع زمانه الاحتراز كان إشعاراً، والاقتصار عليه، لأن الكفار ليسوا أهلاً للبشارة المطلقة، والبشارة المعلقة على الإيمان ينقلب في حقهم إنذاراً، لأنهم مصرون على الكفر، مصممون عليه، فينتظم الإنذار هذا القسم من البشارة في حقهم»، انتهى.

- من تفسير أبي حيان -رحمه الله- «البحر المحيط في تفسير القرآن الكريم» وذلك عند قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرْ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَن يَشَاءُ﴾⁽³⁾؛ حيث قال: «قرئ: «يفغفر ويغذب» مجزومين على جواب الشرط، ومرفوعين على الاستئناف، وتقديره: «فهو يغفر ويغذب»، وقرئ: يغفر بغير فاء مجزوماً على البدل، ﴿مَن يَدَامِسْكُمْ﴾ بدل البعض من الكل أو بدل الاشتمال، ومعنى الإبدال تفصيل للإجمال الذي في الحساب، لأن التفصيل أبين وأوضح، فكل ما يحتاج إلى البيان يجري

سنة ست وستمئة. (انظر ترجمته في: البداية والنهاية: 55/13، وطبقات الشافعية: 33/5، ولسان الميزان: 426/4، وتاريخ آداب اللغة: 94/3، والأعلام: 203/7).

(1) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، الغرناطي، أبو محمد: مفسر، وفقه أندلسي من أهل غرناطة، ولد سنة 481هـ، وتوفي بلورقة سنة 542هـ. (انظر: نفح الطيب: 593/1، وكشف الظنون: 439، وبغية الوعاة: 295، والأعلام: 282/3).

(2) من الآية: 6 من سورة البقرة.

(3) من الآية: 284 من سورة البقرة.

فيه هذا البديل اسما كان أوفعلا؛ إذ الفعل قد يحتاج إليه احتياج الاسم، والقراءة إظهار الراء في الجزم وإدغام الباء. ومن روى إدغام الراء في اللام عن أبي عمرو فهو مخطئ مرتين؛ حيث ألحن لحنا فاحشا؛ إذ الراء لا تدغم إلا في مثلها، ثم نسيه إلى أعلم الناس بالعربية، والسبب عدم ضبط الرواية لعدم الدراية. كذا قيل، وفيه بحث يطلب من تفسير أبي حيان»، انتهى.

— من تفسير القرطبي: «جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان»، وذلك عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ عَلِينَا﴾⁽¹⁾؛ حيث قال: «وقرئ «تشابهت» مخففا ومشددا، قال القرطبي: في مصحف أبي⁽²⁾ ﴿تَشَابَهَتْ﴾ بتشديد الشين»، انتهى.

2 - نماذج من مصادره المشرقية

من تفسير ابن جرير الطبري: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، وهو تفسير مشهور، ومن أمثلة اعتماده على هذا التفسير الجليل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْغَيْنَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾⁽³⁾ قال: «أخرج ابن جرير وغيره بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن المراد به الكفار من اليهود خاصة وهو الظاهر بقريظة إيلائه المؤمنين من أهل الكتاب، ولأن السورة مدنية وأكثر الخطاب في اليهود»، انتهى.

(1) من الآية: 70 من سورة البقرة.

(2) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد، من بني النجار، من الخزرج، أبو المنذر، صحابي أنصاري، كان قبل الإسلام حبرا من أئمة اليهود... ولما أسلم كان من كتاب الوحي، توفي سنة 21هـ. (انظر غاية النهاية: 31/1، وصفة الصفوة: 188/1، والأعلام: 82/1).

(3) من الآية: 6 من سورة البقرة.

من تفسير الواحدي: «الوسيط في تفسير القرآن المجيد» ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ أَخْذُنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الصُّورَ﴾⁽¹⁾ حيث قال —رحمه الله—: «قال الواحدي: الطور، الجبل بالسريانية، وقد تكلمت به العرب، وقيل: علم للجبل الذي ناجى عليه الله تعالى موسى⁽²⁾ عليه السلام، وهو المراد هاهنا»، انتهى.

ومن تفسير الرازي: «التفسير الكبير» قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ هُمْ يوقنون﴾⁽³⁾؛ حيث قال: «والإيقان: إتقان العلم بإزالة الشك والشبهة عنه، فاليقين هو العلم بالشيء بعد أن كان صاحبه شاكا فيه، ولذلك لا يطلق على علمه تعالى. قال الإمام⁽⁴⁾: ويقال ذلك في العلم الحادث بالأمر، سواء كان ذلك العلم ضروريا أو استدلاليا، فيقول القائل: تيقنت ما أردته بهذا الكلام، وإن كان قد علم مراده بالاضطرار، ويقول: تيقنت أن الإله واحد، وإن كان قد علمه بالاكتساب»، انتهى.

ثانيا: مصادره من القراءات

تناول ابن كمال —رحمه الله— القراءات الواردة في الألفاظ القرآنية واستعان بها في فهم النصوص القرآنية في تفسيره، لكنه لم يذكر بالتحديد مصادره من الكتب والمصنفات التي اعتمدها في هذا العلم الجليل، وإنما كان يكتفي بذكر القراءات الواردة في اللفظ القرآني، وكان هذا ديدنه الذي درج عليه من بداية التفسير إلى نهايته ومن ذلك مثلا ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا لَنَعْلَمَ مِنْ يَتَّبِعُ الرِّسُولَ﴾⁽⁵⁾؛ حيث

(1) من الآية: 63 من سورة البقرة.

(2) انظر تاريخ الطبري: 1 / 193.

(3) من الآية: 4 من سورة البقرة.

(4) يعني: الإمام الرازي. (انظر: التفسير الكبير: 36 / 2).

(5) من الآية: 143 من سورة البقرة.

قال - رحمه الله -: « وقرئ » إلا ليعلم « على البناء للمفعول، ومعنى العلم: المعرفة، ويجوز أن تكون ﴿من﴾ متضمنة لمعنى الاستفهام معلقا عنها العلم، كقولك: علمت أزيد في الدار أم عمرو، انتهى.

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا متغلبون وتخشرون إلى جحيم﴾⁽¹⁾ قال: « وقرئ بالياء فيهما على الغيبة: الإخبار بمعنى كلام الله تعالى، وعلى الخطاب بلفظه، انتهى.

ومنه قوله تعالى: ﴿ويعلمه الكتاب﴾⁽²⁾ قال: « وقرئ » ونعلمه « بالنون على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، لشدة الاعتناء بأمره عليه السلام، ويجوز أن يراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة، انتهى.

وأما ما ذكره - رحمه الله - من القراءات الشاذة والتنبيه عليها فمنه، على سبيل المثال لا الحصر، قوله تعالى: ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾⁽³⁾؛ حيث قال: « وفي القراءة الشاذة: « غُلْفٌ » بضم اللام جمع غلاف وهو الغشاء والوعاء، انتهى.

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿واقيموا الحج والعمرة﴾⁽⁴⁾؛ حيث قال: « وقراءة ﴿واقيموا الحج والعمرة﴾ شاذة فلا تصلح حجة، انتهى.

ومن نماذج القراءات التي ذكرها - رحمه الله - في تفسيره معزوة إلى رواتها، ما يأتي:

(1) من الآية: 12 من سورة آل عمران.

(2) من الآية: 48 من سورة آل عمران.

(3) من الآية: 88 من سورة البقرة.

(4) من الآية: 196 من سورة البقرة.

— ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾⁽¹⁾ حيث قال: «وفي قراءة عبد الله «فاختلفوا، فبعث الله» ولقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾⁽²⁾، انتهى.

— ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا﴾⁽³⁾ قال: «وفي قراءة أبي «قبلة» والتنوين عوض عن الإضافة»، انتهى.

ثالثا: مصادر من اللغة والنحو

اعتمد ابن كمال — رحمه الله — في مصادر اللغوية والنحوية في تفسيره على مصادر كثيرة ومتنوعة ومتميزة، منها ما هو نحوي بحت، ككتاب سيبويه، ومنها ما هو لغوي بحت مثل إصلاح المنطق لابن السكيت⁽⁴⁾، ومنها ما جمع فيه بين اللغة والنحو وله صلتة الوثيقة بالدرس القرآني كمعاني الفراء ومعاني الزجاج ومعاني الأخفش. أضاف إلى هذا، أقوال العديد من العلماء في هذا المجال كالجوهري، وابن درستويه، والراغب، وأبي الأسود الدؤلي⁽⁵⁾، والزهرى، وابن جني،

(1) من الآية: 213 من سورة البقرة.

(2) من الآية: 19 من سورة يونس.

(3) من الآية: 148 من سورة البقرة.

(4) هو يعقوب بن إسحاق، أبو يوسف ابن السكيت: إمام في اللغة والأدب، أصله من خوزستان (بين البصرة وفارس)، تعلم ببغداد. ولد سنة 186هـ، وقتله المتوكل العباسي لسبب مجهول سنة 244هـ. (انظر ابن خلكان: 309/2، وهديّة العارفين: 536/2، والأعلام: 195/8).

(5) هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني، واضع علم النحو. ولد سنة 1 قبل الهجرة، وتوفي بالبصرة سنة 69هـ. (انظر: وفيات الأعيان: 240/1، والإصابة: ترجمة 4322، وخزانة البغدادي: 136/1، والأعلام: 237/3).

والجوالقيقي⁽¹⁾، والمبرد⁽²⁾، والأصمعي⁽³⁾، والثعالبي، وابن الأنباري⁽⁴⁾، والمطرزي⁽⁵⁾، وابن مقسم⁽⁶⁾، وابن مالك⁽⁷⁾... واللائحة طويلة.

وهكذا تضافرت هذه المصادر كلها في توجيه منهج ابن كمال في تفسيره؛ حيث غدا منهجا متميزا في مادته العلمية، ولا عجب في هذا لأن صاحبه كان رأسا في اللغة العربية وعلومها، وليس غريبا أبدا أن يثري تفسيره هذا بجهد وعلم فطاحل علماء اللغة العربية في كافة المجالات.

(1) هو مرهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر بن الحسن، أبو منصور ابن الجوالقيقي، عالم بالأدب واللغة، مولده ببغداد سنة 466هـ، ووفاته بها سنة 540هـ. (انظر وفيات الأعيان: 142/2، وبغية الوعاة، ص: 401، ودائرة المعارف الإسلامية: 156/7، وصيد الخاطر، ص: 114، والأعلام: 335/7).

(2) هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر، أبو العباس المبرد، كان في العلم والأدب والحفظ على درجة عالية حتى قيل له: المبرد، أي المثلث للحق. كانت وفاته رحمه الله سنة 285هـ. (انظر: تاريخ بغداد: 380/3، وبغية الوعاة، ص: 116، وشذرات الذهب: 190/2).

(3) هو عبد الملك بن قُريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي، راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان... مولده بالبصرة سنة 122هـ. ووفاته بها سنة 216هـ. (انظر: ابن خلكان: 288/1، ونزهة الألبا: 150، والأعلام: 162/4).

(4) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري: من علماء اللغة والأدب وتاريخ الرجال، ولد سنة 513هـ، وتوفي سنة 577هـ. (انظر: بغية الوعاة: 301، وهدية العارفين: 519/1، والأعلام: 327/3).

(5) هو ناصر الدين بن عبد السيد أبي المكارم بن علي، أبو الفتح، أديب عالم باللغة، من فقهاء الحنفية، كان رأسا في الاعتزال، ولد في السنة التي توفي فيها الزمخشري (538هـ)، اشتهر المطرزي نسبة إلى من يطرز الثياب، كانت وفاته سنة 610هـ. (انظر: بغية الوعاة، ص: 402، والفوائد البهية ص: 536، والأعلام: 348/7).

(6) هو محمد بن الحسن بن يعقوب بن الحسن، بن مقسم العطار، أبو بكر: عالم بالقراءات والعربية، من أهل بغداد، كانت ولادته سنة 265هـ، ووفاته سنة 354هـ. (انظر: غاية النهاية: 123/2، والأعلام: 81/6).

(7) هو محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين: أحد الأئمة في علوم العربية، ولد في جيّان (بالأندلس) سنة 600هـ، وانتقل إلى دمشق، فتوفي فيها سنة 672هـ. أشهر كتبه الألفية في النحو. (انظر: بغية الوعاة، ص: 53، ونفح الطيب: 434/1، والأعلام: 233/6).

1 - مجال معاني المفردات وتعريفها

قال ابن كمال - رحمه الله - عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾⁽¹⁾ **ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر**⁽²⁾؛ حيث بين - رحمه الله - معنى السحر قبل بيان حكم العمل به فقال: «والسحر: مزاولة النفوس الخبيثة لأفعال وأقوال، ويترتب عليها أمور خارقة للعادة، ولا يروى خلاف في كون العمل به كفرا، وعده نوعا من الكبائر مغايرا للإشراك لا ينافي ذلك، لأن الكفر أعم، والإشراك نوع منه، وهو في أصل اللغة الصرف، حكاه الأزهري عن الفراء ويونس، فإطلاقه على ما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات والأدوية، وما يريك صاحب خفة اليد باعتبار ما فيه من صرف الشيء عن جبهته حقيقة لغوية»، انتهى.

يظهر من خلال هذا، أن ابن كمال كان دقيقا في رجوعه إلى الأصول اللغوية؛ ذلك أنه عند إمعان النظر في كتاب «تهذيب اللغة» للأزهري⁽³⁾، ستجد أن الرجل كان دقيقا وأميناً في النقل.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾⁽⁴⁾ قال - رحمه الله -: «والخمر: ما خامر العقل أي ستره كأنها سميت بالمصدر للمبالغة، ومنه الخمار لما يستر الرأس. وقال ابن الأنباري سميت خمرا، لأنها تخامر العقل أي تخالطه، قال عمر⁽⁵⁾ عَمَّا لَبَّاهُ فِي خُطْبَتِهِ: أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّهُ نَزَلَ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ

(1) انظر تاريخ الطبري: 1 / 193.

(2) من الآية: 102 من سورة البقرة.

(3) انظر: تهذيب اللغة: 4 / 291.

(4) من الآية: 219 من سورة البقرة.

(5) هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قُرْظُ بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي القرشي العدوي، أبو حفص... أمير المؤمنين. (انظر: أسد الغابة: 4 / 145، وكانت ولادته سنة 40 قبل الهجرة، ووفاته سنة 23 هـ. (انظر الأعلام: 5 / 45).

وهي من خمسة، من العنب والعسل والتمر والحنطة والشعير. والميسر: القمار، وقال الأزهري: الميسر، الجزور الذي كانوا يتقامرون عليه، سمي ميسرا، لأنه يجزأ أجزاء فكأنه موضع التجزئة، وكل شيء جزأته فقد يسرته، والياسر الجازر، لأنه يجزئ لحم الجزور»، انتهى.

2 - في مجال النحو

وذلك عند تفسير آخر سورة الفاتحة: قال -رحمه الله-: «آمين»: مبني على الفتحة كـ «أين»، لالتقاء الساكنين. وجاء مد ألفه وقصرها، والأصل فيه القصر، وإنما مد ليرتفع الصوت بالدعاء، كذا قال ابن خالويه في «إعراب القرآن». وذكر ابن درستويه أن القصر ليس بمعروف وإنما قصره الشاعر في قوله: ... فأمين، زاد الله ما بيننا بعدا، اندفع للضرورة. ولا يشدد ميمه فإنه لحن، والعامة ربما فعلوا ذلك. وأما في قوله تعالى: ﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتَ الْعَرَامَ﴾⁽¹⁾ فالميم مشددة، لأنه من أمت: أي قصدت»، انتهى.

3 - مصادر رجع إليها ابن كمال وأحال عليها

- كتاب سيبويه، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁽²⁾ قال -رحمه الله-: «ولا اختصاص للشيء بالموجود، كيف؟ وهو أعم العام، يقع على الواجب والممكن والممتنع، نص على ذلك سيبويه؛ حيث قال في كتابه: إن الشيء يقع على كل ما أخبر عنه وخص هاهنا بالممكن بدليل العقل، وقرينة القدرة؛ إذ القدرة هي مبدأ الأفعال المتضادة على نسبة متساوية، والواجب راجع الوجود، والممتنع

(1) من الآية: 3 من سورة المائدة.

(2) من الآية: 20 من سورة البقرة.

راجع العدم، فلا يمكن تساوي الطرفين الذي هو شرط تعلق القدرة إلا في الممكن فكأنه قيل: على كل شيء ممكن قدير»، انتهى.

والأغرب من هذا كله أن ابن كمال انتقد من عرف بإمامته في علوم اللغة العربية وهو ابن مالك — رحمه الله — الإمام النحوي والحافظ للغة العرب، والإمام في القراءات وعللها، قال عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾⁽¹⁾: «وهو في موضع نصب على مذهب الخليل لا في موضع جر خلافا لمن قال مذهبه: إنه في موضع جر وهو ابن مالك، قاله في التسهيل وهو قليل الإمام بكتاب سيبويه»، انتهى.

— كما نقل ابن كمال من كتاب «إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن» لأبي البقاء⁽²⁾ العكبري، وذلك عند قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ﴾⁽³⁾؛ حيث قال: «وقال أبو البقاء: مريم علم أعجمي، ولو كان مشتقا من رام يريم، كان مريما بفتح الميم وسكون الياء، وقد جاء في الأعلام بفتح الياء، نحو مرتد وهو خلاف القياس»، انتهى.

— أما في مجال فقه اللغة؛ فقد نقل — رحمه الله — عن الثعالبي من كتابه المسمى «فقه اللغة وسر العربية»، وذلك عند قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾⁽⁵⁾ قال: «قال الثعالبي في

(1) من الآية: 25 من سورة البقرة.

(2) هو أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، أبو البقاء، توفي سنة 1094م. (انظر: هدية العارفين، ص: 229، وإيضاح المكنون: 380/2، والأعلام: 38/2).

(3) انظر: مقارنة الأديان لأحمد شلبي: 40/2.

(4) من الآية: 87 من سورة البقرة.

(5) من الآية: 210 من سورة البقرة.

سر الأدب: أول ما ينشأ هو النشء، فإذا انسحب في الهواء فهو السحاب فإذا تغيرت له السماء فهو الغمام»، انتهى.

— كما نقل عن الجواليقي، وذلك عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾⁽¹⁾ قال: «قال الجواليقي في «المغرب»: أسماء الأنبياء كلها أعجمية إلا أربعة أسماء وهي: آدم وصالح⁽²⁾ وشعيب⁽³⁾ ومحمد عليهم السلام»، انتهى.

— أما نقله عن الإمام المطرزي، فعند قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ مِثْلَاتِكُمْ﴾⁽⁴⁾ قال: «قال الإمام المطرزي في «المغرب»⁽⁵⁾: «الكفر في الأصل: الستر، يقال: كفره وكفره إذا ستره»، انتهى.

— أما نقله عن ابن السكيت، فعند قوله تعالى: ﴿وَبِنَا إِنْكَ مِنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾⁽⁶⁾ قال: «قال ابن السكيت: خزي يخزي خزيا: إذا وقع في بلية، فلا إشعار فيه بأن العذاب الروحاني أفضع»، انتهى.

هذه بعض النماذج من مصادر اللغة والنحو التي نقل عنها ابن كمال في تفسيره. وقد ذكرت بعضها منها على سبيل المثال لا الحصر؛ ذلك أن الذين نقل عنهم — رحمه الله — في هذا المجال كثيرون جدا، وله في هذا المجال عبارات يستعملها في بعض الأحيان مثل: قال جمهور أهل اللغة، أو علماء اللغة، قال جمع أئمة التفسير والعربية إلخ.

(1) من الآية: 31 من سورة البقرة.

(2) هو صالح عليه السلام، نبي عربي ورد ذكره في القرآن عدة مرات، وهو من بني ثمود. (انظر الأعلام: 188/3).

(3) شعيب: النبي العربي، من بني مدين، من نسل إبراهيم، كان بعد هود وصالح، وقبل أيام موسى. منازل قومه بقرب تبوك، بين المدينة والشام. (انظر: الأعلام: 165/3).

(4) من الآية: 179 من سورة البقرة.

(5) العنوان بكامله هو «المغرب في ترتيب المغرب».

(6) من الآية: 192 من سورة آل عمران.

أما نقله عن الراغب في «المفردات» فهو كثير جداً، ومن أراد التوسع في هذا المجال فليرجع إلى قسم التحقيق والله المستعان.

رابعاً: مصادره من الحديث والفقه

1 - مصادره من كتب الحديث

تعتبر السنة النبوية الشريفة أصلاً من الأصول المهمة التي قام عليها تفسير ابن كمال؛ حيث اعتمد -رحمه الله- في هذا الباب على المصنفات الصحاح في الحديث النبوي الشريف، وأهم هذه المصادر حسب الترتيب الزمني لمصنفيها هي كالتالي:

- 1- الموطأ للإمام مالك⁽¹⁾ بن أنس (ت. 179هـ).
- 2- المسند للإمام أحمد بن حنبل (ت. 241هـ).
- 3- الجامع الصحيح للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت. 256هـ).
- 4- المسند الصحيح للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت. 261هـ).
- 5- السنن للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت. 275هـ).
- 6- السنن للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت. 297هـ).
- 7- المستدرک على الصحيحين لأبي عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري الحاكم⁽²⁾ (ت. 405هـ).

(1) هو الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبغي، الحميري، أبو عبد الله: إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، مولده ووفاته في المدينة (179-93هـ). (انظر: الديباج المذهب: 30/17، والوفيات: 439/1، والأعلام: 257/5-258).

(2) هو محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي، الطهماني النيسابوري، الشهير بالحاكم، ويعرف بابن البع، أبو عبد الله: من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه، مولده بنيسابور سنة 321هـ، ووفاته بها سنة 405هـ. (انظر: طبقات السبكي: 64/3، والوفيات: 484/1، ولسان الميزان: 232/5، والأعلام: 227/6).

8- السنن الكبرى للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي⁽¹⁾
(ت. 458هـ).

وإليك أمثلة من بعض استشهاداته من هذه المصادر:

1- فعن الإمام مالك، قال عند بداية تفسير الفاتحة: «وهي سبع آيات بالاتفاق. إلا أن قراء المدينة والبصرة⁽²⁾ والشام⁽³⁾ وفقهاءها عدّوا ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية ولم يروا التسمية آية منها. وعليه مالك، وأبو حنيفة وأصحابه، ولهذا لا يذكرها مالك في الصلاة»، انتهى.

2- أما عن الإمام أحمد فقال عند قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَمَّ الْبَيْتَ لُوَاعْتِمُ فَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَصُوفَ بِهِمَا﴾⁽⁴⁾: «واعلم أنه لا خلاف في أنه مشروع في الحج والعمرة، وإنما الخلاف في وجه مشروعيته؛ فعن أحمد أنه سنة، وبه قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقوله تعالى: ﴿فَلَا جَنَاحَ﴾، فإن الظاهر المتبادر منه التخيير المنافي للوجوب وقد مر وجه دفعه»، انتهى.

3- أما عن البخاري ومسلم، فعند قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْغَيْبُ الْبَاضِ مِنَ الْغَيْبِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾⁽⁵⁾ قال: «قال سهل بن سعد الساعدي: نزلت هذه الآية ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْغَيْبُ الْبَاضِ مِنَ الْغَيْبِ الْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل قوله تعالى: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل

(1) هو أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر: من أئمة الحديث، ولد في خسرو جرد (من قرى بيهق بنيسابور) سنة 384هـ، وتوفي بنيسابور سنة 458هـ. (انظر طبقات الشافعية: 3/3، وابن خلكان: 20/1).

(2) وهي البصرة العظمى الموجودة بالعراق. (انظر: معجم البلدان: 430/1).

(3) انظر ما يتعلق بالشام: معجم البلدان: 311/3 وما بعدها.

(4) من الآية: 158 من سورة البقرة.

(5) من الآية: 187 من سورة البقرة.

ويشرب حتى يتبين له منهما.. فأنزل الله تعالى بعد ذلك قوله تعالى : ﴿من الفجر﴾ فعلموا أنه إنما يعني بذلك الليل والنهار، وهذا حديث صحيح عند أئمة الحديث كالبخاري ومسلم»، انتهى.

4- وعن الترمذي وأبي داود قال عند قوله تعالى : ﴿فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾⁽¹⁾ : «العضل : المنع مع تضيق، يقال : عضلت الدجاجة ببيضها، والمرأة بولدها. والخطاب لا يجوز أن يكون للأزواج، بدلالة ما روى البخاري والترمذي وأبو داود أن الآية نزلت في معقل بن يسار، وكانت أخته تحت ابن عم له، فطلقها طلقاً، فلما انقضت عدتها خطبها وهي تريد أن ترجع إليه، فقال معقل : لا أزوجكها أبداً، فأنزل الله هذه الآية، فدعاه النبي عليه السلام، فتلاها عليه فقال : سمعاً لربي وطاعة»، انتهى.

5- وعن الحاكم ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾⁽²⁾ قال : «وقد صح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال : إنما سمي آدم، لأنه خلق من أديم الأرض أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم⁽³⁾ والحاكم، وصححه البيهقي في الأسماء والصفات»، انتهى.

6- وعن الإمام البيهقي ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿فأتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾⁽⁴⁾ ، قال رحمه الله : «والحجارة جمع حجر، كالجمل والجمالة، وهذا جمع على غير قياس، والقياس فيه الأحجار كالشجر والأشجار، وقد صح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على ما أخرجه

(1) من الآية : 232 من سورة البقرة.

(2) من الآية : 31 من سورة البقرة.

(3) هو عبد الرحمن بن محمد أبي حاتم بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي، أبو محمد : حافظ للحديث، من كبارهم، ولد سنة 240هـ، وتوفي سنة 327هـ. (انظر : تذكرة الحفاظ : 46/3، وطبقات الحنابلة : 55/2، والأعلام : 324/3).

(4) من الآية : 24 من سورة البقرة.

ابن جرير في تفسيره، وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على ما أخرجه البيهقي في البعث والنشور: إنها حجارة الكبريت»، انتهى.

2 - مصادره من كتب الفقه

كان ابن كمال -رحمه الله- في عصره واحدا من أئمة المذهب الحنفي وفقهائها من فقهاء، وقد استمد هذه المكانة العلمية المرموقة والنادرة من شيوخه إلى أن قيل: إنه شارف الحصول على طبقة اجتهادية متقدمة، فكان كثيرا ما يعتمد على حفظه في هذا المجال أكثر من اعتماده على المصادر، مما أدى به إلى أن يكون مقلا في عزوه الأقوال الفقهية إلى مصادرها مما يدل دلالة قاطعة على مدى معرفته للآراء الفقهية وتمكنه العالي ورسوخ قدمه في هذا المجال.

وها هي بعض النماذج والمقتطفات من تفسيره رحمه الله:

المثال الأول: وذلك بذكره -رحمه الله- آراء الحنفية دون بيان المصادر التي أخذ عنها المادة الفقهية، مكتفيا بما حفظه؛ ففي تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلِّقُونَ مِنْ فِئَتِهِمْ تُرْبَةً أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾⁽¹⁾ قال: «والتربص: الانتظار والتوقف، أضيف إلى ذلك الظرف على الاتساع، أي للمولي التلبث في هذه المدة فلا يلزمه شيء فيها، وهذا لا ينافي بوقوع الطلاق البائن عند مضيها كما قال أبو حنيفة»، انتهى.

وهو نفس المنهج الذي أخذ به عند المقارنة بين آراء أئمة المذاهب، أي ما يسمى في واقعنا المعاصر (الفقه المقارن)؛ ففي تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ حَمِ الْبَيْتَ لَوْلَا جَنَاحُ عَلَيْهِ أَنْ يَهْوَ بِهِ﴾⁽²⁾ قال: «واعلم أنه لا خلاف في أنه مشروع في الحج

(1) من الآية: 224 من سورة البقرة.

(2) من الآية: 158 من سورة البقرة.

والعمرة، وإنما الخلاف في وجه مشروعيته؛ فعن أحمد أنه سنة، وبه قال أنس رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنه لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ فإن الظاهر المتبادر منه التخيير المنافي للوجوب، وقد مر وجه دفعه... وعند أبي حنيفة وأصحابه أنه واجب يجبر بالدم، وبه قال سفيان الثوري وعامة أهل العلم، وعند مالك والشافعي هو ركن لقوله عليه السلام: (اسعوا فإن الله قد كتب عليكم السعي) ⁽¹⁾، ويرد عليه دلالة على الوجوب دون الركنية، انتهى.

المثال الثاني: مناقشته - رحمه الله - لمختلف الآراء الفقهية، اعتماداً على ما حفظه في هذا الباب؛ ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مَوْتَةً وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ⁽²⁾ قال: «يعني إذا أسلم الحربي في دار الحرب ولم يهاجر إلينا فقتله مسلم، ولم يعلم بإيمانه. وإفادة هذا القيد صدر الكلام بالفاء المرتبة له على ما تقدم، وفيه الكفارة لا غير، وهو قوله تعالى ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ قيل: دون الدية لأهله؛ إذ لا وراثة بينه وبينهم، لأنهم محاربون. وكأن هذا القائل غافل عن العموم المذكور فيما سبق في مصرف الدية، والشافعي حمله على مؤمن اختلط بأهل الحرب، ويأباه قوله تعالى: ﴿مِنْ قَوْمٍ﴾، لأنه حينئذ لا يكون منهم»، انتهى.

المثال الثالث: نقله - رحمه الله - لأقوال فقهية بالواسطة، أي أخذ الأقوال من مصادر غير مصادرها الأصلية؛ ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَخِزْيُ أَرْبَعَةٍ مِنَ الْكُفَرِ﴾ ⁽³⁾ نقل قول محمد بن الحسن الشيباني ⁽⁴⁾

(1) انظر: مستدرك الحاكم: 70/4، وفيه قال الذهبي: لم يصح.

(2) من الآية: 91 من سورة النساء.

(3) من الآية: 260 من سورة البقرة.

(4) هو محمد بن الحسن بن فرقد، من موالى بني شيبان، أبو عبد الله: إمام في الفقه والأصول، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة... ولد بواسط سنة 131هـ، وتوفي بالري سنة 189هـ. (انظر الفوائد البهية، ص: 189)

بجواز ذبح المحرم للطير المسرول⁽¹⁾ عن كتاب «المغرب في ترتيب المغرب» للمطرزي؛ حيث قال: «قال في «المغرب»⁽²⁾: الطير اسم جمع مؤنث، وقد يقال للواحد عن قطرب⁽³⁾، وكذا حكاه ثعلب⁽⁴⁾ عن أبي عبيدة وجمعه طيور، وعليه قول محمد: في المحرم يذبح الطير المسرول»، انتهى.

وأخيرا يمكن أن أقول إن ابن كمال اعتمد على مصادر في غاية الأهمية من حيث مادتها العلمية ووفرة من حيث كمها كذلك؛ فلم يقتصر -رحمه الله- على ما أخذه عن شيوخه في هذا المجال، بل كثيرا ما اعتمد آراء علماء السلف وقدمها في كثير من الأحيان على مذهبه إذا بان له الوجه الأصوب في المسألة، وهذا لا يخفى على كل من أمعن نظره في تفسيره رحمه الله.

163، ولسان الميزان: 121/5، والنجوم الزاهرة: 130/2، والأعلام: 80/6).

(1) الطائر المسرول: الذي ألبس ريشه ساقيه. (انظر الصحاح: 1729/5، واللسان: سرل).

(2) انظر: المغرب في ترتيب المغرب للمطرزي: 30/2.

(3) هو محمد بن المستنير، أبو علي الشهير بقطرب، نحوي من علماء الأدب واللغة، قيل: وقطرب لقب دعاه به أستاذه سيبويه، لأنه يدلج إليه، فإذا أخرج رآه على بابه فقال: ما أنت إلا قطرب ليل، فلقب به. توفي سنة 206هـ. (انظر: تاريخ بغداد: 298/3، بغية الوعاة: 104، والأعلام: 95/7).

(4) هو أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء، أبو العباس، المعروف بثعلب: إمام الكوفيين في النحو واللغة، كان راوية للشعر، محدثا، ولد ببغداد سنة 200هـ. وتوفي بها سنة 291هـ. (انظر: نزهة الألبا، ص: 293، وتذكرة الحفاظ: 214/2، والأعلام: 267/1).

الفصل الثالث

دراسة لتفسير ابن كمال باشا

✓ المبحث الأول: اسم التفسير ونسبته إلى ابن كمال

✓ المبحث الثاني: قيمته العلمية

✓ المبحث الثالث: ثناء العلماء عليه

✓ المبحث الرابع: وصف النسختين

✓ المبحث الخامس: رموز النسختين

المبحث الأول: اسم التفسير ونسبته إلى ابن كمال

أولاً: اسم التفسير

إن كتب التراجم التي تناولت مؤلفات ابن كمال ذكرت أن من ضمن مؤلفاته رحمه الله تفسير في غاية الأهمية، ولم تذكر له عنواناً، والذي يظهر لي -وهو الراجح والله أعلم- أن المنية اخترمته فلم يكمله⁽¹⁾، مما يدل على أن التفسير من مصنفاته التي اشتغل بها في أواخر عمره، وهو آنذاك شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، والمؤلف عادة لا يضع العنوان لمؤلفه إلا بعد تمامه، لكن المنية حالت دون هذا الأمر، فاشتهر التفسير بعد هذا بتفسير ابن كمال، وعلى هذه التسمية اتفقت مخطوطات الكتاب وجميع المصادر والأصول التي ذكرته.

ثانياً: نسبته إلى ابن كمال

وأما عن نسبة التفسير إلى ابن كمال، فإنني أستطيع أن أقول: إنني لم أجد خلافاً يذكر فيها، بل تحققت صحة هذه النسبة التي لا يشوبها الشك بأمور منها:

1- وجود اسمه رحمه الله في جميع مخطوطات الكتاب.

2- إن المتتبع والناظر في مؤلفات ابن كمال لا يجد فرقاً بينها وبين التفسير من حيث الأسلوب، وطريقة العرض، والاعتماد على المصادر، إلا بمقدار ما يتطلبه الموضوع، بل قد يورد رحمه الله في التفسير أموراً نجدها قد وردت في مؤلفاته الأخرى.

(1) انظر: الشقائق النعمانية، ص: 227، والكواكب السائرة: 2 / 107.

3- نسبة أصحاب التراجم والطبقات هذا التفسير إلى ابن كمال حينما عرضوا لترجمته، ففي الشقائق النعمانية⁽¹⁾: «وله من التصانيف تفسير لطيف حسن قريب من التمام، وقد اخترمته المنية ولم يكمله». وفي الكواكب السائرة⁽²⁾ وردت العبارة نفسها، وفي هدية العارفين⁽³⁾: «من مصنفاته تفسير القرآن إلى سورة الصافات». وفي شذرات الذهب⁽⁴⁾: «شمس الدين أحمد بن سليمان الحنفي الشهير بابن كمال باشا، العالم العلامة الأوحد المحقق الفهامة صاحب التفسير». فمن خلال هذه القرائن يجد الباحث نفسه مطمئنة إلى أن هذا التفسير للجليل ألفه ابن كمال رحمه الله، ولم يتمكن من أن يختار له عنوانا.

(1) انظر: الشقائق النعمانية، ص: 227.

(2) انظر الكواكب السائرة: 2/ 107-108.

(3) انظر: هدية العارفين: 5/ 141.

(4) شذرات الذهب: 8/ 238.

المبحث الثاني:

قيمه العلمية

حاول ابن كمال أن يكون تفسيره مرجعا من المراجع التفسيرية في العالم الإسلامي، ليستفيد منه الباحثون والمتعلمون، كما حاول أن يسهل مادته، وأن يجمع أكثر ما يمكن جمعه من المصادر التي تناولت الدرس القرآني كيفما كان فنهما، وأستطيع أن أقول إن ابن كمال وصل إلى غايته لما أبداه من استقراء لكل العلوم المرتبطة بالدرس القرآني من قريب أو بعيد، وقد حاول رحمه الله أن يتناول الموضوع بعبارة مفيدة، ومرجعه دائما سعة اطلاعه وتجربته في ميدان التأليف، خاصة وأن تأليفه لتفسير القرآن جاء في أواخر عمره بعد تجارب عدة.

وأهمية التفسير لا تقف عند هذا الحد فحسب، بل هناك جمهور كبير من العلماء الذين ورد ذكرهم ونقل عنهم مفسرين كانوا أم غير مفسرين، والتفسير يبين مدى الصلة الموجودة بين الدرس القرآني والعلوم الأخرى.

والتفسير يشكل أيضا حلقة في سلسلة علوم التفسير، فكان مؤلفا متميزا على مدى العصور.

ويمكن أخيرا تلخيص القيمة العلمية لهذا التفسير من خلال ما يلي:

1- شهادة المؤرخين وأصحاب التراجم لصاحبه بالمنزلة العلمية المتميزة.

2- الثروة العلمية التي قدمها ابن كمال من خلاله.

3- اعتناء طلبة العلم والباحثين به مهما تعددت وتنوعت تخصصاتهم.

4- اهتمام العلماء وطلبة العلم بابن كمال وبمصنفاته للتعرف على شخصيته وأسلوبه ومنهجه وأخلاقه ليكون قدوة لمن بعده.

المبحث الثالث: ثناء العلماء عليه

هذا وقد أثنى كثير من العلماء الأفاضل على هذا التفسير لما امتاز به من تصرفات عجيبة، وتحقيقات شريفة، كما أثنوا على صاحبه رحمه الله لما له من مكانة مرموقة في عالم التأليف والتصنيف؛ قال⁽¹⁾ صاحب الكواكب السائرة: «وله من التصانيف تفسير لطيف حسن قريب من التمام». وفي كشف الظنون: «تفسير لطيف، فيه تحقيقات شريفة، وتصرفات عجيبة»⁽²⁾. وهي الأوصاف نفسها التي وصف بها هذا التفسير في الشقائق النعمانية⁽³⁾، وشذرات الذهب⁽⁴⁾.

كل هذه الشهادات وغيرها جعلت هذا التفسير القيم يتبوأ المكانة العلية اللائقة به ضمن كتب التفسير، كما لفتت عناية الدارسين إليه لما حواه من دراسات واستنباطات واستدراكات تفرد بها دون كتب التفسير التي سبقتة.

وهذا الاحتفاء يدل دلالة لاشك فيها على علو منزلته التي تدل كذلك على علو منزلة مؤلفه، مما أكسب التفسير في آخر المطاف شهرة وذيوعاً يوماً بعد يوم.

ومن الأسباب التي جعلت العلماء يثنون عليه ما حواه من علوم في غاية الأهمية بتنوع مجالاتها، وتعدد مصادرها، فكان في الحقيقة تأليفاً

(1) الكواكب السائرة: 2 / 107.

(2) كشف الظنون: 1 / 439.

(3) الشقائق النعمانية، ص: 227.

(4) انظر: 8 / 239.

رائعا في مجاله، يستحق أن يضاف إلى الجهود التي سبقته في ميدانه .
وأرجو أخيرا أن يكون هذا الجهد المتواضع ملفتا لنظر الباحثين
للاهتمام بمؤلفات شيخ الإسلام⁽¹⁾ ابن كمال عموما، وبتفسيره القيم
خصوصا .

(1) قال البغدادي: «ابن كمال أحمد بن سليمان شمس الدين المعروف بابن كمال باشا، شيخ الإسلام،
الرومي، الحنفي». (انظر: هدية العارفين: 141/5).

المبحث الرابع: وصف النسختين

رجعت في تحقيق هذا التفسير إلى نسختين جعلت لكل منهما رمزا، وهما:

أ-النسخة «ع»

هي نسخة مصورة عن مخطوطة الخزانة العامة بالرباط تحت رقم: 460 ق، وهي نسخة تامة سليمة من الخروم، كتبت بخط النسخ المعتاد الخالي من الشكل، تقع في 1283 صفحة، في كل صفحة 25 سطرا، ويشتمل السطر على 13-15 كلمة تقريبا.

وفي ورقتها الأولى ما يشير إلى بعض التملكات: «وقف لله تعالى بيد أحمد بن محمد بن ناصر، كان الله له، آمين، الحمد لله، فيه من البقرة إلى ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ من سورة المائدة، ثم من أول الأنعام إلى «ص»، ثم سورة الملك، ثم ﴿عم يتساءلون﴾ مع النزاعات، ثم ﴿والسماء والطارق﴾. وما بقي ساقط، ولعله كذلك في الأصل، والله سبحانه وتعالى أعلم»، انتهى.

وهذه المخطوطة فيها من الميزات ما جعلني أقدمها على غيرها، وأجعلها أصلا في التحقيق لما امتازت به من قلة الأخطاء، وبعد عن النقص في ألفاظها وعباراتها، وما فيها كذلك من تصحيحات وتنبيهات وتعليقات أوردتها ناسخها في الحواشي بعبارات مختلفة مثل: «نص على هذا القرطبي في تفسير المائدة»، أو «كأن صاحب الكشاف غافل عن هذا»، أو «وقد أشار الجوهرى إلى هذا حيث قال...».

وختمت هذه النسخة بعبارة: « تمت » .

ب- النسخة « ح »

هي نسخة مصورة عن مخطوطة مكتبة الحرم المكي المرقمة برقم 280 تفسير، كتبت كذلك بخط معتاد خال من الشكل ومقروء، يرجع تاريخ نسخته إلى القرن الثالث عشر الهجري . أما عن مقاس النسخة فهو 20×15 ⁽¹⁾، كما يوجد في ورقتها الأولى اسم المؤلف ابن كمال باشا أحمد بن سليمان . أما في ورقتها الثالثة ففيها ترجمته المأخوذة من الشقائق النعمانية .

وهذه النسخة تقع في 412 صفحة، في كل صفحة 31 سطرا، ومعدل ما يحتويه السطر الواحد : 15-16 كلمة .

وترتيب هذا المخطوط في الفيلم بمكتبة الحرم المكي هو 2635 .

وهي مع وضوح خطها فإنها لا تخلو من التصحيف والتحريف في بعض العبارات، مع السقط أحيانا، فتبين لي أنها لا ترقى في مستواها إلى نسخة « ع » الموجودة بالخزانة العامة بالرباط .

ومع ذلك، فإنني لا أنكر ما لها من فوائد، فقد أعانتني في مواطن متعددة على قراءة نصوص أشكلت علي، كما صوبت بها مواضع مهمة في التفسير .

ولا يفوتني هنا -إقرارا بالفضل لذويه- أن أشكر الأستاذ الدكتور محمد الإدريسي الطاهري لما تفضل به من تصوير هذه النسخة بمكة المكرمة وإرسالها إلي، جزاه الله كل خير، والله المستعان .

(1) انظر الورقة الأولى من النسخة .

المبحث الخامس: رموز النسختين

استعمل ابن كمال رحمه الله مجموعة من المصطلحات والرموز في تفسيره هذا، ولاسيما هذا الجزء الذي قمت بتحقيقه، وقد آثرت الإشارة إليها لكي تعين القارئ حينما يريد الرجوع إلى نسخ التفسير، وهذه الرموز هي كالآتي:

تع : تعالى .

ح : حينئذ .

ع.م : عليه السلام .

صلعم : ﷺ .

رضي : رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، ورضي الله عنهما ، ورضي الله عنهم .

وظ : والظاهر .

لا يخ : لا يخلو .

الخ : إلى آخره .

المط : المطلوب .

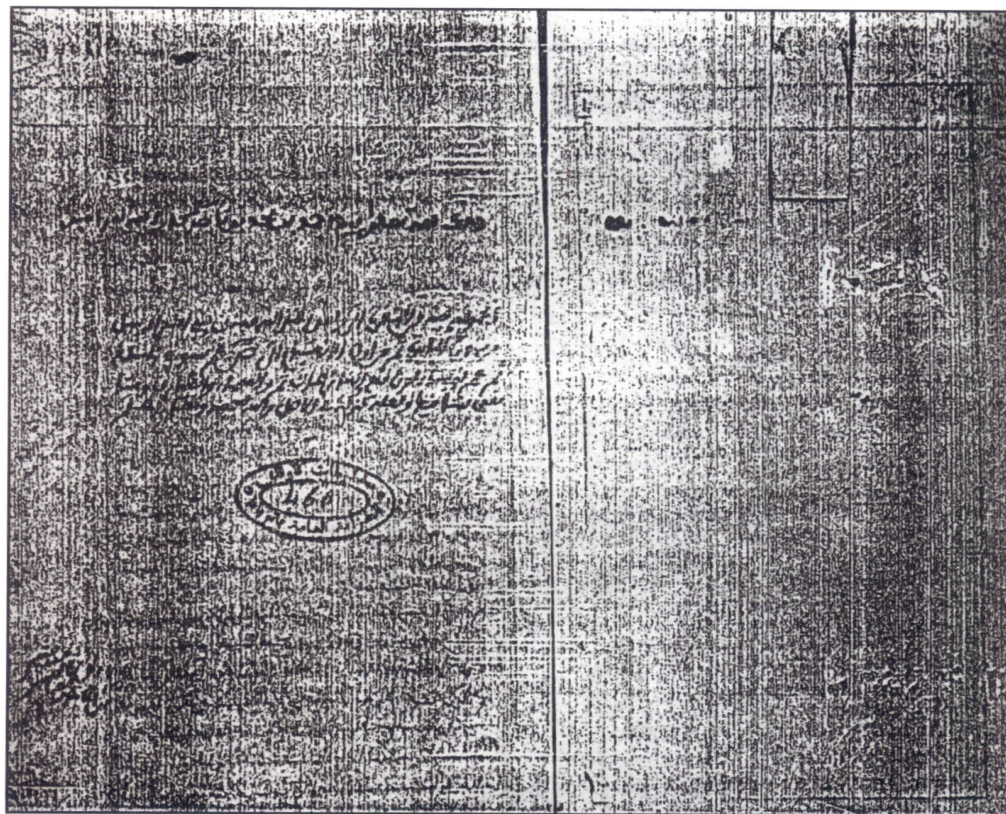
تج : تجاهل .

رح : رحمه الله .

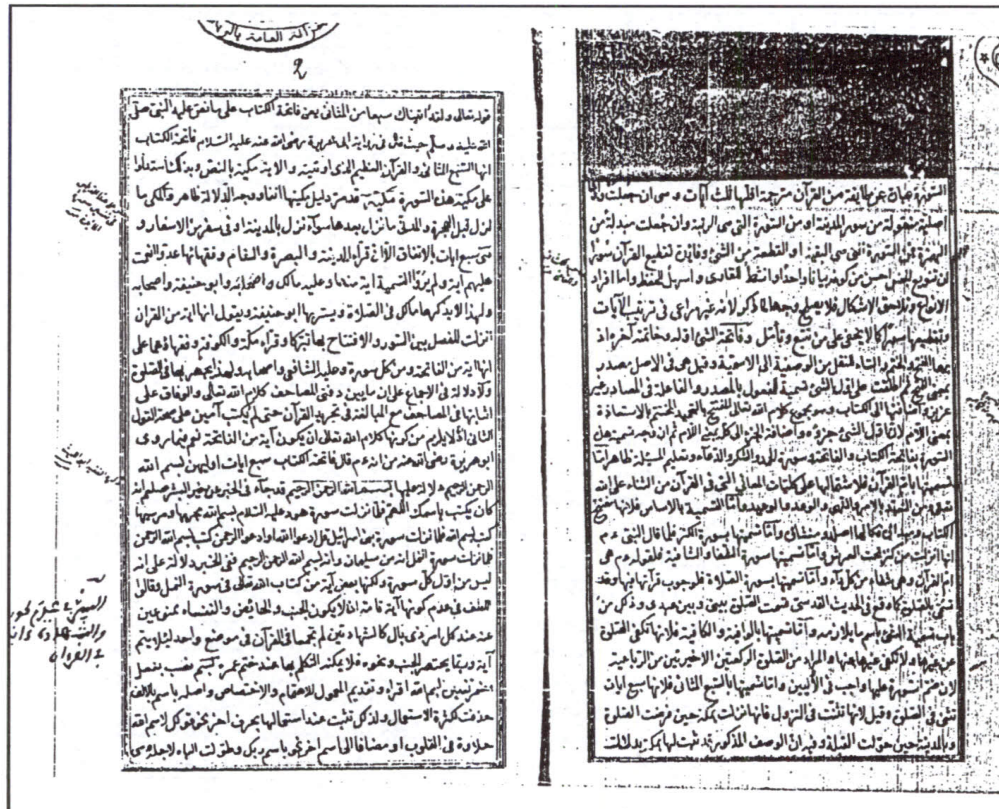
صدر الأفاضل : السلف الصالح .

بط : بطريق .

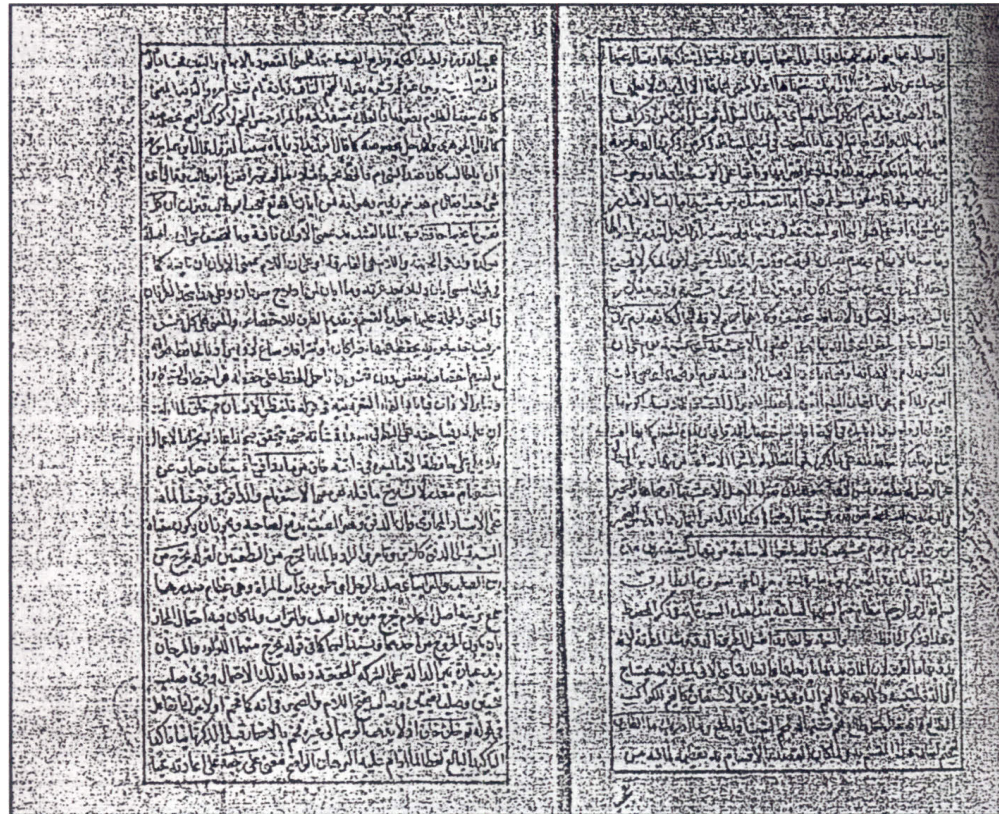
قال الإمام : الإمام الرازي .



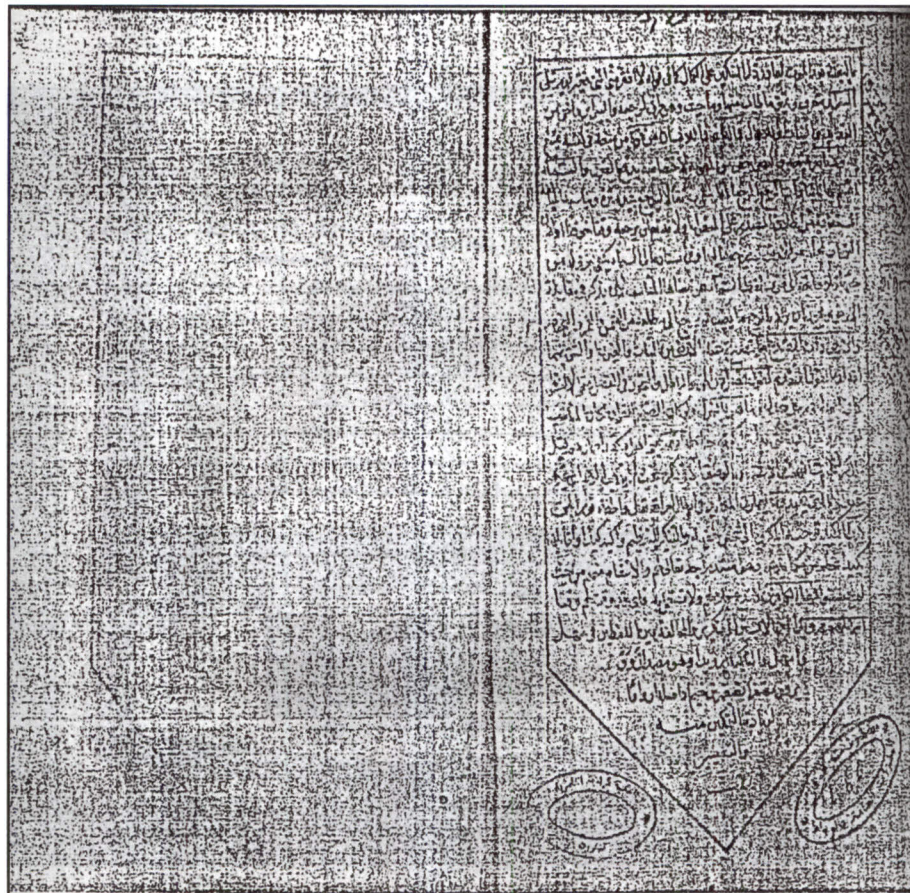
الورقة الأولى من نسخة «ع»، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط



الورقة الثانية من نسخة «ع»، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط



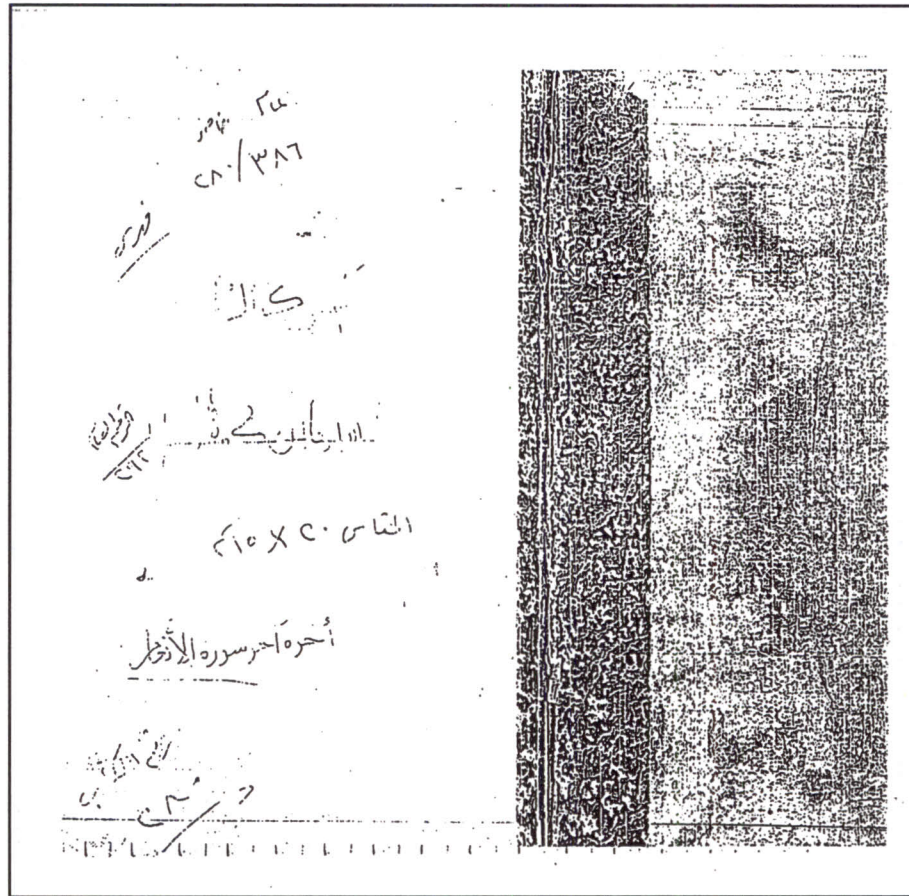
الورقة ما قبل الأخيرة من نسخة «ع»، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط



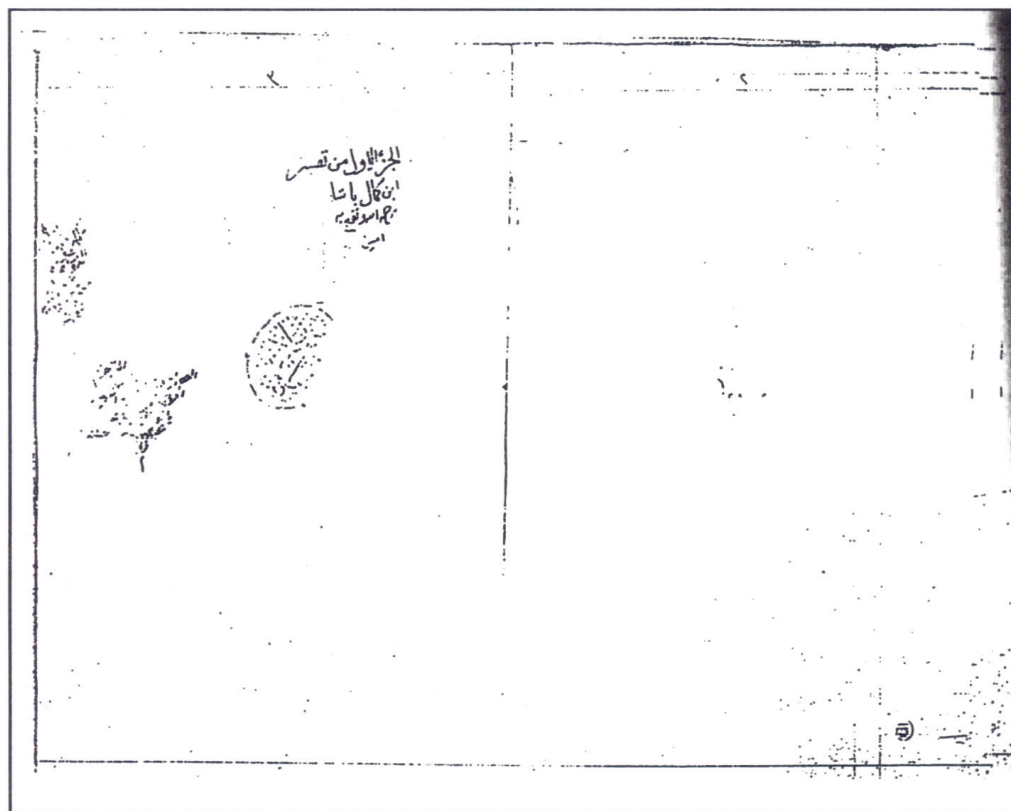
الورقة الأخيرة من نسخة «ع»، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط



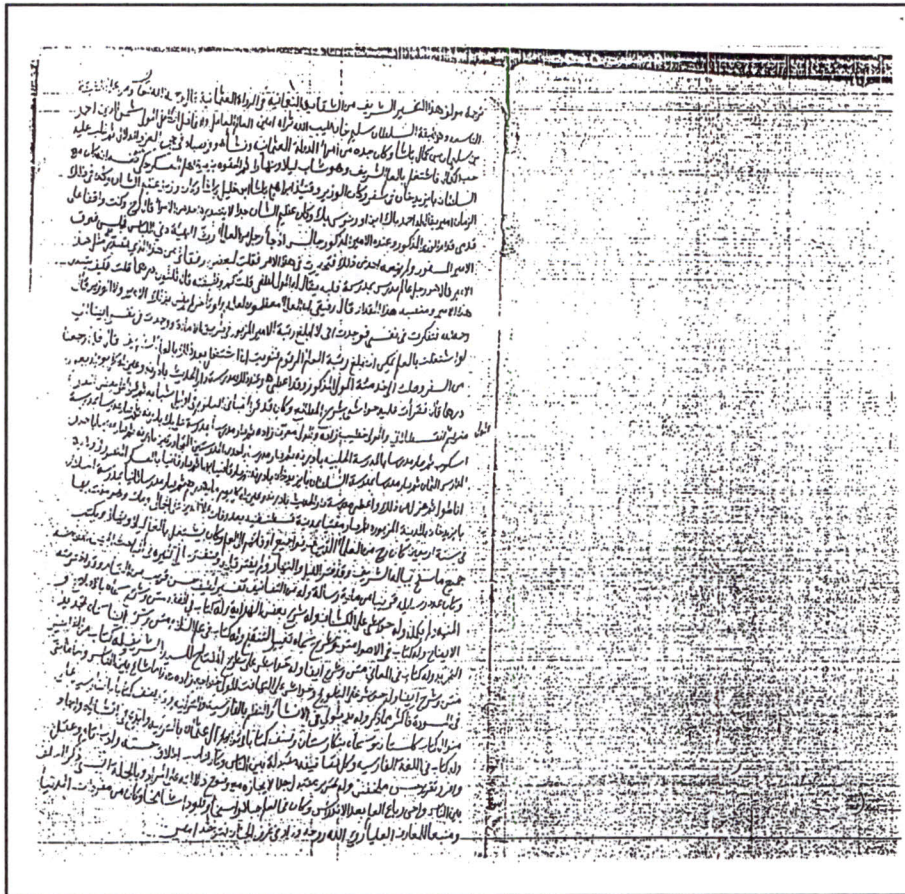
الورقة الأولى من نسخة «ح»، مخطوط بخزانة الحرم المكي



الورقة الثانية من نسخة «ح»، مخطوط بخزانة الحرم المكي



الورقة الثالثة من نسخة «ح»، مخطوط بخزانة الحرم المكي



الورقة الرابعة من نسخة «ح»، مخطوط بخزانة الحرم المكي



الورقة الأخيرة من نسخة «ح»، مخطوط بخزانة الحرم المكي

[1] بسم الله الرحمن الرحيم⁽¹⁾ / .

[سورة فاتحة الكتاب]⁽²⁾

السورة⁽³⁾ عبارة عن طائفة من القرآن مترجمة أقلها ثلاث آيات⁽⁴⁾، وهي إن جُعِلَتْ واوها أصلية منقولة من سور المدينة، أو من السورة التي هي الرتبة، وإن جُعِلَتْ مُبْدَلَةٌ من الهمزة فمن السُّورَة التي هي البقية أو القطعة من الشيء. وفائدة تقطيع القرآن سوراً أن تنويع الجنس أحسن من كونه بياناً واحداً، وأنشط للقارئ، وأسهل للحفظ. وأما أفراد الأنواع وتلاحق الأشكال فلا يصلح وجهاً لما ذكر، لأنه غير مراعى في ترتيب الآيات وتقطيعها سوراً كما لا يخفى على من تتبع وتأمل.

وفاتحة الشيء: أوله، وخاتمة: آخره، إذ بهما الفتح والختم، والتاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية. وقيل⁽⁵⁾: هي في الأصل مصدر

(1) ح بعد البسمة: وهو حسبي ونعم الوكيل، سورة فاتحة الكتاب.

(2) سقط من ع.

(3) السورة: الطائفة من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات. (الكشاف: 1 / 239). والمراد بـ«المترجمة»: المسماة الملقبة باسم مخصوص، كسورة الفاتحة وسورة الإخلاص... الخ. (حاشية الجرجاني على الكشاف: 1 / 239). وانظر: روح المعاني للألوسي: 1 / 34، وتفسير القرطبي: 65 / 1، والبرهان في علوم القرآن: 1 / 263، ومناهل العرفان: 1 / 350.

(4) لم أقف على هذا القول إلا عند السيوطي في الإتيان حيث قال: قال الجعبري: حدّ السورة قرآن يشتمل على أي، ذي فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات. وقال غيره: السورة: الطائفة المترجمة توقيفا، أي المسماة باسم خاص بتوقيف من النبي ﷺ. (الإتيان في علوم القرآن للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم: 1 / 150).

والجعبري: هو إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل الجعبري، أبو إسحاق: عالم بالقراءات، من فقهاء الشافعية، ولد سنة 640هـ، وتوفي سنة 732هـ. (الأعلام للزركلي: 1 / 55، وفي الإتيان نسبته المحقق إلى عمران (الإتيان: 1 / 150)، والصواب والله أعلم ما أثبت في الأعلام.

(5) الفاتحة في الأصل مصدر بمعنى الفتح، كالكاذبة، ثم أطلقت على أول الشيء تسمية للمفعول بالمصدر. (حاشية الجرجاني على الكشاف: 1 / 22).

بمعنى الفتح⁽¹⁾، ثم أطلقت على أول الشيء تسمية للمفعول بالمصدر، والفاعلية⁽²⁾ في المصادر غير عزيز. وإضافتها إلى الكتاب: وهو مجموع كلام الله تعالى، المفتتح بالتحميد، المختتم بالاستعاذة بمعنى الأم، لأن أول الشيء جزؤه، وإضافة الجزء إلى كله بمعنى الأم، ثم إن وجه تسمية هذه السورة بفاتحة الكتاب، والفاحة، وسورة الحمد، والشكر، والدعاء، وتعليم المسألة ظاهر.

أما تسميتها بأُم القرآن فلاشتمالها على كليات المعاني التي في القرآن، من الثناء على الله تعالى، ومن التعبد بالأمر والنهي، والوعد والوعيد. وأما التسمية بالأساس فلأنها مُفتتح الكتاب ومبدؤه، فكأنها أصله ومنشأه. وأما تسميتها بسورة الكنز فلما قال النبي عليه السلام⁽³⁾: «إنها⁽⁴⁾ نزلت من كنز تحت العرش»⁽⁵⁾. وأما تسميتها سورة⁽⁶⁾ الشفاء والشفافية فللقوله عليه السلام: «هي أُم القرآن، وهي شفاء من كل داء»⁽⁷⁾. وأما تسميتها بسورة الصلاة فلوجوب قراءتها فيها، وقد تسمى بالصلاة كما وقع في الحديث القدسي: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي»⁽⁸⁾، وذلك من باب تسمية الشيء باسم ما يلزمه. وأما

(1) قال الراغب: وفاتحة كل شيء: مبدؤه الذي يُفتح به ما بعده، وبه سمي فاتحة الكتاب، وقيل: افتتح فلان كذا إذا ابتدأ به. (المفردات، مادة: فتح).

(2) ع: والفاعلة.

(3) ح: ﷺ.

(4) ح: إنما.

(5) انظر: مسند أحمد: 5 / 151، و170، و383.

(6) ح: بسورة.

(7) انظر: سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب: فضل فاتحة الكتاب، الحديث: 3370، والحديث قال عنه الالباني: ضعيف. (انظر: ضعيف الجامع). وانظر: سنن الدارمي: 2 / 538.

(8) الحديث رواه أبو هريرة في سنن أبي داود: كتاب الصلاة، باب: من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب، رقم الحديث: 821.

وانظر: سنن أبي داود: 1 / 214. وسنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة فاتحة الكتاب، رقم الحديث: 2953، والحديث حسن (سنن الترمذي: 5 / 201). وسنن النسائي، كتاب الافتتاح،

تسميتها بالوافية والكافية فلأنها تكفي [في] ⁽¹⁾ الصلاة عن غيرها، ولا يكفي ⁽²⁾ غيرها عنها. والمراد من الصلاة الركعتان الأخيرتان ⁽³⁾ من الرباعية، لأن ضم السورة عليها واجب ⁽⁴⁾ في الأوليين.

وأما تسميتها بالسبع المثاني فلأنها سبع آيات تُثنى في الصلاة، وقيل: لأنها تثنّت ⁽⁵⁾ في النزول،

فإنها نزلت بمكة ⁽⁶⁾ حين فرضت الصلاة، وبالمدينة ⁽⁷⁾⁽⁸⁾ حين حوّلت القبلة ⁽⁹⁾. وفيه أن الوصف

[2] المذكور قد ثبت لها بمكة ⁽¹⁰⁾ بدلالة / قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ مَبْعَأً مِنَ الْمَثَانِي﴾ ⁽¹¹⁾، يعني فاتحة الكتاب على ما نص عليه النبي ﷺ حيث

باب ترك قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب: 136-135/2. وسنن الترمذي، كتاب الأدب، باب: ثواب القرآن، حديث: 2784: 1244-1243/2. ومسند أحمد: 2/241 و285 و460.

(1) سقط من ع.

(2) ع: ولا تكفي.

(3) ع وح: الركعتين الأخيرتين، والصواب ما هو مثبت.

(4) مستند الحنفية في هذا ما روي عن النبي ﷺ «أنه كان يقرأ في الركعتين الأوليين من الظهر والعصر بفاتحة الكتاب وسورة، ويسمعنا أحياناً ويقرأ في الركعتين الأخيرتين بفاتحة الكتاب». (انظر: صحيح مسلم، كتاب الصلاة، حديث رقم: 155). والذي عليه جمهور العلماء أن ركن القراءة في الصلاة هو الفاتحة. (انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 1/119، والمغني: 1/485، وبداية المجتهد: 2/32، وأحكام القرآن لابن العربي: 2/501).

(5) ح: ثنيت.

(6) هي بيت الله الحرام. (انظر: معجم البلدان: 5/181).

(7) ح: بالمدينة.

(8) هي مدينة الرسول ﷺ. (انظر: معجم البلدان: 5/82).

(9) انظر: أسباب النزول للواحدي: 14-15.

(10) وذلك لأن سورة الحجر مكية.

(11) الآية: 87 من سورة الحجر.

قال في رواية أبي هريرة⁽¹⁾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : « فاتحة الكتاب : إنها السبع المثاني ،
والقرآن العظيم الذي أوتيته »⁽²⁾ « (3) » .

والآية مكية بالنص ، وبذلك استدلو على مكية هذه السورة . قد
مر⁽⁴⁾ دليل مكيتها آنفا ، ووجه الدلالة ظاهر ، والمكي : ما نزل قبل الهجرة ،
والمدني⁽⁵⁾ : ما نزل⁽⁶⁾ بعدها ، سواء نزل بالمدينة أو في سفر من الأسفار .
وهي سبع آيات بالاتفاق⁽⁷⁾ ، إلا أن قراء المدينة والبصرة⁽⁸⁾ والشام⁽⁹⁾
وفقهاءها عدّوا ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ آية⁽¹⁰⁾ ، ولم يروا التسمية آية⁽¹¹⁾

(1) هو عبد الرحمن بن صخر المشهور بأبي هريرة ، توفي رحمه الله سنة تسع وخمسين ، ودفن بالقيع .
(انظر ترجمته في : الإصابة : 4 / 203 ، وأسد الغابة : 6 / 318 ، وطبقات ابن سعد : 3 / 362 ، وسير أعلام
النبل : 2 / 578 ، وحلية الأولياء : 1 / 378) .

(2) ساقط من ح .

(3) انظر : سنن الدارمي ، كتاب فضائل القرآن ، باب : فضل فاتحة الكتاب ، حديث : 3373 : 2 / 538 .
وسنن الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الحجر ، حديث : 3125 : 5 / 297 . ومسند
أحمد : 2 / 357-412 ، و 5 / 114 . والحاكم في المستدرک : 1 / 557-558 . ورواه البيهقي في السنن
الكبرى : 2 / 47 .

(4) ح : قدم .

(5) للناس في معرفة المكي والمدني ثلاثة اصطلاحات ، أحدها : أن المكي ما نزل بمكة ، والمدني ما نزل
بالمدينة . والثاني - وهو المشهور - أن المكي ما نزل قبل الهجرة ، وإن كان بالمدينة ، والمدني ما نزل بعد
الهجرة ، وإن كان بمكة . والثالث : أن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة .
(البرهان للزركشي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم : 1 / 187) .

(6) ح : ما نزل بالمدينة في سفر من الأسفار .

(7) انظر : التسهيل : 1 / 55 ، ومنار الهدى : 27 .

(8) هي البصرة العظمى بالعراق . (انظر : معجم البلدان : 1 / 430) .

(9) انظر معجم البلدان : 3 / 311 .

(10) انظر : منار الهدى : 28 ، والكشف : 1 / 25 .

(11) ذهب الحنفية إلى أنها آية من القرآن وليست آية من كل سورة . وذهب الشافعية إلى أنها آية من الفاتحة
ومن كل سورة . وذهب المالكية إلى أنها ليست آية لا أول الفاتحة ولا أول غيرها من سور القرآن الكريم .
ولكل من المذاهب أدلته فيما يلي : المدونة الكبرى : 1 / 68 ، المغني : 1 / 476 ، أحكام القرآن لابن
العربي : 1 / 2-3 ، المجموع : 3 / 333 ، أحكام القرآن للجصاص : 1 / 9 .

منها، وعليه مالك⁽¹⁾، وأبو حنيفة⁽³⁾ وأصحابه، ولهذا لا يذكرها⁽⁴⁾ مالك في الصلاة، ويُسرُّ بها أبو حنيفة ويقول: إنها آية من القرآن أُنزلت (للفصل بين السور والافتتاح بها تبرُّكا)⁽⁵⁾.

وَقُرَّاءُ مَكَّةَ⁽⁶⁾ والكوفة⁽⁷⁾ وفقهاؤها على أنها آية من الفاتحة⁽⁸⁾

ومن كل سورة، وعليه الشافعي⁽⁹⁾ وأصحابه، ولهذا يُجهر بها في الصلاة، ولا دلالة في الإجماع على أن ما بين دفتي المصاحف كلام الله تعالى، والوفاق على إثباتها في المصاحف مع المبالغة في تحرير القرآن، حتى لم يُكتب⁽¹⁰⁾ ﴿آمين﴾ على صحة القول الثاني، إذ لا يلزم من كونها كلام الله تعالى أن تكون⁽¹¹⁾ آية من الفاتحة.

(1) ح: مالك وأصحابه.

(2) هو الإمام مالك الأصبحي، الحميري، أبو عبد الله. إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، مولده ووفاته في المدينة (179-93هـ). (الديباج المذهب: 17/ 30، والوفيات: 1/ 439، والأعلام: 5/ 257-259).

(3) هو النعمان بن ثابت، التيمي بالولاء، الكوفي أبو حنيفة: إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، ولد بالكوفة سنة 80هـ، أُراده المنصور العباسي على القضاء ببغداد فأبى، فحلف عليه ليفعلن، فحلف أبو حنيفة أنه لا يفعل، فحبسه إلى أن مات سنة 150هـ. (تاريخ بغداد: 13/ 323، والنجوم الزاهرة: 2/ 12، والبداية والنهاية: 10/ 107، والأعلام: 8/ 36).

(4) ح: لم يذكرها.

(5) قال مكي: فالإجماع قد حصل على ترك عدّها آية من كل سورة، فما حدث بعد الإجماع من الصحابة والتابعين من قول منفرد محدث، فقول مرفوض غير مقبول. (انظر: الكشف: 1/ 22، وانظر: منار الهدى: 36).

(6) انظر: منار الهدى: 26.

(7) المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق. (انظر: معجم البلدان: 4/ 490).

(8) سقط من ح.

(9) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع الهاشمي القرشي المطلبي، أبو عبد الله: أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة... ولد في غزة بفلسطين سنة 150هـ، وتوفي ببغداد سنة 204هـ. (تهذيب التهذيب: 9/ 25، والوفيات: 1/ 447، وغاية النهاية: 2/ 95، وصفة الصفوة: 2/ 140، وحلية الأولياء: 9/ 63، والأعلام: 6/ 26-27).

(10) ح: تكتب.

(11) في ع: يكون.

نعم، فيما روى⁽¹⁾ أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أنه عليه السلام قال: «فاتحة الكتاب سبع آيات: أُولَاهُنَّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ دلالة عليها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قد جاء في الخبر عن خير البشر (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أنه كان يكتب⁽²⁾ «باسمك اللهم»، فلما نزلت سورة هود⁽⁴⁾ عليه السلام: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا﴾⁽⁵⁾ كتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، فلما نزلت سورة بني إسرائيل⁽⁶⁾: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾⁽⁷⁾ كتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ﴾، فلما نزلت سورة النمل: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾⁽⁸⁾ [كتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾]⁽⁹⁾. ففي الخبر دلالة على أنه ليس من أول كل سورة، ولكنها بعض آية من كتاب الله تعالى في سورة النمل. وقالوا: اللطف [من الله]⁽¹⁰⁾ في عدم كونها آية تامة أن لا يكون الجنب والحائض (وَالنَّفْسَاءُ)⁽¹¹⁾ ممنوعين (عنه)⁽¹²⁾ عند

(1) ح: روي.

(2) ساقطة من ح.

(3) روي أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يكتب في أول الأمر على رسم قريش: «باسمك اللهم»، حتى نزل قوله تعالى ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا﴾، فكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فلما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، كتب مثلها. (التفسير الكبير: 1 / 205).

(4) هو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، ومن أهل الأنساب من يزعم أن هودا هو عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. (انظر تاريخ الطبري: 1 / 216).

(5) من الآية: 41 من سورة هود.

(6) نسبة إلى يعقوب بن إسحاق النبي. (انظر تاريخ الطبري: 1 / 248).

(7) الآية: 109 من سورة الإسراء.

(8) الآية: 30 من سورة النمل.

(9) ساقطة من ع.

(10) سقط من ع.

(11) سقط من ح.

(12) سقط من ح.

كل أمر⁽¹⁾ ذي بال، كالشهادتين لم تُجمعا في القرآن في موضع واحد لئلا يُتَوَهَّم أنهما آية⁽²⁾. وربما يَحْتَضِرُ الْجُنُبُ ونحوه، فلا يُمكنه التكلّم بها عند ختم عمره.

﴿يُسَمِّ﴾: نُصب بفعل مُضَمَّر تقديره: بِسْمِ اللَّهِ أَقْرَأُ، وتقديم المعمول للاهتمام والاختصاص، وأصله: باسم، بالألف، حُذِفَتْ لكثرة الاستعمال، ولذلك تُثَبِّتُ عند استعمالها بحرف آخر نحو قولك: لِاسْمِ اللَّهِ حلاوة في القلوب، أو مضافا إلى اسم آخر نحو: باسم ربك.

[3] وطُوِّلَت الباء لأجله، وهي / لِلخَفْضِ، كُسِرَتْ لِتشابه حَرَكَتِهَا عَمَلِهَا. وعن عمر بن عبد العزيز⁽³⁾ أنه قال لكاتبه: طَوَّلَ الباءَ، وَأَظْهَرَ السَّيِّنَاتِ، ودَوَّرَ الميمَ⁽⁴⁾. وكان القياس السَّنَاتِ، لأنه جمع السَّنِّ، إلا أنه عَدَلَ عنه حَذْرًا عن الالتباس

ببعض المصادر كما قال الجوهري⁽⁵⁾ في الدينار⁽⁶⁾: أصله الدَّنَّارُ، بالتشديد، فأُبْدِلَ من أحد حرفي تضعيفه ياءً لئلا يَلْتَبِسَ بالمصادر التي تجيء على فَعَّالٍ، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾⁽⁷⁾.

(1) ح: أمر كل.

(2) ع: لئلا يتم آية.

(3) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص: الخليفة الصالح، ولد ونشأ بالمدينة سنة 61هـ، وقيل: دَسَّ له السم وهو بدير سمعان من أرض المعرة، فتوفي به سنة 101هـ، وكانت مدة خلافته رحمه الله سنتان ونصف. (فوات الوفيات: 2/ 105، وتهذيب التهذيب: 7/ 475، وحلية الأولياء: 5/ 253، والنجوم الزاهرة: 1/ 246، والأعلام: 5/ 50).

(4) انظر: الكشف: 1/ 35.

(5) هو إسماعيل بن حماد الجوهري أبو نصر: أول من حاول الطيران... لغوي، من الأئمة... أشهر كتبه: الصحاح... قيل: مات وهو يحاول الطيران سنة 393هـ. (معجم الأدباء: 2/ 269، والنجوم الزاهرة: 4/ 207، ولسان الميزان: 1/ 400، ونزهة الألبا: 418، والأعيان: 1/ 313).

(6) قال الجوهري في الدينار: أصله الدَّنَّارُ بالتشديد، فأُبْدِلَ من أحد حرفي تضعيفه ياءً لئلا يَلْتَبِسَ بالمصادر التي تجيء على فَعَّالٍ، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾. (الصحاح: 2/ 259، مادة: دثر).

(7) الآية: 28 من سورة النبا.

افتتح كتابه العزيز بحرف الباء، وآثرها على سائر الحروف لاسيما على الألف، حيث أسقطه، وأثبت هيئة الباء مكانه إشارة إلى أنه⁽¹⁾ وإن كان⁽²⁾ متبوعا للباء صورة، لكنه من توابعها معنى، وذلك أنك إذا نظرت إلى صورة وضع الحروف وجدت الألف مُقَدِّما على الباء، متبوعا له، وإذا تَلَفَّظْتَ بالباء وجدت الألف تابعا لها.

والاسم: من السُّمُو⁽³⁾، لأنها رَفْعَةٌ لِلْمُسَمَّى وشعار، له صلة لدفع توهُم [اختصاص]⁽⁴⁾ الاستعانة بلفظة ﴿الله﴾ فقط، فإن القائل إذا قال: بالله أبتدئ فمعناه: بهذا الاسم، وإذا قال: باسم⁽⁵⁾ الله أبتدئ، فمعناه: باسمه تعالى أبتدئ، فإن المقصود به حينئذ المسمى.

﴿الله﴾: اسم عَلَم خاص له تعالى عند الخليل⁽⁶⁾⁽⁷⁾ وَمَنْ تَبِعَهُ، وعلاقة الاشتقاق بينه وبين غيره إنما يُنَافِي عِلْمِيَّتَهُ إذا ثبت أصالة ذلك الغير، وذلك لم يثبت بعد. وقيل: وصف، لكنه غلب عليه تعالى بحيث لا يستعمل

(1) ح: أنها.

(2) ح: كانت.

(3) قال مكّي: أصله: يسمو، وقيل: سُمُو، وهو عند البصريين مشتق من سما يسمو، ولذلك ضمت السين في أصله في سُم. وقيل: هو مشتق من سمي يسمي، ولذلك كسرت السين في سِم، ثم حذف آخره وسُكُن أوله اعتلالا على غير قياس... وهو عند الكوفيين مشتق من السمة، إذ صاحبه يعرف به، وأصله وسم، ثم أُعِلَّ بحذف الفاء، وحركت العين على غير قياس أيضا. (مشكل إعراب القرآن: 1/65).

(4) سقط من ع.

(5) اختار ابن كمال مذهب الكوفيين الذين قالوا: باسم الله في موضع نصب على إضمار فعل تقديره: ابتدأت باسم الله، فالباء على هذا متعلقة بالفعل المحذوف. (مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب، تحقيق: حاتم صالح الضامن: 1/66).

(6) هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليمحدي، أبو عبد الرحمن. من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض. ولد في البصرة سنة 100هـ ومات فيها سنة 170هـ. (وفيات الأعيان: 1/172، والأعلام: 2/314).

(7) هذا القول نسب للخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء. (تفسير ابن كثير: 1/21، وهو قول الرازي في تفسيره. (التفسير الكبير: 1/18).

في غيره، وصار كالْعَلَم لا عَلَمًا⁽¹⁾، لأن ذاته تعالى من حيث هو بلا اعتبار أمر حقيقي أو غيره غير معقول للبشر، فلا يمكن أن يدل عليه بلفظ. ويُردُّ عليه أن المعتبر (في) ⁽²⁾ اسم الذات تجريد الموضوع له عن معنى زائد (على الذات) ⁽³⁾، لا تجريد الذات عنه عند الوضع، فملاحظته بوصف مخصوص لا ينافي كونه اسم ذات، إذا لم يكن ذلك الوصف معتبراً في الموضوع له، على أن في وضع الأعلام لا حاجة إلى معرفة الموضوع له وملاحظته بشخصه، بل يكفي معرفته وملاحظته على وجه ينحصر ذلك الوجه في الخارج فيه. ألا يرى أن الأب يضع عَلَمًا لولده قبل أن يراه، ولو سَلِمَ أنه يستحيل أن نضع⁽⁴⁾ له تعالى عَلَمًا، ولكن لِمَ لا يجوز أن يُسَمَّى الحقُّ نَفْسَهُ باسم يدل على ذاته تعالى بالمطابقة، ثم يُعرِّفنا⁽⁵⁾ بذلك؟ لا يقال⁽⁶⁾: لو دلَّ على مجرد ذاته تعالى لما أفاد ظاهر قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾⁽⁷⁾ معنى صحيحاً، لأن اللازم (حينئذ) ⁽⁸⁾ عدم دلالاته وضْعاً⁽⁹⁾ على معنى زائد، لا عدم دلالاته عليه أصلاً كخاتم⁽¹⁰⁾⁽¹¹⁾، فإنه عَلَمٌ، ومع ذلك يدل⁽¹²⁾ على معنى السَّخَاوَةِ لاشتهاره بها.

(1) ع: علم.

(2) في ح: في الاسم الذات.

(3) سقط من ح.

(4) ح: يوضع.

(5) ح: يعرفان.

(6) ح: أو يقال.

(7) من الآية: 3 من سورة الأنعام.

(8) سقط من ح.

(9) ح: وصفا.

(10) ع: كخاتم.

(11) إشارة إلى حاتم الطائي، وهو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي، القحطاني، أبو عدي: فارس، شاعر، جواد، جاهلي، يضرب المثل بجوده. كان من أهل نجد، كانت وفاته 46 قبل الهجرة. (تهذيب ابن عساكر: 3/ 420، وخزانة البغداد: 1/ 494، والأعلام: 2/ 151).

(12) ح: دل.

أصله إله، فلما أُدْخِلَتْ⁽¹⁾ عليه الألف (واللام)⁽²⁾، حُذِفَتِ الهمزة تخفيفاً، وعَوِّضَتْ عنها

[4] حرفا التعريف، فإن قلت: إذا كان دخولهما قبل حذفها، فكيف يكونان عوضاً عنها؟ قلت: / دخولهما قبل حذفها لا بطريق اللزوم، وبعد الحذف يكونان لازمين، فهما باعتبار اللزوم يكونان عوضاً عنها، ولذلك قطعت الهمزة في: يا الله، وهو اسم جنس وُضِعَ لكل معبود بحق أو باطل، ثم غَلَبَ مُنْكَرًا على المعبود بحق، كبعوضة⁽³⁾ وسنة⁽⁴⁾ (5)، وقد دل على ذلك -أي على غلبته منكرًا- كلمة التوحيد، ثم اختص بذاته تعالى بعد حذف الهمزة وتعويض التعريف عنها، ويدل على هذا أيضا كلمة التوحيد مشتقا⁽⁶⁾ من: أَلَهْ، كَعَبَدَ، وَزَنَّا وَمَعْنَى وَتَصَرَّفْنَا، أو من: أَلَهْ⁽⁷⁾ بمعنى فزع، (أو من أله بمعنى ولع)⁽⁸⁾، أو من أله بمعنى تحيّر، أو من أله بمعنى سَكَنَ، أو من وَلَهْ كَعَلَهْ وَدَلَهْ وَزَنَّا وَتَصَرَّفْنَا، أي تحيّر وَدَهَشَ، أو من: وَلَهْ بمعنى طَرِبَ، أو من: لاه بمعنى ارتفع، أو بمعنى احتجب، أو بمعنى استنار.

فمجموع الأقاويل: هو المعبود للخواص والعوام، المفزوع إليه عند الأمور العظام، المرتفع عن الأوهام، المحتجب عن الأفهام، الظاهر بالأعلام، الذي تحيّر في صفاته الأحلام، وسَكَنَتْ في عبادته الأجسام، وولعت به نفوس الأنام، وطرب إليه قلوب الكرام.

(1) ح: دخل.

(2) سقط من ح.

(3) بعوضة: هو ضرب من الذباب. (اللسان: بعض).

(4) قوله: وسنة، لأنها تغلب كذلك على عام القحط. (الكشاف: 1/36).

(5) الأساس في التفسير: 1/40.

(6) في ع: مشتق.

(7) قال الراغب: أَلَهْ فلان: عبد، وأَلَهْ: تحيّر، ولاه يلوه لياها: أي احتجب. (مفردات الراغب، ص: 17).

(8) سقط من ح.

﴿الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ﴾: أصلهما واحد، لأنهما من الرحمة، والأول أبلغ من الثاني، لأن فَعِيلًا لمن كَثُرَ منه الفعل، وفَعْلَان لمن كَثُرَ منه وتكرَّر. وحق الأبلغ التأخير، إلا أنه قُدِّم لأنه لاختصاصه به (تعالى) ⁽¹⁾ كالْعَلَم. ووصفه تعالى بالرحمة ومعناها العطف، ومنه الرَّحِم، من قبيل إطلاق السَّبَب على المُسَبَّب، وهو الإنعام والإحسان، فإن الملك إذا عَطَفَ على رعيَّته أنعم عليهم، وأحسن في حقِّهم، وما في معنى الرحمن ⁽²⁾ من الزيادة كمًّا وكيفًا ⁽³⁾، حيث يقال تارة: يا رحمن الدنيا، ورحيم الآخرة ⁽⁴⁾، وأخرى: يا رحمن الدنيا والآخرة، و(يا) ⁽⁵⁾ رحيم الدنيا، فمرجه إلى الصيغة، فإن زيادة البناء لزيادة المعنى، وهذا بعد الرجوع إلى أصل واحد في الاشتقاق، بشرط الاتحاد في النوع، فلا نقض بنحو حاذِر وحَذِر ⁽⁶⁾، لأن أحدهما اسم فاعل، والآخر صفة مشبهة، فالرحمن عامُّ المعنى، خاصُّ اللفظ، حيث لم يُستعمل ⁽⁷⁾ في غير الله تعالى إلا تَعَنُّتًا، كرحمن اليمامة ⁽⁸⁾ ⁽⁹⁾، والرحيم على عكس ذلك.

(1) سقط من ح.

(2) ح: الرحمة.

(3) ح: وكيف.

(4) انظر: فتح الباري، كتاب التفسير: 8 / 155.

(5) سقط من ح.

(6) قال في اللسان: الحاذِر: المستعد، والحَذِر: المتيقظ، انظر مادة: حذر.

(7) ح: لم يستعمل.

(8) انظر: معجم البلدان: 5 / 442.

(9) قال في اللسان: وكان مسيلمة الكذاب يقال له: رحمن اليمامة. (انظر اللسان: مادة رحم).

ومسيلمة هذا هو ابن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي الواتلي أبو ثمامة، متنبئ، من المعمرين. وفي الأمثال: أكذب من مسيلمة. ولد ونشأ باليمامة في القرية المسماة اليوم بالجيلة، بقرب «العين» بوادي حنيفة، في نجد. وتلقب في الجاهلية بالرحمن، وعرف برحمن اليمامة. توفي في عهد أبي بكر سنة 12 هـ. (انظر: الأعلام: 7 / 226).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الحمد هو المدح والوصف بالجميل، والاختصاص⁽¹⁾ له بالله تعالى، يُفصح عن ذلك قول⁽²⁾ عائشة⁽³⁾ رضي الله عنها: بِحَمْدِ اللَّهِ لَا بِحَمْدِكَ، وقول⁽⁴⁾ علي⁽⁵⁾ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا تَحْمَدَنَّ أَمْرًا حَتَّى تُجَرَّبَهُ. بل الاختصاص⁽⁶⁾ له بذی علم وشعور، يُرشدك إليه قوله تعالى: ﴿عَمَسَ لَنِّ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾⁽⁷⁾، وقول العرب في المثل السائر: «عند الصُّباح يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى»⁽⁸⁾.

ومن هنا تبين أن الحمود لا يلزم أن يكون فاعلا لما حُمِدَ به، فضلا أن يكون مختارا فيه

[5] كما تُؤْهِمُ، و(إن)⁽⁹⁾ مَنْ وَهَمَ قيام الفرق بين الحمد والمدح بصحة تَعْلُقُ الثاني بالجماد دون الأول، فقد وَهَمَ، واتضح أنه لا دَخَلَ لمسألة خَلَقَ⁽¹⁰⁾ العباد أفعالهم⁽¹¹⁾ في هذا المقام، لأن الكلام في الحمد اللغوي، والمرجع فيه من وَثِقَ بِعَرَبِيَّتِهِمْ، وقد ثَبَتَ بالنقل الصريح، والاستعمال الصحيح من قَبْلِهِمْ عدم اختصاص الحمد به تعالى.

(1) ح: ولا اختصاص.

(2) انظر: المعاني القريبة في التفسير الكبير: 1 / 227.

(3) هي عائشة بنت أبي بكر الصديق، الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين، زوج النبي ﷺ، وأشهر نسائه. (أسد الغابة: 7 / 188). كانت ولادتها سنة 9 قبل الهجرة، ووفاتها سنة 58 هـ. (الأعلام: 3 / 240).

(4) انظر المعاني القريبة في: اللسان: حمد.

(5) هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ... أمير المؤمنين. (أسد الغابة: 4 / 91).

(6) ح: لا اختصاص.

(7) من الآية: 79 من سورة الإسراء.

(8) انظر: مجمع الأمثال للميداني: 2/3، رقم المثل: 2382.

(9) سقط من ح.

(10) انظر تفصيل هذا في: الحصول: 2/2، ص: 251.

(11) من قال: فعل العبد كله منه، فقد وقع في القدر، ومن قال: لا فعل للعبد فقد وقع في الجبر، وهما طرفان معوجان، والصراط المستقيم إثبات الفعل للعبد مع الإقرار بأن الكل بقضاء الله. (التفسير الكبير: 1 / 189. وللتفصيل في الموضوع ينظر: الحصول: 2 / 2، ص: 251).

وأما حَمْلُ التعريف على الجنس دون الاستغراق فمنشأه أمر آخر، وهو أن مقتضى مقام الخطابة تخصيص حقيقة الحمد به تعالى؛ تنزيلاً للأفراد الحمد الثابتة لغيره مَنْزِلَةً⁽¹⁾ العدم، والقصد إلى هذا المعنى ظاهر عند كون التعريف للجنس دون الاستغراق، لأنه قد يكون عُرفياً كما في: جَمَعَ الأمير الصَّاعَةَ. ويساعده مقام الخطابة، فلا يوجد استيعاب جميع الأفراد، فلا يتحقق مقتضى المقام⁽²⁾.

والشُّكْرُ⁽³⁾: مُقَابِلَةُ النعمة بالقول أو العمل، ولكونه بالفعل كما يكون بالقول قيل: دَابَّةٌ شَكُورٌ⁽⁴⁾: إذا ظَهَرَ سَمْنُهُ بِأَدْنَى عُلْفٍ له، وقال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَلُودٍ شُكْرًا﴾⁽⁵⁾، فهو أخص من الحمد متعلِّقاً، وأعم منه مورداً وهو اللسان والأركان. ومُقَابِلُ⁽⁶⁾ الشكر الكُفْرَانُ، ومُقَابِلُ الحمد (الدُّمُّ)⁽⁷⁾ الذي يُقَابِلُ المدح على ما نص عليه الجوهري⁽⁸⁾، ومن هنا ظهر أنهما مترادفان لغة، وأما الجنان فليس بمورد له، بل هو شرط لكون القول شكراً، ولا دلالة في قول الشاعر:

أَفَادَتْكُمْ النِّعْمَاءُ (مَنِي) (9) ثَلَاثَةً: يَدِي، وَلِسَانِي، وَالضَّمِيرُ الْمُحْجَبُ (10)

(1) ح: بمنزلة.

(2) ح: الكلام.

(3) قال الجوهري: والشُّكْرَانُ: خلاف الكُفْرَانِ، (الصحاح: مادة شكر).

(4) قال الراغب: ودابة شكور: مظهرٌ بِسْمِنِهَا إِسْدَاءٌ صَاحِبُهَا إِلَيْهَا. (مفردات الراغب، ص: 272).

والشُّكُورُ من الدُّوَابِّ: ما يكفيه العلف القليل. (الصحاح للجوهري، مادة: شكر).

(5) من الآية: 13 من سورة سبأ.

(6) ح: ومقابلة.

(7) سقط من ح.

(8) انظر: الصحاح: حمد، ومعجم مقاييس اللغة: حمد.

(9) ح: من.

(10) انظر: تفسير ابن كثير: 1/23 و 3/451، والبداية والنهاية: 1/118.

على استقلال كل منها مورداً .

ولما كان الحمد في مقابلة النعمة من شُعب الشكر، أشبَع لها، وأدَلَّ على مكانها لما في آداب الجوارح من الاحتمال، جُعِلَ رَأْسُ الشكر والعُمدة، وقال⁽¹⁾ عليه السلام: « الحمد رأس الشكر، ما شَكَرَ اللهَ من لم يَحْمَدْهُ » .

ورفع ﴿ الْعَمَدُ ﴾ بالابتداء⁽²⁾، وخبره: ﴿ اللهُ ﴾، وأصله النصب على المصدر بإضمار فعله، لكونه من المصادر التي حَقُّهَا أن تكون كذلك، ولا يُذَكَّر (معها)⁽³⁾ الفعلُ البتَّة، كَشُكْرًا وَعَجَبًا. وقد قُرئ⁽⁴⁾ على الأصل⁽⁵⁾ والعُدول إلى الرفع على الأول للثبات، لما في الفعل من التجدد لدلالته⁽⁶⁾ على الأزمنة، ولذلك كانت تَحِيَّةُ إِبْرَاهِيمَ⁽⁷⁾ عليه السلام أحسن في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالْ سَلَامٌ ﴾⁽⁸⁾، ولأن معناه على الرفع أن الحمد حق لله يستحقه لذاته، وعلى النصب لا دلالة على ذلك، ولأن الغافل عن معناه، وكذا الساهي عن ملاحظته، إذا تكلم به على النصب يكون كاذباً؛ لإخباره عن نفسه بكونه حامداً، مع أنه ليس كذلك، بخلاف ما إذا تَكَلَّمَ به على الرفع.

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 4/97 من طريق عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(2) قال مكِّي: الحمد رفع بالابتداء، و﴿ اللهُ ﴾ الخبر، والابتداء عامل معنوي غير ملفوظ به، وهو خلو الاسم المبتدأ من العوامل اللفظية، ويجوز نصبه على المصدر. (مشكل إعراب القرآن: 1/68).

(3) سقط من ح.

(4) ح: ترك.

(5) انظر: معاني القراءات لأبي منصور: 1/108.

(6) ح: ولدلالتة.

(7) انظر ما يتعلق بنبي الله إبراهيم: اليهودية لأحمد شلبي: 1/158.

(8) من الآية: 25 من سورة الذاريات.

وإنما خص الاسم المذكور هاهنا لتكون المحامد كلها مقرونة بمعانيها المستدعية (لها) ⁽¹⁾، فإنه اسم يُنبئ عن جميع صفات الكمال لما أخبر بأنه تعالى حقيق بالحمد، باعتبار ذاته المستجمعة لجميع صفات الكمال، وعامة نُعوت الجلال، حُمد أو لم يُحمد، نبّه على استحقاقه [6] له / باعتبار أفعاله العظام، وآثاره الجسام أيضا، من رُبوبيّته للكل، وشُمول رحمته الظاهرة للجميع، وخصوص رحمته الباطنة لعباده ⁽²⁾ المؤمنين، وذلك أن ترتيب الحكم على الوصف كما يشعر بالعلية، كذلك تعقيب الحكم بالوصف يُشعرُ بها، كأنه قال: حقيقة الحمد مخصوصة لذاته الواجبة، الكاملة بذاتها، ولكمالاتها التي لا يشترك فيها غيره.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿1﴾ ⁽³⁾: الرَّبُّ ⁽⁴⁾ يطلق على المربي والمصلح، والسيد، والمالك، والخالق، والمعبود، وكل ذلك يتحملة المقام، فيصح أن يراد به هاهنا كل منها، وكفى ذلك وجها لإيثاره على المالك ونحوه، ثم إن ربوبيّته تعالى بمعنى الخالقية، والمالكية، والسيدية، والمعبودية عامة، وبمعنى التربية والإصلاح خاصة، بحسب أنواع الموجودات متفاوتة، فهو مربّي الأشياء حينئذ بأنواع نعمه، ومربي الأرواح بأصناف كرمه، ومربي نفوس العابدين بأحكام الشريعة، ومربي قلوب العارفين بآداب الطريقة، ومربي أسرار الأبرار

(1) سقط من ح.

(2) ح: لعبارة.

(3) قال ابن عباس: قال جبريل لمحمد: يا محمد، قل: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، قال ابن عباس: يقول: قل: الحمد لله الذي له الخلق كله، السماوات كلهن ومن فيهن والأرض ومن فيهن وما بينهما، مما يعلم ومما لا يعلم. يقول: اعلم يا محمد أن ربك هذا لا يشبهه شيء. (جامع البيان: 1 / 62).

(4) والرب: هو المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى، ولا يستعمل الرب لغير الله، بل بالإضافة، تقول: رب الدار، رب كذا. وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل. (تفسير ابن كثير: 1 / 24).

بأنوار الحقيقة. ولقد أحسن من قال: إنه تعالى يملك عبادا غيرك⁽¹⁾، كما قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾⁽²⁾، وأنت ليس لك رب سواه، ثم إنك تساهل في خدمته كأن لك رباً غيره، وهو يعتني في تربيتك كأنه⁽³⁾ ليس له عبد سواك، يحفظك بالنهار عن الآفات بلا عوض، ويحرسك بالليل عن المخافات من غير غرض، فما أحسن هذه التربية.

وإطلاق الرب على غيره تعالى لا يجوز شرعا، لا مطلقا ولا مقيدا لما رواه الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: «لا يقل أحدكم أطعم ربك، وضئ ربك، اسق ربك. ولا يقل أحدكم: ربي، وليقل: سيدي»⁽⁴⁾. وأما قول يوسف⁽⁵⁾ عليه السلام: ﴿إِرجِعْ إِلَيَّ رَبِّي﴾⁽⁶⁾ و﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾⁽⁷⁾، فمحمول على الحكاية من الله تعالى، لأنه عليه السلام كان يتكلم بالعبرية، فلا حاجة إلى ما قيل: إنه ملحق بقوله تعالى: ﴿وَحَرِّوْا لَهُ سُجُودًا﴾⁽⁸⁾ في الاختصاص بزمانه، بل لا وجه له كما لا يخفى. ويجوز لغة

(1) ذكره الرازي عند تفسير قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿رب العالمين﴾، وذلك عند الفائدة السادسة حيث قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، وأنت ليس لك رب سواه. ثم إنه يريبك كأنه ليس له عبد سواك، وأنت تخدمه كأن لك ربا غيره، فما أحسن هذه التربية. (التفسير الكبير: 1 / 236).

(2) من الآية: 31 من سورة المدثر.

(3) ح: كأن.

(4) روى الشيخان عن أبي هريرة «مرفوعا»: «لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك، اسق ربك، ولا يقل أحدكم: ربي، وليقل: سيدي». (انظر: فتح الباري: كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق، وقوله: عبدي أو أمتي، وقول الله تعالى: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَلِمَائِكُمْ﴾، وقال: ﴿عِبَادًا مَمْلُوكًا﴾، ﴿وَالفِيَا سِيدَهَا لِمَى الْبَاب﴾، وقال: ﴿مَنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾. وقال النبي ﷺ: «قوموا إلى سيدكم، ﴿وَلِذِكْرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾: سيدك، و﴿مَنْ سِيعَكُمْ﴾؟»: حديث: 25522 / 177 / 5. وانظر: مسند أحمد: 2 / 317.

(5) انظر: تاريخ الطبري: 1 / 128.

(6) من الآية: 49 من سورة يوسف.

(7) الآية كما في سورة يوسف ﷻ: ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾، من الآية: 23 منها.

(8) من الآية: 100 من سورة يوسف.

ولو مطلقا كما وقع في شعر الحارث بن حلزة⁽¹⁾ - من شعراء الجاهلية - يمدح ملكا:

وَهُوَ الرَّبُّ وَالشَّهِيدُ عَلَى يَوْمِ الْحَيَارَيْنِ وَالْبَلَاءِ بَلَاءً⁽²⁾

﴿الْعَالَمِينَ﴾⁽³⁾: جمع عالم، وهو في لسان العرب: اسم لنوع من المخلوقين فيه علامة يمتاز بها عن خلافة من الأنواع، كالمملك والإنس والجن، فتقول العرب⁽⁴⁾: عالم البر، وعالم البحر، وعالم الأرض، وعالم السماء، على ما نقله أئمة اللسان، وهو جمع لا واحد له من لفظه، كالأنام والرهط والجيش. وهو مأخوذ من العلم والعلامة، فجعل اسما لما (يُعلم)⁽⁵⁾ به الصانع، فإن فاعله⁽⁶⁾ كثيرا ما يجيء في اسم الآلة التي يفعل بها الشيء، كالخاتم والقالب والطابع، فجعل بناؤه [7] على هذه الصيغة، لكونه كالآلة في الدلالة على صانع. وأما جمعه فلا أنه لو أفرد لربما تبادر⁽⁷⁾ إلى الفهم أنه إشارة إلى هذا العالم المُشاهد بشهادة العرف، أو إلى الجنس، والحقيقة على ما هو الظاهر عند عدم العهد، فجمع ليُشمل كل جنس يسمى بالعالم لعدم العهد. وفي الجمع

(1) هو الحارث بن حلزة بن مكروه بن يزيد اليشكري الوائلي: شاعر جاهلي، من أهل بادية العراق، وهو أحد أصحاب المعلقة. كان أبرص فخورا، ارتجل معلقته بين يدي عمرو بن هند الملك بالحيرة. توفي سنة 50 قبل الهجرة. (خزانة البغداد: 1/ 158، والأعلام: 2/ 154).

(2) البيت للشاعر الحارث بن حلزة البكري. (الخزانة: 4/ 363، والقرطبي: 1/ 96)، ذكره الحارث بن حلزة في قصيدته: «آذنتنا ببينها أسماء».

(3) قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العلية في قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال: الإنس عالم، والجن عالم وما سوى ذلك. (تفسير ابن كثير: 1/ 24).

(4) انظر: تفسير القرطبي: 1/ 138.

(5) سقط من ح.

(6) في ع: فاعل.

(7) ح: يتبادر.

دلالة على أن القصد إلى الأفراد دون نفس الحقيقة والجنس، وإنما جُمع جَمْع قلة، والظاهر يستدعي الإتيان بجمع الكثرة. قال (1) وهب (2): لله (تعالى) (3) ثمانية عشر ألف عالم، والدنيا عالم منها، تنبيهها على أنهم وإن كثروا قليلون في جنب عظمتهم (وكبريائه) (4)، وأما جمعه بالياء والنون فلتغليب العقلاء منهم.

﴿الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ﴾ (2): ذكرهما عقيب الحمد لذاته، ثناء على صفاته كما قال (النبي) (5) عليه السلام فيما روي عنه: «يقول العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، يقول الله: حمدني عبدي. ويقول العبد: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، يقول الله (تعالى) (6): أثنى علي عبدي» (7). فذكرهما في البسملة لاستمالة قلوب العباد على العبودية بالرحمة والغفران، وفي الفاتحة للثناء على الله تعالى بالجمال والجلال للقربة والرضوان.

﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (3): الملك: تمام القدرة، وقرئ: مَلِكٍ، من الملك (8): وهو التسلط العام، والاستعلاء التام، وهو أشد مناسبة

(1) وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح. (تفسير ابن كثير: 1 / 24).

وقال الزجاج: العالم: كل ما خلق الله في الدنيا والآخرة. (معاني الزجاج: 1 / 7).

قال القرطبي: وهذا هو الصحيح أنه شامل لكل العالمين. (تفسير القرطبي: 1 / 139).

(2) وهب بن منبه الأبنائوي الصنعاني الذماري، أبو عبد الله. ولد بصنعاء سنة 34هـ، وتوفي بها سنة

114هـ. (انظر: تاريخ الإسلام للذهبي: 5 / 14-16، وشذرات الذهب: 1 / 150، ووفيات الأعيان:

2 / 180، وحلية الأولياء: 4 / 23، وكشف الظنون: 1328، والأعلام: 8 / 125).

(3) سقط من ح.

(4) سقط من ح.

(5) ساقط من ح.

(6) ساقط من ح.

(7) قال النبي ﷺ: «يقول العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، يقول الله: حمدني عبدي. ويقول العبد:

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، يقول الله تعالى: أثنى علي عبدي».

(انظر: سنن ابن ماجه، كتاب الأدب، باب: ثواب القرآن، حديث: 2774: 2 / 124-1244، وقد

سبق تخريجه آنفاً).

(8) انظر: التسهيل: 1 / 57، والكشف: 1 / 25-34.

لله تعالى، وللإضافة إلى يوم الدين فإن مدار الجزاء على الأعمال من الثواب والعقاب، وأخذ حق الضعيف من القوي على الاستعلاء والسلطنة. وإضافة الملك والسلطنة إلى الوقت شائع دون إضافة الملك. وقيل في ترجيح قراءة ﴿مَالِكٍ﴾⁽¹⁾: إن فيه زيادة حرف، وبه زيادة ثواب لقول⁽²⁾ النبي ﷺ⁽³⁾: «من قرأ القرآن كتب له بكل حرف عشر حسنات، ومحيت عنه عشر سيئات، ورفعت له عشر درجات». وإضافته إلى اليوم إضافة اسم الفاعل إلى الظرف المجرى مجرى المفعول اتساعا، وإنما ساغ وقوعه صفة للمعرفة، لأن إضافة اسم الفاعل إنما تكون غير حقيقية، إذا أريد به الحال أو الاستقبال⁽⁴⁾ لكونه في تقدير الانفصال⁽⁵⁾. والمراد هنا⁽⁶⁾ الزمان المستمر أو الماضي لقراءة ﴿مَالِكٍ﴾ على الماضي.

(1) يقرأ بإثبات الألف وطرحها، فالحجة لمن أثبتها: أن الملك داخل تحت المالك. والدليل له قوله تعالى: ﴿قُلْ أَلَمْ يَكُنْ مَالِكُ الْمَلِكِ﴾ (من الآية: 26 من سورة آل عمران)، والحجة لمن طرحها: أن الملك أخص من المالك وأمدح، لأنه قد يكون المالك غير ملك، ولا يكون الملك إلا مالكا. (الحجة في القراءات السبع لابن خالويه، تحقيق وشرح: عبد العال سالم مكرم، ص: 62).

وقد قرأ عاصم والكسائي بألف، وروي عن الكسائي أنه خير في ذلك، وقرأ الباقون بغير ألف. فإن قيل: فما اختيارك في ذلك؟ فالجواب أن القراءتين صحيحتان حسنتان، غير أن القراءة بغير ألف أقوى في نفسي لما ذكرته من الحجج في ذلك، ولما فيه من العموم. تقول: كل ملك مالك، ولا تقول: كل مالك ملك. وتقول: كل ملك ذو مُلك، ولا تقول: كل مالك ذو مُلك، وإنما هو ذو ملك لا غير. فملك أعم في المدح، وأيضا فإن القراء العامة على ﴿مَالِكٍ﴾، و﴿مَالِكٍ﴾ أيضا حسن قوي في الرواية. (الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، مكّي بن أبي طالب، تحقيق: محيي الدين رمضان: 1/ 25-29).

وقد بالغ بعضهم في الكلام أثناء الترجيح بين هاتين القراءتين إلى حد يكاد يسقط به وجه القراءة الأخرى، وليس هذا بجيد بعد ثبوت هاتين القراءتين وصحة اتصاف الحق سبحانه وتعالى بهما، فهما إذا صفتان لله عز وجل يتبين بهما وجه الكمال له، ولهذا لا ينبغي التجوز في هذا، والله أعلم.

(2) انظر: مسند أحمد: 1/ 148-41، و2/ 164 و193 و322، و3/ 44، و4/ 432 و439، و5/ 203، و6/ 34 و229.

(3) ح: لقوله ﷺ.

(4) ح: والاستقبال.

(5) انظر: إملاء ما من به الرحمن: 11-12.

(6) ح: ها هنا.

واليوم: مدة كون الشمس فوق الأرض عرفاً، وعبارته⁽¹⁾ عن وقت استطارة الفجر الثاني إلى غروب الشمس شرعاً، وهو الوقت المطلق لعدة، ليلاً كان أو نهاراً، طويلاً كان أو قصيراً، وهو المراد في الآية لعدم الطلوع والغروب حينئذ⁽²⁾.

والدين⁽³⁾: الجزاء، خيراً كان المجزى به أو شراً. يقال: «كما تدين تدان»⁽⁴⁾، وإنما خص إضافة ملك⁽⁵⁾ إليه لأن الأملاك يومئذ زائلة؛ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ اللَّهَ﴾⁽⁶⁾، فكأنه يقول: خلقتك أولاً فأنا إليه، ثم رببتك بوجوه النعمة فأنا رب، ثم عصيت فسترت عليك فأنا رحمن، ثم تبت فغفرت لك فأنا رحيم، ثم لا بد من إيصال الجزاء إليك فأنا مالك يوم الدين. [8] ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لأنك مالك، ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾⁽⁵⁾ لأن ما سواك / هالك. إيا: ضمير منفصل منصوب، وكافه للخطاب مثل كاف «ذلك»، وهو أي «يا» وهما حرفا التنبيه والنداء، فأدغم الياء، (وكسرت الألف لجوار الياء)⁽⁷⁾ (8). والعبودية: التذلل، والعبادة⁽⁹⁾ أبلغ منها لأنها غاية التذلل، ولهذا اختصت بالرب.

(1) في ع: وعبرة.

(2) ح: ثمة.

(3) قال الراغب: هو من دئته: إذا جازيته بطاعته. (مفردات الراغب، ص: 178).

وقال: والدين يقال للطاعة والجزاء، واستعير للشرعية. (مفردات الراغب، ص: 177).

(4) قال الجوهري: والدين: الجزاء والمكافأة. يقال: دانه ديناً، أي جازه. يقال: «كما تدين تدان»، أي كما تجازي تجازي، أي تجازي بفعلك وبحسب ما عملت. (الصاحح، مادة: دين).

(5) في ع: ملكه.

(6) من الآية: 19 من سورة الانفطار.

(7) كررت هذه الجملة في ح.

(8) انظر: مشكل إعراب القرآن: 1 / 69-70.

(9) انظر اللسان: عبد. والمفردات: عبد.

عدل عن الغيبة إلى الخطاب، وهو صنعة الالتفات، وقد اقتضاه المقام، وذلك (أن) ⁽¹⁾ من أول السورة إلى هناك ثناء، والثناء في الغيبة أولى، ومن هنا ⁽²⁾ إلى آخرها دعاء، والدعاء في الحضور أولى، والمعنى: نخصك يا من لا تسوغ العبادة إلا له لا تصافه بما ذكر من إفاضة النعم الدنيوية والأخروية، ولا يجوز الاستعانة إلا به لكمال قدرته، وإحاطة ملكوته بكل شيء بغاية التذلل في طلب المعونة، لا نعبد غيرك، ولا نستعين سواك. قدّم الضمير المنفصل للتخصيص والتوحيد، وقطعا لاحتمال تعلق العبادة لغيره من أول الأمر، لأنه كفر لا بد من الاحتياط عن ذهاب الوهم إليه، ولم يسلك في الحمد لله ذلك المسلك، إذ لا بأس في تعلق الحمد لغيره تعالى، وآثر الضمير المستكنّ الشامل للقارئ ولسائر الموحدين للتعميم والتشريك، ودرجا لعبادته في تضاعيف عبادتهم، وخلطا لحاجته بحاجتهم، لعلها تقبل ببركتها، ويجاب إليها.

ولهذا شرعت الجماعة، وكان في ذلك إبقاء لكل مقام حقه، فكأنه يقول: أنت منفرد في المعبودية، ونحن شركاء في العبودية، ولك أن تقول: إن في «أعبد» معنى التوحيد ⁽³⁾ المشعر عن التكبر، وفي «نعبد» معنى التواضع المناسب لمقام العبادة ⁽⁴⁾ والتذلل، فكأنه يقول (القارئ) ⁽⁵⁾: إني واحد من عبيدك.

وقدّم العبادة على الاستعانة تعليما للعباد، وجريا على ما انطبع في الغرائز من تقديم الوسيلة على الحاجة، لأنه أنجح لحصول المطلب، وأسرع

(1) سقط من ح.

(2) ح: هاهنا.

(3) في ع: التوحيد.

(4) ح: المعبودية.

(5) سقط من ح.

لوقوع الإجابة، وأطلق الاستعانة لتعم⁽¹⁾ كل مستعان عليه، ثم خصصها بقوله: ﴿إِهْدِنَا﴾ ليتكرر إجمالاً وتفصيلاً، فيدل على أن أهم المهمات الاستعانة به وبتوقيقه في طلب الهداية والسعادة الأخروية الباقية، وكرر الضمير [المنفصل]⁽²⁾ للتنخيص على التخصيص في كل من العبادة والاستعانة، ولولا ذلك لكان التخصيص في مجموعهما، ولا يلزم من ذلك التخصيص في كل منهما.

﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾⁽³⁾ ﴿6﴾: الدين القويم، وما يدل عليه القرآن العظيم؛ قال⁽⁴⁾ علي وأبي بن كعب⁽⁵⁾ رضي الله عنهما: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾ ثَبَّتْنَا عَلَيْهِ⁽⁶⁾، كما يقال للقائم: قم حتى أعود⁽⁷⁾ إليك، أي دُم على ما أنت عليه. قيل: وقرئ ثَبَّتْنَا، وفي التعبير عنه بـ«اهدنا» إشارة إلى (أن)⁽⁸⁾ المطلوب هو الثبات في ضمن التجدد، يعني ثَبَّتْنَا على أصل الهداية، وزدنا فيها في كل وقت.

والهداية دلالة بلطف، ومنه الهدية⁽⁹⁾. وخص⁽¹⁰⁾ ما كان دلالة بـ «فعلت»، نحو: هديته

(1) ع: ليعم.

(2) سقط من ع.

(3) قال أبو جعفر: ومعنى قوله: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ في هذا الموضع عندنا: وفقنا للثبات عليه، كما روي عن ابن عباس. وجاء له بعدة معان. (انظر: جامع البيان: 1 / 71 وما بعدها).

(4) انظر: الكشف: 1 / 67.

(5) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد، من بني النجار، من الخزرج، أبو المنذر، صحابي أنصاري، كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود... ولما أسلم كان من كتاب الوحي. توفي سنة 21 هـ. (غاية النهاية: 1 / 31، وصفة الصفوة: 1 / 188، والأعلام: 1 / 82).

(6) انظر: معاني القراءات لأبي منصور: 1 / 111.

(7) ح: أدعو.

(8) سقط من ح.

(9) ح: الهداية.

(10) ح: خصها.

[9] الطريق، وما كان من الإِعطاء بـ «أفعلت»، نحو: أهديت / الهدية، واستعمالها في الشر كما في قوله تعالى: ﴿فَأَهْلُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ الْجَحِيمِ﴾⁽¹⁾، فعلى طريقة التهكم كالبشارة في قوله تعالى: ﴿قَبَشْنُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾⁽²⁾، والفعل منه: هدى، يتعدى إلى ثاني مفعوليه باللام تارة، وبـ «إلى» أخرى، ففي حذف أداة التعدية على طريقة: ﴿وَلَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾⁽³⁾ إخراج له مخرج المتعدي إلى المفعولين بالذات، ولا بُعْدَ في أن يقصد بذلك الإشارة إلى قوة الهداية المطلوبة، فكأنه قيل: اهدنا هداية كاملة لا تحتاج⁽⁴⁾ إلى الوساطة، وإنما قال: «اهدنا» دون «اهدني»⁽⁵⁾، رعاية للمناسبة مع «نعبد» و«نستعين»، ولأن الدعاء مهما كان أعم كان إلى الإجابة أقرب.

كان بعض العلماء يقول لتلامذته: إذا قرأتم في خطبة السبق⁽⁶⁾، ورضي الله عنك⁽⁷⁾ وعن جماعة المسلمين (إن ذكرتني في قولك، ورضي الله، وإلا فلا حرج، ولكن إياك أن تنساني في قولك وعن جماعة المسلمين)⁽⁸⁾، فلا بد وأن يكون في المسلمين من يستحق الإجابة، وإذا أجاب الله تعالى الدعاء في البعض⁽⁹⁾ فهو أكرم من أن يرُدَّه في الباقي، ولهذا السبب قالوا: السنّة إذا أراد أحد أن يذكر دعاء⁽¹⁰⁾ أن يصلي أولاً على النبي ﷺ، ثم

(1) من الآية: 23 من سورة الصافات.

(2) من الآية: 34 من سورة التوبة.

(3) من الآية: 155 من سورة الأعراف.

(4) ع: لا يحتاج.

(5) ح: اهد.

(6) الذي في التفسير الكبير: في خطبة السابق. (التفسير الكبير: 1 / 260). ولعل التلاميذ كانوا يقومون بمسابقات خطابية فيما بينهم.

(7) ح: عنكم.

(8) سقط من ح.

(9) في ح: في المستحق.

(10) ومما يتأكد (أي الصلاة على النبي ﷺ) ووردت فيه أخبار خاصة أكثرها بأسانيد جيدة: عقب إجابة المؤذن، وأول الدعاء، وأوسطه، وآخره، وفي أوله أكد. (فتح الباري: 11 / 169).

يذكر ذلك الدعاء، ثم يصلي على النبي عليه السلام، فإنه إذا أجيب في طرفي دعائه امتنع أن يردّ في وسطه، وقد قال⁽¹⁾ النبي عليه السلام: «أدعوا الله بالسنة»⁽²⁾ ما عصيتموه بها، قالوا: يا رسول الله! فمن أين لنا تلك الألسنة؟! قال: يدعو بعضكم لبعض⁽³⁾، لأنك ما عصيت بلسانه، وهو ما عصى بلسانك».

والصراط⁽⁴⁾ كالطريق في التذكير والتأنيث، أما في المعنى فبينهما فرق لطيف، وهو أن الطريق كل ما يطرقة طارق، معتادا كان أو غير معتاد، والسبيل من الطرق: ما هو معتاد السلوك، والصراط من السبيل: ما لا التواء فيه ولا اعوجاج، بل يكون على جهة القصد، فهو أخص الثلاثة⁽⁵⁾.

وفائدة وصفه بالمستقيم أن الصراط يطلق على ما⁽⁶⁾ فيه صعود أو هبوط، والمستقيم ما لا ميل فيه إلى جهة من الجهات الأربعة، وأصل الاستقامة في قيام الشخص أن لا يكون منحنيا ولا متعنسا⁽⁷⁾، ولا مائلا إلى يمين أو يسار.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: بدل من ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وفائدته التوكيد للتكرير والتفصيل بعد الإجمال، وأطلق الإنعام لينتظم كل نعم. شددت اللام في «الذين» لأنها لا مان، والأصل «لذ» مثل «عم»، ثم دخلت الألف و(اللام)⁽⁸⁾ للتعريف، فالتشديد من أجل ذلك.

(1) انظر: التفسير الكبير: 1 / 260.

(2) ساقط من ح.

(3) ح: ببعض.

(4) الصراط والسرط والزراط: الطريق. (اللسان: صراط).

(5) ح: الثلاث.

(6) ح: ما هو.

(7) انظر اللسان: عنس.

(8) سقط من ح.

والإنعام: نفع العالي مَنْ دُونَهُ بأمر عظيم خالياً عن العوض والتبعة، ولما كان الكفار من جملة

[10] الذين أنعم الله عليهم على ما صرح به في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾⁽¹⁾، خصهم بقوله: ﴿غَيْرِ الْمَفْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ في دار الدنيا، ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾⁽²⁾ في دار⁽³⁾ الآخرة، والمشهور أن نعمة الله تعالى على نوعين: دنيوية وهي أوفر في حق الكافر، لقول النبي عليه السلام⁽⁴⁾: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»⁽⁵⁾، وأخرية وهي مختصة بالمؤمن، ونحن نقول: إن النعمة الأخروية على قسمين: نعمة نفع وهي المختصة بالمؤمن، ونعمة دفع⁽⁶⁾—ولا شبهة في عمومها— للكافر أيضاً، لأنه تعالى لا يعذب كافراً من الكفار بنوع من العذاب إلا وهو قادر على أن يعذبه بأشد منه، وترك ذلك نعمة، تخفيف منه تعالى عليه.

﴿غَيْرِ﴾⁽⁶⁾: صفة مقيدة، أي جمعوا بين النعمة والسلامة منهما، وإنما وصف المعرفة بـ«غير» تنزيلاً للموصول منزلة النكرة، إذ لم يقصد به معهوداً، ورفعاً لـ«غير» إلى درجة المعرفة لزوال إبهامه، بالإضافة إلى ما له ضد واحد.

(1) من الآية: 121 من سورة البقرة.

(2) ع: باب.

(3) ح: لقوله ﴿الضَّالِّينَ﴾.

(4) الحديث رواه أبو هريرة في سنن ابن ماجه: كتاب الزهد، باب: مثل الدنيا، حديث: 4113 / 2 / 1378. كما رواه الإمام الترمذي في سننه، انظر: كتاب الزهد، باب ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، حديث: 2324، والحديث حسن صحيح. انظر: سنن الترمذي: 4 / 562. وانظر: مسند أحمد: 2 / 197، و323، و398، و485.

(5) ح: رفع.

(6) اسم مبهم، إلا أنه أعرب للزومه بالإضافة، وخفضه على البدل من ﴿الغَيْنِ﴾، أو على النعت لهم، إذ لا يقصد بهم قصد أشخاص بأعيانهم، فجروا مجرى النكرة، فجاز أن يكون ﴿غَيْرِ﴾ نعتاً لهم. وقد روي نصب ﴿غَيْنِ﴾ عن ابن كثير وغيره، ونصبها على الحال من الهاء والميم في ﴿عَلَيْهِمْ﴾، أو من الذين، إذ لفظهم لفظ المعرفة. وإن شئت نصبت على الاستثناء المنقطع عند البصريين، ومنعه الكوفيون لأجل دخول لا. (انظر: مشكل إعراب القرآن: 1 / 72).

اعلم⁽¹⁾ أن «غيراً» لها ثلاثة⁽²⁾ مواضع:

أحدها: أن يقع موقعاً لا يكون فيه إلا نكرة، وذلك إذا أُريد بها النفي الساذج في نحو: مررت برجل غير زيد⁽³⁾.

الثاني: أن يقع⁽⁴⁾ موقعاً لا يكون فيه إلا معرفة، وذلك إذا أُريد بها شيء قد عُرف بمضادة المضاف إليه في معنى لا يضادّه فيه إلا هو، كما إذا قلت: مررت بغيرك، أي المعروف بمضادتك، إلا أنها⁽⁵⁾ في هذا لا تجري صفة، فيذكر «غير» جارية على الموصوف.

الثالث: أن يقع⁽⁶⁾ موقعاً يكون فيه نكرة تارة، ومعرفة أخرى، كما إذا قلت: مررت برجل كريم غير لئيم، [وعاقل غير جاهل، والرجل الكريم غير اللئيم]⁽⁷⁾.

كذا قال صدر الأفاضل⁽⁸⁾، وقد تبين منه أن من قال: إن «غير» لا يتعرف أصلاً وإن أُضيف إلى المعارف (لم يُصَبِّ)⁽⁹⁾، وأن من زعم أنه بالإضافة⁽¹⁰⁾ إلى ما له ضدّ واحد تعيّن⁽¹¹⁾ الحركة من غير السكون فقد أخطأ من وجوه: أما الأول فلائنه وإن أُضيف إلى ما له ضدّ واحد، لكنه لم يعرف

(1) ح: واعلم.

(2) ح: ثلاث، وهو خطأ؛ لأن العدد من الواحد إلى العشرة يذكر مع المؤنث، ويؤنث مع المذكر.

(3) ع: فريد.

(4) ح: تقع.

(5) ح: أنه.

(6) ح: تقع.

(7) سقط من ع.

(8) ربما يقصد السلف الصالح رضوان الله عليهم.

(9) سقط من ح.

(10) زاد في ح هكذا: (بالإضافة إلى المعارف، وأن من زعم أنه بالإضافة)، وهي زيادة لا معنى لها.

(11) كزرها في ح.

ما أريد به بمضادة المضاف إليه في معنى لا يضادّه فيه إلا هو، ولهذا لم يكن من قبيل الثاني، فلم يتعين (تعين) ⁽¹⁾ الحركة من غير السكون.

وأما ثانياً فلأنه حينئذ يكون معرفة بالحقيقة على ما مرّ، لا بالتأويل كما ظنه ذلك الزاعم. وأما ثالثاً فلأنه حينئذ لا يجري صفة، وإنما يذكر «غير» جار على الموصوف (على ما تقدم وجهه) ⁽²⁾، وهو في صدد توجيه كونه صفة لما قبله. وقيل: هو بدل من ﴿الْغَيْنِ﴾، لا يعجبني ذلك، لأن «غير» أصل وضّعه الوصف، والبدل بالوصف ضعيف.

والغضب ⁽³⁾: تغير يحصل عند غليان دم القلب لإرادة الانتقام، والقانون في أمثال هذا أن جميع الأعراض النفسانية مثل الرحمة والفرح والسرور (والغضب) ⁽⁴⁾ والحياء والتكبر والاستهزاء [11] لها أوائل، ولها نهايات، ولنبين ⁽⁵⁾ ذلك في الغضب، فإن / أوله ⁽⁶⁾ غليان الدم، وغايته إرادة إيصال الضرر إلى المغضوب عليه، فلفظ الغضب في حق الله تعالى لا يحمل على أوله الذي هو ⁽⁷⁾ من خواص الجسم، بل يحمل على غايته، وهذه قاعدة شريفة.

بقي هاهنا نكتة لطيفة، وهي أنه صرح بالخطاب لما ذكر النعمة، ثم لوّنه حيث قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يقل: غير الذين ⁽⁸⁾ غضبت

(1) سقط من ح.

(2) سقط من ح.

(3) قال ابن منظور: الغضب من المخلوقين: شيء يداخل قلوبهم، ومنه محمود ومذموم، فالمدحوم: ما كان في غير الحق، والمحمود: ما كان في جانب الدين والحق. وأما غضب الله فهو إنكاره على من عصاه، فيعاقبه. (اللسان: غضب).

(4) سقط من ح.

(5) ح: ويتبين.

(6) ح: فإن له.

(7) ح: له.

(8) ح: الذي.

عليهم، عطفًا على الأول، فجاء باللفظ متحرِّفًا به عن ذكر الغاضب، فأُسند النعمة إليه لفظًا، وروى عنه لفظ الغضب تحسنًا ولطفًا.

قيل: يعني⁽¹⁾ بالأول اليهود⁽²⁾ لقوله تعالى في قصتهم: ﴿وَيَأْتُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾⁽³⁾، وبالثاني النصارى⁽⁴⁾ لقوله تعالى في حقهم: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾⁽⁵⁾، وهذا على وفق ما روي عن النبي⁽⁶⁾ عليه السلام: «من أن رجلاً سألَهُ وهو بوادي القرى: من المغضوب عليهم؟ فقال: اليهود، ومن الضالين؟ فقال: النصارى»⁽⁷⁾.

فإن قلت: كيف فسّر (على) ذلك، وكلا الفريقين ضال ومغضوب عليه؟! قلت: خصّ كل فريق منهم بصفة كانت أغلب عليهم، وإن شاركوا غيرهم في صفات ذمّ. و«عليهم» هاهنا في محل الرفع، لأنه نائب مناب الفاعل، بخلاف (ما)⁽⁹⁾ في ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فإنه في محل نصب على

(1) قال أبو جعفر: فإن قال لنا قائل: فمن هؤلاء المغضوب عليهم الذين أمرنا الله جل ثناؤه بمسألتِهِ أن لا يجعلنا منهم؟ قيل: هم الذين وصفهم الله جل ثناؤه في تنزيله فقال: ﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الْكُفَّاءِ لَوْلَاكُمْ شَرٌّ مِمَّا كَانُوا بِأَضَلَّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (من الآية: 62 من سورة المائدة)، فأعلمنا جل ذكره بمنّه ما أحلّ بهم من عقوبته بمعصيتهم إياه، ثم علّمنا بمنّه علينا، وجه السبيل إلى النجاة، من أن يحلّ بنا مثل الذي حلّ بهم من المثالات، ورأفة منه بنا. (جامع البيان: 1 / 79).

(2) انظر التعريف باليهودية: المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب: 1 / 139.

(3) من الآية: 89 من سورة البقرة.

(4) هم الذين تنصروا، وهم نصارى نجران. (انظر: المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب: 1 / 201).

(5) من الآية: 79 من سورة المائدة.

(6) ح: عنه.

(7) روي عن النبي ﷺ من أن رجلاً سألَهُ وهو بوادي القرى: من المغضوب عليهم؟ فقال: اليهود. ومن الضالين؟ فقال: النصارى. (انظر: مسند أحمد: 4 / 278).

(8) سقط من ح.

(9) سقط من ح.

المفعولية. و«لا» مزيدة لتأكيد ما في «غير» من معنى النفي⁽¹⁾، فكأنه قيل: لا المغضوب عليهم، ولا الضالين، وعين دخولها العطف على قوله: المغضوب عليهم، لمناسبة «غير»، لئلا يُتوهم في أول الوهلة بتركها عطف «الضالين» على «الذين».

والضلال: فقدان الطريق السوي، سواء سبقه الوجدان⁽²⁾ أو لا كما في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَمَّ﴾⁽³⁾، وإنما عدلنا عن تفسيره بالعدول عن الطريق السوي عمداً أو خطأ، لأن من طلب الطريق السوي ولم يجده، أو قعد عن الطلب، ضال. ولا عدول ثمة، (لا)⁽⁴⁾ عمداً ولا خطأ.

﴿أَمِينَ﴾: مبني على الفتحة كأمين، لالتقاء الساكنين، وجاء مد ألفه وقصرها، والأصل فيه القصر، وإنما مد ليرتفع الصوت بالدعاء، كذا قال⁽⁵⁾ ابن خالويه⁽⁶⁾ في «إعراب القرآن»⁽⁷⁾، وذكر ابن درستويه⁽⁸⁾ أن القصر ليس بمعروف⁽⁹⁾، وإنما قصره الشاعر في قوله:

(1) انظر: المحتسب: 1 / 43-46، والحجة لابن خالويه: 63.

(2) ح: وجدان.

(3) الآية: 7 من سورة الضحى.

(4) سقط من ح.

(5) قال الزمخشري: وفيه لغتان: مد ألفه وقصرها، قال:

ویرحم الله عبدا قال آمينا أمين فزاد الله ما بينا بعدا

انظر: الكشف: 1 / 75.

(6) هو الحسين بن أحمد بن خالويه بن حمدان، وكنيته: أبو عبد الله، لم يذكر الرواة سنة مولده، لكنهم ذكروا سنة وفاته، حيث أجمعوا على أنه توفي بحلب سنة سبعين وثلاثمائة. (انظر: العبر: 3 / 38، والشذرات: 3 / 128، والأعلام: 2 / 231).

(7) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن لابن خالويه، ص: 35.

(8) هو عبد الله بن جعفر بن محمد بن درستويه بن المرزبان، أبو محمد: من علماء اللغة، فارسي الأصل، ولد سنة 258هـ، وتوفي ببغداد سنة 347هـ. (انظر: بغية الوعاة: 279، وابن النديم: 1 / 63، والوفيات: 1 / 251، ونزهة الألبا: 356، والأعلام: 4 / 76).

(9) انظر: إملاء ما من به الرحمن: 14-15.

.....آمِينَ فَزَادَ اللَّهُ مَا بَيْنَنَا بَعْدًا

للضرورة، وذلك وهم، إذ لا ضرورة، فإنه لو قدم الفاء وقيل⁽¹⁾:

.....فَآمِينَ زَادَ اللَّهُ مَا بَيْنَنَا بَعْدًا

اندفع للضرورة. ولا يشدد ميمه؛ فإنه لَحْنٌ، والعامة ربما فعلوا ذلك.

وأما في قوله تعالى: ﴿وَلَا آمِينَ التَّيْتِ الْعَزَمَ﴾⁽²⁾، فالميم مشددة لأنه من أَمَّتْ: أي قصدت: معناه على قول ابن عباس⁽³⁾ ⁽⁴⁾ عَنِ اللَّهِ: كذلك يكون. وقيل: اسم فعل، أي استجب⁽⁵⁾، وروي⁽⁶⁾ عن كعب الأخبار⁽⁷⁾⁽⁸⁾

(1) هو للشاعر جبير بن الأضيظ، والبيت هو كما يلي:

تباعد مني فطُحِلَ إذ رأيته آمين فزاد الله ما بيننا بعدا

(اللسان: فطحل). وورد في المصدر نفسه (اللسان: فحل) برواية أخرى، وهي:

تباعد مني فطحل إذ سألته آمين فزاد الله ما بيننا بعدا

وفي القرطبي: فُطُحِلَ. (القرطبي: 1/90).

ورود كذلك بهذه الرواية:

تباعد مني فطُحِلَ إذ سألته آمين، فزاد الله ما بيننا بَعْدًا

وَفُطُحِلَ: اسم رجل. (تفسير غريب القرآن، ص: 13).

(2) من الآية: 3 من سورة المائدة.

(3) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، بن هاشم، القرشي، كانت ولادته قبل الهجرة بثلاث سنوات.

(انظر ترجمته في: طبقات ابن سعد: 2/365، وأسد الغابة: 2/342، والإصابة: 2/322).

(4) تنوير المقياس من تفسير ابن عباس، ص: 3.

(5) انظر: البيان للأنباري: 1/41.

(6) انظر: تفسير ابن كثير: 1/31، والدر: 1/17. وهي من الإسرائيليات التي استدل بها ابن كمال في

تفسيره.

(7) ع: الأخبار.

(8) هو كعب بن ماته بن ذي هجن الحميري، أبو إسحاق، تابعي. كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود

في اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر، وقدم المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيرا

من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة. وخرج إلى الشام، فسكن حمص،

وتوفي فيها عن مائة وأربع سنين، ووفاته كانت سنة 32هـ. (تذكرة الحفاظ: 1/49، والإصابة:

ترجمة: 7492).

أنه قال: آمين خاتم ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽¹⁾، يختتم (به)⁽²⁾
 [12] دعاء عبده المؤمن، وليس من القرآن إجماعاً / وقراءته سنة في الصلاة،
 وخارج الصلاة بعد الفاتحة مفصولة عنها.

(1) الآية: 2 من سورة الفاتحة.

(2) سقط من ح.

[سورة البقرة]

سورة البقرة: عن سهل بن سعد⁽¹⁾ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ: «إن لكل شيء سناما، وسنام القرآن سورة البقرة»⁽²⁾. ولا حجة فيه على من استكره أن يقال: سورة البقرة⁽³⁾، وقال: ينبغي أن يقال: السورة التي يذكر فيها البقرة كما قال⁽⁴⁾ عليه السلام: «السورة التي يذكر فيها البقرة فسطاط⁽⁵⁾ القرآن»، لأن ما يكره⁽⁶⁾ من الأمة قد لا يكره منه عليه السلام، ألا يرى أنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»، وقد أنكر قول الأعرابي: ومن عصاهما فقد غوى، وقال: بئس خطيب القوم أنت!⁽⁷⁾

(1) هو سهل بن سعد الخزرجي الأنصاري من بني ساعدة، صحابي من مشاهيرهم، من أهل المدينة. توفي رحمه الله سنة 91هـ. (الأعلام: 3 / 143).

(2) عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ: «إن لكل شيء سناما، وسنام القرآن سورة البقرة». (انظر: سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب في فضل سورة البقرة، حديث: 3377 / 2 / 539).

(3) قال صاحب الإتيان: «كره بعضهم أن يقال: سورة كذا، لما رواه الطبراني والبيهقي عن أنس مرفوعا: «لا تقولوا: سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذا القرآن كله، ولكن قولوا: السورة التي تذكر فيها البقرة، والتي يذكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كله». وإسناده ضعيف، بل ادعى ابن الجوزي أنه موضوع.

وقال البيهقي: إنما يعرف موقوفا على ابن عمر، ثم أخرجه عنه بسند صحيح، وقد صح إطلاق سورة البقرة وغيرها عنه ﷺ.

وفي الصحيح عن ابن مسعود أن قال: هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة، ومن ثم لم يكرهه الجمهور. (انظر: الإتيان: 1 / 151).

(4) أخرجه الدارمي عن خالد بن معدان موقوفا، قال: «سورة البقرة تعليمها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة، وهي فسطاط القرآن». (السنن: 2 / 539، وعزاه القرطبي وابن كثير إلى خالد بن معدان، وانظر تفسير القرطبي: 1 / 152، وتفسير ابن كثير: 1 / 36).

(5) الفَسْطَاطَةُ: الطيِّبَةُ. (اللسان: فسط).

(6) زاد بعد هذا في ح: (قال: من لأن ما يكره من الآية قد يكره منه)، ولا معنى لهذا الكلام.

(7) قالوا: أنكر عليه التشريك في الضمير المقتضي لتوهم التسوية، ورد بأنه ورد مثله في كلامه ﷺ. فالوجه أن التشريك في الضمير يخل بالتعظيم الواجب، ويوهم التشريك بالنظر إلى بعض المتكلمين وبعض السامعين، فيختلف حكمه بالنظر إلى المتكلمين والسامعين، والله تعالى أعلم. (انظر: سنن النسائي، كتاب النكاح، باب: ما يكره من الخطبة: 6 / 90، وسنن أبي داود، كتاب الأدب، حديث: 4981 / 4 / 297).

﴿يَسْمِ اللّٰهَ الرَّحْمٰنَ الرَّحِيْمَ الْم﴾ (1): في الفواتح (1) المقطعة أوجه، والأوجه أنها أسماء السور، وعليه الأكثر، ومحلها رفع على الابتداء، وقيل: نصب أو جر على حذف حرف الجر وإضمامه، والمروى عن الصدر الأول في التهجي أنها أسرار بين الله تعالى ونبيه (2)، وقال بعض الكمل (3): قد يجري بين المحرمين كلمات مُعمّاة تشير إلى سرّ بينهما (4)، والمقطعات في أوائل السور من هذا القبيل، فإنه تعالى قد وضعها (5) مع نبيه عليه السلام في وقت لا يسعه فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ليتكلم بها معه على لسان جبرائيل عليه السلام بأسرار وحقائق لا يطلع عليها جبرائيل عليه السلام، ويدل على هذا ما روي (6) في الأخبار أن جبرائيل عليه السلام لما نزل بقوله تعالى: ﴿كَمِيعَص﴾ (7) فلما قال: كاف، قال (8) عليه السلام: علمتُ، فقال: ها، قال: علمتُ، فقال: يا، قال: علمت، فقال: عين، قال: علمت، فقال: صاد، قال: علمت، فقال جبرائيل: كيف علمت ما لم أعلم؟!

(1) اختلف فيها أهل التأويل ما بين مؤيد للخوض فيها، وبين مانع لذلك. والمختار فيها والله أعلم أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى. أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبي، أنه سئل عن فواتح السور، فقال: إن لكل كتاب سرا، وإن سر هذا القرآن فواتح السور. (انظر: الإتيان: 21/ 3، والعمدة في غريب القرآن لمكي: 69. وجامع البيان لابن جرير: 1/ 92، والتسهيل للكليبي: 1/ 60، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: 299، وأحكام القرآن لابن العربي: 1/ 8، وتفسير ابن كثير: 1/ 35).
وقد أفردتها بالتأليف ابن أبي الأصبع في كتاب سماه «الخواطر السوانح في أسرار الفواتح». (انظر: الإتيان: 3/ 316).

(2) انظر: إملأ ما من به الرحمن: 17.

(3) انظر: المعاني القريبة في التفسير الكبير: 2/ 5.

(4) وهو كلام غريب يحتاج إلى دليل يعضده.

(5) ع: واضعها.

(6) انظر: المعاني القريبة في التفسير الكبير: 2/ 6-7.

(7) من الآية: 1 من سورة مريم.

(8) ح: قال النبي.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾⁽¹⁾: أصل ذلك: اسم مبهم للإشارة، واللام عوض عن هاء التي للتنبيه، ولهذا لا يجمع بينهما، والكاف للخطاب⁽²⁾، فلا دلالة في أصل وضعه إلى البعد⁽³⁾، وإنما ذلك بحسب العرف الطارئ، فالإشارة به هاهنا إلى الحاضر إما على الوضع اللغوي، أو لأن ما لا يحس⁽⁴⁾ بالبصر فالإشارة إليه بلفظ «ذلك»، وهذا سواء، لأنه من حيث إنه لا يحس⁽⁵⁾ بالبصر أشبه المحسوس الغائب، ومن حيث إنه مُدرك بالعقل أو السمع أشبه المحسوس الحاضر، فصَحَّ فيه استعمال اللفظين، ولهذا قال جَمَعَ من أئمة التفسير والعربية⁽⁶⁾: إن معنى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، هذا الكتاب، وتذكيره لأن المشار إليه المسمى وهو ذلك البعض من القرآن ليس بمؤنث، وكذا اسمه المذكور وهو ﴿الْم﴾ ليس بمؤنث. نعم، له اسم آخر مؤنث وهو السورة، لكن الإشارة ليست باعتبارها، فلا حاجة إلى التأويل في تذكيره، وهو مبتدأ ثان، والكتاب خبره، والجمله خبر المبتدأ الأول.

[13] والمعنى: إن ذلك هو الكتاب الكامل، أو خبر المبتدأ، والكتاب صفة، ومعناه: / هو ذلك الكتاب الموعود، مصدر بمعنى المفعول؛ قال الراغب⁽⁷⁾: الكتب: ضم أديم إلى أديم بالخياطة، وفي المتعارف: ضم الحروف بعضها

(1) قال الراغب: الكتب ضم أديم إلى أديم بالخياطة، وفي المتعارف عليه: ضم الحروف بعضها إلى بعض في اللفظ، ولهذا سمي كتاب الله، وإن لم يكتب كتاباً. فمن قال: أطلق على المنظوم عبارة قبل أن يكتب، لأنه مما يكتب، فكانه لم يفرق بين الخط والكتابة. (المفردات، ص: 440، مادة: كتب).

(2) انظر: إملاء ما من به الرحمن، ص: 17، ومشكل إعراب القرآن: 1/ 73، والبيان للأنباري: 1/ 43-44.

(3) ح: وضعه للبعد.

(4) ح: لا يحسن.

(5) ح: لا يحسن.

(6) وموضعه رفع إما على أنه خير. (انظر: إملاء ما من به الرحمن: 17).

وروي ذلك بمعنى هذا عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدي، ومقاتل بن حيان، وزيد بن أسلم، وابن جريج. (انظر: تفسير ابن كثير: 1/ 38).

(7) هو الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب، أديب، من الحكماء العلماء، لم يذكر الرواة تاريخ ولادته، لكنهم ذكروا سنة وفاته التي كانت 502 هـ. (انظر: كشف الظنون: 1/ 36، والبداية والنهاية: 12/ 183، والشذرات: 4/ 34، والأعلام: 2/ 255).

إلى بعض في اللفظ، ولهذا سُمي كتاب الله وإن لم يكتب كتاباً، فمن قال :
أطلق على المنظوم عبارة⁽¹⁾ قبل أن يكتب، لأنه مما يكتب، فكأنه لم يفرق
بين الخط والكتابة .

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾⁽²⁾ : في محل الحال، والعامل فيه معنى الإشارة فيه،
إشارة إلى كماله في نفسه . وقوله : ﴿هُوَ﴾ إشارة إلى كونه مُكَمَّلًا لغيره،
فيكون وصفاً له⁽³⁾ بالتكميل بعد وصفه بالكمال؛ قال الراغب في الفرق
بين الشك والمِرية⁽⁴⁾ والريب⁽⁵⁾ : إن الشك وقوف النفس بين شيئين متقابلين،
بحيث لا يترجح أحدهما على الآخر بأمرة . والمِرية : التردد في المتقابلين
وطلب الأمانة، مأخوذ من مَرَى الضرع⁽⁶⁾، أي مَسَحَهُ لِلدَّرِّ⁽⁷⁾، فكأنه يحصل
مع الشك تردد في طلب ما يقتضي غلبة الظن .

والريب⁽⁸⁾ أن يُتوهم في الشيء أمر ما، ثم ينكشف عما توهم⁽⁹⁾ فيه،
ولما كان الريب أضعف كان نفيه أبلغ، ثم إن المنفي عنه منشأ الريب
لا نفسه، لأنه حالة قائمة بالمرتاب لا يحتمل أن يوجد في جنس الكلام،
فلا حاجة إلى نفيها، بل لا وجه (له)⁽¹⁰⁾ في مقام المدح، فتأخير الظرف

(1) ح : عبارته .

(2) ﴿لَا﴾ : تبرئة، فهي و﴿ريب﴾ كاسم واحد، ولذلك بني ﴿ريب﴾ على الفتح، لأنه مع ﴿لَا﴾
كخمسة عشر، وهو في موضع رفع خبر ﴿ذلك﴾ . (مشكل إعراب القرآن : 1/74) .

(3) ع : وصاله .

(4) انظر : المفردات، ص : 486-487، مادة : مرى .

(5) انظر : المفردات، ص : 272، مادة : شك .

(6) قال الراغب : أصله من مَرَيْتُ الناقةَ : إذا مسحت ضَرْعَهَا لِلْحَلَبِ . (ص : 467، مادة : مرى) .

(7) ح : للبد .

(8) انظر : المفردات، ص : 213، مادة : ريب .

(9) ح : يتوهم .

(10) سقط من ح .

(لا) ⁽¹⁾ لأن الحصر المستفاد من تقديمه باطل، لأن باقي الكتب السماوية ليس بمعجز، فلا قاطع لعرق الريب فيه، بل لتجريد الكلام لما سيق له، فإن المفهوم من الحصر المذكور فضيلة في المقام ⁽²⁾، واختيار ما هو أحسن نظاماً، وتوسيع دائرة القراءة ⁽³⁾ على ما ستقف عليه بإذن الله تعالى. وقرئ: لا ريب بالتنوين والرفع، والفرق أن المشهورة توجب الاستغراق، وهذه تجوز ⁽⁴⁾.

﴿هَمَى الْمُتَّقِينَ﴾ ⁽²⁾ ⁽⁵⁾: أي المشارفين للتقوى، الصائرين إليه، ففيه مجاز وإيجاز، وهما من أقوى أسباب الإعجاز، ونكتة المجاز التنبيه على قوة ترتب اهتدائهم على هدايته، بحيث لم يتخلل بينهما زمان، فكأن هدايته بالذين يهتدون به هداية بالمهتدين.

وإنما لم يقل ⁽⁶⁾: هدى للضالين ⁽⁷⁾ لئلا يندرج تحت عموم المطبوع على قلوبهم. «هدى»: مبتدأ، خبره ⁽⁸⁾ «فيه»، قدّم عليه محققاً على قراءة ⁽⁹⁾ من وقف على ﴿رَبِّ﴾، ومقدراً ⁽¹⁰⁾ على قراءة ⁽¹¹⁾ من وقف ⁽¹²⁾ على

(1) سقط من ح.

(2) ح: الكتاب المقام.

(3) ح: القرآن.

(4) انظر: مختصر في شواذ القرآن: 10، وإتحاف فضلاء البشر: 1 / 372.

(5) هدى: مبتدأ خبره «فيه» قدم عليه محققاً على قراءة من وقف على ﴿رَبِّ﴾، ومقدراً على قراءة من وقف على ﴿فِيهِ﴾. (إملاء ما من به الرحمن، ص: 18، والبيان في غريب إعراب القرآن للأنباري: 1 / 45، ومشكل إعراب القرآن: 1 / 74).

(6) ح: لم تقل.

(7) ح: للطالبين.

(8) انظر: مشكل إعراب القرآن: 1 / 74.

(9) انظر: منار الهدى: 29-30.

(10) ع: ومقداراً.

(11) انظر: المكتفى: 158-159.

(12) ح: من وقف على وقف، ولا معنى له.

﴿فِيهِ﴾، للعناية والاهتمام، تنبيهها على أن المقصود بالإخبار كون الكتاب متضمنا لهدايتهم لا كونهم مهتدين به، وللمحافظة على الفاصلة، وإيثار الظرف على الضمير المنفصل، للإشارة إلى أن الهداية من بعض الفوائد التي تضمنها. وتنكيره للتعظيم، والهدى في الأصل: مصدر على فَعَلَ كَالسُّرَى، وقد مرّ تفسير الهداية⁽¹⁾ وما يتعلق به.

والتقوى - على ما قال⁽²⁾ علي رضي الله عنه - ترك الإصرار على المعصية، والاغترار بالطاعة⁽³⁾،

[14]، والمتقي اسم فاعل من قولهم: وقاه / فاتقى، والوقاية: فرط الصيانة. وقيل: المتقي⁽⁴⁾ من سلك سبيل المصطفى، ونبذ الدنيا وراء القفا، وكلف نفسه الإخلاص والوفاء، واجتنب الحرام والجفاء، ولو لم يكن فضل إلا ما فهم من هنا لكفى⁽⁵⁾، فإنه تعالى بين في موضع أن القرآن هدى للناس⁽⁶⁾، وقال هنا: ﴿هُمُ الْمُتَّقِينَ﴾، فكأنه يقول: إن المتقين هم كل الناس، فمن لا يكون متقيا ليس منهم، ولما كان معنى قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ للذين يتقون، صح أن يكون قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾⁽⁷⁾ موصولة بالمتقين⁽⁸⁾ على أنه صفة مجرورة، أو مدح منصوب بتقدير: أعني⁽⁹⁾، أو مرفوع بتقديرهم⁽¹⁰⁾.

(1) انظر تفسيره لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿اهدنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الآية: 6 من سورة الفاتحة).

(2) انظر: التفسير الكبير: 2 / 23.

(3) ح: على الطاعة.

(4) انظر: جامع البيان: 1 / 233، وتفسير ابن كثير: 1 / 39.

(5) ح: فكفى.

(6) من الآية: 184 من سورة البقرة.

(7) أي يصدقونك بما جئت به من الله جل وعز، وما جاء به من قبلك من المرسلين لا يفرقون بينهم ولا يجحدون ما جاء وهم به من عند ربهم. (جامع البيان: 1 / 105).

(8) ح: للمتقين.

(9) ح: أعني أو أمدح.

(10) انظر: إملاء ما من به الرحمن، ص: 18، والبيان للأنباري: 1/46، ومشكل إعراب القرآن: 1 / 74.

وأما فصله عنه على أنه مرفوع بالابتداء مخبر عنه بـ ﴿لَوْلَيْكَ عَلَى هُنَّ﴾ فضعيف، لانفلاته مما قبله، والذهاب به مذهب الاستئناف، مع وضوح اتصاله بما قبله وتعلقه به، ومبنى⁽¹⁾ الاستئناف على تقدير أن يسأل: ما بال المتقين مخصوصين بذلك؟! فلا يتم الجواب إلا بمجموع القصتين، فيكون القطع بينهما لكمال الاتحاد، والظاهر أنه لكمال الانفصال في الغرض والأسلوب، على ما شهد لذلك تصدير القصة الثانية بأن المشعرة⁽²⁾ بالأخذ في فن آخر.

والإيمان⁽³⁾: إفعال، من الأمن. يقال: آمَنْتُه، وآمَنِيهِ⁽⁴⁾ غيري، ثم نُقل إلى التصديق فقليل: آمنه التكذيب والمخالفة، ثم ضَمَّنَ معنى أقرّ واعترف، فعَدَّى بالباء.

﴿بِالْغَيْبِ﴾: أي بما غاب عن الحسّ والعقل غيبة كاملة، حيث لا يدركه واحد منهما لا بالبديهة ولا بالاستدلال، يعني أحوال البعث والجنة والنار كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلْمَسْكِينِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْغَيْبِ﴾⁽⁵⁾، ولقوة غيبته - حيث غاب عن مظهري الحسّ والعقل - عبّر عنه بالمصدر كما يقال لمن بلغ الغاية في العدالة: (عَدْلٌ)⁽⁶⁾، ولكماله في معنى الغيبة - حيث لم يمكن استحضاره لا بالبديهة ولا بالنظر - عرّف بتعريف الجنس، كأنّ معنى الغيبة إنما تم فيه، وباقي الغائبين بمنزلة الشاهد

(1) ح: ومنه.

(2) ح: المشتق.

(3) قال الراغب: يقال: آمَنْتُه: أي جعلت له الأمن. (مفردات الراغب، ص: 25، مادة: أمن).

(4) ح: وأمنة.

(5) الآيات: 22 و23 و24 و25 من سورة المعارج.

(6) سقط من ح.

نظرا إليه، ففيه إشارة إلى قوة تصديقهم برسول الله عليه السلام⁽¹⁾، ووفور اعتقادهم بنبوته، حيث صدّقه في أخبار لا طريق إلى العلم بصدقها، لا بالحس ولا بالعقل، لا بالبداهة ولا بالكسب، وعدم التعرض للتصديق بالمبدأ للتنبيه على أن شأنه تعالى أظهر الأمور، بحيث كان التصديق به تصديقا بأجلى المعلومات، فلا يناسب ذكره في مقام المدح بالتصديق بأخفى المجهولات، وفيه نفي على الدهرية⁽²⁾ على وجه أبلغ.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: إقامة الشيء جعله قائما، والقيام⁽³⁾ انتصاب القامة، ولما كانت

[51] هيئة / الانتصاب أكمل هيئات من له القامة وأحسنها، استعيرت الإقامة للتكميل والتحسين، ومنه أقام⁽⁴⁾ الأمر إذا أتمه وجاء به معطى حقوقه، وأيضا لما كان استعمال من له القامة بإقامتها⁽⁵⁾ استعيرت الإقامة للاستعمال أيضا، ومنه: أقام القوم سيوفهم إذا استعملوها ولم يعطّلوها. فالمعنى على الأول: يعدّلون أركانها، ويكّمّلون⁽⁶⁾ حدودها، وعلى الثاني: يحافظون عليها في مواقيتها ولا يعطّلونها. والصلاة: الأذكار المعروفة، والأفعال المشهورة، وأصلها الدعاء؛ قال الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾⁽⁷⁾، أي ادع لهم، وفيما نقلها الشرع إليه اشتمال على الدعاء.

(1) ح: ﷺ.

(2) دهري: ملحد لا يؤمن بالآخرة. (اللسان: دهر).

والدهرية: هم الذين يسمون بمعطلة العرب، صنف منهم من أنكر الخالق والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المحيي، والدهر المفنى. (الملل والنحل: 2 / 582).

(3) قال الراغب: وإقامة الشيء: توفية حقه، وقال: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل﴾، أي توفون حقوقهما بالعلم والعمل. (ص: 418، مادة: قوم).

(4) في ع: إقامة.

(5) ح: وإقامتها.

(6) ح: ويكّمون.

(7) من الآية: 104 من سورة التوبة.

وفائدة الإطناب بزيادة الإقامة التنبيه على أنه لم يرد إيقاعها فقط، ولهذا لم يأمر بالصلاة، ولم يمدح بها⁽¹⁾ إلا بلفظ الإقامة نحو: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾⁽²⁾، ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾⁽³⁾، ولم يقل: وللمصلين⁽⁴⁾ إلا في المنافقين حيث قال: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾⁽⁵⁾، ومن ثمة قيل: المصلون كثير، والمقيمون لها قليل⁽⁶⁾، كما قال⁽⁷⁾ عمر⁽⁸⁾ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الحاج قليل، والركب كثير».

وكثير من الأفعال التي حث الله تعالى على توفية حقه ذكره بلفظ: «الإقامة» نحو: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾⁽⁹⁾، ﴿وَأَقِيمُوا الزُّنْزَ بِالْقِسْطِ﴾⁽¹⁰⁾، ولما كان المعنى: يعبدون الله تعالى بكل من نوعي العبادة البدنية والمالية عقبه بقوله: ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾⁽¹¹⁾، وقدم ما هو الأشق، وبالتقديم أحق لأنه أم العبادات، وعماد الدين، و(إنما)⁽¹¹⁾ لم يقل: ويؤتون الزكاة لئلا يختص المدح بالأغنياء، وأيضا لما ذكر البدنية مطلقة شاملة للواجبة منها وغير الواجبة، ناسب أن يذكر المالية أيضا على وجه الإطلاق.

(1) ع: به.

(2) من الآية: 114 من سورة هود، من الآية: 78 من سورة الإسراء.

(3) من الآية: 162 من سورة النساء.

(4) ع: والمصلين.

(5) من الآية: 5-4 من سورة الماعون.

(6) انظر: مصنف عبد الرزاق: 5 / 19.

(7) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه عن ابن عمر: 5 / 19.

(8) هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قُزَظ بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي القرشي العدوي، أبو حفص... أمير المؤمنين. (أسد الغابة: 4 / 145). وكانت ولادته سنة 40 قبل الهجرة، ووفاته سنة 23 هـ. (الأعلام: 5 / 45).

(9) من الآية: 66 من سورة المائدة.

(10) من الآية: 7 من سورة الرحمن.

(11) سقط من ح.

والرزق⁽¹⁾: اسم لكل ما ينتفع به الحيوان، وأصله الحظ والنصيب من أي نوع كان، ثم شاع (إطلاقه)⁽²⁾ على ما أعطى الله تعالى عبده ومكّنه من التصرف فيه، حلالاً كان أو حراماً لقوله عليه السلام: «لقد رزقك الله طيباً، فاخترت ما حرم الله عليك من رزقه مكان ما أحل الله لك من حلاله»⁽³⁾.

وأما ما قيل⁽⁴⁾: لو لم يكن الحلال⁽⁵⁾ رزقاً لم يكن المغذى به طول عمره مِرزوقاً، وليس كذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ خَلْقٍ فِي الرَّضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾⁽⁶⁾، فيرد عليه أن الملازمة مسلمة، وكذا⁽⁷⁾ بطلان التالي مسلم، إنما الشأن في وقوع المقدم فافهم.

نعم، هو محمول هاهنا على المباح دون المحظور بقريضة إضافته إلى الله تعالى، (فإن ما يضاف إليه تعالى)⁽⁸⁾ بخصوصه مفصلاً، حقه أن يكون خالياً عن الكراهة فضلاً عن الحرمة، وإن كان قد يضاف إليه الأفعال كلها على سبيل العموم والإجمال، وأما الحث على الإنفاق والمدح للمنفق، وكونه من المتقين، فإنما يصلح (قريضة)⁽⁹⁾ لكون المنفق مباحاً، ولا دلالة فيه على عدم كون الرزق الذي ذلك

(1) الرزق يقال للعطاء الجاري. (المفردات، مادة: رزق).

(2) سقط من ح.

(3) هذا الحديث في إسناده: بشر بن نمير البصري. قال عنه عبد الله بن أحمد: سألت أبي عن بشر بن نمير فقال: ترك الناس حديثه.

انظر: كتاب العلل للإمام أحمد: 2 / 28. وانظر التهذيب: 1 / 461، والميزان: 1 / 326. وانظر الحديث بكامله في سنن ابن ماجه، كتاب الحدود، باب المخنثين، حديث: 38 / 2 / 871-872.

(4) انظر: التفسير الكبير: 1 / 34.

(5) في ع: الحرام.

(6) من الآية: 6 من سورة هود.

(7) ح: وكذلك.

(8) سقط من ح.

(9) سقط من ح.

[16] المنفق بعض / منه مشتملا على الحرام.

وزيادة حرف التبعض للحث على الاقتصاد⁽¹⁾ المحمود، لأنه الجود الذي هو وسط بين الإسراف والإقتار؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾⁽²⁾، ففيه إخبار صريح في حق الغابرين، ونهي ضماني⁽³⁾ في حق الحاضرين، وأما التبذير فلا حاجة للاحتراز عنه إلى أداة التبعض، لأنه بمعزل عن مظنة المدح به، كيف؟! وهو حرام منهي عنه بأبلغ وجه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْلَوْنَ الشَّيَاطِينِ﴾⁽⁴⁾، بخلاف الإسراف فإنه قد شاع أنه لا إسراف في الخير، فكان مظنة أن يمدح به، ولما كان المدح باعتبار تخصيصهم الإنفاق بالبعض الحلال من رزقهم، لا بالإنفاق⁽⁵⁾ مطلقا، كان ذكر المفعول وتعيينه أهم من الإخبار عن نفس الفعل، فقدّمه⁽⁶⁾ عليه إظهارا للاهتمام به، والاعتناء بشأنه، ومحافظة على الفاصلة.

والإنفاق: صرف المال إلى الحاجة، لا إنفاده⁽⁷⁾ وإذهابه مطلقا، فالإحراق مثلا ليس بإنفاق.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾: هم مؤمنو أهل الكتاب⁽⁸⁾ كعبد الله بن سلام⁽⁹⁾ وأضرابه،

(1) ح: الاقتصاد.

(2) من الآية: 29 من سورة الإسراء.

(3) ح: ضمنا.

(4) من الآية: 27 من سورة الإسراء.

(5) ح: لا بإنفاق.

(6) ح: فقدم.

(7) ح: لا إنفاقه.

(8) انظر منهاج السنة النبوية: 1 / 11، وهم الذين نزل فيهم كتاب سماوي.

(9) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي، أبو يوسف: صحابي... أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة، أقام بالمدينة إلى أن مات سنة 43هـ. (انظر: الإصابة، رقم: 4725، والاستيعاب: 2 / 382، والأعلام: 4 / 90).

(معطوفون) ⁽¹⁾ على ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، داخلون معهم في جملة: ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ دخول أخصين تحت أعم، إذ المراد بأولئك الذين آمنوا وليسوا بأهل الكتاب، وبهؤلاء مقابلوهم، فكانت الآيتان الكريمتان تفصيلاً للمتقين، وإنما قدم غير الكتابي لأن تصديقهم بتلك المغيبات أغرب، إذ هم لم يسمعوا شيئاً منها إلى أن أخبر به النبي عليه السلام ⁽²⁾، فهم بالمدح بذلك الوصف أحق، ومن ذلك تبين وجه تخصيص التعبير بالغيب عن المصدق به في حقهم، مع أن متعلق التصديق لكلا الفريقين واحد. وظهر أن ما فصل بقوله: ﴿يَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية، هو بعينه ما عبر عنه إجمالاً بقوله ﴿بِالْغَيْبِ﴾.

﴿إِلَيْكَ﴾: أصله: إلّاك ⁽³⁾، قُلبَ فرقاً بين الإضافة إلى المكنى وغيره.

والإنزال: نقل الشيء من أعلى إلى أسفل، وهو إنما يلحق المعاني بتوسط حقوقه الذوات الحاملة لها، كما في إنزال القرآن، فإنه أنزل جملة من اللوح إلى سماء الدنيا، ثم نزل منها على لسان جبرائيل (عليه السلام) ⁽⁴⁾ منجماً على الرسول عليه السلام، أو للنقوش الدالة عليها كما في إنزال التوراة، فإنها قد أنزلت على موسى ⁽⁵⁾ عليه السلام مكتوبة على الألواح، فإن كان المراد جميع ما أنزل إليه عليه السلام إلى حين نزول هذه الآية كما هو الظاهر، فالأمر هيّن، فإن الإيمان ⁽⁶⁾ بالمتروك غير واجب، وذلك بين وإن كان المراد مجموع القرآن والشريعة، فمبناه على تنزيل المتروك منزلة النازل، لتحقيق وقوعه أو لارتباط بعضه ببعض، كالأشياء الواحد ونظيره،

(1) سقط من ح.

(2) ح: النبي عليه وسلم.

(3) خفض بإلى، والأصل: إلّاك، أُبدل من الألف ياء للفرق بين الألفات المتمكنة، والتي ليست بمتمكنة، ويلزمها الإضافة. (إعراب القرآن للنحاس: 1 / 183).

(4) سقط من ح.

(5) نبي الله موسى عليه السلام وقومه في كتاب: اليهودية لأحمد شلبي: 1 / 138.

(6) ح: حين لإيمان.

[17] وقولك: كل ما خطب به فلان فهو فصيح، ولا تريد به الماضي فقط، بل الآتي أيضا أو تغليب / النازل على ما لم ينزل.

وفي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إشارة إلى أن القرآن غير متفاوت الأبعاد في البلوغ إلى حد الإعجاز، فمن آمن بعضه يؤمن كله لا محالة، والعدول عن صيغة الماضي إلى المستقبل لما فيه من الحدوث التجديدي المتضمن للإشارة إلى أن إيمانهم بما أنزل إليه عليه السلام يتجدد (بحسب) ⁽¹⁾ تجدد نزول الآيات والأحكام، وإلى أن إيمانهم بما أنزل من قبله إيمان حادث، لا إيمان ثابت، لأن إيمانهم السابق إنكار له في الحقيقة، لا تصديق به. وقدم الإيمان بما أنزل إليه لأصالته، حيث كان صحة إيمانهم بما أنزل من قبله في ضمن الإيمان بما أنزل إليه وبسببه، ولهذه النكتة لم يكرر الباء في قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، كما كرر في ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ⁽²⁾. والمراد بذلك ما أنزل على الأنبياء الذين كانوا قبل محمد ⁽³⁾ عليه وعليهم ⁽⁴⁾ السلام، والإيمان به واجب إجمالا، لأن الله تعالى ما تعبدنا الآن به حتى يلزمننا معرفته تفصيلا. نعم، إن عرفنا شيئا من تفاصيله فهناك يجب علينا الإيمان بتلك التفاصيل.

﴿وَالْآخِرَةُ﴾ ⁽⁵⁾⁽⁶⁾: تأنيث الآخر صفة للدار كما في قوله تعالى:

(1) سقط من ح.

(2) من الآية: 7 من سورة البقرة.

(3) هو محمد رسول الله ﷺ، وهو ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، من قريش، من عدنان، من أبناء إسماعيل بن إبراهيم الخليل النبي العربي. كانت ولادته سنة 53هـ، ووفاته سنة 11هـ. (الأعلام: 6/218).

(4) ح: وعليه.

(5) ح: ﴿وَالْآخِرَةُ هُمْ﴾.

(6) قال أبو جعفر: أما الآخرة فإنها صفة للدار كما قال جل ثناؤه: ﴿وَالْدارُ الْآخِرَةُ لَهِيَ الْخَيْرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (من الآية: 64 من سورة العنكبوت)، وإنما وصفت بذلك لمصيرها آخرة لأولى كانت قبلها. (جامع البيان: 1/ 105).

(﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾⁽¹⁾، أو النشأة)⁽²⁾ كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾⁽³⁾، سميت بذلك لأنها متأخرة عن الدنيا أو النشأة الأولى زمانا، وقيل⁽⁴⁾ للدنيا دنيا لأنها⁽⁵⁾ أدنى من الآخرة رتبة.

﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾⁽⁴⁾: تقديم الظرف للقصر عليه كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَلْسَ اللَّهُ فُتُشُونَ﴾⁽⁶⁾، وتقديم المسند إليه وهو ضمير مع بناء الفعل عليه أيضا للقصر عليه كما في قولك: أنا سعت في حاجتك، والقصران إضافيان كما هو الغالب في استعمالات البلغاء، والمعنى المستفاد من القصر الأول (أن)⁽⁸⁾ إيقانهم مقصور على حقيقة الآخرة، لا يتعدّها إلى ما هو على خلاف حقيقتها، وتعريض سائر أهل الكتاب، وبما هم عليه من أمر الآخرة، والمعنى المستفاد من القصر الثاني أن الإيقان المذكور لا يتعدّاهم إلى غيرهم، وهذا تصريح بأنهم على جهالة في أمر الآخرة، والإيقان (إتقان)⁽⁹⁾ العلم بإزالة الشك والشبهة عنه، فاليقين⁽¹⁰⁾ هو العلم بالشيء بعد أن كان صاحبه شاكا فيه، ولذلك لا يطلق على علمه تعالى.

(1) من الآية: 82 من سورة القصص.

(2) سقط من ح.

(3) من الآية: 19 من سورة العنكبوت.

(4) انظر اللسان: دنا.

(5) ع: لأنه.

(6) في ع وح: إلى الله، والمثبت من القرآن الكريم.

(7) من الآية: 158 من سورة آل عمران.

(8) سقط من ح.

(9) ساقط من ح.

(10) اليقين: العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر، وقد أيقن يوقن إيقانا، فهو موقن، وَيَقِنَ يَقَنًا، فهو يَقِنٌ. واليقين: نقيض الشك. (اللسان، مادة: يقن).

قال الإمام⁽¹⁾: ويقال ذلك في العلم الحادث بالأمر، سواء كان ذلك العلم ضرورياً أو استدالياً، فيقول القائل: تيقنت ما أردته بهذا الكلام، وإن كان قد علم مراده بالاضطرار، ويقول: تيقنت أن الإله واحد وإن كان قد علمه بالاكتساب⁽²⁾.

﴿لَوْلَيْكَ﴾: أي أهل هذه الصفات، فيبتنى الحكم على الوصف، فينتفي بانتفائه، وهذا معنى الاختصاص، وأولاء كلمة معناها الكناية عن جماعة⁽³⁾ نحوهم، جمع لا واحد له من لفظه، بُني [18] على الكسر، والكاف للخطاب، والجملة استئناف لا محل لها، فكأنه / نتيجة⁽⁴⁾ الأحكام والصفات المتقدمة.

﴿عَلَى هُتَي﴾: مثل لتمكنهم من الهدى، شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه، ونكر ﴿هُتَي﴾⁽⁵⁾ ليفيد⁽⁶⁾ ضرباً مبهماً (لا)⁽⁷⁾ يبلغ كنهه، نحو: لقد وقعت على لحم، ومعنى كونهم على الهدى: تمسكهم بموجب الدلائل، لأن الواجب على المتمسك بالدليل أن يدوم على ذلك، فكأنه تعالى لما مدحهم بالإيمان بما أنزل⁽⁸⁾ الله عليه أولاً، مدحهم⁽⁹⁾ بالإقامة على ذلك ثانياً.

(1) قوله: قال الإمام، هو الإمام الرازي، وهو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، أصله من طبرستان، ومولده في الري، ونسبته إليها. ألف في التفسير والكلام والإلهيات والهندسة والفلسفة. توفي رحمه الله سنة 606هـ. (انظر ترجمته في: البداية والنهاية: 13 / 55، وطبقات الشافعية: 5 / 33، ولسان الميزان: 4 / 426، وتاريخ آداب اللغة: 3 / 94، والأعلام: 7 / 203).

(2) ح: اكتساباً.

(3) ح: الجماعة.

(4) ح: يتجه.

(5) انظر: الكشف: 1 / 144-145.

(6) ح: تفيد.

(7) سقط من ح.

(8) ح: نزل.

(9) ح: مدحهم مدحهم.

﴿مَنْ رَزَقَهُ﴾: نفي الكسب⁽¹⁾، وإثبات كونه بمحض العناية والعطاء، كالشيء الذاتي المقارن لوجودهم في أول الكون، وفيه زيادة تعظيم لتلك الهداية، وإضافة الرّب إليهم للتشريف، فكما يفيد إضافة العبد إليه تعالى تشريفه، فكذلك إضافته تعالى إليه يفيد، بل ذلك أقوى إفادة له.

﴿وَأُولَئِكَ﴾: أعاد اسم الإشارة تنبيها على أن المقتضي للفلاح أيضا هو⁽²⁾ (اتصافهم)⁽³⁾ بتلك الصفات، وأن كل واحدة من الأثرين لهم بالاستقلال والانفراد، لا بتبعية إحداهما للأخرى، ولو انفردت إحداهما لكفّت في تفوقهم بالكمال، وأنافتهم على غيرهم، وتوسيط العاطف لتناسبهما في الوجوه، حيث كان أحدهما علة للآخر، وتغايرهما في المعنى المقصود، فإن الهدى حاصل في الدنيا، والفلاح في الآخرة، فالجملتان متوسطتان بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع بخلاف، كالأنعام والغافلون، فإنهما شيء واحد بحسب المقصود والمآل، وإن تعدّدا بحسب اللفظ والمفهوم.

﴿هُمُ الْمَفْلُحُونَ﴾⁽⁵⁾: هم: فصل يفصل الخبر عن الصفة، ويؤكد النسبة، ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه، أو مبتدأ، والمفلحون: خبره، والجمله خبر أولئك⁽⁴⁾.

والمفلح: الظافر⁽⁵⁾ بمطلوبه⁽⁶⁾، والفلاح⁽⁷⁾: الخير المقطوع. ومنه يقال:

(1) ح: مع الكتب.

(2) ح: هو أيضا.

(3) سقط من ح.

(4) انظر: إملاء ما من به الرحمن: 21.

(5) ح: الظاهر، وهو تحريف.

(6) ح: بمطلوب.

(7) قال الراغب: والفلاح: الظَّفَر وإدراك بغية. (المفردات، مادة: فلاح).

الفلاح للمكاري⁽¹⁾ والأكار لقطعهما⁽²⁾ الأرض في الكراء والكراب⁽³⁾، وفي المثل: «الحديد بالحديد يُفْلَحُ»⁽⁴⁾، أي يُقْطَع ويُصْلَح. والتعريف للدلالة على أن المتقين هم الناس الذين⁽⁵⁾ بلغك أنهم المفلحون في الآخرة، أو الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصوصياتهم، ولا دلالة في الآية على خلود⁽⁶⁾ الفساق من أهل القبلة⁽⁷⁾ في العذاب، لأن الفائز بمطلوبه في الآخرة من زُحِر عن النار وأُدخل الجنة، فالمعذب بالنار وإن لم يُخْلَد فيها غير مُفْلَح⁽⁸⁾. نعم، لو قيل: إن فيها دلالة على أن الفاسق، بل تارك الصلاة، وإن كان تائباً لا بد له من العذاب، لاحتيج في جوابه إلى أن يقال: إن المراد بالمفلحين الكاملون في الفلاح.

(1) أورده صاحب مجاز القرآن عند حديثه عن «المفلحون»، فقال: والفلاح: الأكار، وإنما اشتق من: يَفْلَحُ الأرض، أي يشقها ويشيرها... والفلاح: هو المكاري في قول ابن أحمر أيضاً:

لَهَا رَطْلٌ تَكِيلُ الزَيْتِ فِيهِ وَفَلَّاحٌ يَسُوقُ لَهَا حِمَارًا

وفي اللسان: الفلاح المكاري، وإنما قيل الفلاح تشبيهاً بالأكار. (اللسان: فلاح).

انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1 / 30، عارضه بأصوله وعلق عليه: محمد فؤاد سزكين.

ابن أحمر: هو عمرو بن أحمر الباهلي، شاعر إسلامي يكنى أبا الخطاب. (انظر ترجمته في: الإصابة، رقم: 6466)، والبيت في الجمهرة: 2 / 177، واللسان في مادة: فلاح.

(2) ع: لقطعها.

(3) في الصحاح: كَرَبْتُ الأرض: إذا قَلَبْتُها للحِث. وفي المثل: «الكراب على البقر». (الصحاح: كرب).

(4) هو في أصله بيت شعري:

قَدْ عَلِمْتُ خَيْلُكَ أَنِّي الصَّحْصُحُ إِنَّ الْحَدِيدَ بِالْحَدِيدِ يُفْلَحُ

أي يشق ويقطع. (اللسان: فلاح).

أما ابن دريد فقد ذكره بصدر آخر ويدون عزو، قال:

حَتَّى تَرَى جَمَاجِمًا تَطُوحُ إِنَّ الْحَدِيدَ بِالْحَدِيدِ يَفْلَحُ

انظر: ابن دريد: 2 / 177.

(5) ح: الذي.

(6) انظر: الكشف: 1 / 145-147.

(7) هم الطوائف المنتسبون إلى القبلة. (انظر منهاج السنة النبوية: 1 / 300).

(8) انظر: جامع البيان: 1 / 107-108.

﴿إِنَّ الْغَيْنَ كَقُرْءٍ﴾: لما انجرَّ الكلام في تقدير ما سيق له إلى ذكر خاصة عباده وخلاصة أوليائه بصفاتهم (التي) ⁽¹⁾ أهلتهم للهدى والفلاح، قفى على أثره بذكر أضدادهم وهم العتاة المردة من الكفار، المطبوع على قلوبهم، بحيث لا ينجع فيهم الهدى ولا يجدي إليهم ⁽²⁾ اللطف [19] والدعوة والإنذار، وإنما / فصل بينهما لتباينهما في الغرض، فإن الأولى سقت لبيان شأن الكتاب، والثانية سوقها لشرح تمردهم وانهماكهم في الضلال، والتأكيد بـ «إِنَّ»، لأن الخبر قد بولغ فيه وعلل بما عسى أن يستنكر أو يستبعد ⁽³⁾. والتعريف للإشارة إلى ناس معهودين.

أخرج ابن جرير ⁽⁴⁾⁽⁵⁾ وغيره بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن المراد به الكفار من اليهود خاصة، وهو الظاهر بقريضة إيلائه المؤمنين من أهل الكتاب، ولأن السورة مدنية، وأكثر الخطاب في اليهود ⁽⁶⁾.

والكفر ⁽⁷⁾ - بالضم والفتح - (في اللغة) ⁽⁸⁾: الستر، ومنه سمي الزارع كافراً، فإنه يستر البذر، ونقل في الشرع إلى عدم قبول ما علم مجيء الرسول عليه السلام به، عقداً أو قولاً، لما فيه من ستر نور الفطرة

(1) سقط من ح.

(2) ع: عليهم.

(3) ح: ويستبعد.

(4) انظر: جامع البيان: 1 / 105-110.

(5) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر: المؤرخ المفسر الإمام. ولد في آمل طبرستان سنة 224هـ، واستوطن بغداد، وتوفي بها سنة 310هـ. (إرشاد الأريب: 6 / 423، وتذكرة الحفاظ: 2 / 351، والوفيات: 1 / 456، والبداية والنهاية: 11 / 145، وميزان الاعتدال: 3 / 35، ولسان الميزان: 5 / 100، وتاريخ بغداد: 2 / 162، وكشف الظنون: 436، والأعلام: 6 / 69).

(6) ح: فيها لليهود.

(7) قال الراغب: الكفر في اللغة ستر الشيء، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص، والزارع لستره البذر في الأرض... وأعظم الكفر جحود الوجدانية أو الشريعة أو النبوة. (مفردات الراغب، ص: 451، مادة: كفر).

(8) سقط من ح.

الأصلية الذي هو بذر الكمال، هذا هو الكفر المقابل للإيمان (المنجي، وأما الكفر المقابل للإيمان) ⁽¹⁾ الشرعي الذي لا بد فيه من الاحتراز عن أمارات عدم قبول ما ذكر، فيكفي في تحققه ⁽²⁾ وجود إحدى تلك الأمارات والأخبار بلفظ الماضي، نظرا إلى حال المخاطب، لأنه مقصود بالإفادة، والمتكلم ليس بزمانى، فلا يختلف الأخبار ⁽³⁾ بحسب دلالتها على الأزمنة الثلاثة نظرا إليه.

﴿مَوَلَّ عَلَيْهِمْ أَنْزَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْزِرْهُمْ﴾: أي مستو، عدل عنه مبالغة وإيثارا للاسم ⁽⁴⁾ على الوصف، لتجرده عن معنى الحدوث، وتمحضه للدلالة على الثبوت، والسواء ⁽⁵⁾: الاعتدال في الوسط، والوسط: الاعتدال في المقدار، ولكون ذلك الاستواء ضاراً لهم غير نافع قال: ﴿مَوَلَّ عَلَيْهِمْ﴾. ولم يقل: سواء لهم، والفعل في تأويل المصدر، وإنما عدل عنه لما في الفعل من إيهاهم التجدد، وحسن دخول الهمزة. وأم: عليه لتقرير معنى الاستواء وتأكيده، فإنهما جردتا عن معنى الاستفهام لمجرد الاستواء، والمعنى: سواء عليهم الإنذار وعدمه، فالإنذار وما عطف عليه مبتدأ في المعنى، وسواء: الخبر، والجملة خبر إن؛ وإنما قلنا إن «سواء» هو الخبر، لأن موضع الفائدة -الخبر والشك- إنما وقع في استواء الإنذار وعدمه، لا في نفي ⁽⁶⁾ الإنذار، ومن هنا خرج وجه العناية الداعية إلى تقديمه.

(1) سقط من ح.

(2) ح: في الحقيقة.

(3) زاد بعده في ح: بزيادة.

(4) ح: للام.

(5) سوا: المساواة المعادلة المعتبرة بالدرع والوزن والكيل. وفي الآية معناه: أي يستوي الأمران في أنها لا يُغنيان. (المفردات، مادة: سوا).

(6) في ع: نفس.

ولفظ⁽¹⁾ الاستفهام لا يمنع عن ذلك، إذ المعنى على اليقين⁽²⁾ والتحقيق، لا على الاستفهام، لما عرفت من أن الهمزة هنا مستعارة للتسوية. والإنذار: الإعلام بالتخويف.

وقال ابن عطية⁽³⁾⁽⁴⁾: ولا يكاد يكون إلا في تخويف يسع زمانه الاحتراز، فإن لم يسع زمانه الاحتراز كان إشعاراً، والاقتصار عليه لأن الكفار ليسوا أهلاً للبشارة المطلقة، والبشارة المعلقة على الإيمان ينقلب في حقهم إنذاراً، لأنهم مصرّون على الكفر، مصمّمون عليه، فينتظم الإنذار هذا القسم من البشارة في حقهم.

[20] ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾⁽⁶⁾: مفسرة (لإجمال)⁽⁵⁾ ما قبلها، فلا محل / لها [من الإعراب]⁽⁶⁾، أو خبر إن وما قبلها اعتراض، ولا دلالة في الآية على وقوع التكليف بما لا يطاق⁽⁷⁾، لأن الإخبار بوقوع الشيء أو عدمه لا ينفي

(1) ح: وتقديم.

(2) ح: التعيين.

(3) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، الغرناطي، أبو محمد، مفسر، وفقه أندلسي من أهل غرناطة، ولد سنة 481هـ، وتوفي بلورقة سنة 542هـ. (انظر: نفح الطيب: 1 / 593، وكشف الظنون: 439، وبغية الوعاة: 295، والأعلام: 3 / 282).

(4) انظر: المحرر الوجيز: 1 / 86-87، وفيه: والإنذار إعلام بتخويف، هذا حده. وأنذرت فعل يتعدى إلى مفعولين.

(5) سقط من ح.

(6) سقط من ع.

(7) ذهب العلماء إلى أن العبد لا يؤاخذ شرعاً إلا بما هو مقدور له، لكنهم اختلفوا في جواز تكليفه بما لا يطاق، وإليك مواقفهم:

ذهب الجمهور إلى امتناع التكليف بما لا يطاق، وذهب الأشاعرة وبعض الشافعية إلى إجازته. وذهب البعض الآخر إلى منع التكليف بالمستحيل لذاته، كالجمع بين الضدين، وذلك كإيجاب شيء وتحريمه على شخص واحد في وقت واحد، وهؤلاء أجازوا التكليف بالمستحيل لغيره. لكن العادة لم تجر بحصوله، كالصعود في السماء. والراجح والله أعلم ما ذهب إليه الجمهور. (انظر مواقف العلماء واستدلالاتهم في المصادر الآتية: الإحكام للأمدى: 1 / 69، الإيهام للسبكي: 1 / 171، تفسير الرازي: 2 / 42، أصول الفقه الإسلامي للزحيلي: 1 / 137، المستصفى للغزالي: 1 / 55).

القدرة عليه، واستحالة الكذب على الله تعالى اللازم على تقدير وقوع ما أخبر بعدم وقوعه، إنما يدل⁽¹⁾ على عدم وقوع الملزوم، لا على عدم كونه مقدورا، فإن استحالة اللازم لا تستلزم استحالة الملزوم.

وفائدة الإنذار بعد العلم (بأنه)⁽²⁾ لا ينجع إلزام الحجة، وحياسة⁽³⁾ الرسول عليه السلام فضل الإبلاغ، ولذلك حكم بالتسوية نظرا إليهم دون إليه عليه السلام.

ولما كان مظنة أن يسأل عن سبب الحكم السابق لغرابته، استؤنف الجواب عنه بقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾، الختم⁽⁴⁾ والطبع: الأثر الحاصل عن نقش، ويتجاوز به عن الاستيثاق⁽⁵⁾ من الشيء والمنع منه، نظرا إلى ما يحصل بالختم على الكتب والأبواب بالمنع، وقد يقال ذلك ويعني به بلوغ آخر الشيء، نظرا إلى أنه آخر فعل في إحراز الشيء، ومنه ختمت القرآن.

ولم يرد به هنا الختم في بدء الفطرة ليكون التكليف ضائعا، ويخالف ما روي عن النبي عليه السلام شائعا من «أن كل مولود يولد على الفطرة»⁽⁶⁾، أي على الخلقة القابلة للإسلام، ويخرج النفي عليهم شناعة صفتهم مخرج التشنيع على فاقد البصر بعدم الإبصار، بل أراد الختم بعدما أعرضوا عن الحق، وأصروا على (ذلك)⁽⁷⁾ على ما ورد

(1) ع: تدل.

(2) سقط من ح.

(3) ح: وصيانة.

(4) الذي في مفردات الراغب أن ختم: هو الختم والطبع. (ص: 142، مادة: ختم).

(5) ع: الاشتيثاق.

(6) انظر: فتح الباري، كتاب التفسير، باب: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، حديث: 4775: 8 / 512، وكتاب

القدر، باب: «الله أعلم بما كانوا عاملين»، حديث: 6599: 11 / 493.

وانظر: مسند أحمد: 2/315-346.

(7) سقط من ح.

في قوله تعالى: ﴿بَلْ لَّصَبَمَ اللَّهُ عَلَيَّمَا يَكْفُرُهُمْ﴾⁽¹⁾، وأفصح عنه ما روى⁽²⁾ ابن عمر⁽³⁾ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا، قال: الطابع⁽⁴⁾ معلق بقائمة العرش، فإذا اشتكت الرحم، وعمل بالمعاصي، واجترأ على الله، بعث الله الطابع فطبع على قلبه، فلا يعقل بعد ذلك شيئا، فالإسناد إليه تعالى مجازي، لكن المسند على حقيقته.

﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: أريد بالقلب⁽⁵⁾ محل القوة العاقلة من الفؤاد.

﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾: السمع محل القوة السامعة⁽⁶⁾ من الأذن، وكان في الأصل مصدرا، ولذلك وُحِدَ في مواضع الأمن عن اللبس، جريا على مقتضى الأصل، وإعادة الجار للدلالة على أن الختم على السمع بالاستقلال والأصالة، لا تبعا لختم القلب، لأن الختم على السمع لا يتبع الختم على القلب، بل الأمر على العكس، فإن الختم على السمع يتبعه الختم على القلب في الجملة، ولذلك ترك إعادة الجار، حيث قدّم ختم السمع على ختم القلب في قوله تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾⁽⁷⁾،⁽⁸⁾.

وأما ذكره في قوله ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾ فليس بإعادة، لأنه متعلق بما⁽⁹⁾ بعده، فإن الأبصار داخله في حكم (التغشية دون الختم، بخلاف الأسماع لقوله

(1) من الآية: 154 من سورة النساء.

(2) انظر: مسند أحمد: 193-163/2.

(3) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمن: صحابي، من أعز بيوتات قریش في الجاهلية... وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة سنة 73هـ، أما ولادته فكانت 10 قبل الهجرة. (الإصابة، ترجمة رقم: 4825، وابن خلكان: 1/246، والأعلام: 4/108).

(4) ح: الطابع مطبع.

(5) قال الجوهري: القلب: الفؤاد، وقد يعبر به عن العقل. (الصحاح، مادة: قلب).

(6) السامعة: الأذن. (الصحاح، مادة: سمع).

(7) في ع وح: قوله تعالى: ختم الله على سمعه وقلبه، والصواب ما هو مثبت.

(8) من الآية: 22 من سورة الجاثية.

(9) في ع: لما.

تعالى: ﴿وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَقَلْبِهِمْ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِمْ غِشَاوَةً﴾، وللوفاق على الوقف على سمعهم⁽¹⁾ دون قلوبهم⁽²⁾، ولأن الغشبية ليست بممانعة للسامعة عن الإدراك بخلاف الباصرة.

[21] ﴿غِشَاوَةً﴾⁽³⁾: رفع بالابتداء⁽⁴⁾، وتقديم الخبر للاهتمام، فإن / المقصود بالأخبار كونها على الأبصار، والعدول إلى الإسمية لإفادة الدوام والثبوت، تقوية لحكم الغشبية، وجبراً⁽⁵⁾ لنقصانه عن حكم الختم.

وقرى⁽⁶⁾ بالنصب عطفاً على المختوم من باب الاستغناء بأحد الفعلين عن الآخر، فإن العرب إذا اجتمع فعلاان متقاربان في المعنى، ولكل واحد متعلق على حدة، جوّزت ذكر أحدهما، وعطف متعلق الآخر المتروك على المذكور كقوله: متقلداً سيفاً ورمحاً، والمصير إلى تقدير فعل أو الحذف، والإيصال في مثل هذا من ضيق الفطن، ولولا الوفاق على الوقف على سمعهم، لجاز أن يكون غشاوة اسماً وضع موضع مصدر من معنى ختم، لأن معنى ختم غشى وستر، كأنه قيل تغشية على سبيل التأكيد، ويكون قلوبهم وسمعهم وأبصارهم مختوماً عليها مغشاة.

(1) سقط من ح.

(2) انظر: المكتفى: 159، ومنار الهدى: 32.

(3) رُفع بالابتداء والخبر. (مشكل إعراب القرآن: 1/76).

(4) ح: على الابتداء.

(5) ع: وخيراً.

(6) قرأ به عاصم على إضمار فعل، كأنه قال: وجعل على أبصارهم غشاوة. (انظر: مشكل إعراب القرآن: 1/77-76، وتفسير النسفي: 1/15).

وعاصم: هو ابن أبي النجود أحد القراء السبعة، تابعي، توفي سنة 128هـ. (انظر: طبقات ابن سعد: 320/6، والوفيات: 9/3، وميزان الاعتدال: 2/357، وطبقات القراء: 1/346).

ولما كان الختم والتغشية مسبباً⁽¹⁾ مما اقتترفوه، ناسب تعقيبه بوعيد وبيان لما يستحقونه، لا على وجه التقرير كيلا يتوهم أن ما سبق من الختم والتغشية سبب لذلك، فقل: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾⁽⁷⁾: اللام الجارة إذا اتصلت بالضمير غير الياء بنيت على النصب⁽²⁾، والعذاب: كل ما يمنع من المطلوب، يقال: عَذَبَ الرجل وعَذَبَ⁽³⁾: لم يأكل، غير صائم.

والعظيم⁽⁴⁾: شديد القوة⁽⁵⁾، ومنه العظم أو الزائد القدر، وذلك في الدنيا الإِسَارَ⁽⁶⁾، وفي العقبي النار، والمعنى أن تلك الطائفة مخصوصة من بين الطوائف بنوع من العذاب، على أن التنوين للتنويع⁽⁷⁾، كما في غشاوة، أي نوع من العذاب لا يتعارفه⁽⁸⁾ الناس، وفائدته التهويل، وتوصيفه بالعظيم تأكيد له، وتركه في الغشاوة تنبيها على الفرق بين مقامي التهويل، فإن الأول في أحوال الدنيا، والثاني في أحوال الآخرة، وكم بين الحالين⁽⁹⁾ وما فيهما من الهولين.

ثم بعد ذكر المؤمنين وأحوالهم، والكافرين وأفعالهم، ذكر المنافقين وأقوالهم وأعمالهم وخصالهم بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾: الناس: أصله أناس، جمع إنسان، ولذلك لا يستعمل إلا في معنى الجماعة⁽¹⁰⁾ كقوله

(1) ح: سببا.

(2) انظر: إملأ ما من به الرحمن: 22.

(3) قال الراغب: عَذَبَ الرجل: إذا ترك المأكل والنوم، فهو عاذب وعذوب. (المفردات، مادة عذب).

(4) العظيم: الذي جاوز قدره وجل عن حدود العقول حتى لا تُتَصَوَّرَ الإحاطة بكنهه وحقيقته. (اللسان، مادة: عظم).

(5) ح: والعظم: شدة القوة.

(6) في اللسان: الإِسَار: ما شُدَّ به، والجمع: أُسْر. (مادة: أسر).

(7) انظر: إملأ ما من به الرحمن: 22.

(8) ح: لا يتعارف.

(9) ح: الطالب الحالين.

(10) ح: جماعة.

تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ﴾⁽¹⁾، وقوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾⁽²⁾، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَفْئِسَ يَتَصَفَّرُونَ﴾⁽³⁾، فحذفت الهمزة، وعوض عنها حرف التعريف، وهي هنا للعهد، و«من» في قوله: ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ موصولة، والقول⁽⁴⁾ عبارة عن جملة ما يتكلم به المتكلم على وجه الحكاية، و«حَدَّ» يقول «نظرا إلى لفظة «مَنْ»، وجمع «من» نظرا إلى معناها. اعتبرت جهة وحدته عند ذكر مقالهم، وجهة تعدده عند بيان أحوالهم، إشارة إلى أنهم وإن كانوا متفرقين على عقائد شتى في الكفر الباطن، لكنهم مجتمعون على كلمة واحدة في إظهار النفاق.

[22] خص هذا الصنف من بين الأصناف بمبالغات وتشديدات، وأبرز / نَظَمَ قصتهم إبرازا⁽⁵⁾ غريبا، حيث قدّم الخبر على المبتدأ، وأبهمه غاية الإبهام، ووصفه⁽⁶⁾ بصفات عجيبة ليشوّق السامع إلى ذكر ما بعده من قبائحهم، ونكرهم نَعْيًا عليهم وتعجيبا من شأنهم، يعني أنظروا إلى هؤلاء الخبثة وقبيح ما ارتكبهوه! كيف اختصوا من بين سائر الناس بما لم يرض العاقل أن ينتسب إليه، ولما كانت فائدة الإخبار بكونهم من بعض الناس، استعظم أن يكون من جنسه من اختص بمثل هذه الصفات، فإنها لا تنافي الإنسانية، بحيث كان ينبغي أن لا يعدّ المتصف بها من جنس الإنس، ناسب تصدير الكلام (به)⁽⁷⁾ وإن كان حقه التأخير، وهذا النوع

(1) من الآية: 71 من سورة الإسراء.

(2) من الآية: 59 من سورة البقرة.

(3) من الآية: 58 من سورة النمل.

(4) والقول يستعمل على أوجه أظهرها أن يكون للمركب من الحروف المُبَرَّز بالنطق مفردا كان أو جملة. (المفردات، مادة: قَوْل).

(5) ح: إبراز.

(6) ع: وصفة.

(7) سقط من ح.

من الاعتبار اللطيف مداره على دلالة رابعة خطابية لا يعتبرها البليغ إلا بمعونة المقام، واقتضاء الحال، فلا يطالب بالاطراد.

وهذا الصنف أبغض الكفرة إلى الله تعالى، وأمقتهم عنده، لاستعدادهم للاهتداء⁽¹⁾ وإمكان⁽²⁾ قبولهم لذلك، لعدم انطفاء نور الفطرة فيهم⁽³⁾ مع بقائهم على الكفر، وخلطهم بالكفر تمويهها وتلبيسها واستهزاء وخداعا، وقصتهم عن آخرها معطوفة على قصة المصرين.

والاقتصار في وصف الكفار الصّرف المطبوع على قلوبهم على آيتين⁽⁴⁾، والإطناب⁽⁵⁾ في وصف المنافقين في ثلاثة عشر آية⁽⁶⁾، للإضراب عن أولئك صفحا، إذ لا ينجع فيهم الكلام، ولا يجدي لهم⁽⁷⁾ الخطاب، وأما المنافقون فقد ينجع فيهم التوبيخ والتعبير، وعسى أن يرتدعوا بالتشنيع عليهم، وتفظيع شأنهم وسيرتهم، وتهجين عاداتهم، وخبث نيتهم وسريرتهم، ويتنبهوا بتقبيح صورة حالهم، وتفضييحهم بالتمثيل لهم، وبطريقتهم، فتلين قلوبهم، وتنقاد⁽⁸⁾ نفوسهم بتزكي⁽⁹⁾ بواطنهم، وتضمحل رذائلهم، فيرجعون عما هم عليه، ويصيرون من المستثنين في

(1) ح: الاهتداء.

(2) ح: أو مكان.

(3) ح: فهم.

(4) وهما من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا... وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الآيتان: 6-7 من سورة البقرة.

(5) ح: وإطناب.

(6) وهي من قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ... إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الآية: 8 إلى الآية 20 من سورة البقرة. وهو قول مجاهد. (التفسير الكبير: 1 / 67).

(7) في ع: عليهم.

(8) ع: وينقاد.

(9) ع: وبتزكي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ⁽¹⁾ وَأَخْلَصُوا حِرْفَتَهُمَّ لِلَّهِ قُلُوبَهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽²⁾.

﴿أَمَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: أي يوم البعث، وتوصيفه بالآخر لتأخره عن الدنيا، والمراد صدقنا بالمبدأ والمعاد، وفيه إحاطة الإيمان بقطريه، وفي تكرير الجار ادعاء التصديق بكل منهما على الأصالة، وما قيل فيه إيدان بأنهم منافقون فيما⁽³⁾ يظنون أنهم مخلصون فيه، فكيف بما يقصدون به (النفاق)⁽⁴⁾؟! فإن القوم كانوا يهودا، وكانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيمانا كلا، إيمان لا اعتقادهم التشبه واتخاذ الولد، وأن الجنة لا يدخلها غيرهم، وأن النار لم تمسهم إلا أياما معدودة وغيرها، ويرون المؤمنين أنهم آمنوا مثل إيمانهم مبناه على أن يكون التصرف بتخصيصهما⁽⁵⁾ بالذكر في الحكاية دون المحكي، وذلك خلاف الظاهر، ثم إن تمشية ما ذكر على تقدير أن لا يكون مرادهم من الإيمان بالله وباليوم الآخر التصديق بجميع ما لا بد منه في دين الإسلام، والظاهر خلافه على ما مر الإشارة إليه.

[23] ثم إن بيانه بقوله / فإن القوم كانوا (الخ)⁽⁶⁾، إنما يفيد أنهم مخطئون فيما يعتقدون أنهم مصيبون فيه، لا أنهم منافقون فيما يظنون أنهم مخلصون فيه، لأن الخطأ لا يستلزم النفاق، وذلك ظاهر، بل نقول: شرط النفاق الكتم، وهم لا يكتُمون ذلك.

(1) في ع: (واعتصموا بحبل الله)، وهو تحريف، والمثبت من القرآن الكريم.

(2) الآية: 145 من سورة النساء.

(3) ح: مما.

(4) سقط من ح.

(5) ح: بتخصيصها.

(6) سقط من ح.

﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨﴾⁽¹⁾⁽²⁾: «ما» نائبة عن «ليس»، ولهذا أعقبت بالباء والضمير للمعهودين، والمعنى نفي ما انتحلوا إثباته، ولأجل التأكيد والمبالغة في نفي إيمانهم، جاءت الجملة المنفية اسمية مصدرية بهم، وسلط⁽³⁾ النفي على اسم الفاعل الذي ليس مقيدا بزمان، ليشمل⁽⁴⁾ (النفي)⁽⁵⁾ جميع الأزمان، ويجرد الكلام للدلالة على ما سيق له، ولم يؤت بشيء زائد عليه إلا ما يشد من عضد كحرف الباء لتأكيد النفي وإطلاق الإيمان في سياق النفي، وكان مقيدا في الإثبات، لأنه غير متجزئ، فمن أخل ببعض ما لا بد منه ليس بمؤمن أصلا، لا أنه مؤمن ببعض دون آخر.

والآية الكريمة لا تنتهض حجة على الكرامية⁽⁶⁾، لأنهم⁽⁷⁾ يشترطون في كون الشهادتين إيمانا عدم مخالفة القلب للسان أعم من أن يكون موافقا له، أو فارغا عنهما، لأن احتجاجهم بأنه تواتر أن الرسول عليه السلام، والصحابة (رضي الله عنهم)⁽⁸⁾ والتابعين رضي الله عنهم⁽⁹⁾

(1) هم المنافقون، وكانوا جماعة من الأوس والخزرج، رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، يظهرون الإسلام، ويسرون الكفر. (انظر: التسهيل: 1 / 64).

(2) ﴿هَمْ﴾: اسم ﴿مؤمنين﴾ الخبر، والباء زائدة دخلت عند البصريين لتأكيد النفي، وهي عند الكوفيين دخلت جوابا لمن قال: إن زيدا لمنطلق، فما بإزاء إن، والباء بإزاء اللام، إذ اللام لتأكيد الإيجاب، والباء لتأكيد النفي. (مشكل إعراب القرآن: 1 / 77).

(3) ح: وسلطوا.

(4) ح: يشمل.

(5) سقط من ح.

(6) والكرامية بخراسان ثلاث فرق: حقائقية، وطرائقية، وإسحاقية. لكن هذه الفرق الثلاث منها لا يكفر بعضها بعضا، فعددها كلها فرقة واحدة. وزعيمها المعروف محمد بن كرام، وفضائحهم كثيرة. (انظر التفصيل في هذا في: الفرق بين الفرق، ص: 215 وما بعدها).

(7) ع: لا لأنهم.

(8) سقط من ح.

(9) ح: رضوان الله عليهم أجمعين.

(حينئذ) ⁽¹⁾ كانوا يقنعون بالكلمتين ممن أتى بهما، ولا يستفسرون عن علمه وتصديقه القلبي وعمله، فيحكمون بإيمانه بمجرد الكلمتين، فعلمنا أنه الإيمان بلا علم ولا عمل ⁽²⁾ صريح في عدم الاشتراط بالقيّد المذكور، بل لأن كلامهم على ما دلّ (عليه) ⁽³⁾ سياق احتجاجهم في الإيمان الشرعي المعتبر عندنا ⁽⁴⁾ في إجراء أحكام الإسلام في الدنيا، لا الإيمان الحقيقي المعتبر عند الله تعالى، المنجي عن الخلود في النار، فلا يندفع قولهم بالإجماع على أن المنافق كافر، ولا بالإجماع على أن من همّ بالشهادتين ⁽⁵⁾ فمنع مانع من خرس أو خوف مؤمن.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾: يعني رسوله، فالتجوز في الإسناد تفخيما لشأنه عليه السلام، وتنبيها على أن المعاملة معه فيما يتعلق بالرسالة معاملة مع المرسل في الحقيقة، وكونهم من أهل الكتاب العارفين بأنه تعالى لا ينخدع، فلا يناسبهم قصد خداعه، وإنما يناسبهم قصد خداع الرسول، لأنهم ينكرون نبوته، كفى قرينة للمجاز.

والمعنى: يعملون له عمل المخادع، والخداع: إظهار ما يخالف ⁽⁶⁾ الإضرار ⁽⁷⁾، ويراد به التغرير، ومنه الأخدعان لاستتارهما تارة وظهورهما أخرى، وأنه مفاعلة من واحد، نحو: طارقت النعل، وعاقبت اللص، وما في الصيغة من المبالغة للإفصاح ⁽⁸⁾ عن بلوغهم الغاية في وجهي النفاق،

(1) سقط من ح.

(2) ح: وعمل.

(3) سقط من ح.

(4) انظر: الكشف: 1 / 170، والفتح: 1 / 46.

(5) ح: بشهادتين.

(6) ح: ما يخاف.

(7) ع: لإضرار.

(8) ع: لإفصاح.

لأنه بيان لـ «يقول»، تابع لصلة «من»، أو لا محل له من الإعراب في موضع الاستئناف بذكر ما هو الغرض منه، كأنه سئل عن أصل دعواهم، وعن كيفية مبالغتهم فيه المنفهمة من ذكر الإيمان بقطريه، وتكرير الباء، فأجيب عنهما معا عن الأصل بالأصل، وعن

[24] الوصف بالوصف، وعلى تقدير اعتبار الخداع من الجانبين يزيد البيان / على قدر الحاجة، ويفصل⁽¹⁾ الكلام على مقتضى المقام.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: يجوز أن يكون ذكر الله (تعالى)⁽²⁾ توطئة، والمراد مخادعة المؤمنين من قولهم: أعجبنى زيد وكرمه، وفائدة هذه الطريقة بيان قوة اختصاصهم، وكونهم من الله تعالى بمكان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾⁽³⁾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْخَذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾⁽⁴⁾.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾⁽⁹⁾: نفس الشيء ذاته، وهي من النفاسة. يقال: خادع⁽⁵⁾ إذا لم يبلغ مراده، وخدع إذا بلغ مراده، فلما لم ينفذ خداعهم فيما قصدوا كان مخادعة، ولما وقع ضرر فعلهم على أنفسهم كان في حق أنفسهم خدعا، أي لم يرجع وبال خداعهم إلا إليهم، لأنهم لما سلكوا مسلك الخداع نزلوا بقدوم النفاق الدرك الأسفل من النار، فكانت مفسدة خداعهم راجعة إلى أنفسهم. والواو عاطفة الجملة على الجملة.

(1) ع: ويفضل.

(2) سقط من ح.

(3) من الآية: 62 من سورة التوبة.

(4) من الآية: 57 من سورة الأحزاب.

(5) خَدَعَهُ يَخْدَعُهُ خَدْعًا وَخِدَاغًا أَيضًا بِالْكَسْرِ: أَي خَتَلَهُ وَأَرَادَ بِهِ الْمَكْرُوهَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ. وَخَادَعٌ: أَي مَتْلُونٌ، وَيُقَالُ: سُوِّقَهُمْ خَادَعَةً: أَي مُخْتَلَفَةً مَتْلُونَةً. (الصحاح: خدع).

وفي ﴿مَا يَشْعُرُونَ﴾ واو الحال أو بالعكس، والشعور هو الإدراك الحسي، ومشاعر الإنسان حواسه الظاهرة والباطنة، أي ما يحسون أن ضرر الخداع لا يلحق إلا بهم لتمام غفلتهم، فإنه من شدة ظهوره كالمحسوس المشاهد، فكأنه لا حس لهم أصلاً، وليس نفي الشعور هنا كنفية في قوله تعالى: ﴿لَا يَخْصِمُكُمْ⁽¹⁾ مَلِيَمَانٌ وَخَنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ⁽²⁾﴾، لأنه لبيان⁽³⁾ العذر من جهتهم، وهذا التعظيم⁽⁴⁾ الأمر على المنافقين، وأنهم مع جهلهم يجهلون جهلهم، كما قال:

جهلت، ولم تعلم بأنك جاهل وذاك لعمرى من تمام الجهالة⁽⁵⁾

﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾: أثر حرف الظرف على أداة الملابس، ليدل على الاستقرار⁽⁶⁾ والرسوخ.

﴿مَرَضٌ﴾: أي تردد واضطراب، استعير المرض للعرض النفساني، وتنكيره للتنويع، أي نوع مرض ليس ما يتعارفه الناس، شبههم بمرضى لاضطرابهم في الدين، لأنهم كانوا يُظهرون الموافقة للمؤمنين بالقول، ويُضمرون لهم الخلاف بالقلب، فكأن حالهم كحال المريض، إذ هو مشرف على الموت، وترجى⁽⁷⁾ الإقبال منه ثانياً.

(1) ع: ولا يحطمنكم، وهو تحريف.

(2) من الآية: 18 من سورة النمل.

(3) ح: بيان.

(4) ع: التعظيم.

(5) هناك بيت قريب منه، نسب للخليل، وهو:

جهلت فلم تدري بأنك جاهل وإنك لا تدري بأنك لا تدري

(تاريخ بغداد: 8/374).

(6) ح: الاستمرار.

(7) ح: ويرجى.

وأما سائر الكفرة فإنهم لم يضطربوا في الدين، بل أظهروا بالقول ما أضمروا بالقلب، فسماهم تعالى موتى، وسمى المؤمنين أحياء، لأنهم اطمأنوا على الإيمان قولاً وعقيدة.

﴿فَرَلَهُمُ اللَّهُ مَرْضًا﴾: بتكرير الوحي وازدياد التكليف، ولا تجوز في الإسناد كما توهم من لا يرى صدور القبيح⁽¹⁾ عنه تعالى، ولا يدري أن القبح⁽²⁾ بالنسبة إلى الكاسب لا بالنسبة إلى الفاعل، وأصل الكلام: فزاد الله مرضهم، وإنما عدل إلى ما في النظم لنكتة سرية، فلا دلالة في تنكير المرض الثاني على مغايسته للأول حقيقة، كيف وفي تصدير الكلام بالفاء دلالة على تفرع⁽³⁾ الثاني على الأول؟!

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي مؤلم، نحو: سميع وخصيب بمعنى مسمع ومخصب، ذكره

[25] الراغب⁽⁴⁾، وصف به العذاب للمبالغة، وإنما وصف عذاب المختوم على قلوبهم / بالعظم، لأنهم حُرِّموا عن جدوى المشاعر، وحُجِّبوا عن عالم النور، وحبسوا في سجون الظلمات، فما أعظم عذابهم وإن لم يُحسَّوا بإيلامهم كعضو الميت والمفلوج⁽⁵⁾، وعذاب المنافقين بشدة الإيلام، لأن مشاعرهم غير مأوفة⁽⁶⁾ لعدم انطفاء نور فطرتهم، والألم بقدر إدراك المؤلم، فلمنافاة نور استعدادهم لما رسخ فيهم من الرذائل والملكات الرديئة والصفات الظلمانية يتألمون، وكأن إدراكهم لذلك أشد

(1) وفعل القبيح يستلزم إما الجهل وإما الحاجة، وهما محالان على الله، والمفضي إلى المحال محال. (التفسير الكبير: 2 / 47).

(2) ح: القبيح.

(3) ح: تفرع.

(4) انظر: المفردات، ص: 17، مادة: الألم.

(5) المفلوج: هو صاحب الفالج، والفالج: داء معروف يُرَخِّي بعض البدن. (اللسان: فلج).

(6) والمأوف: المعين، (اللسان، مادة: أوف).

إيلاما، وعذابهم أقوى وأنكى، وإن كان عذاب الأولين لشدة حجابهم، وغاية بعدهم من النور الأعظم لعدم⁽¹⁾ منافاة ذواتهم لصفاتهم، وضعف إدراكهم لذلك لم⁽²⁾ يحسّوا بالألم، بخلاف هؤلاء.

﴿يَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ﴿10﴾ (بسبب تمرّنه في الكذب، فإن زيادة «كان» في مثل هذا لإفادة معنى الاعتیاد)⁽³⁾، وفيه دلالة على أن العذاب الأليم لاحق بهم من أجل كذبهم الذي هو أدنى حالهم في الكفر والنفاق، فكيف سائر الأحوال، ولا دلالة فيه على أن الكذب وهو الإخبار بالشيء على خلاف الواقع يستحق به العذاب مطلقا، كيف وقد صرح في كتب الفقه أن الكذب لإحياء الحق مباح، وقال⁽⁴⁾ الإمام الغزالي⁽⁵⁾ (6): إذا اختفى مسلم من ظالم وسأل عنه، وجب الكذب بإخفائه.

﴿وَلِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾: عطف على «يقول»، فلا محلّ له من الإعراب، ولا بأس بالتخلّل بين أجزاء الصلة بالبيان والاستئناف، لأنه ليس بأجنبي، فالآيات على سنن تعديد قبائهم، وتوصيفهم بالأوصاف المذكورة قصدا واستقلالا، ويحتمل أن تكون⁽⁷⁾ مستأنفة، إذ هذه الجملة

(1) ح: أعظم العدم.

(2) ح: كذلك فلم.

(3) في ح: (بسبب ثباتهم واستمرارهم على الكذب، زيادة كان للثبات، وصيغة الفعل للاستمرار التجديدي).

(4) ح: قال.

(5) هو محمد بن محمد بن أحمد الطوسي أبو حامد الغزالي -بتشديد الزاي- حجة الإسلام، كانت ولادته سنة خمسين وأربعمئة، وكانت وفاته سنة خمس وخمسمئة. (تاريخ بغداد: 2 / 56، وحلية الأولياء: 9 / 66، والأعلام: 7 / 22).

(6) قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: «فمهما كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم، فالكذب فيه واجب». انتهى. (انظر: الإحياء: 3 / 137، كتاب آفات اللسان).

(7) في ع: يكون، والمثبت من ح.

والجملتان بعدها (هي) ⁽¹⁾ من تفاصيل الكذب ونتائج النفاق، ألا ترى ⁽²⁾ قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، وقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ ⁽³⁾، وقولهم عند لقاء المؤمنين: ﴿أَمَّا﴾ كذب محض، فيناسب جعل ذلك جملا مستقلة ذكرت لإظهار كذبهم ونفاقهم، والإفساد: جعل الشيء فاسدا خارجا عما ينبغي أن يكون عليه، وعن كونه منتفعا به، وكان ⁽⁴⁾ من إفسادهم (في الأرض) ⁽⁵⁾ هيجهم ⁽⁶⁾ الحروب والفتن، بمخادعة ⁽⁷⁾ المسلمين وممالة الكفار عليهم بإفشاء الأسرار إليهم. والظاهر أن القائل من شافهم من الرسول والصحابة (رضي الله عنهم) ⁽⁸⁾ والثاني أقرب.

﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ⁽¹¹⁾: لما كان نهيههم عن الإفساد مشعرا بأن فيهم إفسادا نفوا ذلك عن أنفسهم بادعاء أنهم مقصرون على الإصلاح من غير شائبة إفساد، وآثروا «إنما» دلالة على أن ذلك الدعوى ظاهر بين لا ينبغي أن يشك فيه، وفيه تنبيه على أنهم يتصورون إفسادهم بصورة الإصلاح لما في قلوبهم من المرض كما قال ⁽⁹⁾: ﴿أَقْمَنَ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ قَرَآءَةً حَسَنًا﴾ ⁽¹⁰⁾، وقوله: ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ⁽¹²⁾.

(1) ساقطة من ح.

(2) في ح: ألا يرى.

(3) الآية: 13 من سورة البقرة.

(4) في ح: فكان.

(5) سقطت من ح.

(6) الهيج: الحركة. (اللسان: هيج).

(7) في ح: لمخادعة.

(8) سقطت من ح.

(9) ح: قال الله تعالى.

(10) في ع وح: أقمن زين له سوء عمله فإراه حسنا، والصواب ما هو مثبت.

(11) من الآية: 8 من سورة فاطر.

(12) من الآية: 99 من سورة الكهف.

فرد الله تعالى بقوله⁽¹⁾:

[26] ﴿إِنَّمَا هُمْ الْمُفْسِدُونَ﴾، قصر قلب أي هم مقصرون / على الإفساد، لا ينتظمون في جملة المصلحين أصلاً، مع المبالغة على أبلغ الوجوه وأكدها من الاستئناف المقصود به تمكن الحكم في ذهن السامع فضل تمكن لحصوله بعد التشويق الحاصل من ذكر ادعائهم الإصلاح على وجه أبلغ، مع توغلهم في الإفساد، فإنه يُشَوِّقُ السامع أن يعرف⁽²⁾ ما حكم الله عليهم، والشيء إذا وُجد بعد الطلب يكون أعز مما فوجئ به من غير التعب، وتصدير الجملة «بألا» و«إن» للتنبيه والتحقيق وذلك أن «ألا» مركبة من همزة الاستفهام، وحرف النفي لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها، والاستفهام إذا دخل النفي (أفاد)⁽³⁾ التقرير والتحقيق كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ﴾⁽⁴⁾ وتكون همزة الاستفهام بهذه المثابة من التحقيق تُتَلَقَّى بما يتلقى به القسم، وأختها التي هي إما من مقدمات القسم وطلائعه، وتوسيط⁽⁵⁾ «هم» وتعريف الخبر والاستدراك بقوله:

﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾⁽⁶⁾ ﴿12﴾، وهذا أولى من نفي العلم مطلقاً المستلزم لنفي العلم الخاص، لأن من لا يشعر بالضروريات لاسيما المحسوسات منها أولى أن لا يعلم غيرها، وهذا من هذا الوجه، لأنه نفي مع دليل، ولأنه ينادي عليهم بانحطاط رتبتهن عن رتبة البهائم، ويؤذن بأن معلومه من أجل المعلومات، ولا كذلك لا يعلمون، وهذا الأخير هو الأصل والباقي مؤيد.

(1) ح: فرد الله تعالى ذلك بقوله.

(2) ح: أن يصدق.

(3) ساقطة من ح.

(4) من الآية: 39 من سورة القيامة.

(5) ح: وتوسيطهم.

(6) ح: لا تشعرون، وهو تصحيف.

﴿وَلَيْذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ نهوا عن الإفساد، ثم أمروا بالسلوك إلى سبيل الرشاد، وبدئ بالمنهي عنه لأنه الأهم وهو ترك، والترك أسهل من إتيان المأمور به، فكان في ذلك تدرج لهم.

﴿كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾⁽¹⁾: كما آمن: في محل نصب على المصدرية، (وهو)⁽²⁾ في الحقيقة صفة مصدر محذوف، أي إيماننا مثل إيمان الناس، واللام في الناس للجنس، إما لأنهم الكاملون في الإنسانية من باب ذلك الكتاب، وإما لأن غيرهم ليس بناس حقيقة لقصورهم وانحطاطهم⁽³⁾ رتبة الإنسانية، بل عن رتبة البهيمية، وفي الأول نظر إلى كمال المؤمنين، وفي الثاني إلى قصور غيرهم على نحو:

* إِذِ النَّاسُ نَاسٌ وَالزَّمَانُ زَمَانٌ⁽⁴⁾ *

وهذا أبلغ في هذا المقام، ولا دلالة فيه على قبول⁽⁵⁾ توبة الزنديق، لأن النفاق غير الزندقة، كيف ويقتل الزنديق⁽⁶⁾ دون المنافق⁽⁷⁾؟! ولم يقل أحد إن في عدم قتله عليه السلام المنافق دلالة على عدم قتل الزنديق، ثم إن دلالة التقييد على أن في أفراد الإيمان تفاوتاً بالكمال والنقصان، (لا)⁽⁸⁾ على أن الإقرار باللسان (وحده)⁽⁹⁾ إيمان.

(1) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 190.

(2) ساقط من ح.

(3) ساقط من ح.

(4) هو لعرقلة الكلبي، وصدره:

* يَا لَيْتَ شَعْرِي أَيْنَ كُنْتُ مِنَ الدُّنْيَا *

(انظر معانيه في: معاني الزجاج: 1 / 53، والبحر: 1 / 67، والدر: 1 / 30، وتفسير القرطبي: 1 / 205).

(5) انظر: الكشف: 1 / 182 وما بعدها. وقد فصل في هذا أكثر ابن عطية في المحرر الوجيز: 1 / 94-96. واعلم أن العلماء استدلوا بهذه الآية على أن من أظهر الإيمان وجب إجراء حكم المؤمنين عليه، وتجوز خلافه لا يطعن فيه، وتوبة الزنديق مقبولة، والله أعلم. (التفسير الكبير: 2 / 74).

(6) في اللسان: الزنديق معروف، وزندقته أنه لا يؤمن بالآخرة ووجدانية الخالق (اللسان: زندق).

(7) المنافق هو الذي يظهر غير ما في الباطن. (اللسان: نفق).

(8) ساقط من ح.

(9) ساقط من ح.

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ﴾ الاستفهام للإنكار، ﴿كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ لما كان المأمور به مشبهاً أتوا بإنكارهم مشبهاً. واللام للعهد والإشارة إلى الناس، والسفه⁽¹⁾: خفة في البدن أو في المقال
[27] يقتضيها نقصان العقل، والحلم: رزانة⁽²⁾ في البدن يقتضيها وفور / العقل.

نصحوهم⁽³⁾ بأمرين: تقبيح ما هم فيه لأدائه إلى⁽⁴⁾ الفساد والفتنة، وتبصيرهم طريق الهدى والصلاح، فما كان جوابهم إلا أن سفهوه وادّعوا الصلاح فيما كانوا عليه لجهلهم⁽⁵⁾ المركب، وتماديهم في غيهم، وإفراطهم في السفه، واعتقادهم أن ما هم عليه هو الحق، وأن ما عليه المؤمنون⁽⁶⁾ هو الباطل، فكانوا عندهم سفهاء.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽⁷⁾ 13: رد على وجه⁽⁷⁾ المبالغة في تجهيلهم، فإن الجاهل الجازم على خلاف ما هو الواقع أتم جهالة، وأعظم ضلالة من المتوقف المعترف بجهله، فإنه ربما يعذر⁽⁸⁾ وينفعه⁽⁹⁾ الآيات والنذر.

والتفصيل بلا يعلمون لأن تسفيهم العلماء الأعلام لا يكون إلا لغاية السفه والجهل المركب، ومعرفة الحق والإيمان به، وكون المؤمنين على

(1) في اللسان: السَّفَه والسُّفَاهُ والسفاهة: خفة الحِلْم، وأصله الخفة والحركة. (انظر اللسان: سفه).

(2) ح: إزالة، ولا معنى له.

(3) ح: نصحون.

(4) ح: إن.

(5) ح: بجهلهم.

(6) ع وح: المؤمنين، والصواب ما هو مثبت.

(7) ع: الوجه.

(8) ح: يفيد.

(9) ع: وينفعه.

الحق وكونهم على الباطل أمر نظري لا يتعلق بالحس، بخلاف الفساد في الأرض ولأن ذكر العلم (مع) ⁽¹⁾ السفه وهو ⁽²⁾ جهل أحسن طباقا.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ : تقول : لقيته ولاقيته إذا استقبلته قريبا منه، بيان لمعاملتهم مع المؤمنين والكفار، وما سبق سيق لبيان مذهبهم، وتمهيد نفاقهم، فلا تكرير على أن المعنى : ومن ⁽³⁾ الناس من يتفوه بالإيمان نفاقا للخداع، وذلك عند لقاء المؤمنين، ففيه زيادة بيان أنهم ضموا إلى الخداع الاستهزاء، ولا يتفوهون بالكلمة إلا عند الحاجة.

﴿قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا﴾ : تقول : خلوت به ⁽⁴⁾ وإليه إذا انفردت معه.

﴿إِلَى شَيْءٍ آخَرَ﴾ : الشيطان : فيعال من شطن إذا بعد لبعده عن الحق، أو فعلا من شاط إذا بطل، ومن أسمائه الباطل، وقال الراغب ⁽⁵⁾ : من شاط إذا احترق غضبا، والمراد متمردوهم وشطارهم.

﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ : خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية ادعاء، لإحداث الإيمان، إذ لا يروج عنهم دعوى التحقيق، أو لا يساعدهم ⁽⁶⁾ أنفسهم على ذلك، إذ ليس لهم صدق رغبة، ولا قوة داع، وشياطينهم بالإسمية مع التأكيد لوجود الأمرين، ونفي الشك والتردد عنهم في كذب (قولهم : آمنا) ⁽⁷⁾، واستمرارهم على دينهم وموافقتهم.

(1) سقطت من ح.

(2) ح : هو.

(3) ح : من.

(4) في اللسان : والخَلُوُ أيضا المنفرد . (اللسان : خلو).

(5) انظر : المفردات : شطن، ص : 267.

(6) ح : إذ لا يساعدهم.

(7) ساقطة من ح.

ولك أن تقول: إن مقتضى المقام في الأول تجريد الكلام عن جنس المؤكد لأن التأكيد والتقوية فيه لا يخلو عن تذكيرهم⁽¹⁾ لنفاقهم، من حيث⁽²⁾ إن فيه دلالة على إنكار المخاطب وسوء ظنه وهم في صدد التجنب عنه⁽³⁾، والاحتراز عن مظانه، ومقتضى المقام في الثاني تحليته به، لأن إظهارهم الإيمان، وموافقتهم المسلمين في ظاهر الأحكام، كان (مظنة)⁽⁴⁾ لإنكارهم⁽⁵⁾ المخاطبين ثباتهم (على اليهودية)⁽⁶⁾.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَمِرُّونَ﴾ ﴿14﴾: الهزء: السخرية من شيء يحق عند صاحبه ولا يحق عند

[28] الهازئ⁽⁷⁾ استئناف، كأنهم اعترضوا عليهم حين قالوا: «إنا معكم» فقالوا: فما بالكم / توافقون، فقالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَمِرُّونَ﴾.

ويجوز أن يكون تأكيد القوله: ﴿إِنَّمَا مَعَكُمْ﴾، لأنه لما كان معنى قوله ﴿إِنَّمَا مَعَكُمْ﴾ هو إنا معكم قلوبا، ونوهم أصحاب محمد الإيمان، وقع قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَمِرُّونَ﴾ مقرر له، لأن الاستخفاف بالشيء إنكار له، ودفع للاعتداد به، ودفع نقيض الشيء تأكيد لثبوته، أو أن يكون بدلا، لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر، والأول أوجه الأوجه لزيادة الفائدة، وكون المحرك للسؤال أعني قوله: ﴿إِنَّمَا مَعَكُمْ﴾ في غاية الظهور.

(1) ح: لا تخلو عن تذكير.

(2) ح: من حيث باعتبار.

(3) ح: فيه.

(4) سقطت من ح.

(5) ح: لإنكار.

(6) ساقطة من ح.

(7) في اللسان: والهزؤ: السخرية. (اللسان: هزأ).

﴿اللَّهُ يَسْتَفْزِرُ﴾ يقال: هزيت واستهزيت نحو: أجت واستجت، والصحيح أن الاستهزاء ارتياد الهزء وإن كان قد يعبر به عنه، وكذا الاستجابة في الأصل معناها مخالف للإجابة، وإن كان قد يجري مجراها، كذا قال الراغب⁽¹⁾.

لما ذكر استهزاءهم بالمؤمنين استأنف الكلام، إظهار اللسخط، وإنما قال: ﴿يَسْتَفْزِرُ﴾ ليدل على دوام تجدد الاستهزاء وقتاً فوقتاً، وفي الجملة الإسمية والخبر الفعلي⁽²⁾ مع المعنى المذكور تقوى الإسناد لتكرره، والتخصيص أي هو الذي يتولى الاستهزاء بهم، خاصة الاستهزاء الأبلغ الأقوى الذي يكون استهزأؤهم بالنسبة إليه كلا استهزاء، ولا يحوج المؤمنين⁽³⁾ إلى معارضتهم. ﴿يِهِمُ﴾: ذكر هنا⁽⁴⁾ لعدم الداعي إلى الحذف، بخلاف ما تقدم، فإن فيه باعثاً لفظياً وهو المحافظة على الفاصلة، وداعياً معنوياً وهو تخرجه من إبلاغ المؤمنين، وإبقاء اللفظ محتملاً ليكون لهم مجال التوجيه عند الحاجة إليه.

والمعنى أنه تعالى عاملهم في الدنيا على وفق معاملتهم، فإنهم أظهروا الإيمان وفي باطنهم النفاق، والله تعالى أظهر لهم في الحال الأمان وعاقبتهم الإحراق بالنيران وعلى هذا يكون الكلام المذكور من قبيل الاستعارة اتبعية. وقيل⁽⁵⁾: إن معناه يجازيهم في الآخرة جزاء استهزائهم والعرب

(1) قال: يقال: هزئت به واستهزأت، والاستهزاء: ارتياد الهُزُء وإن كان قد يعبر به عن تعاطي الهُزُء، كالاستجابة في كونها ارتياداً للإجابة، وإن كان فسيحاً مجرى الإجابة. (المفردات، هزؤ، ص: 540).

(2) ح: الفعل.

(3) ح: الآمنين.

(4) ح: هاهنا.

(5) انظر: جامع البيان: 1 / 132 وما بعدها.

تسمي الجزاء باسم الابتداء. قال عمرو بن كلثوم⁽¹⁾:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجَهْلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ⁽²⁾

وفي القرآن: ﴿وَجَزَاءٌ مِّثْلَهُ مِثْلُهَا﴾⁽³⁾، وهذا توسع مخصوص غير المشاكلة. وقيل⁽⁴⁾: إنه تعالى يجعل المؤمنين يطلعون على المنافقين من الجنة فيقولون لهم: أتحبون أن تخرجوا من النار وتدخلون الجنة؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم باب من النار فيقصدون إليه، فيغلق عليهم، ثم يفتح باب آخر فيقصدونه فيغلق، ولا يزال يفعل بهم كذلك، والمؤمنون يضحكون منهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾⁽⁵⁾، إلى أن (قال)⁽⁶⁾ تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾⁽⁷⁾. وعلى هذا يكون التجوز في إسناد الاستهزاء إلى الله تعالى.

﴿وَتَهْدُهُمْ﴾⁽⁸⁾: من مدّ⁽⁹⁾ الجيش وأمدّه: إذا زاده وألحق به ما يقويه ويكثره، لا من

[29] المدّ⁽¹⁰⁾ / في العمر، فإنه يعدّ باللام كأملّي له، والحذف والإيصال خلاف الأصل، فلا يصار إلا بدليل، وهنا دليل على خلافه وهو قراءة:

(1) هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب، من بني تغلب، أبو الأسود. شاعر جاهلي يُجهل تاريخ ولادته، وهناك شبه اتفاق على أنه توفي نحو 40 قبل الهجرة. (تاريخ الإسلام للذهبي: 5 / 287-289، وتهذيب التهذيب: 8 / 92، والأعلام: 5 / 84).

(2) انظر: الخزانة: 6 / 437، والقرطبي: 2 / 238.

(3) من الآية: 27 من سورة الشورى.

(4) انظر: تفسير القرطبي: 1 / 208.

(5) من الآية: 29 من سورة المطففين.

(6) ساقطة من ع، والمثبت من ح.

(7) الآية: 34 من سورة المطففين.

(8) انظر: مختصر ابن خالويه، ص: 10.

(9) في اللسان: أمدّ الأمير جنده بالخير والرجال وأعانهم، وأمدهم بمال كثير وأغاثهم. (اللسان: مدد).

(10) ح: الحد.

﴿وَيَمْدُهُمْ﴾ . ﴿فِي صُفْيَانِهِمْ﴾ : الطغيان - بالضم والكسر - تجاوز الشيء عن مكانه⁽¹⁾، والمراد غلوهم في الكفر، وتجاوزهم الحد في العتو⁽²⁾، وإنما أضيف إليهم، لأنه أريد الطغيان الذي عرف لهم، واشتهر بصدوره عنهم، فلا دلالة في إضافته إليهم على أنه فعلهم.

﴿يَعْمَهُونَ﴾⁽³⁾ 15 : في محل نصب بالحال من مفعول «يمدهم»، أو فاعل «طغيانهم»⁽⁴⁾، والعمه⁽⁵⁾ في البصيرة، والعمى في البصر، وهو التحير والتردد⁽⁶⁾. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾⁽⁷⁾.

﴿لَوْلَيْكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهَمَى﴾ : استئناف جار مجرى التعليل، لاستحقاقهم الاستهزاء الأبلغ، والمد في الطغيان، ويحتمل أن تجعل⁽⁸⁾ مقررة لقوله: ﴿وَيَمْدُهُمْ فِي صُفْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، واستعيرت الضلالة وهو الجور عن القصد، للذهاب عن الحق والصواب في الدين،

(واستعير)⁽⁹⁾ الهدى⁽¹⁰⁾ - وقد مر بيان معناه - للنور الفطري والدين القيم الأصلي. والاشتراء: وهو إعطاء بدل وأخذ آخر للاستبدال⁽¹¹⁾، أي اختاروا الضلالة واستبدلوها بالهدى.

(1) في اللسان: طغى يطغى طغياً، ويطغى طغياناً: جاوز القدر وارتفع وغلا في الكفر. (اللسان: طغي).

(2) في اللسان: عتأ عتواً وعتياً: استكبر وجاوز الحد. (اللسان: عتا).

(3) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 192. وقال مكي: حال من المضمرة المنصوب في «يمدهم». (مشكل إعراب القرآن: 1 / 79).

(4) ح: العمة.

(5) ح: والتردد.

(6) الآية: 4 من سورة النمل.

(7) في ع: يجعل.

(8) سقط من ح.

(9) ح: والهدى.

(10) ح: الاستبدال.

﴿فَمَا رِبَحْتَ تَجَارَتُهُمْ﴾: الربح: الفضل على رأس المال. والتجارة: تعاطي الأمتعة بالبيع والشراء للربح. وعدم الربح كناية عن الخسران، ونسبته إلى التجارة على التوسع الشائع. قال الراغب⁽¹⁾: والربح والخسران ينسبان مرة إلى صاحب السلعة، ومرة إلى السلعة، ومرة إلى الصفقة⁽²⁾ إذ لا اشتباه فيه.

وحسن تلك الكناية التي هي ترشيح للاستعارة⁽³⁾ المذكورة يظهر في وجه قوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُتَعِينِينَ﴾⁽⁴⁾، أي لطريق التجارة، فإنه كناية عن إضاعة الطلبة الأصلية، وهي سلامة رأس المال، لأن من لم يهتد لطريق⁽⁵⁾ التجارة تكثر⁽⁶⁾ الآفات في أمواله، ويعم الحرمان أكثر أحواله. وقد استبان من هذا التوضيح أنه يشد من عضد الترشيح. وزيادة «كان» لاستمرار النفي، على أن النفي اعتبر أولاً ثم قيد، والتعويل في مثل هذا على القرائن.

﴿مَثَلُكُمْ كَمَثَلِ الَّذِينَ امْتَرَقُوا نَارًا﴾: لما بين أوصافهم عقبها بضرب المثل، زيادة في الكشف والتبيين، فإنه أوقع في القلب، وأقمع للخصم الألد، لأنه يريك المتخيل محققاً⁽⁷⁾، والمعقول⁽⁸⁾ محسوساً، ولشأنه العجيب في إبراز الحقائق المستورة، ورفع الأستار عن وجه الخفيات، أكثر الله تعالى في القرآن وسائر كتبه الأمثال، وفشت في كلام رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء (عليهم السلام)⁽⁸⁾.

(1) انظر: المفردات: ربح، ص: 190.

(2) ح: الصنعة.

(3) ح: الاستعارة.

(4) ح: بطريق.

(5) ع: يكثر.

(6) ح: متحققاً.

(7) ح: والمقول.

(8) سقطت من ح.

والمثل في الأصل بمعنى النظير، ثم نقل في العرف إلى القول السائر الممثل مضربه بمورده،
 [30] ولم يسيروه، ولم يجعلوه مثلاً إلا إذا خُصَّ بنوع من الغرابة، / ولهذا لم يغيروه عما ورد عليه، ثم استعير للصفة والحال، والقصة إذا كانت عجيبة الشأن وفيها غرابة.

فالمعنى: حالهم العجيب الشأن كحال المستوقد، فلا حاجة إلى معنى الجمع كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ﴾ [ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا] (1) كَمَثَلِ الْإِيمَانِ (2). واستوقد: من الوُقود (3)، وهو سطوع النار، وارتفاع لهبها. وسين الاستفعال ليس للطلب والسؤال، بل للاهتمام والمبالغة في الإيقاد. والنار (4): جسم لطيف (حار) (5) محرق، اشتقاقها من نار ينور نوراً إذا نفر، لأن فيها حركة واضطراباً.

﴿قَلَمًا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾: الإضاءة (6): فرط الإنارة من الضوء الذي هو النور البالغ القوي، ومصداقه قوله تعالى: ﴿جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا﴾ (7). وتأليف الحول للدوران (8) والإطافة، وقيل (9): للعام حَوْل، لأنه يدور، وأضاءت إما متعد، وحوله: مفعول به، وما: زائدة، أو ما: موصولة مفعول به. وحوله: ظرف صلته، أي جعلته النار مضيئاً، وإما لازم مستند

(1) سقطت من ع وح.

(2) من الآية: 5 من سورة الجمعة.

(3) الوُقود: ما ترى من لهبها، لأنه اسم، والوُقود: المصدر. (اللسان: وقد).

(4) انظر اللسان: نور.

(5) سقطت من ح.

(6) في اللسان: الضَّوُّ والضَّيَاءُ: ما أضاء لك، وضاءت وأضاءت: بمعنى، أي استنارت. (اللسان: ضوا).

(7) من الآية: 5 من سورة يونس.

(8) ح: الدوران.

(9) في اللسان: الحول: سنة بأسرها. (اللسان: حول).

إلى ﴿مَا حَوَّلَهُ﴾، وما: موصولة، أي أضاءت الأماكن التي حول المستوقد، أو إلى (1) النار. ﴿وَمَا حَوَّلَهُ﴾ (2): ظرف لغو لأضاءت، وما: زائدة. أو حول: ظرف في موضع الصلة، وما: موصولة عبارة عن الأمكنة، والموصول مع الصلة مفعول فيه وجواب (3) لما.

أما قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، والضمير للذي، وجمعه للحمل على المعنى، وإنما لم يقل: بنارهم، لأن في النار شيئين: حرارة ونورا، والله تعالى أذهب النور، وبقي عليهم الحر المحذور، وإما محذوف دل عليه ما بعده كما حذف في قوله: ﴿قَلَمًا ذَهَبُوا بِهِ﴾ (4) لاستطالة [الكلام] (5) مع الأمن من الإلباس.

وفي الحذف إيجاز مع الإفصاح (6) عن الصفة التي عليها المستوقد بما هو أبلغ في الدلالة على المعنى من اللفظ وهو العقل، كأنه قال: ﴿قَلَمًا أَضَاءَتْ مَا حَوَّلَهُ﴾ خمدت، فبقوا خابطين في ظلام، متحسرين على فوات الضوء، خائبين بعد الكدح في إحياء النار. وما ذكر استئناف، أي جواب للسؤال عن وجه الشبه، لعدم ظهوره أو بيان الجملة المثل. وإسناد الإذهاب إلى الله تعالى لقصد المبالغة، ولذلك عُدِّي الفعل بالباء دون الهمزة لما فيها من معنى الاستصحاب والاستمسك؛ يقال: ذهب السلطان بماله إذا أخذه، وما أخذه الله تعالى وأمسكه فلا مرسل له.

(1) ح: وإلى.

(2) ﴿مَا﴾: في موضع نصب بمعنى الذي، وكذا إن كانت نكرة، إلا أن النعت يلزمها إذا كانت نكرة، وإن كانت زائدة فلا موضع لها. و﴿حَوَّلَهُ﴾: ظرف مكان، والهاء في موضع خفض بإضافته إليها. (إعراب القرآن للنحاس: 1/ 193، ومشكل إعراب القرآن: 1/ 80، والبيان للأنباري: 1/ 59-60).

(3) ح: وجوابه.

(4) من الآية: 15 من سورة يوسف.

(5) زيادة من ح.

(6) ح: الإيضاح.

وعدل عن الضوء الذي هو مقتضى الظاهر إلى النور، فإنه لو قيل: ذهب الله بضوئهم احتمال أن يكون الذهاب ما في الضوء من الزيادة، والغرض إزالة النور عنهم رأسا.

ألا يرى كيف قرر ذلك وأكد بقوله: ﴿وَتَرَكْنَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (17)، فذكر الظلمة التي هي عدم النور وانطاماسه بالكلية، وجمعها، ونكرها، ووصفها بالخلوص.

[31] وترك: بمعنى طرح وخلي، وفي ظلمات / متعلق به، ولا يبصرون⁽¹⁾: في موضع الحال، (أو في ظلمات: في موضع الحال)⁽²⁾، فيتعلق بمحذوف. ولا يبصرون: حال أيضا؛ إما من الضمير في تركهم، وإما من الضمير المستكن في المجرور. وإن ضمن ترك معنى صير يكون ثاني المفعولين في ظلمات، ولا يبصرون: حال، ولا يجوز العكس؛ لأن الخبر لا يكون مؤكدا. وقول الشاعر:

..... فَتَرَكْتُهُ جَزْرَ السَّبَاعِ (3) يَنْشَنُهُ (4)

يحتمل الوجهين، لأن «جزر السباع» وإن كان معرفة يحتمل الحال، كما أن «يسبني» في قوله:

(1) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 193. قال مكي: ﴿لَا يَبْصِرُونَ﴾ في موضع الحال من الهاء والميم في ﴿تَرَكْنَهُمْ﴾. (انظر: مشكل إعراب القرآن: 1 / 80). قال ابن الأنباري: ﴿لَا يَبْصِرُونَ﴾ جملة فعلية منفية في موضع نصب على الحال، من الهاء والميم في ﴿تَرَكْنَهُمْ﴾، أي تركهم في ظلمات غير مبصرين. (البيان: 1 / 60، إملأ ما من به الرحمن، ص: 28).

(2) سقطت من ح.

(3) وَجَزْرُ السَّبَاعِ: اللحم الذي تأكله. يقال: تركوهم جَزْرًا، بالتحريك: إذا قتلوهم. وتركهم جَزْرًا للسباع والطير: أي قطعاً. (اللسان: جزر).

(4) عجزه:

* يقضمن من بنانه والمعصم *

(تفسير القرطبي: 12 / 43، والخزانة: 9 / 165).

وَالنَّشْنَشَةُ: قد تكون كالمضغة أو كالمضغة تقطع من اللحم. (اللسان: نشش).

وَلَقَدْ أَمَرُ عَلَى اللَّيْمِ يَسْبُنِي (1)

يحتمل الصفة وإن كان « اللئيم » معرفة .

والظلمة : مأخوذة من ظلمه إذا منع حقه، لأنها تمنع البصر من النفوذ وتسده . وظلماتهم : ظلمة الجهل وظلمة الكفر وظلمة النفاق . وقيل (2) : يجوز أن يراد بالنار نار مجازية ؛ كنار فتنة أو حرب ، وليس بجيد (3) ، لأن الغرض من التمثيل إبراز المعقول في صورة المحسوس ليكون مشاهداً ، وعلى هذا التقدير يفوت الغرض منه . وفي الآية دلالة على أن وجود النور شرط لرؤية (4) الألوان لا لوجودها ، إذ حينئذ يمتنع الإبصار ، فلا يخرج قوله : لا يبصرون مخرجه .

﴿صُمَّ﴾ : جمع الأصمّ، النعت من الصمم، وهو استداد خروج المسامع، ومنه القناة الصماء : التي ليست عجوفة، وكذا كل فعل (5) كان نعتاً مما هو خلقه، فجمعه الفعل، ومثله البكم والعُمي، وإن كان اسماً فعلى الأفعال يجمع، كالأرنب (6) والأرانب، والأعجم والأعاجم، وإن كان نعتاً مما هو آفة فعلى الفعل، كالأعجف (7) والعجفى، والأحمق والحمقى .

(1) نسب لرجل من بني سلول . وعجزه :

* فمضيت ثُمْتُ قلت لا يعنيني *

(الخرانة : 1 / 357-358، و 3 / 201، و 5 / 23، و 9 / 119 و 383، والكتاب : 3 / 24، ولسان العرب : ثم، ومنى) .

(2) قال الزمخشري : إما أن تكون ناراً مجازية كنار الفتنة والعداوة للإسلام، وإما ناراً حقيقية أوقدها الغواة ليتوصلوا بالاستضاءة بها إلى بعض المعاصي، وليهتدوا بها في طرق العبث، فاطفاها الله وخيب أمانيتهم . (الكشاف : 1 / 200) .

(3) ح : فليس بقوي .

(4) ع : الرؤية .

(5) ع : أفعال .

(6) ح : كأرنب .

(7) في اللسان : شدة وتضييق . (اللسان : عجف) .

﴿بُكْمٌ﴾⁽¹⁾: من البكم، وهو الخرس وهو آفة في اللسان لا يتمكن معها أن يعتمد مواضع الحروف.

﴿عُمَيٌّ﴾: من العمي: الأعمى في العين، وجمعه العمي، ومن القلب العمى، وجمعه العمون. قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾⁽²⁾ لما سدوا مسامعهم عن الإصاخة⁽³⁾ إلى الحق، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم، ويتبصروا الآيات بأبصارهم، جعلوا كأنما فقدت مشاعرهم، ولم يخلق⁽⁴⁾ قواهم. وإيراد هذه الصفات مع سلامة حواسهم تشبيه بليغ، إذ شرط الاستعارة الإعراض عن المستعار له صفحا، ونسيانه مطلقا، وهاهنا⁽⁵⁾ وإن حذف المبتدأ الذي هو ضمير المنافقين، لكنه في حكم المقدّر المنوي لاستناد الخبر إليه، ونظيره قوله:

صُمْ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذَكَرْتُ بِهِ وَإِنْ ذَكَرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا
وأما قوله:

أَسَدٌ عَلَيَّ (6) وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ (7)

ففي كونه من هذا الباب نظر.

﴿فَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ﴾⁽¹⁸⁾: أي جوابا، لأن من استدّت عليه تلك المشاعر لا يمكن أن يرجع جوابا لمن يخاطبه، لا بالعبرة ولا بالإشارة، من الرجوع بمعنى الصرف، لا من الرجوع بمعنى

(1) في اللسان: الْبُكْمُ: الْخَرَسُ. (اللسان: بكم).

(2) من الآية: 68 من سورة النمل.

(3) ح: الإضافة.

(4) ح: ولم توجد.

(5) ح: وهنا.

(6) نسب للشاعر قعنب بن أم صاحب. (اللسان: شور).

(7) انظر: تفسير البيضاوي: 1 / 196، وعجزة: * فتخاء تنفر من صفير الصافر *

[32] الانصراف، / فإن رجع لازم ومتعد.

﴿لَوْ كَصَيْبٍ﴾ مجرور بمضاف محذوف، أي كمثل ذوي صيب⁽¹⁾.
 ﴿مَنْ السَّمَاءِ﴾ صفته⁽²⁾ في محل الجر، أما تقدير المثل فلا بد منه
 للعطف على السابق، وأما تقدير ذوي فلقوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ﴾⁽³⁾، وإلا
 فنفس التشبيه لا يقتضي تقدير شيء، إذ لا يلزم في التشبيه المركب أن
 يكون ما يلي الكاف هو المشبه به، كما في قوله:

* وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالدِّيَارِ وَأَهْلِهَا⁽⁴⁾ *

و«أو» في الأصل التساوي في الشك، ثم اتسع فيها فأطلق
 للتساوي من غير (شك)⁽⁵⁾، مثل: جالس الحسن⁽⁶⁾ أو ابن سيرين⁽⁷⁾،
 ومعناه أن قصة المنافقين مشبهة بهاتين القصتين، وأنهما سواء في صحة
 التشبيه بهما. وتثنية التمثيل كشف بعد كشف، وإيضاح عقب
 إيضاح، وكما يجب على البليغ في مظان الإجمال والإيجاز أن يجمل

(1) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 194، ومشكل إعراب القرآن: 1 / 81، والبيان للأنباري: 1 / 60،
 وإملاء ما من به الرحمن، ص: 28-29.

(2) ح: صفة.

(3) من الآية: 18 من سورة البقرة.

(4) هو للشاعر لبيد بن ربيعة، وتتمة البيت:

* بِهَا يَوْمَ حَلُّوْهَا وَغَدَوْا بِلَاقِعِ *

(الخرزانه: 7 / 479، ولسان العرب: غدا، وعنوان القصيدة: بلينا وما تبلى النجوم).

(5) ساقطة من ح.

(6) هو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد. تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمانه، وهو أحد
 العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك. ولد بالمدينة سنة 21هـ، وتوفي بالبصرة سنة 110هـ. (لسان
 الميزان: 2 / 259، والأعلام: 2 / 226-227).

(7) هو محمد بن سيرين الأنصاري بالولاء، أبو بكر. إمام وقته في علوم الدين بالبصرة، تابعي، مولده سنة
 33هـ، ووفاته سنة 110هـ بالبصرة. (اتهذيب التهذيب: 9 / 214، وحلية الأولياء: 2 / 263، والأعلام:
 6 / 154).

ويوجز، فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع. (أنشد) ⁽¹⁾ الجاحظ ⁽²⁾:

يَرْمُونَ بِالْخَطْبِ الطُّوَالَ وَتَارَةً وَحَيِّ الْمَلَا حِظْ خِيفَةَ الرُّقْبَاءِ ⁽³⁾

والصَّيْبُ ⁷ يقال للمطر والسحاب، وفي الآية يحتملهما، وتنكيره للتعظيم كتتكير النار في المثل الأول.

والسماء هذه المظلة قد يطلق على جهة الفوق، وهو المراد هنا ⁽⁴⁾، وتعريفها للدلالة على إطباق ذلك الصيب ⁽⁵⁾ الآفاق كلها، فإن كل أفق يسمى سماء أمد به ما في صيب من المبالغة من جهة التركيب، فإن الصاد من المستعلية، والياء مشددة، والباء من الشديدة. ومن جهة المعنى فإن الصوب فرط الانسكاب والوقوع، ومن جهة البناء فإن فيعلا ⁽⁶⁾ صفة مشبهة دالة على الثبوت، ومن جهة العارض لأن التنكير للتعظيم والتهويل.

﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَّرَعَةٌ وَتَرْقٌ﴾: صفة ⁽⁷⁾ أخرى في محل الجر، و«ظلمات» مرفوع بفاعلية الظرف بالاتفاق لاعتماده على الموصوف، والمعنى: في أثنائها وتضاعيفه إن أريد بالصيب المطر، وجعله مكانا للرعْد والبرق لأنهما في أعلاه ومنحدره جعلاً كأنهما فيه بطريق استعارة كلمة ⁽⁸⁾ «في» للتلبس ⁽⁹⁾ المخصوص الشبيه بتلبس الظرفية الحقيقية. والظلمات: تكاثف

(1) ساقط من ح.

(2) هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنائي بالولاء، الليثي، أبو عثمان الشهير بالجاحظ. ولد 163هـ، وتوفي 255هـ. (انظر: الوفيات: 1 / 388، ولسان الميزان: 4 / 355، ونزهة الألباء، ص: 254، والأعلام: 5 / 74).

(3) نسب لأبي داود بن جرير. (البيان والتبيين: 1 / 44-155).

(4) ح: منها هاهنا.

(5) ح: الغيث.

(6) ح: فَعِيل.

(7) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 194، ومشكل إعراب القرآن: 1 / 81، والبيان للأنباري: 1 / 61، وإملاء ما من به الرحمن، ص: 29.

(8) ح: مكة.

(9) ح: التلبس.

المطر بتتابع القطر والسحاب وسحمته⁽¹⁾، وتطبيقه مع ظلمة الليل، وإن أريد به السحاب ففيه الرعد والبرق، وأما الظلمات فما ذكرت بعينها إلا المطر، فإنه قد يكون وقد لا يكون.

والرعد: الصوت الذي يسمع من السحاب عند تمزيق الريح (إياه)⁽²⁾، وهو (من)⁽³⁾ تخريق الدخان البخار عند احتقانه فيه بتكاثفه. والبرق ما يلمع من السحاب إذا تحاكت أجزاءه، من برق الشيء بريقا إذا لمع، ولم يجمع⁽⁴⁾ رعد وبرق، وإن كان الجمع أشد مناسبة لقوله ﴿كُلَّمَاتٍ﴾، وأكثر مبالغة كما في قول⁽⁵⁾ البحري⁽⁶⁾:

يَا عَارِضًا مُتَلَفِّعًا بِبُرُوقِهِ يَخْتَالُ بَيْنَ بُرُوقِهِ وَرُعُودِهِ

لكونهما في الأصل مصدرين، فإن أريد العينان روعي الأصل فلم يجمعا، وإن أريد الحدثان أي [33] الإبراق / والإرعاد فحقهما الإفراد، وأيضا قصد التهويل المناسب للمقام بغرابة⁽⁷⁾ نوعهما المستفاد⁽⁸⁾ من التنكير⁽⁹⁾، لا بتعدد أفرادهما⁽¹⁰⁾ المستفادة من صيغة الجمع.

(1) السَّحْمُ والسُّحَام والسُّحْمَةُ: السواد. (اللسان: سحم).

(2) ساقطة من ح.

(3) سقطت من ح.

(4) انظر: الكشف: 1 / 215-216.

(5) هو صحيح النسبة. (ديوانه: 2 / 693، وفيه: بِرُودِهِ، بدل: بِرُوقِهِ.

(6) هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي، أبو عبادة البحري، شاعر كبير، يقال لشعره: «سلاسل الذهب»، وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبي، وأبو تمام، والبحتري. ولد سنة 206هـ بمنجع (بين حلب والفرات)، وتوفي بها سنة 284هـ.

(7) ح: بقرينة.

(8) ح: نوعها المستفادة.

(9) ح: التنكير.

(10) ح: أفرادها.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾: جملة استئنافية وذلك أنه لما ذكر الظلمات والرعد والبرق على ما يؤذن بالهول والشدة، فكأن قائلًا قال: فكيف حالهم مع⁽¹⁾ ذلك الرعد؟ فقال: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾، ثم قال: فكيف حالهم مع ذلك البرق؟ ف قيل: ﴿يَكَاذُ الْبَرْقُ يَخْصَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾، ثم قال: فكيف حالهم مع تلك الظلمات؟ ف قيل: ﴿كُلَّمَا أَصَاءَ لَهُمْ مَسْئَلٌ فِيهِ وَلَدَا أَهْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾. أو صفة للمضاف المحذوف في محل الجر أي ذوي صيب يجعلون، وصح رجوع الضمير إلى (ذلك)⁽²⁾ المضاف لكونه في حكم⁽³⁾ المذكور.

وفي ذكر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل، ومبناها على أن تكون⁽⁴⁾ الأصابع بمعناها لا بمعنى الأنامل.

وفي العدول عن «يدخلون» وهو الظاهر إلى المذكور نوع تقوية لتلك المبالغة، ثم إنه كناية عن كمال الحيرة، وفرط الدهشة، فيستقيم المعنى بلا حاجة إلى تنزيل الكلام عن درجته البليغة، حذرا عن عدم مطابقته للواقع. ﴿مَنْ الصَّوْاعِقُ﴾: متعلق بـ «يجعلون»، أي من أجلها يجعلون، كقولك: سقاه من العيمة⁽⁵⁾⁽⁶⁾.

والصاعقة: قصفة⁽⁷⁾ رعد تنقض معها شقة من نار لطيفة جديدة لا تمر بشيء إلا أتت عليه، لكنها مع حداثتها سريعة الخمود للطافتها، وهي

(1) ح: من.

(2) ساقطة من ح.

(3) ح: في الحكم.

(4) ع: يكون.

(5) ح: القيامة.

(6) والعَيْمَةُ: شدة العطش. (اللسان: عوم).

(7) ح: قطعة.

تنقذ من السحاب إذا اصطكت أجرامه، أو جرم ثقيل مذاب مفرغ من الأجزاء اللطيفة الأرضية الصاعدة المسماة دخانا، والمائية المسماة بخارا، حار حاد في غاية الحدة والحرارة، لا يقع على شيء إلا ثقب وأحرق، ونفذ في الأرض حتى بلغ الماء، فانطفئ ووقف، ومنه الخارصين⁽¹⁾ من الصعق: وهو شدة الصوت، وقد يطلق على كل هائل مسموع أو مشاهد، ويقال: صعقته⁽²⁾ الصاعقة إذا أهلكته بالإحراق أو شدة الصوت. وقرئ: ﴿مِنَ الصَّوَاقِعِ﴾⁽³⁾ و﴿4﴾ وليس بقلب للصواعق لاستواء البنائين في التصرف. يقال: صعق⁽⁵⁾ الديك، وخطيب مصقع، ونظيره «جبد» في «جذب»، وهي في الأصل إما صفة لقصفة الرعد أو للرعد، والتاء للمبالغة كما في الراوية، أو مصدر كالعافية والكاذبة.

﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾⁽⁶⁾: منصوب على المفعول له، والموت: زوال الحياة.

﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾⁽⁷⁾ 19 ﴿7﴾: جملة اعتراضية لا محل لها، وإحاطة الله بالكافرين مجاز، معناه أنهم لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط.

(1) ح: الخارجين.

(2) والصَّعَقُ: مثل الغشي يأخذ الإنسان من الحرِّ وغيره. (اللسان: صعق).

(3) ح: الصواعق، بفتح العين وهو.

(4) انظر: شواذ القرآن لابن خالويه، ص: 11، وهي قراءة الحسن، وهي لغة تميم وبعض ربيعة. وانظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 194.

(5) في اللسان: والصَّعَقُ: رَفَعَ الصوت، وصَقَعَ بصوته يَصْقَعُ صَقْعًا وصُقَاعًا: رفعه. وصَقَّ الديك: صَوْتُهُ. والصَّقِيعُ أيضًا: صوته، وقد صَقَعَ الديك يَصْقَعُ: أي صاح. (اللسان: صعق).

(6) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 194، ومشكل إعراب القرآن: 1 / 81، والبيان للأنباري: 1 / 61، وإملاء ما من به الرحمن، ص: 29.

(7) قال النحاس عن الآية: ابتداء وخبر. (إعراب القرآن للنحاس: 1 / 195، وهو نفس ما قاله مكِّي. (انظر: مشكل إعراب القرآن: 1 / 81).

﴿يَكَاذُ الْبَرْقُ يَخْلَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾: كاد من أفعال المقاربة وضعت لمقاربة الخبر من الوجود لعروض سببه، لكنه لم يوجد إما لفقد شرطه، أو لعروض مانع. والخطف: الأخذ بسرعة.

[34] ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾: المشي: / السير السهل، وأضاء إن جعل متعديا أي أضاء لهم ممشي، ورجع الضمير في «فيه» إليه لكونه منويا، ويؤيده قراءة⁽¹⁾: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ﴾، وإن كان لازما وهو الظاهر كأظلم، ومعناه⁽²⁾: مشوا في الضوء، أي في مطرحه أو به، أو كلما نار البريق فأنار الطريق مشوا فيه.

﴿وَإِذَا أَنْهَلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾: أظلم: غير متعدد على الظاهر، ويحتمل أن يكون متعديا من ظلم الليل، ويعضده قراءة⁽³⁾ «أظلم» على ما لم يسم فاعله، ومعنى قاموا: وقفوا وثبتوا في مكانهم، ومنه: قامت السوق إذا ركدت، وقام الماء إذا جمد، وإنما جاء مع «أضاء» بـ «كلما»، ومع «أظلم» بـ «إذا» لقوة دواعيهم إلى إمكان⁽⁴⁾ المشي، والخلاص عما هم فيه من الشدة والحيرة، وحرصهم على ما همهم به معقود من السعي والحركة، فلا يسعهم الإهمال وترك الفرصة، وأما الوقوف⁽⁵⁾ فليس كذلك لأنه يلزمهم للعجز.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾: أي ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم. وقرئ⁽⁶⁾: ﴿لَذَهَبَ اللَّهُ⁽⁷⁾ بِأَسْمَاعِهِمْ﴾ بزيادة الباء،

(1) انظر: البحر: 1 / 88.

(2) ح: معناه.

(3) انظر: البحر: 1 / 88.

(4) ح: مكان.

(5) ح: الوقف.

(6) قرأ به ابن أبي عيلة. (الكشاف: 1 / 222).

(7) ح: الله تعالى.

كقوله ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾⁽¹⁾، شاع حذف مفعول «شاء»، وأراد مع حرف الشرط لدلالة الجواب عليه، حتى لا يكاد يذكر إلا إذا كان مستغرباً، كقوله⁽³⁾: فلو شئت أن أبكي دما لبكيتته، أراد: ولو شاء الله لزاد في قصيف الرعد فأصمهم، وفي حقوق البرق فأعماهم. وفائدة هذه الشرطية التنبيه على أن كل محنة معها منحة⁽⁴⁾، وأن نعمة الدفع تفوق نعمة النفع، ولا دلالة فيه على وجود ما يقتضي الجزاء المذكور، ولا على أن تأثير الأسباب مشروط بمشيئته تعالى.

وأما أن الكل واقع بقدرته فالتنبيه عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁽²⁰⁾، تقرير لما تقدم، ولا اختصاص للشيء بالوجود، كيف؟ وهو أعم العام يقع على الواجب والممكن والممتنع، نص على ذلك سيبويه⁽⁵⁾ حيث قال في «كتابه»⁽⁶⁾: إن الشيء يقع على (كل)⁽⁷⁾ ما أخبر عنه، وخص هاهنا بالممكن بدليل العقل، وقرينة القدرة؛ إذ القدرة هي مبدأ الأفعال المتضادة على نسبة متساوية، والواجب راجح الوجود، والممتنع راجح العدم، فلا يمكن تساوي الطرفين الذي هو شرط تعلق القدرة إلا في الممكن، فكأنه قيل: على كل شيء ممكن قدير.

نعم، إنه في الأصل مصدر شاء إلا أن إطلاقه بمعنى مشيء لا يستلزم الوجود في الجملة، لأن متعلق المشيئة قد يكون زوال الوجود وعدم الإيجاد.

(1) ح: بأيديكم إلى التهلكة.

(2) من الآية: 194 من سورة البقرة.

(3) انظر: الكشف: 1 / 221.

(4) ح: محنة.

(5) هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه. ولد سنة 148هـ، وتوفي 180هـ. (وفيات الأعيان: 1 / 375، والبداية والنهاية: 10 / 176، والأعلام: 5 / 81)، وانظر: نزهة الألباء، ص: 71، وبغية الوعاة، ص: 366.

(6) انظر: كتاب سيبويه: 1 / 22، الكشف: 1 / 222، والتفسير الكبير: 2 / 88.

(7) ساقطة من ح.

واشتقاق القدرة من القدر، لأن القادر يوقع الفعل على مقدار قوته، والقادر هو الذي يصح منه الفعل والترك. وأما الذي إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل فهو المختار، ولا يلزمه أن يكون قادرا لجواز أن يكون مشيئة الفعل لازما لذاته، وصحة الشرطية لا تقتضي⁽¹⁾ وجود المقدم.

واعلم أن ما ذكر تميم لتمثيل شدة الأمر على المنافقين بشدته⁽²⁾ على أصحاب الصيب، من

[35] الحيرة / والخوف والدهشة، بحيث إذا صادفوا خفقة من البرق انتهزوها فرصة، مع خوف أن يخطف أبصارهم، فخطوا خطوات يسيرة، وإذا انطوت وانطفئت حبسوا عن الحركة، وبقوا متحيرين خائبين، ثم إن التمثيلين المذكورين جاز أن يكونا مفرقين، إلا أن الأصح الأفصح الذي عليه الفحول من علماء البيان أن يكونا من التمثيلات المركبة، لا يتكلف لكل جزء جزء - من أجزاء الجملة الممثل لها فرادى - شيء يشبه به⁽³⁾ من أجزاء الجملة الممثل لها⁽⁴⁾ مفرقة كما في قول امرئ القيس⁽⁵⁾:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي⁽⁶⁾

بل تشبه هيئة حاصلة من أشياء تضامت وتآلفت، وصارت شيئا واحدا بأخرى مثلها من غير مراعاة أفرادهما، والنظر إلى تشبيه شيء من

(1) ح: لا يقتضي.

(2) ح: بشدة.

(3) ح: بشيء مشبه به.

(4) ح: بها.

(5) هو امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار، أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يماني الأصل، مولده بنجد نحو 130 قبل الهجرة، ووفاته 80 قبل الهجرة. (الأعلام: 2 / 11-12).

(6) انظر البيت في الكشف: 1 / 210، والعُنَاب: حبل طويل في السماء، لا ينبت شيئا. (اللسان، عنب). والحشف: اليابس الفاسد من التمر، وقيل: الضعيف الذي لا نوى له. (اللسان: حشف).

هذه بشيء من تلك، فإن الغرض تشبيهه (حال)⁽¹⁾ المنافقين في حيرتهم، وما خبطوا فيه من الضلالة وشدة الأمر عليهم، وخزيهم وافتضاحهم، بحال من يكابد شدة أمره عند انطفاء ناره بعد إيقادها⁽²⁾، ورجاء⁽³⁾ الانتفاع بها، والتهدّي بإضاءتها، أو بحال من أخذته السماء في ليلة مظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق والموت .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: التفت عن⁽⁴⁾ الغيبة إلى الخطاب، لأن الكلام السابق كان في تعداد فرق المكلفين، وحكايات أحوالهم، وبيان مآلهم، ويناسبه أسلوب الغيبة⁽⁵⁾.

وأما هذه الآية فمصدّرة بأمر وتكليف، وحق الأوامر والنواهي أن يسلك فيها مسلك الخطاب، خصوصا إذا كان ما كلف به مما فيه مشقة، فإن فيه جبرا لتلك الكلفة بلذّة المخاطبة . والنداء إحضار الغائب، وتنبيه الحاضر، وتوجيه المعرض، وتفريغ المشغول، وتهيج الفارغ .

و«يا»: حرف وضع في أصله لنداء البعيد، واستعماله هاهنا في نداء القريب، لبعده عما خوطب به معنى، وقد يستعمل لنداء القريب الفطن للدلالة على أن الخطاب المذكور بعده معني به جدا . وأما نداء الداعي المتضرع لربه بقوله: يارب، مع علمه بأنه أقرب إليه من حبل الوريد، فلهضم نفسه، استقصارا لها، واستبعادا من مظان القربة والزلفى .

و«أي»: وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام لتعذر الجمع بين حرفي التعريف، وهو اسم مبهم يفتقر إلى ما يزيل إبهامه من اسم جنس

(1) ساقطة من ح .

(2) ح : إيقاده .

(3) ح : ورجاع .

(4) ح : من .

(5) انظر الكشف : 1 / 263-264 .

أو ما يجري مجراه⁽¹⁾ صفة له، حتى يحصل المقصود بالنداء. وكلمة التنبيه لمعاذدة حرف النداء بتأكيد معناه، ووقعها عوضاً عما يستحقه أي من الإضافة.

«والناس» صفة لـ «أي» واجب رفعها، خاطبهم مقبلاً عليهم بالنداء، لأن فيه هزاً لما يلقيه إليهم من أمر العبادة له.

﴿اغْبُؤْ﴾: قد مر تفسير العبادة، والأمر به⁽²⁾ يعم أفراد المكلفين، لأن اسم الجمع المحلى

[36] باللام للعموم حيث لا عهد، / وما روي⁽³⁾ عن علقمة⁽⁴⁾ أن كل ما نزل فيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فمكي إن صح⁽⁵⁾⁽⁶⁾، فلا يوجب تخصيصه بالكفار، وليس المراد إحداث العبادة خاصة، بل ما يعمه والمواظبة عليها، فإن هذا هو المناسب للمقام، وإن كان الأول هو المتبادر من الكلام، والعبرة في الكلام البليغ لمقتضى المقام، لا (لما)⁽⁷⁾ يتبادر إلى الأفهام.

(1) ح: مجراها.

(2) انظر تفسيره لسورة الفاتحة في الآية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الآية: 5 من سورة الفاتحة).

(3) هذا القول حكى عن علقمة والحسن (التفسير الكبير: 2 / 90).

وقوله: «إن صح»، لأن للعلماء اصطلاحات في معنى المكي والمدني، أختار منها الاصطلاح المشهور، وهو أن المكي: ما نزل قبل هجرته ﷺ إلى المدينة، وإن كان نزوله بغير مكة، والمدني: ما نزل بعد هذه الهجرة وإن كان نزوله بمكة. (مناهل العرفان: 1 / 194).

(4) هو علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك النخعي الهمداني أبو شبل. تابعي، كان فقيه العراق، يشبه ابن مسعود في هديه وسمته وفضله. ولد في حياة النبي ﷺ، وروى الحديث عن الصحابة، ورواه عنه كثيرون. توفي رحمه الله بالكوفة سنة 62 هـ. (تهذيب التهذيب: 7 / 276، وتذكرة الحفاظ: 1 / 45، وحلية الأولياء: 2 / 98، والأعلام: 4 / 248).

(5) ح: الأصل.

(6) إنما قال: «إن صح»، لأنه بعيد عن الصحة كيفاً، فإن سورة النساء مدنية وأولها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. (الإتقان: 1 / 47).

(7) ساقطة من ح.

واعلم أن النبي عليه السلام بُعث بدعوة الكفار إلى الإيمان، وورد في ذلك نصوص، وأنهم أخبروا في بعض النصوص بأن العبادة لا صحة لها بدونها، وبعد هذا أمرهم بالعبادة في هذا النص وغيره، وإن ورد مطلقاً عن قيد الإيمان لفظاً، لكنه مقيد به معنى، بحكم النص المخبر عن اشتراط صحة العبادات بالإيمان، وليس في ذلك أمر بالإيمان في ضمن الأمر بالعبادة حتى يلزم إيجاب الأصل تبعاً لإيجاب الفرع فينا في حكم الأصالة.

﴿رَبِّكُمْ﴾: عبارة الرب صادف محزّها⁽¹⁾، (إذ)⁽²⁾ هو السيد والمصلح، ومن كان مالكا أو مصلحاً أحوال العبد فجدير أن يعبد ولا يشرك به، ولما أمر بعبادته—وهي موقوفة على معرفة وجوده—ناسب أن يذكر من الأوصاف ما يتضمن الدليل على وجوده واستحقاقه العبادة فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾، فالتوصيف المذكور للتعليل كما هو الأصل في ترتيب الأمر بالشيء على الموصوف والموصول، وفي التعليل المذكور باعتبار تضمنه الإشارة إلى أن ما لا قدرة له على الخلق والإيجاد لا استحقاق له للعبادة، تعريض للمشركين حيث عبدوا ما لا قدرة له على شيء.

وما قيل⁽³⁾ على تقدير أن يكون الخطاب للمشركين—يكون الوصف المذكور للتخصيص وهم منشأ—عدم فهم معنى ربكم، فإن المعنى المتبادر منه: الرب المشترك فيما بينهم، وليس ذلك إلا الله تعالى، لأنهم ما اتفقوا على واحد من معبوداتهم الباطلة، فإذا لا شركة في معنى ربكم، فلا حاجة إلى مخصص. وأصل الخلق التقدير، يقال: خلق النمل إذا قدرها وسوّاها بالمقياس⁽⁴⁾، والمراد إيجاد الشيء على تقدير واستواء.

(1) الحَزْ: الحين والوقت. (اللسان: حَزَز). قال ابن الأثير: وأحسبه بلغة غير عربية. (اللسان: محز).

(2) ساقطة من ح.

(3) ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ صفة موضحة مميزة، وإن كان الخطاب للفرق جميعاً، فالمراد به ربكم على الحقيقة، والذي خلقكم صفة جرت عليه على طريق المدح والتعظيم، ولا يمتنع هذا الوجه في خطاب الكفرة خاصة، إلا أن الأول أوضح وأصح. (الكشاف: 1 / 228).

(4) انظر اللسان: خلق.

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾⁽¹⁾: ذكر خلق من قبلهم (لأنهم أصولهم، وخلق الأصول إنعام على الفروع، وقدم خلق المخاطبين وإن تقدم خلق من قبلهم زماناً)⁽²⁾، لأن علم الإنسان بحال نفسه أظهر من علمه بأحوال غيره، ولأنهم المواجهون بالعبادة⁽³⁾، فتنبههم أولاً على أحوال (أنفسهم)⁽⁴⁾ أهم وأكد، وبدأ أولاً بصفة الخلق إذ كانت العرب مقرة بأن الله تعالى خالقهم، وهم المخاطبون ولك أن تقول: أخرج مخرج المقرر المعلوم، إما لا اعترافهم به كما أفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾⁽⁵⁾، أو مبالغة في ظهوره، حيث نزل لتمكينهم من العلم به بأدنى نظر منزلة المعلوم، ودخلت «من» على الزمان إذ التقدير من زمن قبل زمان خلقكم.

[37] وقرئ ﴿مَنْ﴾ بفتح الميم على أنه خبر مبتدأ / محذوف هو صدر الصلة، تقديره: والذين هم أناس قبلكم، وحذف صدر الصلة كثير الدور في الكلام، وفيه تأكيد إبهام يتضمن التنبية بما فيه (من)⁽⁶⁾ التفخيم، على أن خلق من قبلهم أدخل في القدرة، وعلى هذا تكون⁽⁷⁾ «من» موصوفة، وقبلكم صفتها. ويحتمل أن تكون⁽⁸⁾ موصولاً مقحماً كما أقحم «تيم» في يا تيم⁽⁹⁾ تيم عدي⁽¹⁰⁾.

(1) انظر: التفسير الكبير: 2 / 111، والبحر المحيط: 1 / 95.

(2) مكررة في ح.

(3) ح: به بالعبادة.

(4) ساقطة من ح.

(5) من الآية: 24 من سورة لقمان.

(6) ساقطة من ح.

(7) في ع: يكون.

(8) في ع: يكون.

(9) في اللسان: تيم: قبيلة، وبنو تيم: بطن من الرّباب. (اللسان: تيم).

(10) هو بيت لجرير قال فيه:

يا تيم تيم عدي لا أبا لكم لا يُلَقِيَنَّكُمْ في سَوْءَةِ عَمْرٍ

انظر: المفصل للزمخشري، ص: 57، وشرح المفصل لابن يعيش: 10 / 2 و105، والخصائص: 1 / 345.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (21): أي تجعلون⁽¹⁾ العبادة وقايتكم، ولعل فيها لغات، ولم يجرى في القرآن إلا أفصحها، وهي للترجي والإطماع وذلك بالنسبة إلى المخاطبين.

والمعنى: إذا عبدتم ربكم رجوتم حصول التقوى، وهي التي يحصل بها الوقاية من النار، والفوز بدار القرار، فتعلقت جملة الرجاء بـ ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾. وقيل⁽²⁾: تعلقها بـ ﴿خَلَقَكُمْ﴾، ولا يعجبني ذلك، لأن الذي سيق الكلام لأجله هو الأمر بالعبادة.

وذكر الموصول وصلته لما قصد بالتبع، فلم يجرى الموصول ليحدث عنه، وكذا صلته، (كيف)⁽³⁾؟ وهي لتتميم ما قبلها! فلا يناسب أن يتعلق بها ترج، بخلاف اعبدوا فإنها الجملة المفتحة بها أولا، والمطلوبة من المخاطبين، وإذا تعلق بـ ﴿اعْبُدُوا﴾ ناسب خطاب ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾⁽⁴⁾.

﴿الَّذِي﴾⁽⁵⁾: نصب على أنه صفة بعد صفة، ولزوم توسط الأجنبي بين الوصفين لا يضعفه، لأنه أدنى⁽⁶⁾ من توسيطه بين الموصوف والصفة الواقع في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَّغَيْرِ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاحْصِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾⁽⁷⁾، أو على المدح، أو رفع عليه⁽⁸⁾، أو بالابتداء وخبره: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾، وفيه ضعف لمضي⁽⁹⁾ الصلة، فلا يناسب دخول الفاء في الخبر وللربط بالإسم الظاهر.

(1) ح: تخلقون.

(2) قال الزمخشري: وحمله على أن يخلقهم راجين للتقوى ليس بسديد أيضا، ولكن «لعل» واقعة في الآية موقع المجاز لا الحقيقة. (الكشاف: 1 / 230-231).

(3) ساقطة من ح.

(4) ساقطة من ح.

(5) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 198.

(6) ح: أولى.

(7) من الآية: 15 من سورة الأنعام.

(8) ح: رفع عليه على أنه خبر مبتدأ محذوف.

(9) ح: بمعنى.

﴿جَعَلَ﴾: الجعل⁽¹⁾ هنا بمعنى التصيير فيتعدى إلى مفعولين. ثانيهما: ﴿فِرَاشًا﴾، ﴿لَكُمْ﴾ فيه منة على عباده، وفي تقديمه⁽²⁾ إشارة إلى عزة عنده، وفضيلتهم على باقي المخلوقات حيث خلق السماوات والأرض لأجلهم خاصة.

﴿الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾: الفراش والمهاد والبساط متقاربة المعنى⁽³⁾، والمراد ما يفرش⁽⁴⁾، وفيه إشارة إلى أن الأرض لم تخلق⁽⁵⁾ مبسوطا بل خلقت على وضع آخر، ثم بسطت على ما أفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ مَدْحَاهَا﴾⁽⁶⁾، ومن ظن أن ﴿فِرَاشًا﴾⁽⁷⁾ حال فقد اشتبه عليه حقيقة الحال.

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾⁽⁸⁾: مصدر سمي به⁽⁹⁾ المبني.

﴿وَأَنْزَلَ﴾: عطف على جَعَلَ. ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ متعلق بـ﴿أَنْزَلَ﴾، أو في موضع الحال فيتعلق بمحذوف، والمعنى من جهة السماء، لأن الأصل الذي لا يعدل عنه إلا بصارف⁽¹⁰⁾ أن المعرفة إذا أعيدت تكون⁽¹¹⁾ الثانية عين الأولى، و«من»: للابتداء.

(1) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 198.

(2) ح: وتقديمه.

(3) ح: المعاني.

(4) ح: يفرش.

(5) ع: لم يخلق.

(6) الآية: 30 من سورة النازعات.

(7) قال أبو جعفر النحاس: ﴿الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾: مفعولان لجعل. (إعراب القرآن: 1 / 198).

(8) ساقطة من ح.

(9) ح: بناء.

(10) ح: الأبصار.

(11) ع: يكون.

﴿مَاءٌ﴾: هو جوهر سيال يضاد النار برطوبته وبرودته، وتنكيره للتنويع، يعني أنزل من السماء

[38] نوعا من الماء، ففيه إشارة إلى أن في ذلك الجنس ما لم ينزل من السماء، وهو ما يحدث / في الأرض بطريق الانقلاب من الهواء وغيره.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾: الخروج في الأصل: الانفصال من المحيط إلى الخارج⁽¹⁾، ويلزمه الظهور، وإنما عطف على «أنزل» بحرف التعقيب وإن كان متراجعا عنه، لسرعة خروج النبات بالمطر، كأنه لم يتخلل بينهما زمان تصويرا لشدة (تأثير)⁽²⁾ قدرته تعالى، وفي توسط الأسباب حكمٌ ليست في الإنشاء بغتة. ثم إنه تعالى جعل بلطفه منافع السماء متصلة بمنافع الأرض، فإن أكثر ما يخرج من الأرض بما ينزل من السماء ليعلم أن منشأها واحد، لأنه لو كان منشئ هذا غير الآخر لم يتصل منافع هذا بمنافع الآخر⁽³⁾، (على)⁽⁴⁾ بعد ما بينهما، وتوهم خلاف أحدهما الآخر، فلما دل هذا على⁽⁵⁾ أن مُنْشِئَهَا واحد لا شريك له، فلا تجعلوا له أندادا.

﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾: الثمرة: أصلها الزيادة والنماء، يقال، ثمر الله ماله⁽⁶⁾: أي زاده وكثره، وحمل الشجرة تسمى ثمرة لهذا، وتجمع على ثمر⁽⁷⁾ بحذف الهاء التي هي للتوحيد، ثم ثمارا كالبلد يجمع بلادا، ثم الثمار تجمع على الثمر كالحمار يجمع على الحمر، وهذه جموع تكسير،

(1) ح: من الحصن إلى العورة.

(2) ساقطة من ح.

(3) ح: الأرض.

(4) ساقطة من ح.

(5) ح: على منشئ.

(6) في اللسان: ثمر الله مالك: أي كثره. (اللسان: ثمر).

(7) في ع: وتجمع ثمرًا.

وجمع السلامة هو الثمرات، والمراد منها هاهنا المأكولات كلها من الحبوب والفواكه وغيرها مما يخرج من الأرض والشجر.

وقد بسط الله تعالى ما اختصره في هذه الآية في آية أخرى فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾⁽¹⁾، وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾⁽²⁾، صريح في عموم الثمرة، لأن الحصاد إنما يكون للزراع، واللام لتعريف الجنس، وإنما جمع لاختلاف أنواعه، ثم⁽³⁾ إن جمع التصحيح إنما يكون للقلة إذا لم يعرف باللام، فلا حاجة إلى أن يقال إن الجموع يتعاور⁽⁴⁾ بعضها في موضع بعض، و«من» للتبعية فإن ما يصلح رزقا لنا بعض الثمرات المخرجة، ولا يصلح للتبيين إذا لم يتقدم ما يبين.

﴿رِزْقًا﴾⁽⁵⁾ مصدر، فيكون مفعولا له، ويحتمل أن يكون بمعنى مرزوقا، فينتصب على الحال، وعلى الأول يكون الكاف في ﴿لَكُمْ﴾ مفعولا به، واللام مقوية⁽⁶⁾ لتعدي المصدر إليه، وعلى الثاني يكون في موضع الصفة، فيتعلق اللام بمحذوف، أي كائنا لكم، ولا يمتنع عكس ذلك، ويجوز أن يتعلق بـ ﴿أَخْرَجَ﴾.

﴿فَلَا تَجْمَلُوا لِلَّهِ أَنْهَ لَدَّ﴾: ندُّ الشيء مشاركته في الجوهر⁽⁷⁾، وذلك ضرب من المماثلة، فإن المثل يقال في أي مشاركة كانت، فكل ندّ مثل،

(1) من الآية: 100 من سورة الأنعام.

(2) من الآية: 142 من سورة الأنعام.

(3) ح: ثم إن جمع لاختلاف أنواعه.

(4) والتعاور: شبه المداولة، ويتعاورون: يتناوبون. (اللسان: عور).

(5) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 199.

(6) ح: تقوية.

(7) في ح: فيما يجوهر.

ولا ينعكس . ولما كانوا اتخذوا أندادا نهى عن جعل الأنداد لله تعالى على حسب الواقع، وإلا فحق النهي أن يتعلق بجعل ند له تعالى، وهذه الجملة متعلقة بـ ﴿الَّذِينَ﴾ على ما جعلناه خبر مبتدأ محذوف، أي هو الذي من عليكم بأنواع [النعم] ⁽¹⁾ العظام من خلق السماء سقفا مرفوعا، وجعل الأرض فرشا ⁽²⁾ موضوعا، وإخراج ⁽³⁾ النبات بالمطر رزقا مجموعا، فلا تجعلوا له ⁽⁴⁾ أندادا، وإنما عدل إلى الظاهر نعيًا عليهم بأن جعلهم له أندادا. جعل الأنداد

[39] لذات / موصوفة ⁽⁵⁾ بصفة لا شريك له فيه، فأنى الشركاء؟ ويجوز أن يكون متعلقا بقوله ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾، والفاء للتسبيب، أي تسبب عن إيجاد هذه الآيات الباهرة النهي من ⁽⁶⁾ اتخاذكم الأنداد، ولولا هذا الاعتبار لكان الأنسب عطفه بالواو كما في قوله تعالى: ﴿وَالْعَبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا ⁽⁷⁾﴾ ⁽⁸⁾، ويجوز أن يكون نفيا منصوبا بإضمار أن على جواب الأمر كما في: زرني فأكرمك. لا يقال شرط انتصاب المضارع بإضمار «أن» في جواب الأمر، وهو كون الأول سببا للثاني منتف هاهنا، لأنه يجوز أن يكتفى بسببية الأول للإخبار بمضمون الثاني كما اكتفى بسببية الشرط للإخبار بمضمون الجزاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ⁽⁹⁾﴾.

(1) ساقطة من ع.

(2) ح: فراشا.

(3) ح: وأخرج.

(4) ح: لله.

(5) في ع: موصوف.

(6) في ع: عن.

(7) في ع وح: اعبدوا الله ولا تشركوا.

(8) من الآية: 35 من سورة النساء.

(9) من الآية: 53 من سورة النحل.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (22): أي والحال أنتم من أهل العلم على أن تعلمون من الأفعال المنزلة منزلة اللازم، فلا يقدر له مفعول، ويجوز أن يقدر له المفعول على أن المعنى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ امتناع الند، أو أنها⁽¹⁾ لا تفعل مثل هذه الأفعال.

وعلى هذا⁽²⁾ فالمقصود منه التوبيخ والتنبيه على قبح فعلهم، لأن مرتكب القبيح مع علمه بقبحه أعظم جرماً، لا تقييد الحكم وتخصيصه⁽³⁾ به، فإن العالم والجاهل المتمكن من العلم سواء في التكليف، وإنما خصصنا التوبيخ بالوجه الأخير، لأن الظاهر أن المراد على الأول النهي لترك الأنداد، ووجه ذلك أن التلطيف بعد التخليط أدخل في الأسماع، وأعون على الإصغاء من التخليط (بعد التخليط)⁽⁴⁾، ألا ترى كيف وصّى رسوله إذ أرسل إلى عدوه وقال: ﴿قَوْلًا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا﴾⁽⁵⁾.

﴿وَلِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾: لما قرر وحدانيته، وبين الطريق الموصل إلى العلم بها، عقبه بذكر ما هو الحجة على نبوة محمد عليه السلام، وهو القرآن المعجز بفصاحته، وعرف ما يتعرف به (إعجازه)⁽⁶⁾ ويتيقن أنه من عند الله.

ثم إنه سلك مسلك الإطناب حيث لم يقل: وإن ارتبتم، سوقاً للكلام على وفق حالهم، وتنبيهاً على توغلهم في الارتياب واستمرارهم على ذلك، واستقرارهم فيه، وتضميناً للنفي عليهم، حيث بلغوا النهاية

(1) ح: وأنها.

(2) ح: وعلى المقصود.

(3) ح: وتحقيقه.

(4) ساقطة من ح.

(5) من الآية: 43 من سورة طه.

(6) ساقط من ح.

فيما لا يجوز لأولي الألباب الوقوع في بدايته، وهل هذا إلا آية غاية الغباوة والغواية.

وأتى بكلمة الشك مع تحقق الريب على خلاف الظاهر، تكميلاً للنعي عليهم بتنزيل حالهم المحقق منزلة المقدّر للتنبيه، على أن مثل ذلك الحال حقيق بأن يعد من قبيل ما يفرض كما يفرض المحال. والتنكير في ﴿رَيْبٍ﴾ للتحقير، وفيه تنبيه على أن وضوح دلائل الإعجاز في المنزل المذكور بلغ إلى حدّ لا ينبغي أن يفرض فيه ريب إلا على وجه القلة.

﴿مِنْ﴾: يحتمل ابتداء الغاية والسببية، و﴿مَا﴾: موصولة، أي من الذي نزلنا، والعائد

[40] محذوف، أي نزلناه، وتضعيف ﴿قَزَلْنَا﴾ بمنزلة همزة النقل، ويؤيده قراءة⁽¹⁾ ﴿أَنزَلْنَا﴾، ولا دلالة / فيه على نزوله منجّما في أوقات مختلفة، لأن مبناه على أن يكون التضعيف للتكثير، وذلك في المتعدّي نحو: خرّجت وقطعت، ولا يكون في اللازم إلا نادرا، نحو قولهم: مات المال وموت إذا كثر ذلك فيه، وحينئذ لا يجعله متعديا كيلا يلزم الجمع بين معني التضعيف، وذلك غير جائز، وفيما نحن فيه لا بد من معني التعدية، فلا مجال لإرادة معني التكثير، والتعبير بما نزلنا دون القرآن للتنبيه على أن الريب فيه باعتبار ذلك الوصف، والعبادة لما كانت أشرف الخصال والتسمي به أنفس الخطط، حتى قال الشاعر:

لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا عَبْدَهُ فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي⁽²⁾

(1) قرأ به يزيد بن قطيب. (الحرر الوجيز: 1 / 106).

(2) انظر: وفيات الأعيان: 1 / 98، ونفع الطيب: 2 / 665، و5 / 327، وروح المعاني: 1 / 193.

سمى نبيه عبداً، وأضافه إلى نفسه تنويهاً بذكره، وتنبيهاً على أنه مختص به، منقاداً⁽¹⁾ لأمره لا يخالفه، فكأنه يقول: على الرسول الذي (كل)⁽²⁾ ما يبلغه من عندنا، وقد شاركه عليه السلام في ذلك التشريف بعض الأنبياء عليهم السلام.

وإنما⁽³⁾ اختصاصه عليه السلام بتسميته بالعبد المطلق، فإنه لم يسم غيره إلا بالعبد المقيّد باسمه كما قال: ﴿وَلَذِكْرُ عَبْدَنَا ذَلُومًا﴾⁽⁴⁾، ﴿وَلَذِكْرُ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾⁽⁵⁾، وغيرهما، وذلك (لأن)⁽⁶⁾ كمال العبودية ما تهنأ لأحد من العالمين إلا لحبيبه عليه السلام، وكمال العبودية في الحرية عما سوى الله تعالى، وهو مختص بهذه الكرامة كما أثنى الله تعالى عليه بذلك فقال: ﴿يَغْشَى السُّدْرَ مَا يَفْشَى مَا زَلَمَ التَّبَصُّرَ وَمَا هَفَى﴾⁽⁷⁾، فلما اختص بهذه الحرية أكرم باسم العبد المطلق كما قال: ﴿فَلَوْحٍ إِلَى عَبْدِهِ مَا لَوْحٍ﴾⁽⁸⁾.

وقرئ على عبادنا⁽⁹⁾، يعني النبيين الذين أنزل عليهم الكتب، وفيه تنبيه على أن من شك في القرآن مع ظهور إعجازه، فهو شك في سائر الكتب الإلهية أيضاً حقيقة أو حكماً، ويجوز أن يراد من أخبر بنبوّة محمد عليه السلام، وبشر بمجيئه من الأنبياء كموسى وعيسى⁽¹⁰⁾ عليهما السلام.

(1) ح: ومنقاد.

(2) ساقطة من ح.

(3) ح: إنما.

(4) من الآية: 16 من سورة ص.

(5) من الآية: 4 من سورة ص.

(6) ساقطة من ح.

(7) من الآية: 16 من سورة النجم.

(8) الآية: 10 من سورة النجم.

(9) قال الزمخشري: وقرأ على عبادنا، يريد رسول الله ﷺ وأمتة. انتهى. (الكشاف: 1 / 239).

(10) انظر ما يتعلق بنبي الله عيسى: المسيحية لأحمد شلبي: 2 / 38.

والأمر: ﴿فَاتُوا﴾ للتعجيز كما في قوله تعالى: ﴿فَاتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ﴾⁽¹⁾، والفاء لأنه جواب الشرط وبدونها، يقال: اتوا، الألف مجتلبة، والهمزة صارت ياء لكسرة ما قبلها، وسقطت همزتها كراهة التقاء الهمزتين، ويثبت⁽²⁾ الياء كتابة في قوله: ﴿ثُمَّ اتُوا﴾⁽³⁾، لأنه يوقف⁽⁴⁾ على ثم، ويبدأ «اتوا»، ولا يثبت⁽⁵⁾ في قوله: ﴿فاتوا﴾، وفي قوله: ﴿واتوا﴾ لتعذر الفصل بين الفاء والكلمة، وكذا بين الواو وبينها⁽⁶⁾.

والسورة⁽⁷⁾: مأخوذة من قولهم: سار يسور إذا ارتفع وعلا، وسمي الجدار المحيط بالمدينة سورا لارتفاعه، فالسورة من القرآن مجموع آيات مفصلة ارتفعت وعلت وظهرت، وصارت كالعلم في مغايرتها لسائر السور، وهي بإطلاقها تتناول أقصر⁽⁸⁾ السور، وهي في القرآن سورة الكوثر⁽⁹⁾، وهي ثلاث آيات قصار، وهذا أبلغ إلزام، وأتم قطع لأهل الخصام، فقد كان التحدي أولا بالإتيان بمثل كل القرآن بقوله: ﴿فَاتُوا﴾⁽¹⁰⁾ بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ⁽¹¹⁾، ثم أخبر⁽¹²⁾ عن عجزهم عن ذلك بقوله: ﴿قُلْ لَّيْنِ

(1) من الآية: 257 من سورة البقرة.

(2) ح: وثبت.

(3) من الآية: 63 من سورة طه.

(4) انظر: منار الهدى، ص: 243، قال الأشموني: صفا: كاف.

(5) ح: ولا ثبت.

(6) ح: والكلمة.

(7) والسورة: تهمز ولا تهمز، فمن همزها جعلها من أَسَارَتْ: يعني أَفْضَلْتُ، لأنها قطعة من القرآن. ومن لم يهمزها جعلها من سورة البناء، أي منزلة بعد منزلة. (تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، ص: 34، والإتقان: 1/ 89).

(8) ح: تناول بأقصر.

(9) وهي هذه الآيات: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، إِنْ أَعْيَيْنَاكَ الْكُوْثِرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

(10) ع وح: فليأتوا.

(11) من الآية: 32 من سورة الطور.

(12) ح: أخبرهم.

[41] اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ⁽¹⁾.
ثم بعشر سور مثله بقوله: ﴿قُلْ قَاتِلُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلَهُ﴾⁽²⁾، ثم لما ظهر عجزهم
عنها أيضا تحداهم بسورة بقوله: ﴿قَاتِلُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾⁽³⁾، وقد عجزوا
عن ذلك كله.

من مثله⁽⁴⁾: في محل الجر صفة لسورة أي بسورة كائنة من مثله،
والضمير لما نزلنا، والمعنى إن كنتم في شك مما أنعمنا على عبدنا لحسن⁽⁵⁾
استعداده في كمال العبودية بإنعام الوحي، ومنه نعمة القرآن في أنه من
عندنا، زاعمين أن معارضته بإيراد المثل مقدور للبشر على ما أفصح عنه
قوله تعالى: ﴿إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ﴾⁽⁶⁾ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ⁽⁷⁾ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ
هَذَا⁽⁸⁾ ﴿قَاتِلُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ أي من مثله⁽⁹⁾ المقدور للبشر في زعمكم،
وقد أفصح عن هذا المعنى في التحدي بعشر سور، ولولا القصد إلى هذا
لكان الظاهر أن يقال: ﴿قَاتِلُوا بِمِثْلِ سُورَةٍ مِنْهُ﴾، ورجوع الضمير للمنزل
عليه لا يساعده المقام ولا الكلام، أما الأول فلما⁽¹⁰⁾ عرفت فيما تقدم أن
المقام مقام توسيع دائرة التحدي، حيث تنزل من التحدي بكل القرآن إلى
التحدي بعشر سور، ثم إلى التحدي بسورة، فلا يناسبه التضييق باشتراط
أن يكون الآتي به أميا في هذه الصورة دون الصور السابقة.

(1) من الآية: 88 من سورة الإسراء.

(2) من الآية: 13 من سورة هود.

(3) من الآية: 22 من سورة البقرة.

(4) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 199، وإملاء ما من به الرحمن، ص: 31.

(5) ح: بحسن.

(6) ع: عليه، وهو تحريف.

(7) ح: لو.

(8) الآية: 31 من سورة الأنفال.

(9) ح: مثل.

(10) ح: فكما.

وأما الثاني فلقوله⁽¹⁾: ﴿وَلَدَعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ خُوفِ اللَّهِ﴾ في معرض ﴿وَلَدَعُوا مِنْ امْتَصَعْتُمْ مِنْ خُوفِ اللَّهِ﴾⁽²⁾ من قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَلَدَعُوا مِنْ امْتَصَعْتُمْ مِنْ خُوفِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽³⁾ (في قولكم: إنه مفترى اختلقه محمد عليه السلام من عند نفسه، وأعانه عليه قوم آخرون)⁽⁴⁾، فهو أمر بأن يستعينوا بكل من يعينهم على⁽⁵⁾ ذلك (في زعمهم)⁽⁶⁾، فعلى هذا لا وجه للاشتراط المذكور، وأيضا لا بد من اعتبار قيد المماثلة بين المنزل والمأمور بإتيانه، وعلى تقدير عود الضمير المذكور إلى المنزل عليه يلزم أن يكون الكلام خلوا عن ذلك القيد المهم.

والشهداء: جمع شهيد معناها -على ما قال ابن عباس⁽⁷⁾ رَضِيَ اللَّهُ - أعوانكم، لأن الشاهد كالعون للمدعي في استخراج حقه، والمراد من الدعاء دعاء استصراخ. وكلمة: ﴿خُوفِ﴾ لها معان، والمراد هاهنا معنى غير، وهي في الأصل اسم، ولهذا دخلها الخافض وخفضها، ولكنها تستعمل استعمال الحروف مفردة عن اللام الذي هو للتعريف والتنوين الذي هو للتذكير، وهما من خصائص الأسماء، لأنها تفيد المعنى في غيرها (كالحروف)⁽⁸⁾، فأجريت مجراها لذلك.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽²³⁾ في زعمكم⁽⁹⁾ السابق ذكره، والصدق: الإخبار المطابق للواقع، هذا إذا كان وصفا للمتكلم، وأما إذا كان وصفا

(1) ح: فلان قوله.

(2) من الآية: 38 من سورة يونس.

(3) الآية: 38 من سورة يونس.

(4) ساقط من ح.

(5) ح: في.

(6) ساقط من ح.

(7) انظر: جامع البيان: 1/167.

(8) ساقطة من ح.

(9) ح: من زعمكم.

للكلام، فهو الخبر المطابق للواقع، ولما كان الأمر المذكور أمر تهكم وتعجيز أخبر أنهم ليسوا قادرين على إتيان المأمور به بقوله:

[42] ﴿قَارِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ / لما أرشدهم إلى الدليل الذي يتبين⁽¹⁾ به أمر النبي ﷺ⁽²⁾، وصدقه، وكون ما جاء به حقا صرح بنتيجته لاستلزام نفي اللازم وهو امتناع معارضته نفي الملزوم الذي هو انتفاء الريب، فلزمهم⁽³⁾ تصديقه والإيمان به، وإلا استوجبوا أشد العذاب.

وإنما أورد الفعل في موضع الإتيان لأنه ما من شيء من الأحداث إلا ويصح أن يعبر به عنه، وذلك لما ذكره الراغب⁽⁴⁾ أن معناه أعم من معنى سائر أخواته نحو العمل والصنع والإحداث، فالمعنى: فإن لم تأتوا بسورة من مثله، ولن تأتوا بسورة من مثله، ولا يخفى ما فيه من حسن الإيجاز.

وأتى بكلمة «إن» دون «إذا» مع تحقق الشرط إما تهكما بهم⁽⁵⁾، وإما بناء على ظنهم قبل ظهور العجز عن المعارضة. و«لم» كلمة نفي تدخل على المستقبل وتجعله بمعنى الماضي، ثم دخول⁽⁶⁾ «إن» وهو للشرط يجعله بمعنى المستقبل، فكأن فيه إشارة إلى انقلاب حال المخاطبين ولا محل لقوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ إلا أنه اعتراض قبل تمام المرام، وهو من محاسن الكلام، إثارة لهمهم⁽⁷⁾ ليكون عجزهم بعد ذلك أبلغ، ومعناه: لستم بفاعلين ذلك أبدا، لأن «لن» لتأكيد النفي في المستقبل، فيشارك لا في نفيه ويباينه في

(1) ح: تبين.

(2) ح: ﷺ.

(3) ح: فلزمه.

(4) قال الرغب: الفعل التأثير من جهة مؤثر، وهو عام لما كان بإجادة أو غير إجادة، ولما كان بعلم أو غير علم وقصد أو غير قصد. (المفردات: فعل، ص: 396-399).

(5) ح: به.

(6) ح: دخل.

(7) ح: لهمهم.

التأكيد والتشديد، واختلف في أصله، فقليل: لا إن، وقيل⁽¹⁾: لا أبدلت ألفه نونا، والظاهر أنه حرف مقتضب برأسه كما هو قول سيبويه، وإحدى الروایتين عن الخليل⁽²⁾.

قليل⁽³⁾: فيه دليل على صحة نبوته عليه السلام حيث أخبر عن الغيب على ما هو به، وفيه أنه من باب الكرامة ولا اختصاص لها عند أهل الحق⁽⁴⁾ بالأنبياء (عليهم السلام)⁽⁵⁾.

وأما الاستدلال بعدم كونه عليه السلام شاكاً في أمره، فما لا وجه له، لأن مبنى دلالة على صحة دعواه على ثبوت عصمته عن الخطأ، وهو فرع ثبوت نبوته، فإثباته به مصادرة: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا [النَّامُوسُ] وَالْجَارَةُ﴾ جواب الشرط، وكُنِيَ به عن ترك العناد تقريراً للمكنى عنه، وتهويلاً لشأن العناد، وتصريحاً بالوعيد مع الإيجاز، وذلك أن من عاند بعد وضوح الحق له استوجب العقاب بالنار، واتقاء النار من نتائج ترك العناد، والنار هي نار جهنم.

وقيل⁽⁷⁾: النار مجاز عن العناد، وهذا⁽⁸⁾ أشد تهويلاً لما فيه من إبراز العناد في صورة النار، بخلاف الأول، فإن النار حينئذ على حقيقتها، والتهويل إنما جاء من إنابة اتقاء النار مناب ترك العناد، (ثم إن الأمر بالاتقاء

(1) انظر: البحر: 1 / 106، ومعاني الزجاج: 1 / 67، وغريب القرآن، ص: 43.

(2) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 200.

(3) وفيه دليلان: على إثبات النبوة. صحة كون المتحدى به معجزاً، والإخبار بأنهم لن يفعلوا، وهو غيب لا يعلمه إلا الله. (الكشاف: 1 / 247).

(4) وهم أهل السنة والجماعة. (انظر: منهاج السنة النبوية: 3 / 485، و4 / 117، و5 / 267، و6 / 428).

(5) ساقطة من ح.

(6) ساقطة من ع.

(7) انظر الكشاف: 1 / 249.

(8) ح: وهو.

أبلغ من الأمر بالترك في النهي عن ملابسة العناد⁽¹⁾، وتعريفها بناء على أن تلك النار كانت معلومة للمخاطبين بسماعهم من النبي عليه السلام بالذات، وبواسطة⁽²⁾ المؤمنين، وأيضا هذه الآية مدنية، فنزلها بعد نزول قوله تعالى: ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾⁽³⁾، لأنها مكية⁽⁴⁾ فصح⁽⁵⁾ تعريفها لكونها معروفة⁽⁶⁾ قبل ذلك ضرورة أن المكيات لنزلها قبل الهجرة مقدمة. [43] على المدنيات / النازلة بعدها.

ولتقطيع شأن العناد هوّل وصف النار بقوله: ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، وكون الصلة معلومة إنما اشترط في غير مقام التفخيم والتهويل، ألا يرى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَوْحًا لِّسَ عِبْدِهِ مَا لَوْحًا﴾⁽⁷⁾.

والوقود⁽⁸⁾: بالفتح ما يوقد به النار، وبالضم التهابها، فهو مصدر، والأول اسم، وقد جاء المصدر بالفتح والاسم بالضم، وقرئ بهما، والظاهر المناسب لبلاغة القرآن أن يكون المراد به المصدر على أن المجاز عقلي، فإن الغرض وهو المبالغة في التهويل يحصل حينئذ على وجه أتم وأكمل، وفي المصير إلى حذف المضاف تنزيل لشأن التنزيل.

والناس هاهنا⁽⁹⁾ هم الكفار، والحجارة جمع حجر كالجمل والجمالة، وهذا جمع على غير قياس، والقياس فيه الأحجار كالشجر والأشجار، وقد

(1) مكرر في ح.

(2) ح: أو بواسطة.

(3) من الآية: 6 من سورة التحريم.

(4) قال الزمخشري: فإن قلت: فلم جاءت النار الموصوفة بهذه الجملة منكورة في سورة التحريم، وهاهنا معرفة؟ قلت: تلك الآية نزلت بمكة، فعرفوا منها نارا موصوفة بهذه الصفة، ثم نزلت هذه بالمدينة مشارا بها إلى ما عرفوه أولا. (الكشاف: 1 / 251).

(5) ح: تصح.

(6) ح: معرفة.

(7) الآية: 10 من سورة النجم.

(8) والوقود: بالفتح: الحطب، وبالضم: الأتقاد. (اللسان: وقد).

(9) ح: هنا.

صح عن ابن عباس رضي الله عنه على ما أخرجه ابن جرير في تفسيره⁽¹⁾ وعن ابن مسعود⁽²⁾ رضي الله عنه على ما أخرجه البيهقي⁽³⁾ في البعث⁽⁴⁾ والنشور: إنها حجارة الكبريت، وإنما خصت من بين أنواع الأحجار لأنها أسرع وقوداً، وأبطأ خموداً، وأنتن رائحة، وأكثر دخاناً، وأشد حراً، وألصق بالبدن.

والظاهر أن مرادهما بيان الواقع لا تفسير المراد⁽⁵⁾ هاهنا من لفظ الحجارة، فلا يتجه أنه تقييد للمطلق بغير دليل، فهي على إطلاقها، فلا يفوت ما قصد به من تهويل شأن تلك النار وتفاقم لهبها، حيث تتقد بما لا يتقد به غيرها، وأما احتمال أن يراد بها الأصنام فيأباه العموم المستفاد من قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ﴾⁽⁶⁾ وَمَا تَعْبُدُونَ إِلَّا مِنْ دُونِ اللَّهِ⁽⁷⁾ حَصَبُ جَهَنَّمَ⁽⁸⁾، فإن بعض ما عبده ليس من جنس الحجر، ومعنى ﴿وَقَوْذَاهَا النَّاسُ وَالْعِجَارَةُ﴾ أن تلك النار لا تتقد إلا بها.

﴿أَعِدَّتْ﴾: إن الإعداد وهو التهيئة والإرصاد أكثر استعماله في الموجود، وقد يستعمل فيما هو في معنى الموجود كما في قوله تعالى:

(1) انظر: جامع البيان: 169-168/1، وتفسير القرطبي: 1/235، وتفسير ابن كثير: 1/62.

(2) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن، أحد السابقين، أسلم قديماً، وهاجر الهجرتين. قال عنه رسول الله ﷺ: «من سره أن يقرأ القرآن غصاً كما نزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد». توفي رحمه الله بالمدينة في خلافة عثمان «سنة اثنتين وثلاثين للهجرة». (الإصابة: 2/368، وغاية النهاية: 1/458، وحلية الأولياء: 1/124، والأعلام: 4/137).

(3) هو أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر. من أئمة الحديث، ولد في خسروجرد (من قرى بيهق بنيسابور) سنة 384هـ، وتوفي بنيسابور سنة 458هـ. (طبقات الشافعية: 3/3، ووفيات الأعيان: 1/20).

(4) لم أقف عليه، ويبدو أنه كتاب مستقل.

(5) ح: لا لغير المراد.

(6) ساقطة من ح.

(7) ساقطة من ع وح.

(8) من الآية: 97 من سورة الأنبياء.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾⁽¹⁾، فدلالة الآية على أن النار مخلوقة الآن كما هو مذهب أهل الحق ليست بقوية⁽²⁾.

﴿لِلْكَافِرِينَ﴾⁽³⁾ 24: ختم بما وقع به البدء، أي اتقوا الكفر الموجب للنار، فإنها أعدت للكفار، والجملة استئناف يؤيده عطف ﴿وَقَشْرٍ﴾ على لفظ المبني للمفعول عليه، وقيل⁽³⁾: صلة بعد صلة بلا عاطف بينهما، على قياس ما يقع في الأخبار والصفات⁽⁴⁾، ويؤيده قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَأَقْبُولُ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾⁽⁵⁾.

وأما العطف بترك العاطف فتجويزه⁽⁶⁾ يؤدي إلى الإلباس في مواضع الفصل والوصل ودلالة لام الاختصاص على أن إعداد تلك النار للكفار، ولا يلزم من ذلك اختصاصها لهم⁽⁷⁾ كما لم يلزم من اختصاص إعداد الجنة للمتقين أن لا يدخلها غيرهم، فلا حاجة إلى أن يقال: إن النار التي وقودها الناس والحجارة هي للكفار خاصة ولغيرهم نار غيرها.

(1) من الآية: 35 من سورة الأحزاب.

(2) قال ابن عطية: وفي قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾ رد على من قال: إن النار لم تخلق حتى الآن. (المحرر الوجيز: 1 / 108).

(3) انظر: إملاء ما من به الرحمن، ص: 32.

(4) ح: والصفة.

(5) الآية: 131 من سورة آل عمران.

(6) ح: فتجويز.

(7) ح: بهم.

[44] ﴿وَبَشِّرِ الْغَافِلِينَ آمَنُوا﴾ البشارة⁽¹⁾ في اللغة: إسم لخبر يغير بشرة⁽²⁾ الوجه مطلقاً ساراً كان / أو محزناً⁽³⁾، إلا أنه غلب استعمالها في الأول، وصار اللفظ حقيقة له بحكم العرف حتى لا يفهم منه غيره، واعتبر فيه الصدق على ما نص عليه في الكتب الفقهية⁽⁴⁾، فالمعنى العرفي للبشارة: الخبر الصادق⁽⁵⁾ السار الذي ليس عند المخبر به علمه، والمأمور بالتبشير على قراءة⁽⁶⁾ ﴿بَشِّرِ﴾ على لفظ المبني للفاعل الرسول عليه السلام، ولا وجه للتعميم لكل من يقدر على البشارة من غير تعيين لما عرفت أن مدار البشارة على الصدق، فحقها أن يكون المبشر صادقاً ومصداًقاً، كأنه ما اتكل في أمر التبشير على كل قادر عليه، بل نصّ على أعظمهم وأصدقهم ليكون ذلك أوثق عند المبشرين، وأقطع في الإخبار بهذه البشارة الجليلة. وفيه من التعظيم لأمر البشارة والمؤمنين ما لا يخفى.

والجملة معطوفة على ما قبلها عطف قصة (على قصة)⁽⁷⁾ بينهما جهة جامعة، بحيث تقتضي⁽⁸⁾ أن يقفي⁽⁹⁾ ذكر أحديهما بذكر الأخرى توفية لحق الكلام ورعاية لما يقتضيه المقام.

(1) والبشارة: ما يُبشِّرُ به، والبشير: المبشر الذي يبشر القوم بأمر خير أو شر. (اللسان: بشر).

(2) ح: بشرط.

(3) ح: محزونا.

(4) انظر التفصيل في التفسير الكبير: 2 / 138.

(5) في ع: الصدق، والمثبت من ح.

(6) انظر الكشاف: 1 / 253.

(7) ساقط من ح.

(8) ح: يقتضي.

(9) ح: يقع.

وذلك أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا﴾⁽¹⁾ خطاب عام يشمل الفريقين المخالف والموافق⁽²⁾.

ثم إن قوله: ﴿وَلَيْزُ كُتِّمٌ فِي رَيْبٍ﴾⁽³⁾، مختص بالفريق الأول، ومضمونه الإنذار، وإن قوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾⁽⁴⁾ مختص بالفريق الثاني، ومضمونه البشارة كأنه أوحى إلى نبيه أن يدعو⁽⁵⁾ الناس قاطبة إلى عبادته وتوحيده وتصديق رسوله، ثم أمر أن ينذر من أبى وعاند ويبشر من أتى وعبد، وهذا هو المعتمد.

وقيل⁽⁶⁾: معطوفة على مقدر بعد (أن) ⁽⁷⁾ أعدت، أي فأنذر الذين كفروا بتلك النار، وبشر الذين آمنوا، وعلى هذا تكون⁽⁸⁾ الواو فصيحة كما في قوله تعالى: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾⁽⁹⁾ أي فاحذرنى (واهجرني)⁽¹⁰⁾.

وقيل⁽¹¹⁾: معطوفة على «قل» مقدرا⁽¹²⁾ قبل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، أي قل: كذا وكذا، وبشر المؤمنين، ولا يأبى عن ذلك قوله: ﴿وَلَيْزُ كُتِّمٌ فِي رَيْبٍ﴾⁽¹³⁾ فإنه قد جاء في كلام الله

(1) من الآية: 20 من سورة البقرة.

(2) ح: الموافق والمخالف.

(3) من الآية: 22 من سورة البقرة.

(4) من الآية: 24 من سورة البقرة.

(5) ع: أن تدعو.

(6) انظر الكشف: 1 / 253.

(7) ساقطة من ح.

(8) ع: يكون.

(9) من الآية: 46 من سورة مريم.

(10) ساقطة من ح.

(11) انظر الكشف: 1 / 253.

(12) ح: مقدر.

(13) من الآية: 23 من سورة البقرة.

تعالى (في غير موضع منها قوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾⁽¹⁾، قالوا كان حقه على قلبي، لكنه جاء على حكاية كلام الله تعالى كأنه قال) ⁽²⁾: قل ما تكلمت به، وجوز أن تكون معطوفة على قوله: فاتقوا على أنه ليس جوابا للشرط، بل هو محذوف، وهذا ترتب عليه فعلى هذا يكون تقدير الكلام: إذا تبين عجزكم عن المعارضة، فقد صح عند المعاند والموافق صدقه، وإذا كان كذلك، فاحذروا أيها المعاندون العقاب، وبشر يا محمد المصدقين بالثواب، وعطف الأمر لمخاطب على الأمر لمخاطب آخر، مما أخطأ في منعه النجاة⁽³⁾ لوقوعه قطعاً في قوله تعالى: ﴿يُؤْمَفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾⁽⁴⁾، وتقف على تتمه هذا الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَقيِمَا حُجُومَ اللَّهِ﴾⁽⁵⁾.

[45] ﴿وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: الصالحة: نحو الحسنة / في جريها مجرى الإسم، وهي ما ورد به الأمر إيجاباً أو ندباً من الأعمال، وتأنيثها⁽⁶⁾ على تأويل الخصلة والتعريف للجنس، لكن لم يرد بالصالحات جنس الجمع، بل جميع الجنس باعتبار التوزيع، واللازم منه أن يعمل كل مكلف ما يختص به من مواجب التكلف كما في لبس القوم ثيابهم، ودخلوا مساجدهم، لا أن يعمل كل واحد منهم عملاً واحداً منها كيفما كان.

وفي مقارنة الإيمان والعمل الصالح في القرآن، إيدان بأنهما كالملازمين في توقف مجموع النحاة، والثواب عليهما، وهذا لا ينافي لكون الإيمان

(1) من الآية: 96 من سورة البقرة.

(2) ساقط من ح.

(3) انظر التفصيل في هذا في: الكشف: 1 / 253-254.

(4) من الآية: 29 من سورة يوسف.

(5) من الآية: 227 من سورة البقرة.

(6) ح: وثانيهما.

المجرد عن العمل الصالح منجيا، ثم إن «بشر» يتعدى إلى مفعول بنفسه، وإلى آخر بحرف الجر، وهو قوله: ﴿لَنْ لَهْمُ جَنَّاتٍ﴾: وحذف (منه) ⁽²⁾ الحرف وهو في موضع (نصب على مذهب ⁽³⁾ الخليل، لا في موضع جر، خلافا لمن قال مذهبه ⁽⁴⁾): إنه في موضع جر، وهو ⁽⁵⁾ ابن مالك ⁽⁶⁾، قاله في «التسهيل» ⁽⁷⁾، وهو قليل الإمام بكتاب سيبويه.

واللام للاختصاص، إلا أن التخصيص بفضل الله تعالى لا بالاستحقاق الذاتي والمختص بهم منازل عالية من دار الثواب لا الدار نفسها، حتى يشكل بالنصوص الدالة على عدم اشتراط العمل في الدخول بها، ولذلك قال: ﴿جَنَّاتٍ﴾ دون الجنة، فإنها علم لتلك الدار.

وحمل الجنات ⁽⁸⁾ (على الجنان) ⁽⁹⁾ الثمانية لا يلائمه مقابلة الجمع بالجمع، لأن مقتضاها

الانقسام والتوزيع، وقد روعي ⁽¹⁰⁾ ذلك في قرينها السابق ⁽¹¹⁾، ولا مجال لرعايتها هاهنا لعدم العهد في توزيعها، ثم إن ذلك الاختصاص

(1) ﴿لَنْ﴾: في موضع نصب، والمعنى: بأن لهم. قال الكسائي وجماعة من البصريين: ﴿لَنْ﴾ في موضع خفض بإضمار الباء. (إعراب القرآن للنحاس: 1 / 201).

(2) ساقطة من ح.

(3) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 201.

(4) ساقط من ح.

(5) ح: عند.

(6) هو محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجباني، أبو عبد الله، جمال الدين. أحد الأئمة في علوم العربية، ولد في جيان (بالأندلس) سنة 600هـ، وانتقل إلى دمشق فتوفي فيها سنة 672هـ. أشهر كتبه: الألفية في النحو. (بغية الوعاة، ص: 53، ونفح الطيب: 1 / 434، والأعلام: 6 / 233).

(7) انظر: تسهيل الفوائد، ص: 54-64.

(8) ح: الجنان.

(9) ساقط من ح.

(10) ح: روي.

(11) ح: قرينتها السابقة.

مشروط بسلامة العاقبة، لأن الاعتبار للخاتمة، على ما أفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَعْذُ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ قَيِّمَتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾⁽¹⁾.

وأما الاستمرار على الإيمان المقارن بالعمل الصالح فليس بشرط. والجنة⁽²⁾ في الأصل المرة⁽³⁾ من الجن، وهو مصدر جنه إذا ستره، ومدار التركيب على ذلك، سمي به الشجر المظلل لالتفاف⁽⁴⁾ أغصانه وستر ما تحته، ثم البستان لما فيه من الأشجار المتكاثفة المظلمة⁽⁵⁾، ثم دار⁽⁶⁾ الثواب لما فيها من الجنان. والمراد هاهنا الغُرفُ وهي المواضع العالية، والمنازل الرفيعة من بساتين الجنة على ما أفصح عن ذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾⁽⁷⁾. فإن القرآن يفسر بعضه بعضا، وتنكير الجنات للتعظيم، أي جنات أي المراد جنات شتى مرتبة في مراتب بحسب طبقاتهم، ودرجات أعمالهم وعلومهم وأخلاقهم.

﴿يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: الضمير للجنات يعني من تحت تلك الغرف، وفيه تنبيه على

[46] أنها منازل عالية و / قد جاء في الآثار⁽⁸⁾ أن الجنة درجات والنار دركات. والنهر بالفتحتين وسكون الثاني: المجرى الواسع، والمراد الأنهار

(1) من الآية: 215 من سورة البقرة.

(2) في اللسان: جن الشيء يَجُنُّه جَنًا: ستره.

(3) في اللسان: هي دار النعيم في دار الآخرة.

(4) ع: لالتفات.

(5) ح: المظلة.

(6) وسميت بالجنة، وهي المرة الواحدة. (اللسان: جنن).

(7) من الآية: 57 من سورة العنكبوت.

(8) انظر: الكشف: 1 / 257.

المعهودة المذكورة في قوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾⁽¹⁾ الآية. فإن الأصل في التعريف العهد، ولا يعدل عنه إلا عند التعذر، ولا تعذر هاهنا إذ لا حاجة في ثبوت العهد إلى سبق نزول تلك الآية، فالمخاطب⁽²⁾ بتبليغ البشارة هو النبي عليه السلام، فكفى علمه بها بإعلام من الله تعالى. وفي البيان (بقوله)⁽³⁾: ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾ دلالة قاطعة على أن المراد ماء الأنهار على التجوز فيها أو الإضمار.

﴿كُلَّمَا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزِقُوا﴾: صفة ثانية لجنت، أو خبر مبتدأ محذوف أي هي، أو جملة مستأنفة على تقدير سؤال يختلج في ذهن السامع، أثمارها من جنس ثمار جنات الدنيا، أم أجناس أخر. فقليل⁽⁴⁾: من جنسها. و«من» الأولى لابتداء الغاية، وكذا الثانية واقعتان موقع الحال. و﴿رَزَقُوا﴾⁽⁵⁾: مفعول ثان بمعنى المرزوق. وأصل الكلام ومعناه: كل حين أو مرة. رزقوا مرزوقا⁽⁶⁾: مبتدأ من الجنات مبتدأ من الثمرة. قيّد الرزق المطلق بكونه من الجنات، ثم المقيد بكونه من الجنات قيد بكونه مبتدأ من أي ثمرة من ثمارها، فصاحب الحال الأولى رزقا، وصاحب الحال الثانية ضميره المستكن في الحال، ويجوز أن تكون⁽⁷⁾ الثانية للتبعيض أي كلما رزقوا من تلك الجنات بعض الثمرات على أنه مفعول ثان، ورزقا حال أو نصب على المصدر.

(1) من الآية: 16 من سورة محمد.

(2) ح: فإن المخاطب.

(3) ساقطة من ح.

(4) انظر الكشف: 1 / 259.

(5) ح: وزقا.

(6) ح: مرزقا.

(7) ع: يكون.

وليس المراد من الثمرة: الثمرة (الواحدة بالشخص)⁽¹⁾، وإنما المراد النوع الواحد من أنواع الثمار. يقال: فلان أدركت ثمرة بستانه، والمراد الجنس، ويجوز أن يكون بيانا كما تقول: رأيت منك أسداً، أي أنت أسد وعلى هذا الوجه يصح أن يراد بالثمرة النوع والجناءة الواحدة.

﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾: أي من قبل هذا في الدنيا، والمقول جملة تشبيهية لقوله: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾: أي هذا مثل الذي أو كالذي رزقنا من قبل، حذف حرف التشبيه لاستحكام الشبه كأن ذاته ذاته.

وإنما جعل ثمار الجنة من جنس ثمار الدنيا، لتميل النفس إليها أول ما رأت، فإنه لو لم يكن من جنسها لأمكن أن ينفر منها طباعهم، (وتعافها)⁽²⁾ نفوسهم في أول الوهلة، وبادئ النظر، وهذا لا ينافي التذاده به فوق ما التذ⁽³⁾ بمألوفاته بعد الوقوف على طعمه، ولا يخالف ما اشتهر فيما بينهم من أن لكل جديد لذة، ولأنهم إذا صادفوا ما التذوا به وألفوه من جنس ما كان⁽⁴⁾ معهودا لهم، ورأوا بينه وبين ما عهدوه تفضلاً بينا وتفاوتاً عظيماً عرفوا قدر النعمة وحقها، وبلغ

[47] استلذاذهم به واستحسانهم له إلى ما لا يمكن وصفه لكونه نعمة غير مترتبة / ولو كان من جنس آخر، وإن فاق وبلغ غاية الحسن وراق، لحسبوا⁽⁵⁾ أن ذلك الجنس لا يكون إلا كذلك، ولم يقع في أنفسهم وقع تلك النعمة، وتكرارهم هذا القول، واستئنافهم له عند كل ثمرة يرزقونها، دليل على تناهي الأمر في الفضيلة والمزية، وأن ذلك الفرق البين والتفاوت⁽⁶⁾

(1) مكرر في ح.

(2) ساقطة من ح.

(3) ح: فوق التذاده.

(4) ح: من جنسها كان.

(5) ح: ظنوا.

(6) ع: والتفات.

العظيم هو الذي يستدعي تلفظهم بذلك ويستنطقهم ويستتهشهم⁽¹⁾ فرحا وحبورا، ولا يدعهم يقرّوا ويسكتوا، بل يستفزههم لذّة وسرورا.

وعن مسروق⁽²⁾: نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها، كلما نزعت منها ثمرة عادت مكانها أخرى، وأنهارها تجري في غير أخدود⁽³⁾.

والضمير في «به» يرجع إلى المرزوق في الدنيا والآخرة لاشتمال الكلام عليهما⁽⁴⁾ كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾⁽⁵⁾ أي بجنسي الغني والفقير، ولو رجع إلى المذكور لقليل⁽⁶⁾: أولى به، ويجوز أن يكون المعنى من قبل هذا في الجنة، لأن طعامها متشابه الصورة كما حكى الحسن⁽⁷⁾ (عَنْ رَسُولِ اللَّهِ) ⁽⁸⁾: يؤتى أحدهم بالصحنه⁽⁹⁾ فيأكل منها، ثم يؤتى بالآخرى فيقول: هذا الذي أوتينا⁽¹⁰⁾ به من قبل، فيقول الملك: كل فاللون واحد، والطعم مختلف، وعلى هذا يرجع⁽¹¹⁾ الضمير إلى الرزق المطلق، كما أن «هذا» إشارة إليه ولا يخفى أن الوجه هو الأول لعدم المساعدة في نكتة ﴿كُلَّمَا﴾ الأخير، والجملة اعتراضية كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا أَعْنَاقَهُمْ آخِذَةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾⁽¹²⁾.

(1) في اللسان: هَشَشْتُ: أي فرحت واشتهيت. (اللسان: هشش).

(2) في الكشف: عن مسروق: نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القلال. (الكشاف: 261 / 1).

(3) ح: خدود.

(4) ح: عليها.

(5) من الآية: 134 من سورة النساء.

(6) ح: لقال.

(7) انظر: الكشف: 261 / 1، وفيه: «بالصحفة» بدل «الصحنه»، و«وبكل فاللون» بدل: «كل فاللون».

(8) ساقطة من ح.

(9) ح: بالصحيفة.

(10) في ع: أتيننا.

(11) ح: رجع.

(12) من الآية: 35 من سورة النمل.

والواو في ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّصَمَّرَةٌ﴾ عاطفة الجملة من تنمة⁽¹⁾ وصف ثواب المؤمنين. و«مطهرة» بالتوحيد، ومطهرات بالجمع لغتان فصيحتان في وصف أزواج، لكونه جمع التكسير وإن كان جمع المؤنث الحقيقي، بخلاف ما لو قال: زوجات لسلامة الواحد فيه، فلم يجز إلا مطهرات، كأنه قال: جماعة أزواج مطهرة، وبنائوه للمفعول أفخم، إذ فهم أن لها مطهرا، وليس إلا الله تعالى، فتكون⁽²⁾ طهارتهن أعظم من كل طهارة.

فإن قيل: هذا معارض بأن فيه إشعارا بسابقة التلوث⁽³⁾ بما يستقذر، والكمال في كون الطهارة خلقية بخلاف بنائه⁽⁴⁾ للفاعل، فإن المتبادر منه بمعونة المقام أن تكون⁽⁵⁾ طهارتهن خلقية قلنا: نعم كذلك إلا أن الأول أرجح⁽⁶⁾ لكونه أدخل في البلاغة لما فيه من تعظيم المؤمنين، وهو المناسب للمقام، ورعاية جانب من سيق له الكلام، وتطهيرهن من الأوصاف القبيحة في الخلق⁽⁷⁾ والخلق، لما كانت مجامع⁽⁸⁾ اللذة في المسكن البهي، والمشرب الروي، والمطعم الشهوي، والمنكح الوضي، ذكرها تعالى فيما يبشر به المؤمن، وبدأ بالمسكن لأن به الاستقرار، ثم بالمشرب والمطعم لأن بهما قوام الجسم، وقدم المشرب لما فيه من تشريف المسكن، ثم بالأزواج لأن بها تمام اللذة والأنس.

(1) ح: تسمية.

(2) ح: ليكون.

(3) ع: التعويث.

(4) ح: بناء الفاعل.

(5) ع: يكون.

(6) ح: راجع.

(7) ح: والخلق.

(8) ح: مجامعة.

ولما ذكر مجامع اللذة وذلك يتنقص بخوف الزوال فنفاه

بقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا

[48] خَالِغُونَ﴾ (25): الخلد⁽¹⁾: البقاء الدائم / الذي لا ينقطع، قال الله

تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلَّةَ آقَيْنَ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِغُونَ﴾ (2)،

وتقييده بالتأبيد في قوله: ﴿خَالِغِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (3) لقطع⁽⁴⁾ التجوز، فإن

استعماله في الثبات المديد وإن لم يدم متعارف شائع.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ (5): لما بين التوحيد وأثبت

صحة النبوة بالبرهان، وهداهم أساس الدين وأصل الإيمان، وأرشدهم إلى

معرفة حقيقة القرآن، وأفحمهم بالتحدي، ورتب الوعيد على الكفر به

والوعد على الإيمان، شرع في إبطال الاعتراضات والشبهات التي طعن بها

الجاحدون⁽⁶⁾ الجهلة كقولهم: إن الله أجل قدرا وأعظم شأننا من أن يمثل

بهذه المحقرات كالذباب والعنكبوت، وقولهم: أما يستحي رب محمد؟

فأجابهم بما دل على أن التمثيل أمر يستدعيه حال الممثل به⁽⁷⁾، فكلما

كان أعظم كان الممثل به أعظم، وكلما⁽⁸⁾ كان أحقر كان الممثل به أحقر،

كقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ (9). فيلزم أن يكون لآلهتهم المثل الأدنى، لأنها

جمادات لا قوة لها ولا شعور، إذ الغرض من التمثيل تصوير المعقول بصورة

(1) في اللسان: دوام البقاء. (اللسان: خلد).

(2) الآية: 34 من سورة الأنبياء.

(3) من الآية: 57 و169 من سورة النساء.

(4) ح: يقطع.

(5) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 203، ومعاني القرآن للفراء: 1 / 22.

(6) في ع: الجاهدون.

(7) ح: له.

(8) ح: ولما كان.

(9) من الآية: 60 من سورة النحل.

المحسوس، وتقرير المعنى المراد في النفس، ولا يعارض العقل في المعاني المعقولة إلا الوهم، لميله إلى الحس، وامتناع إدراكه المعاني الكلية، فإذا تمثل المعنى العقلي بصورة محسوسة، أذعن له وانقاد، وقَبِلَ المعنى المراد، ولهذا أكثر التمثيل في كلام البلغاء والحكماء والأنبياء (عليهم السلام) ⁽¹⁾، وفشا في الكتب الإلهية.

ولا يتعلق حال المثل في الحسن والقبح بحال الممثل إلا فيما يصار إليه من وجه الشبه بين الممثل به والممثل له، فإن لم يكن مطابقاً بأن لا يكون الوصف المشترك المقصود إظهاره في الممثل به أجلى وأقوى وأشهر، كان الممثل قاصراً في البلاغة منسوباً إلى الدناءة، وإن كان مطابقاً بأن المعنى المراد إفهامه في الممثل به أبلغ وأتم وأكمل وأعم، كان الممثل أجلاً قدراً وأعلى شأنًا.

ولهذا كان تمثيل الله تعالى آلهتهم بالبعوضة فما فوقها في المعنى الممثل له من الحقارة، أي ما هو أحقر منها كجناحها ومحنها ⁽²⁾. وكما قيل ⁽³⁾: أقل من لا شيء في غاية الحسن والجزالة ونهاية الفصاحة والبلاغة، كما تقول: فلان أقل قدراً من الكلب، فيقول ⁽⁴⁾: صاحبك وفوق ذلك، أي في قلة القدر. وقد جاء في الإنجيل ⁽⁵⁾ تمثيل غل الصّدر بالنخالة.

(1) ساقطة من ح.

(2) المَحْنُ: اللّين من كل شيء. (اللسان: محن).

(3) انظر: الكشف: 1 / 264 وما بعدها.

(4) في ع: وتقول.

(5) ذكره الإمام الرازي عند تفسيره قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي لِنِ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾، فقال: وثانيها: أنه ضرب الأمثال في إنجيل عيسى عليه السلام بالأشياء المستحقرة... وقال: لا تكونوا كمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويمسك النخالة، وكذلك أنتم تخرج الحكمة من أفواهكم وتبقون الغل في صدوركم. (التفسير الكبير: 2 / 146).

ومعارضة السفهاء بإثارة الزنابير⁽¹⁾. وفي كلام العرب: أصرد⁽²⁾ من جراد، وأسمع من قراد⁽³⁾.

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ العنكبوت والذباب وما ورد في المثل مما هو أعظم من البعوضة، ردًا لما استنكروه. كما قيل: فلان بخيل بدرهم، فتقول: إنه بخيل بدانق⁽⁴⁾ فما فوقه، أي فضلًا عما فوقه في العظم من الدرهم.

والحياء⁽⁵⁾: انقباض النفس مخافة الذم، وهو الوسط بين الوقاحة (التي هي الجرأة على القبائح وعدم المبالاة بها، والخجالة⁽⁶⁾) (7) التي هي انحصار النفس عن الفعل مطلقًا، (واستعمال [49] الاستحياء لله تعالى مجاز على سبيل التمثيل، أي لا يترك ضرب المثل بالمحقرات / بترك من يستحيي لحقارتها)⁽⁸⁾، وقد جاء في الحديث⁽⁹⁾: إن الله يستحي⁽¹⁰⁾ من ذي الشيبة المسلم أن يعذبه.

(1) الزُّنْبُور: طائر يلسع. (اللسان: زنبر).

(2) أصرد من جرادة، من الصرد الذي هو البرد، وذلك لأنها لا ترى في الشتاء أبدًا لقلة صبرها على البرد. (مجمع الأمثال: 1 / 413).

(3) وذلك أنه يسمع صوت أخفاف الإبل من مسيرة يوم، فيتحرك لها. (مجمع الأمثال: 1 / 349). والقراد: دويبة تعض الإبل. (اللسان: قرد).

(4) الدانق: بفتح النون وكسرها: هو سدس الدينار والدرهم. (اللسان: دنق).

(5) في اللسان: تحيّا مني: أي انقبض وانزوى، ولا يخلو أن يكون مأخوذًا من الحياء على طريق التمثيل. (اللسان: حيا).

(6) في اللسان: رجل خجل، وبه خجلة: أي حياء. (اللسان: حجل).

(7) ساقط من ح.

(8) ساقط من ح.

(9) انظر: مجمع الزوائد: 10 / 149، والمعجم الأوسط: 5 / 270.

(10) ح: ليستحي.

وفي التمثيل من المبالغة ما لا يخفى على الفطن للتخييل وتصوير المعقول بصورة المحسوس أو الوجدان المدرك⁽¹⁾ بالضرورة.

ويجوز أن يكون وقوعه على سبيل المقابلة وتطبيق الجواب السؤال، فإنه لما جاء في كلام⁽²⁾ الكفرة: أما يستحيي رب محمد أن يضرب المثل بالذباب والعنكبوت، قابله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾، وهو في كلامهم نوع بديع، وفن عجيب يستحبونه⁽³⁾ ويرتضونه، لمراعاة المشاكلة، وضرب المثل صنعة، واعتماله من ضرب اللين⁽⁴⁾، وضرب الخاتم، وأصله وقع شيء على آخر. والاستحياء يتعدى بنفسه وبـ «من»، فعلى الأول يكون أن يضرب منصوب المحل على المفعولية، وعلى الثاني يكون مجرور المحل بتقدير «من»، أو منصوب بنزع الخافض حذفاً وتعدي الفعل إليه بنفسه. و«مثلاً» مفعول ليضرب⁽⁵⁾.

و«ما» إبهامية منصوبة المحل صفة لمثلاً، تزيده شياعاً وعموماً وإبهاماً، وسدّاً للباب التقييد، أو مزيدة للتأكيد كما في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾⁽⁶⁾، أي مثلاً حقاً، و«بعوضة» بالنصب⁽⁷⁾ بدل أو مفعول به. (وقيل⁽⁸⁾: عطف بيان لـ «مثلاً»⁽⁹⁾، وفيه أنه لا يكون في النكرات عند الجمهور. و«مثلاً» حال مقدمة⁽¹⁰⁾ عليها لتنكيرها، أو مفعول ثانٍ لـ «يضرب»، إجراء لضرب

(1) ح: القصد إلى المدرك.

(2) انظر: الكشف: 1 / 263.

(3) ح: يستحلونه.

(4) واللين: التي يبني بها، ويقال بكسر اللام وسكون الباء، وهو المضروب من الطين مريعاً. (اللسان: لين).

(5) ح: ييضرب.

(6) من الآية: 159 من سورة آل عمران.

(7) ح: منصوب.

(8) انظر: إملاء ما من به الرحمن، ص: 33.

(9) ساقط من ح.

(10) ح: متقدمة.

مجري جعل وصير، وإن رفعت⁽¹⁾ «بعوضة» فـ «ما» موصولة حذف صدر صلتها كما في قوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾⁽²⁾ بالرفع أو موصوفة كذلك، أي صفتها جملة محذوفة المبتدأ، و«لما» الوجوه الأربعة المذكورة في بعوضة بالنصب، ووجه آخر أعرب وأفصح وهو أن يكون «ما» استفهامية مبتدأ خبره⁽³⁾ «بعوضة» أي بَلَّه لبعوضة فما فوقها، كما يقال⁽⁴⁾: فلان لا يبالي ما دينار وديناران.

والبعوض⁽⁵⁾ من البعض، كالقطوع (من القطع)⁽⁶⁾، والخموش من الخمش⁽⁷⁾⁽⁸⁾، ومعنى البعض القطع كالْبُضْع والعَضْب⁽⁹⁾⁽¹⁰⁾. ومنه بعض الشيء لأنه قطعة منه، وهو في الأصل صفة (غلبت)⁽¹¹⁾ على هذا النوع. ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾: عطف على «بعوضة»، أو على «ما» إن جعل اسما.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أمّا: حرف التفصيل، وفيه معنى الشرط، ولذلك يجاب بالفاء بعيد⁽¹²⁾ الكلام توكيدا، تقول: زيد ذاهب، فإذا أكدت قلت: أما زيد فذاهب. «ما» بعد⁽¹³⁾ «أما» جملة

(1) وهي لغة تميم. (انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 204، ومختصر ابن خالويه، ص: 4).

(2) من الآية: 155 من سورة الأنعام.

(3) ح: خبر.

(4) انظر: الكشف: 1 / 264.

(5) في اللسان: بعض الشيء: طائفة منه. (اللسان: بعض).

(6) ساقطة من ح.

(7) ح: والخموش من القطع والخمش.

(8) والخموش: البعوض. (اللسان: خمش).

(9) ح: والفصن.

(10) في اللسان: الْعَضْبُ: القطع، عَضْبَهُ يَعْضِبُهُ عَضْبًا: قَطَعَهُ. (اللسان: عضب).

(11) ساقطة من ح.

(12) في ع: يفيد.

(13) ح: وما بعد.

جزائية حقها أن يصدر بالفاء لولا دخول «أما» عليها، فأخر إلى الخبر لوجودها، وجعل المبتدأ سادا مسد الشرط المحذوف لفظا ومعنى.

التفصيل في «أما» (وتصدير الجملتين) ⁽¹⁾ بها أن بين الفريقين غاية البعد والتضاد في فضل الفريق الأول وتحقيقهم في علمهم، وإصابة نظرهم، وهدايتهم وسدادهم، ونقص الفريق الثاني [50] وتعمقهم في جهلهم، وإزاعة بصرهم، وغوايتهم وزيفهم، أو عنادهم / ومكابرتهم، لأنهم بين أن لا يتفطنوا الوجه التمثيل وحسنه وحقيقته ⁽²⁾، وبين أن يعاندوا ويكابروا كلا الأمرين. وفيه بعد عن مقتضى الفطرة، وسقوط عن درجة الإنسانية، وتجاف عن الصواب والسداد، وانهمالك في الغي والفساد. والحق هو الأمر الثابت الصحيح في نفس الأمر الذي لا يسوغ عند العقل إنكاره، يقال: حق الأمر ⁽³⁾ إذا ثبت.

﴿وَلَمَّا الْفِرِينَ كَفَرُوا قَيِّقُولُونَ﴾: إنما قال في مقابلة قوله: «يعلمون»: «يقولون»، لدلالته على عدم العلم بأبلغ الوجوه، وأكد البرهان. فإن صدور القول للمذكور منهم يدل على فرط الغباوة من عدم التفطن، أو مخالفة العلم بالمكابرة، وإهمال العمل بمقتضى العلم جهل أيضا.

﴿مَلَا آرَآةَ اللَّهِ بِهَذَا مَثَلًا﴾: يحتمل أن تكون «ما» ⁽⁴⁾ استفهامية، و«ذا» بمعنى الذي وما بعده صلته، والمجموع خبر «ما» وأن يكون «ما» مع («ذا») ⁽⁵⁾ اسما واحدا بمعنى أي شيء، منصوب المحل على المفعولية مثل

(1) مكرر في ح.

(2) في ع: وحقيقته.

(3) حَقُّ الأمر يَحِقُّ وَيُحَقُّ حَقًّا وَحَقُّوْقًا: صار حقا وثبت. (اللسان: حَقَق).

(4) قال أبو جعفر النحاس: إن شئت جعلت «ما» و«إذا» شيئا واحدا في موضع نصب بأراد، قال ابن كيسان: وهو أجود. (انظر: إعراب القرآن: 1 / 204، ومشكل إعراب القرآن: 1 / 84، والبيان للأنباري:

1 / 66، وإملاء ما من به الرحمن، ص: 33).

(5) ساقط من ح.

﴿مَا أَرْزَلَهُ اللَّهُ﴾، والأحسن في جوابه الرفع على الأول، والنصب على الثاني ليطابق الجواب السؤال، والإرادة⁽¹⁾ نزوع⁽²⁾ النفس وميلها إلى الشيء، وهي نقيض الكراهة التي هي النفرة.

وإرادة الله تعالى ليست بصفة زائدة على ذاته كإرادتنا، بل هي عين حكمته⁽³⁾ التي تخصص وقوع الفعل على وجه دون وجه، وحكمته عين علمه المقتضي لنظام الأشياء على الوجه الأصح، والترتيب الأكمل، وانضمامها مع القدرة هو الاختيار، وفي لفظه هذا استركاك واستحقار كما في قول عائشة⁽⁴⁾ رضي الله عنها في عبد الله بن عمرو بن العاص⁽⁵⁾: يا عجباً لابن عمرو هذا. و﴿مَثَلًا﴾ نصب على الحال كقوله تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾⁽⁶⁾. أو⁽⁷⁾ على التمييز كما في قولك لمن أجاب بجواب ضعيف: ما أردت بهذا جواباً.

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾: بيان للجملتين⁽⁸⁾ المصدريتين بـ «أما»، وتقدير لأن العلم بكونه حقاً من باب الهدى الذي ازداد به المؤمنون نوراً إلى نورهم، والجهل به واستنكاره من باب الضلال والفسق الذي ازداد به الجهلة ظلمة إلى ظلمتهم. ففيه⁽⁹⁾ تسجيل على الفريقين بهداية المحققين⁽¹⁰⁾

(1) في اللسان: الإرادة تكون محبة وغير محبة. (اللسان: رود).

(2) ح: نزع.

(3) في ع: حكمية.

(4) انظر: الكشف: 1 / 266.

(5) هو عبد الله بن عمرو بن العاص، من قریش: صحابي، من النساك، من أهل مكة... أسلم قبل أبيه، قيل: ولد سنة 7 قبل الهجرة، وتوفي رحمه الله سنة 65 هـ. (انظر: الإصابة، رقم الترجمة: 4838، وحلية الأولياء: 1 / 283، وصفة الصفوة: 1 / 20، والأعلام: 4 / 111).

(6) من الآية: 72 من سورة الأعراف.

(7) ح: رد.

(8) في ح: الجملتين.

(9) في ح: وفيه.

(10) في ح: المحققين.

ورشد هم، وضلالة المنكرين وفسقهم، وكون كل منهما موصوفا بالكثرة في أنفسهم لا بالقياس إلى الآخر، أو الضالين⁽¹⁾ بالعدد والمهدين بالقدر. والحقيقة كما قال:

إِنَّ الْكِرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قُلٌّ⁽³⁾

وإن كثروا، فإن المهديين أقل من الضالين بالعدد، ولهذا قدم ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾.

وأما احتمال كونه جوابا لما في ﴿مَلَا﴾، أي المراد إضلال كثير، وهداية كثير، أو أراد⁽³⁾ إضلال كثير وهداية كثير، فيأباه قوله ﴿مَثَلًا﴾، فإن التمثيل لا يناسب أن يراد به الإضلال. قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁽⁴⁾.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾⁽²⁶⁾: الفسق⁽⁵⁾ لغة، هو الخروج (عن القصد؛ قال رؤبة⁽⁶⁾):

فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرًا⁽⁷⁾

(1) في ح: والضالين.

(2) انظر: البحر المحيط: 1 / 125.

(3) في ح: وأراد.

(4) من الآية: 21 من سورة الحشر.

(5) الفسق: الخروج عن الأمر. والعرب تقول إذا خرجت الرطوبة من قشرها: قد فسقت الرطوبة من قشرها. (اللسان: فسق).

(6) هو رؤية بن عبد الله العجاج بن رؤية التميمي السعدي، أبو الجحاف، أو أبو محمد. راجز، من الفصحاء المشهورين من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. (وفيات الأعيان: 1 / 187، والبداية والنهاية: 10 / 96، وخزانة الأدب: 1 / 43، ولسان الميزان: 2 / 464، والأعلام: 3 / 34).

(7) انظر: تفسير القرطبي: 1 / 170 غير منسوب، وفيه: «جوائرا» بدل «جوائر»، وقبله:

* يذهب في نجد وغورا غائرا *

وروي البيت بكامله في: مجاز القرآن: 1 / 406. قال أبو عبيدة: وقال رؤبة:

يهوينا في نجد وغورا غائرا فواسقا عن قصدها جوائر

وفي اللسان برواية: * فواسقا عن أمره جوائر *

(اللسان: فسق).

ويستعمل في مجرد الخروج يقال: فسقت⁽¹⁾ الرطبة عن قشرها. وشرعا، هو الخروج عن [51] أمر الله / تعالى بارتكاب الكبيرة. والمراد بالفاسقين هاهنا، الخارجون عن الإيمان لدلالة ما بعده عليه، وقصر الخسران عليهم وترتيب الضلال على الفسق يدل على كونه مسببا عن الفسوق⁽²⁾.
﴿الَّذِينَ⁽³⁾ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾: منصوب المحل صفة للفاسقين⁽⁴⁾ للذم، أو مبتدأ خبره أولئك هم الخاسرون، ويكون بيانا للفاسقين، وتسجيلا عليهم بالخسران.

والنقض: الفسخ وفك التركيب⁽⁵⁾، وأصله في طاقات الحبل، واستعماله في العهد من باب الاستعارة بالكناية، بإيراد صفة المستعان منه دون إيراده، لينبه⁽⁶⁾ بالرمز على أن العهد حبل⁽⁷⁾ في ثبات الوصلة بين المتعاهدين، وعلى هذا لا يلزم أن يكون النقض مستعملا في معنى الإبطال منقولا عن معناه الأصلي، كما أن استعارة الأسد للشجاع.

واستعارة البحر للعالم بطريق الكناية، لا يلزمها⁽⁸⁾ خروج الافتراس والاغتراف عن معناهما الأصليين. بل نقول: مقتضى تلك الاستعارة أن يكون ما به الكناية قارا في معناه الأصلي حتى يكون من خواص المستعار منه حقيقة.

(1) ساقط من ح.

(2) في ح: الفسق.

(3) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 205. قال العكبري: في موضع نصب صفة للفاسقين. (إملاء ما من به الرحمن، ص: 33).

(4) في ح: الفاسقين.

(5) في ع: الترتيب.

(6) في ح: بعينه.

(7) في ح: حبال.

(8) في ح: لا يلزم.

والعهد: الموثق، ولهذا قال: في الوصية عهد إليه في كذا إذا وصاه به، ووثقه عليه ووضعه لما يحفظ ويراعى ويتعهد كالوصية والشرط واليمين. ويقال للدار التي تراعى، والتاريخ الذي يحفظ عهد، وهذا العهد. أما العهد المأخوذ بالعقل، وهو الحجة القائمة على عباده الدالة على جميع تصديقه في الإيمان، وعلى هذا أول قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾⁽¹⁾، أو المأخوذ بالرسول على الأمم بأنهم إذا بعث إليهم رسول الله المصدق بالمعجزات صدقوه واتبعوه، ولا تكتموا أمره، ولم يخالفوا حكمه، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿وَلِذَلِكَ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ لَوْتُوْا الْكِتَابَ﴾⁽²⁾.

﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾: الميثاق⁽³⁾: ما وثق به العهد (من القبول)⁽⁴⁾ والإلزام والхلف، وأمثاله مفعال من الوثاقة، والأصل في مفعال أن يكون صفة كمعطار، أو آلة كمحراث. وقال ابن عطية⁽⁵⁾⁽⁶⁾: اسم بمعنى المصدر، ولا يعلم مفعالا جاء مصدرا ولا عدوه في أبنيته⁽⁷⁾، والضمير عائد على العهد إن عني به ما وثق به العهد، وعلى الله أو عليه إن عني به معنى المصدر.

(1) من الآية: 172 من سورة الأعراف.

(2) من الآية: 187 من سورة آل عمران.

(3) والميثاق: العهد، مفعال من الوثاق. (اللسان: وثق).

(4) ساقط من ح.

(5) ابن عطية: هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، الغرناطي، أبو محمد: مفسر، وفقه أندلسي، من أهل غرناطة. ولد سنة 481هـ وتوفي بلورقة سنة 542هـ. (نفع الطيب: 1 / 593، وكشف الظنون: 439، وبغية الوعاة: 295، والأعلام: 3 / 282).

(6) قال ابن عطية: وهو في هذه الآية اسم في موضع المصدر. (المحرر الوجيز: 1 / 113).

(7) في ح: في أبنية.

﴿وَيَقْضُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾⁽¹⁾: يحتتمل كل قطيعة، لكن الظاهر أنه توصيف للفاسقين بأنهم يضيِّعون حق خلق الله تعالى بعد توصيفهم بأنهم يضيِّعون حقه تعالى، وتضييع حقه تعالى بنقض عهده، وتضييع حق خلقه بقطيعة أرحامهم.

والأمر: طلب الفعل ممن هو دونك، وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور تسمية للمفعول به بالمصدر، كأن الداعي الذي يدعو إليه ويبعث عليه أمرٌ يأمر به، فهو مأمور به. كما سمي شأنًا، والشأن⁽²⁾: الطلب والقصد، يقال: شَأْنْتُ شَأْنَهُ أَي قَصَدْتُ قَصْدَهُ. و«أن يوصل»: -مخفوض المحل- بدل من الضمير في «به» للاشمال⁽³⁾، أو على تقدير اللام.

﴿وَيَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بقطع الزرع والنسل، وهيج الحروب والفتن، وإحداث الهرج

[52] والمرج، ولذلك قصر في / قوله: ﴿لَوْلَيْكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾⁽²⁷⁾، الخسار عليهم بخروجهم عن مقتضى الفطرة، واستبدالهم ظلمة الجهل بالنور الفطري، والغواية بالهداية الأصلية التي هي نور العقل، والنقض بالوفاء، والقطع بالوصل، والفساد بالصلاح، والعقاب بالثواب.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾: كيف للاستفهام عن الحال، والمراد: الإنكار⁽⁴⁾ والاستبعاد والتعجب، وليس فيه معنى الإخبار، وإلا يلزم الجمع بين المعنى الحقيقي والمجازي، ولما علم امتناع (وقوع)⁽⁵⁾ الشيء على غير حال من

(1) في موضع جر بدلا من الهاء، أي يوصله، ويجوز أن يكون بدلا من ما بدل الاشتمال، تقديره: ويقطعون وصل ما أمر الله به، ويجوز أن يكون في موضع رفع: أي هو أن يوصل. (إملاء ما من به الرحمن، ص: 34).

(2) في اللسان: وشَأْنْتُ شَأْنَهُ: قَصَدْتُ قَصْدَهُ. (اللسان: شأن).

(3) في ح: للاستعمال.

(4) في ع: للإنكار.

(5) ساقط من ح.

الأحوال، كأن إنكار حال ما من أحوال الكفر إنكار نفس الكفر على الطريق البرهاني، فيكون من باب الكناية بنفي اللازم عن نفي الملزوم، فيفيد كون الكفر بالله مع العلم بالحالة الآتي ذكرها كالمستحيل في نفسه، لقوة الدليل الموجب للإيمان، فإنها آيات بينات، ولهذا كان الاستفهام⁽¹⁾ الإنكاري بـ «كيف» أبلغ من الاستفهام الإنكاري بالهمزة.

وحمل الكفر على معنى الكفران المقابل للشكر يأباه الباء في قوله: ﴿بِاللَّهِ﴾، لأنه لا يقال كفر بالمنعم وبالنعمة، بل يقال كفر بالمنعم والنعمة، ولأن بعض ما ذكر ليس من النعم كما لا يخفى، والخطاب مع الذين كفروا. لما وصفهم بالكفر، وسوء المقال، وخبت الفعال، خاطبهم على طريق الالتفات، ووبّخهم على كفرهم مع علمهم بحالهم المقتضية خلاف ذلك.

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾: أي أجساماً لا حياة لها، عناصر وأغدية⁽²⁾، ونطفاً ومضغاً. والأموات⁽³⁾: جمع ميّت⁽⁴⁾، كالأقيال جمع قَيْل⁽⁵⁾⁽⁶⁾. وإطلاقها على تلك الأجسام من قبيل إطلاق المقيد على المطلق مجازاً، كإطلاق المرسن⁽⁷⁾ على الأنف.

(1) في ع: للاستفهام.

(2) انظر اللسان: غدد، وفيه: أغد عليه: انتفخ، وأغدية: معناه منتفخة.

(3) انظر: اللسان: موت.

(4) في ح: الميت.

(5) في ح: القيل.

(6) في اللسان: الأقوال: جمع قَيْل، وهو الملك النافذ القول والأمر. (اللسان: قول).

(7) والمرسن والمرسن: الأنف، وجمعه: المرسين. (اللسان: رسن).

وقيل⁽¹⁾: بطريق الاستعارة للاشتراك مع الأموات الحقيقية، وهي التي زال عنها الحياة في عدم الروح والإحساس⁽²⁾، وفيه نظر. والواو للحال، والمنصوب على الحال ليس فعلا واحدا، بل جملة قوله: ﴿كُنْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿تَرْجَعُونَ﴾. وهي وإن كان⁽³⁾ بعض أجزائها ماضيا، وبعضها مستقبلا. ولا يصح كونهما⁽⁴⁾ حالا حتى يكون فعلا مقارنا لوجود ما هو حال عنه، لكن معناها: وحالكم المشهودة، وقصتكم⁽⁵⁾ المعلومة هذه، فيؤول معناها إلى قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ في حال علمكم بهذه القصة.

﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ بنفخ الأرواح فيكم. (وأما خلق الأرواح)⁽⁶⁾ فلا دليل على تأخره عما ذكر، بل الظاهر من بعض الأحاديث تقدّمه عليه. والعطف بأداة التعقيب لأنه متصل بما عطف عليه، غير متراخ عنه، بخلاف البواقي. ﴿ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالنشور يوم ينفخ في الصور للسؤال في القبور، إذ لا يناسبه التنزيل منزلة البديهي في الظهور.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾⁽²⁸⁾ بعد الحشر، ليجازيكم بأعمالكم، أو تنشرون إليه من قبوركم للحساب. وهذه الأمور بعضها معلوم بالضرورة، وبعضه -لوضوح أدلته⁽⁷⁾ النقلية- جعل كالمعلوم بالبديهة، لقوة⁽⁸⁾ التمكن من العلم به.

(1) انظر: الكشف: 1 / 269.

(2) في ح: والأجناس.

(3) في ح: كانت.

(4) في ح: كونها.

(5) في ح: وفضلكم.

(6) ساقط من ح.

(7) في ح: بوضوح أدلة.

(8) في ح: فقرة.

[53] ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ لأجلكم، ولانتفاعكم به في دنياكم و / دينكم؛ أما الأول فظاهر، وأما الثاني بالنظر فيه (وما فيه)⁽¹⁾ من عجائب الصنع الدالة على الصانع القادر الحكيم، يعني أن الحكمة والمصلحة في خلقه انتفاعكم. وهذا لا ينافي التوقف في الانتفاع به على الرخصة من جهة الشرع حتى يكون فيه دلالة على أن الأصل في الأشياء الإباحة، ولا الاختصاص في البعض ببعض الطارئ بسبب بعض العوارض حتى يحتاج إلى أن يقال: إن الكل لكل على التوزيع، فإن الاعتبار صلاحية الانتفاع (لا الانتفاع)⁽²⁾ بالفعل، وإيراد الضمير مبتدأ -وبناء الذي عليه دون إيقاعه صفة لله- يفيد التخصيص والتعظيم، أي هو الخالق لما ذكر دون غيره، والمراد من الأرض الجهة السفلية؛ ف﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ يتناول الأرض وما فيها.

﴿جَمِيعاً﴾⁽³⁾: نصب على الحال من ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾، وهو للمبالغة في التكثير (لا)⁽⁴⁾ للاستغراق، كلفظ ﴿كُلٌّ﴾ في قوله: ﴿وَلَوْ تَيْتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾⁽⁵⁾، وفي قوله⁽⁶⁾: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾⁽⁷⁾. لأن في الأرض ما لا صلاحية فيه للانتفاع، ولا هو في معرض الاعتبار لكونه مستورا عن النظر.

(1) ساقط من ح.

(2) ساقط من ح.

(3) حال في معنى مجتمعا. (إملاء ما من به الرحمن، ص: 34).

(4) ساقط من ح.

(5) من الآية: 23 من سورة النمل.

(6) في ح: هو في قوله.

(7) من الآية: 69 من سورة النحل.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾⁽¹⁾: الاستواء: الاعتدال والاستقامة، من استوى العود إذا قام واعتدل، واستوى إليه: قصده قصداً.

مستويا: لا اعوجاج فيه، كالسهم المرسل من غير ميل إلى غيره. وسواه: عدله وقومه. والاستواء: طلب السواء، وإطلاقه على الاعتدال لما فيه من تسوية وضع الأجزاء، ولا يمكن حمله عليه، لأنه من خواص الأجسام. وقيل⁽²⁾: استوى إليه بمعنى: استوى عليه وملك.

قال: قد استوى بشر⁽³⁾ على العراق⁽⁴⁾. والأول أوفق للأصل. والتسوية: المرتبة عليه. والمراد من السماء⁽⁵⁾: هذه الأجرام العلوية أو جهات العلو.

﴿فَسَوَّلَهُنَّ مَبَعَمَ سَمَوَاتٍ﴾ هن: ضمير مبهم فسرّه ﴿مَبَعَمَ سَمَوَاتٍ﴾ بيان⁽⁶⁾ له. وقيل⁽⁷⁾: راجع إلى السماء لأنه في معنى الجنس، و﴿مَبَعَمَ سَمَوَاتٍ﴾: حال. وقيل⁽⁸⁾: جمع سماء، والوجه الأول.

(وقوله)⁽⁹⁾: ﴿وَهُوَ يَكُلُّ شَيْءًا عَالِمًا﴾⁽²⁹⁾: جملة اعتراضية. و﴿ثُمَّ﴾ للتفاوت بين الخلقين، وبيان فضل خلق⁽¹⁰⁾ السماء على الأرض. استعير من معنى التراخي لبعد خلق السماء من خلق الأرض في الرتبة، ولهذا عضده ورشحه بالإبهام والتفسير ليفيده عظمة ورفعة في النفس، ثم قواه بالجملة

(1) انظر اللسان: سوا.

(2) انظر: جامع البيان: 1 / 192.

(3) تنظر ترجمته في: الأعلام: 2 / 54.

(4) انظر ما يتعلق بالعراق المشهور: معجم البلدان: 4 / 93.

(5) في ح: الأسماء، وليس بمستقيم.

(6) في ع: بيانا.

(7) انظر: الكشف: 1 / 270.

(8) انظر: الكشف: 1 / 270.

(9) ساقط من ح.

(10) في ح: خلق فضل.

الاعتراضية لإفادة أن مثل ذلك الخلق لا يكون إلا عن علم تام بالغ فوق كل ذي علم. فمعنى ﴿فَم﴾ أنه مع خلق هذه الأشياء البديعة العجيبة، أقدم على خلق ما هو أبعد منها وأعجب وأبعد من الوهم والقياس، من غير ميل إلى شيء غيره، فلا يدل على تأخر خلق السماء عن الأرض بالزمان، بل على شدة تباينهما وتفاضلهما.

﴿وَلِذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ⁽¹⁾ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ⁽²⁾﴾: «إذ»

ظرف ينتصب

[54] بإضمار أذكر، فيكون / عطفا على قوله: ﴿وَتَشْرِ﴾ على الوجه الذي جعل عطف قصة على قصة. وما تخلل ليس بأجنبي، بل من تمام القصة، وأحرز⁽³⁾ منه لقرب مأخذه وصحته على الأوجه أن يقدر، فتدبر، أو نحوه بعد قوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ⁽⁴⁾﴾. ويكون «واذكر» عطفا عليه، ولما كان هذا من أجل النعم على نوع البشر، ومن⁽⁵⁾ أدل الدليل على عناية الباري تعالى بشأن هذا النوع، كان العطف عقيب تعداد النعم مناسبا، كأنه قيل: فتدبر ذلك، واذكر هذه النعمة خاصة، فإن فيها بلاغا لمن تذكر. ويجوز أن ينتصب بـ «قالوا»، وحينئذ يتعين أن يكون عطف قصة على قصة متقدمة من قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ ⁽⁶⁾﴾، أو من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي لَن يَضْرِبَ مَثَلًا ⁽⁷⁾﴾، وقد سبق أنها قصة

(1) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1/207، وإملاء ما من به الرحمن، ص: 34-35، والبيان للبياري: 70-69/10.

(2) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1/207، وإملاء ما من به الرحمن، ص: 34-35، والبيان للبياري: 70-69/10.

(3) في ح: وأحسن.

(4) من الآية: 281 من سورة البقرة.

(5) في ح: من.

(6) من الآية: 27 من سورة البقرة.

(7) من الآية: 25 من سورة البقرة.

واحدة في المساق والغرض، وأنه لا يجب مراعاة الخبر والطلب في هذا الضرب.

والملائك⁽¹⁾: جمع ملائكة على الأصل، كالشمائل في جمع شمائل، وإلحاق التاء لتأنيث الجمع كما في الصياقلة في جمع صيقل⁽²⁾.

والخليفة: فعيلة بمعنى الفاعل؛ من خلف غيره: إذا قام مقامه، والتاء فيه للمبالغة، و﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وكانا⁽³⁾ في الأصل مبتدأ وخبراً، انتصباً بمفعولي جاعل من «جعل» المتعدي إلى مفعولين بمعنى صير، والمعنى إني جاعل في الأرض خليفة مني، أي من يخلفني ويقوم بأمرى في الأرض.

وقيل⁽⁴⁾: منكم أي من يخلفكم ويكن⁽⁵⁾ مكانكم، لأنهم كانوا قبل آدم (عليه السلام)⁽⁶⁾ سكان الأرض، فخلفهم فيها⁽⁷⁾ آدم وذريته، واستغنى بذكر آدم عن ذكر ذريته كما يستغنى بذكر أبي القبيلة عنها في قولك: مضر⁽⁸⁾ وهاشم⁽⁹⁾، أو أريد به الجنس أي من يخلفكم، وإنما أخبرهم بذلك ليعرفوا بسؤالهم، وجوابه حكمة الله تعالى في قوله: ﴿إِنِّي

(1) في اللسان: والملائك: الملك لأنه يبلغ الرسالة عن الله عز وجل، والجمع: ملائكة. (اللسان: لأك).

(2) والصيقل: شحاذ السيوف وجلأوها. (اللسان: صقل).

(3) في ع: كان.

(4) قال الرمخشري: والمعنى خليفة منكم لأنهم كانوا سكان الأرض، فخلفهم فيها آدم وذريته. (الكشاف: 1 / 271).

(5) في ع: وسكن.

(6) ساقطة من ح.

(7) في ح: منها.

(8) هو مضر بن نزار بن معد بن عدنان. (اللسان: مضر).

(9) بنو هاشم: هم بطن من قريش، من العدنانية، وهو بنو هاشم. (معجم قبائل العرب: 3 / 1207).

أَعْلَمَ مَا لَا تَعْلَمُونَ⁽¹⁾، إذ الملائكة تطلع على تفاصيل وجوده وخواص قواه من الإفساد في الأرض، وسفك الدماء، المختصين بالقوى الشهوانية والغضبية، ولا تطلع على (خواص)⁽²⁾ الهيئة الاجتماعية وعلى خواص ما فوق أطوارهم من المعارف والأسرار الإلهية، أو قاسوا⁽³⁾ الإنس على الجن، (حيث)⁽⁴⁾ أَسْكِنُوا الْأَرْضَ قَبْلَ الْمَلَائِكَةِ، فأفسدوا فيها، ولذلك استبعدوه وتعجبوا منه. وليس فيه تعليم المشاورة، لأنه ليس بطريق المشورة.

قال الراغب⁽⁵⁾: ليس قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ على الاستشارة⁽⁶⁾، فإن الاستشارة استمداد في العلم من المستشار، والله منزّه عن ذلك، وإنما هو إعلام كإعلامه إيانا كثيرا من الكائنات لمصلحة ما، ولا البشارة بوجوب المَجْعُول، لأنها إنما تكون بالخبر السار، والقيّد المذكور مقصود⁽⁷⁾ هاهنا على ما يفصح عنه قولهم: ﴿وَنَحْنُ (نُسَبِّحُ)﴾⁽⁸⁾ الخ.

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ : لما كان قول الملائكة مع

[55] عصمتهم ظاهر⁽¹⁰⁾ الاعتراض، تأوله العلماء على وجوه أحسنها عندي / أنهم كانوا حين الخطاب لهم مجملين، وإبليس مندرج في جملتهم، فورد منهم الجواب مجملا، فلما انفصل إبليس عن جملتهم بإبائه واستكباره

(1) من الآية: 29 من سورة البقرة.

(2) ساقطة من ح.

(3) في ح: وقاسوا.

(4) ساقطة من ح.

(5) انظر: المفردات: خلف، ص: 157.

(6) في ح: الاستثناء.

(7) في ع: مفقود.

(8) ساقطة من ح.

(9) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 207، وإملاء ما من به الرحمن، ص: 35.

(10) في ع: ظاهره، والمثبت من ح.

انفصل الجواب إلى نوعين: فنوع الاعتراض كان عن إبليس، ونوع التقديس والتسبيح كان من الملائكة، فانقسم الجواب إلى قسمين كانقسام الجنس إليهما، وناسب كل جواب لمن⁽¹⁾ ظهر عنه، وكأن⁽²⁾ الظاهر المطابق للخطاب السابق أن يقولوا: أتجعل فيها خليفة من يفسد، وإنما عدلوا عنه إلى ما ذكر، صرفا للتعجب إلى جعل المفسد وخلقه في الأرض، مع قطع النظر عن معنى الخلافة، يعني أن وجودهم فيها محل استبعاد، فأثنى كونهم خليفة! ويحتمل أن يكون القصد تجريد التعجب عن شوب التعصب، فإن في ذكرهم بوصف الخلافة تعرضا لما هو مطمح نظرهم.

وأما قصد الاستكشاف عما خفي عليهم من الحكمة التي بهرت تلك المفسد، والاستخبار عما يرشدهم ويزيح شبهتهم كسؤال المتعلم معلّمه فيأباه (ما)⁽³⁾ في توصيفهم أنفسهم بالتسبيح والتقديس من التعريض، وما في قوله (تعالى)⁽⁴⁾: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من عدم البيان - لما اشتبه عليهم - لا يناسبه. ﴿مَنْ يُفْسِدْ﴾: أحد مفعولي تجعل، والثاني ﴿فِيهَا﴾، وإنما قُدِّم للاهتمام، وفي تكرير ﴿فِيهَا﴾ تنبيه على أن ما كان محلا للعبادة لا يناسب أن يكون محلا للفساد.

والسفك، والسبك، والسفح، والسن⁽⁵⁾، (والشن)⁽⁶⁾، والصب
متقاربة، وبينها⁽⁷⁾ فروق. فالصب أعم من هذه الألفاظ، والسفك يقال

(1) في ح: عمن.

(2) في ح: وكان.

(3) ساقط من ح.

(4) ساقطة من ح.

(5) في اللسان: سَنَّ عليه الماء: صبه. (اللسان: سنن).

(6) ساقطة من ح.

(7) في ع: وبينهما، والمثبت من ح.

في الدم والدمع، والسبك في الجواهر المذابة، والسفح في الصب من أعلا، والشن والسن للصب عن القرية ونحوها.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ⁽¹⁾ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّمُ لَكَ﴾: الواو في ﴿وَنَحْنُ⁽²⁾﴾: للحال كما تقول: أتحسن إلى فلان، وأنا أحق منه بالإحسان؟! وقوله: ﴿بِحَمْدِكَ﴾: في محل الحال، أي ملتبسين⁽³⁾ بحمدك، بمعنى حامدين لك.

والتسبيح تنزيه الله تعالى من النقص والسوء قولاً واعتقاداً. أصله من السبح وهو سرعة الذهاب في الماء، واستعير لمرّ النجوم في الفلك، ولجري الفرس. وقال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ مَبْجَاً⁽⁴⁾﴾ أي سعة ذهاب، وسبّحته عن كذا أي نزهته. والتّقدّيس⁽⁵⁾: التطهير من قدس في الأرض إذا ذهب⁽⁶⁾ فيها وأبعد، ثم استعمل في التطهير، لأن مطهر الشيء مبعده عن الأقدار، ومعنى ﴿نُقَدِّمُ لَكَ﴾: نقدّسك، واللام مزيدة، وقيل⁽⁷⁾: تقدّس نفوسنا لأجلك، كأنهم قابلوا الفساد بالتسبيح، وسفك الدماء بتطهير النفس، وليس ذلك إظهاراً للمنة، بل (هو)⁽⁸⁾ على حسب ما يقول مجتهد: يجب أن يفوّض صاحبه إليه خدمة ما، فيقول: تأمر الخدمة بغيري وأنا مجدّد فيها، وعلى ذلك قولهم: ﴿وَلَا تَنْحُنُّ لِلصَّافُونَ⁽⁹⁾﴾، وَإِنَّا لَتَنْحُنُّ الْمُسَبِّحُونَ⁽¹⁰⁾. و﴿قَالَ﴾

(1) انظر: اللسان: سبح.

(2) في ح: نحن.

(3) في ح: فتلبس.

(4) من الآية: 6 من سورة المزمل.

(5) انظر اللسان: قدس.

(6) في ح: هب.

(7) انظر: البحر المحيط: 1 / 163.

(8) ساقطة من ح.

(9) ساقطة من ح.

(10) الآيتان: 165 و166 من سورة الصافات.

[56] تعالى في جوابهم⁽¹⁾ : /

﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽³⁰⁾، فعرض ولم يصرح هاهنا، ليريهما فضيلة الإنسان، وما خُصّوا به من العلم والعمل اللذين يقصر الملك عنهما عيانا ومشاهدة، وإنما أبهم بيان استحقاقه فيه، ليقرّوا بالعبودية، ويعرفوا أنّ له وراء علمهم علما هم عنه محجوبون، وكفى العباد علمهم بذلك ليزدادوا تعظيما له، ويتبينوا نقصهم وكماله، ثم بين لهم⁽²⁾ بعضه فيما بعد، ليعظم عندهم وقعه، فيرجعوا ويسلموا، ويعترفوا بنقصهم، ويُلين شكائهم⁽³⁾. هنا جملة محذوفة يتم بها المعنى، ويصح⁽⁴⁾ العطف، وتقديرها: فجعل في الأرض خليفة وسّمَاهُ آدم، فالواو المذكورة فصيحة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ التعليم حقيقة، فعل يترتب عليه العلم، وهو المراد في قولهم: علمته فلم يتعلم⁽⁵⁾.

ومعنى تعليم الأسماء أنه أراه أجناس المخلوقات، وبين أن هذا اسمه فرس، وأن هذا اسمه بقرة، على أن المراد⁽⁶⁾ من الأسماء الألفاظ الموضوعة للمعاني، مفردة كانت أو مركبة، مخبرا عنها أو خبرا، أو رابطة بينهما، أو بين أن هذا للركوب، وهذا للحرث، على أن المراد منها سمات الأشياء وخصائصها، ولا علم لنا بطريق تعليمه تعالى آدم (عليه السلام)⁽⁷⁾ الأسماء، واعلم أنهم بعدما اتفقوا على أن دلالة الألفاظ وضعية، اختلفوا

(1) في ح: وقال الله تعالى عز شأنه.

(2) في ح: له.

(3) والشكيمة: الأنفة والانتصار من الظلم. (اللسان: شكّم).

(4) في ح: ويصلح.

(5) في ع: فالواو في ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ فصيحة، التعليم حقيقة، فعل يترتب عليه العلم ولا يتخلف عنه، وقد يطلق مجازا ينظر مقدمات العلم، وهو الذي يترتب عليه العلم غالبا، وقد يتخلف عنه.

(6) انظر هذه الأقوال كاملة في: تفسير القرطبي: 1 / 281-282.

(7) ساقطة من ح.

في تعيين الواضع. فذهب قوم (إلى أنه هو الله تعالى، ويسمى هذا المذهب مذهب التوقيف⁽¹⁾، وذهب بعضهم إلى أنه هو الناس)⁽²⁾، ويسمى هذا المذهب مذهب الاصطلاح، وبعضهم إلى التوزيع، أي: بعضه توقيفي، وبعضه⁽³⁾ اصطلاحي، وبعضهم إلى التوقف.

فإن كان النزاع في الظهور لا في القطع، فالظاهر من الآية المذكورة هو الأول⁽⁴⁾، وعلى المذهب الثاني لا يلزم من الحاجة إلى سابقة اصطلاح التسلسل⁽⁵⁾، إذ يجوز أن يعرف القدر المحتاج إليه في الاصطلاح⁽⁶⁾ بالترديد والقرائن، كما يعرف الأطفال، والله أعلم بحقيقة الحال. وآدم: وزنه

«فاعل»، كآزر⁽⁷⁾، وعازر⁽⁸⁾، وشالغ⁽⁹⁾، وفالغ⁽¹⁰⁾ إن كان عجمياً، و«أفعل» على أنه مشتق من أديم الأرض إن كان عربياً. قال⁽¹¹⁾ الجواليقي⁽¹²⁾

(1) لغة العرب توقيف... والدليل على صحة ما نذهب إليه إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه، ثم احتجاجهم بأشعارهم. ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحاً لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج لو اصطللحنا على لغة اليوم، ولا فرق. (الصاحبي، ص: 6-7، والمزهر: 1/ 8-10، وانظر: مقدمة الزبيدي لتاج العروس: 1/ 5).

(2) ساقط من ح.

(3) بعده في ح: ما سقط من الهامش رقم: في ص: من هذا البحث.

(4) في ح: من الآية هو الأول المذكور.

(5) في ح: أليس.

(6) في ع: الإصلاح، والمثبت من ح.

(7) آزر: أب سيدنا إبراهيم الخليل، وهو من نسل سام بن نوح. (الأعلام: 1/ 306).

(8) عازر وعزرة وعيزار... أسماء. (اللسان: عزر).

(9) شالغ: جد إبراهيم، على نبينا وعليه الصلاة والسلام. (اللسان: شلغ).

(10) هو فالغ بن عابر بن شالغ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. (تاريخ الطبري: 1/ 311).

(11) انظر: معاني الزجاج: 1/ 78، والدر: 1/ 49، وتفسير ابن كثير: 1/ 73، وجامع البيان: 1/ 482، والبحر: 1/ 145.

(12) هو موهوب بن أحمد بن محمد بن الحضرمي بن الحسن، أبو منصور ابن الجواليقي، عالم بالأدب واللغة، مولده ببغداد سنة 466هـ، ووفاته بها سنة 540هـ. (وفيات الأعيان: 2/ 142، وبغية الوعاة، ص: 401، ودائرة المعارف الإسلامية: 7/ 156، وصيد الخاطر، ص: 114، والأعلام: 7/ 335).

في «المعرب»⁽¹⁾: أسماء الأنبياء كلها أعجمية إلا أربعة أسماء، وهي: آدم⁽²⁾، وصالح⁽³⁾، وشعيب⁽⁴⁾، ومحمد عليهم السلام، وقد صح عن ابن عباس (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)⁽⁵⁾ أنه قال: إنما سمي آدم لأنه خُلِقَ من أديم الأرض، أخرجه⁽⁶⁾ ابن جرير⁽⁷⁾، وابن أبي حاتم⁽⁸⁾، والحاكم⁽⁹⁾⁽¹⁰⁾، وصححه البيهقي في «الأسماء والصفات»⁽¹¹⁾. وورد مثله عن علي (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)⁽¹²⁾، وابن مسعود (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ). أخرجه ابن جرير.

وأديم الأرض: ظاهر وجهها، وقرئ⁽¹³⁾: ﴿عَلَّمَ﴾ على البناء للمفعول، ورفع آدم، ومنع الصرف للعلمية والعُجمة (أو للعلمية)⁽¹⁴⁾، ووزن الفعل.

(1) في ح: المغرب، والمثبت من ع.

(2) ذهب الزمخشري في تفسيره إلى أن آدم اسم أعجمي. (الكشاف: 1 / 272).

(3) هو صالح (عليه السلام): نبي عربي ورد ذكره في القرآن عدة مرات، وهو من بني ثمود. (الأعلام: 3 / 188).

(4) شعيب: النبي العربي، من بني مدين من نسل إبراهيم. كان بعد هود وصالح، وقبيل أيام موسى، منازل قومه بقرب تبوك بين المدينة والشام. (الأعلام: 3 / 165).

(5) ساقطة من ح.

(6) انظر: جامع البيان: 1 / 214-215.

(7) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، المؤرخ المفسر الإمام. ولد في أُمْل طبرستان سنة 224هـ، واستوطن بغداد، وتوفي بها سنة 310هـ. (انظر: إرشاد الأريب: 6 / 423، وتذكرة الحفاظ: 2 / 351، والوفيات: 1 / 456، والبداية والنهاية: 11 / 145، وميزان الاعتدال: 3 / 35، ولسان الميزان: 5 / 100، وتاريخ بغداد: 2 / 162، وكشف الظنون، ص: 436، والأعلام: 6 / 69).

(8) هو عبد الرحمن بن محمد أبو حاتم بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي، أبو محمد. حافظ للحديث، من كبارهم، ولد سنة 240هـ، وتوفي سنة 327هـ. (تذكرة الحفاظ: 3 / 46، وفوات الوفيات: 1 / 260، وطبقات الحنابلة: 2 / 55، والأعلام: 3 / 324).

(9) انظر المستدرک: 2 / 380، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(10) هو محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي، الطهماني النيسابوري، الشهير بالحاكم، ويعرف بابن البيع، أبو عبد الله. من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه، مولده بنيسابور سنة 321هـ، ووفاته بها سنة 405هـ. (طبقات السبكي: 3 / 64، ولسان الميزان: 5 / 232، والأعلام: 6 / 227).

(11) انظر الأسماء والصفات للبيهقي، ص: 385.

(12) ساقطة من ح.

(13) وهي قراءة يزيد البربري. (المحتسب: 1 / 64).

(14) ساقطة من ح.

[57] ﴿ثُمَّ عَرَضَ مِنْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾: / الضمير للمسميات المدلول عليها كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَوَيْهَ﴾⁽¹⁾، إن كان الألف واللام في الأسماء للجنس، أو المقدرة إن كان التعريف باللام عوضاً عن التعريف بالمضاف إليه، على أن المراد أسماء المسميات كما في قوله تعالى: ﴿وَأَشْتَقِلَ الرَّأْسُ﴾⁽²⁾.

وإنما ذكر الضمير للتغليب، فإن في المسميات العقلاء، ولفظة: ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على تأخير العرض عن التعليم، وذلك ليتحقق⁽³⁾ ويظهر فضل آدم، وجهة أحقيته للخلافة وقت قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽⁴⁾، فإنه يدل على أنهم غير صادقين في زعمهم أنهم أحقاء للخلافة، وذلك بثبوت فضل آدم في ذلك الوقت.

﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽⁵⁾ 31: الإنباء: إخبار فيه إعلام، ولذلك أجري مجرى كل واحد منهما، ف قيل: أنبأته بكذا، كقولك: أخبرته بكذا، وأنبأته كذا، كقولك: أعلمته⁽⁶⁾ كذا، ولما كان المراد هنا معنى الإخبار، قال: ﴿بِأَسْمَاءِ﴾، ثم إنه لا يقال: «نبأ» إلا لخبر⁽⁷⁾ فيه خطر، ففي عبارة «الأنباء»⁽⁸⁾ تعظيم لشأن علم الأسماء، وإنما استنبأهم للتبكيك والرد عليهم فيما أظهروا من عدم استحقاقه للخلافة، وما أبطنوا من⁽⁹⁾ أولويتهم بذلك، لا للتكليف، لا لأنه من باب التكليف

(1) من الآية: 11 من سورة النساء.

(2) من الآية: 3 من سورة مريم.

(3) في ح: لتحققه.

(4) من الآية: 110 من سورة البقرة، ومن الآية: 30 من سورة البقرة.

(5) انظر اللسان: نبأ.

(6) في ح: علمته.

(7) في ح: بخبر.

(8) في ح: الأنبياء.

(9) في ح: عن.

بالحال، لأنه معلق، بل لأن التعليق المذكور لا يناسب التكليف .

وجواب الشرط في ﴿إِنْ كُنتُمْ﴾ محذوف، دل عليه ﴿أَنْبِئُونِي﴾، فإن قيل⁽¹⁾: الصديق إنما يتعلق بالخبر، وهم استخبروا ولم يخبروا، فكيف يصدقون أو يكذبون؟ قلت: الصديق والكذب، وإن كانا لا يتعلقان بالاستخبار بالقصد الأول. ومن حيث المنطوق فقد يتعلقان به بالقصد الثاني، ومن حيث المفهوم وذلك إذا كان الاستخبار على وجه يفهم منه معنى الخبر، وقد نبّهت فيما تقدم⁽²⁾ أن الأمر فيما نحن فيه كذلك، فإن مساق كلامهم لما كان كاشفا عن زعمهم أنهم⁽³⁾ أحقاء بالخلافة، كان استخبارهم متضمنا لمعنى الخبر.

فإن قلت⁽⁴⁾: أليس زعم⁽⁵⁾ المذكور فاسدا متضمنا، لتجوزهم صدور ما يخالف⁽⁶⁾ الحكمة عن الله تعالى؟ وشأن الملائكة أعلى من ذلك، لأنهم عباد مكرمون، لا يسبقونه، وهم بأمره يعملون. قلت: الآن قوي الإشكال، وقد مرّ منا الإشارة⁽⁷⁾ إلى وجه الانحلال⁽⁸⁾ بإرجاع الزعم المذكور إلى إبليس، والله أعلم.

﴿قَالُوا مُبِحَاتِكَ﴾ تنزيه منهم له تعالى عن فعل ما لا مصلحة فيه ولا حكمة، أي نبعدك عن فعل ما يمكن (أن يكون)⁽⁹⁾ أصلح منه، وأما

(1) انظر: التعليق على هذه الآية في جامع البيان: 1 / 218-220.

(2) مر هذا عند تفسيره قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

(3) في ح: أنهما.

(4) في ح: قيل.

(5) في ح: زعمهم.

(6) في ح: ما لا يخالف.

(7) مر هذا عند تفسيره قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا لَتَجْعَلَ فِيهَا مِنْ يَفْسِدَ فِيهَا وَيُسْفِكُ الدَّمَاءَ﴾.

(8) في ح: الإنحال.

(9) ساقطة من ح.

الإشعار بأن سؤالهم كان استفسارا محضا، فلا يناسب المقام لما فيه من التليس، ولأنه مردود بقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽¹⁾ على ما تقف⁽²⁾ عليه بإذن الله تعالى.

وسبحان: من المصادر اللازم حذف فعلها سماعا، وهو علم التسبيح، يجري ذكره مجرى ذكر الفعل، أي نسبك تسبيحا.

﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾: اعتراف منهم بالنقص ولزوم الحد، أي لا يمكننا الاكتساب

[58] والترقي. / ولما كان قولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ من باب العذر⁽³⁾، وقولهم: ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ من باب الشكر، أفادت الآية أن العبد ما ينبغي له أن يفصل عن نقصانه، وعن فضل الله تعالى وإحسانه.

وفي وجه هذا الجواب من الحسن ما يُبهر الألباب حيث قدموا بين يديه لتنزيه⁽⁴⁾ الله تعالى، ثم اعترفوا بالجهل، ثم نسبوا العلم لله تعالى، وأردفوا صفة العلم بصفة الحكمة، إذ بان لهم وصف الحكمة في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾⁽⁵⁾. وقدموا وصف العلم، لأن الذي ظهرت به المزية لآدم (عليه السلام)⁽⁶⁾ هو العلم، ولأن الحكمة من آثاره.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾⁽⁷⁾: سلب العلم⁽⁷⁾ والحكمة عن أنفسهم⁽⁸⁾ بقصرهما عليه، وإنما قصرهما عليه بتوسيط الضمير، وإيراد

(1) من الآيات: 23 و 94 و 111 من سورة البقرة.

(2) انظر تفسيره لقوله تعالى:

(3) في ح: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ من باب الشكر.

(4) في ع: تنزيه.

(5) من الآية: 30 من سورة البقرة.

(6) ساقطة من ح.

(7) في ح: للعلم.

(8) في ح: من أنفسهم.

اللام، وصَدَّروا الجملة بـ «إِنَّ» التوكيدي الرافع للشك والإنكار، لإيهام كلامهم بأن استخلاف آدم على خلاف⁽¹⁾ مقتضى العلم والحكمة، ودعواهم العلم لأنفسهم، وشكهم في استحقاقه وإنكاره لمزيتته⁽²⁾ عليهم، فرجعوا عن ذلك، وأقروا بأن مهية العلم والحكمة مخصوصة به دون غيره، وأنه محقق عندهم.

والحكيم: فَعِيل بمعنى مُفْعِل، أي مُحَكِّم لمبدعاته⁽³⁾، وذلك لأنه لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة.

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾: ناداه باسمه العلم، وكذا سائر الأنبياء عليهم السلام، وهو خطاب تعريف، ونادى محمدا عليه السلام بـ (﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾)⁽⁴⁾، و⁽⁵⁾ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾⁽⁶⁾، وهو خطاب تشریف، فانظر تفاوت ما بين (النداءين)⁽⁷⁾. وقال [الله]⁽⁸⁾ تعالى: ﴿أَنْبِئْهُمْ﴾، فجعل مَنْ اعترضوا به معلما لهم، ومُنْبِئهم بما تقاصرت علومهم عنه، ليُظهر بذلك فضله عليهم.

﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾: بين هذه الجملة والتي قبلها جملة محذوفة تقديرها: فأنبأهم، فالفاء المذكورة فصيحة، أي أخبرهم بها، وعلموا فضله، وظهر عجزهم وقصورهم.

(1) في ح: خلافة.

(2) في ح: بمزيتته.

(3) في ح: بمبدعاته.

(4) من الآية: 1 من سورة الطلاق.

(5) ساقط من ح.

(6) من الآية: 43 من سورة المائدة.

(7) ساقط من ح.

(8) زيادة من ح.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾: إنكار داخل على النفي، فيفيد التقرير، لأن نفي النفي إثبات.

﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: استحضار⁽¹⁾ لقوله⁽²⁾: ﴿أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽³⁾، لكنه جاء به على وجه البسط ليكون كالحجة عليه، وإضافة غيب بمعنى في، كضرب اليوم، أي ما غاب في السماوات والأرض. والغيب هاهنا: ما خفي⁽⁴⁾ عنهم فيهما، وفي الأصل ما غاب عن الحس، أي الغائب المقابل للشاهد⁽⁵⁾.

﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْخُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾⁽³³⁾: عطف على ﴿أَلَمْ أَقُلْ﴾⁽⁶⁾ لا على ﴿أَعْلَمُ﴾، لأنه ما كان مقولا لهم في قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽⁷⁾، فهو مقول لذلك (القول، لا لذلك)⁽⁸⁾، ويجوز أن تكون⁽⁹⁾ واو الحال، والمراد بـ ﴿مَا تُبْخُونَ﴾: «ما» صدر عنهم من التصريح والتلويح، فينتظم ما تعرضوا له بطريق التعريض، وبـ «ما تكتُمون»⁽¹⁰⁾ ما أسرّه إبليس من الكبر والعصيان، فهو من قبيل خطاب الجمع بفعل الواحد منهم كما في قوله تعالى: ﴿فَقَعَقَرُوهَا﴾⁽¹¹⁾. واعلم أن في هذه الآيات دلالة على شرف الإنسان، ومزية العلم وفضله على العبادة، وأنه شرط في الخلافة بل العمدة

(1) في ح: استحبار.

(2) في ح: لقولهم.

(3) من الآية: 29 من سورة البقرة.

(4) في ح: ما أخفى.

(5) في ح: للشهادة بمعنى الشاهد.

(6) في ح: ألم أقُلْ لكم.

(7) الآية: 30 من سورة البقرة.

(8) ساقط من ح.

(9) في ع: يكون.

(10) في ح: يكتُمون.

(11) من الآية: 64 من سورة هود.

فيها، وأن التعليم يصح إسناده إلى الله تعالى، وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه لاشتهاره فيمن يحترف بالتعليم، وإن لم يكن مختصا به على ما يفصح عنه تلقيب الفارابي⁽¹⁾ بالمعلم الثاني.

[59] ﴿وَلَا قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾: نَظَّمُهُ بِمَا قَبْلَهُ مِنْ / حَيْثُ إِنَّ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْآيَةِ كَشَفَ مَا أَجْمَلَ فِي خَتَمِ تِلْكَ الْآيَةِ مِمَّا نَسَبَ إِلَيْهِمْ مِنْ كِتْمَانِ إِبْلِيسَ مِنَ الْكِبَرِ وَالْعَصِيَانِ، وَ﴿إِذْ﴾ هَذِهِ عَطَفَ عَلَى الَّتِي قَبْلَهَا إِنْ نَصَبْتَهَا بِإِضْمَارٍ: أَذْكَرُ، وَإِنْ نَصَبْتَهَا بِ«قَالُوا» فَهَذِهِ مَنْصُوبَةٌ بِ«أَذْكَرُ» مُقَدَّرٌ، وَالْوَاوُ حِينَئِذٍ عَاطِفَةٌ الْقِصَّةِ عَلَى الْقِصَّةِ⁽²⁾، وَلِئِنْ أَنْ تَقُولَ: إِنَّ الْعَامِلَ مُحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ⁽³⁾: انْقَادُوا فَسَجِدُوا، لِأَنَّ السَّجُودَ كَانَ نَاشِئًا عَنِ الْانْقِيَادِ، وَفِي ﴿قُلْنَا﴾ خُرُوجٌ عَنْ ضَمِيرِ⁽⁴⁾ الْمُتَكَلِّمِ الْمَفْرَدِ إِلَى ضَمِيرِ الْجَمْعِ، لِأَنَّ⁽⁵⁾ التَّعْظِيمَ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ أَدْعَى لَامْتِثَالِ الْأَمْرِ مِنْ غَيْرِ بَطْءٍ يَنَاسِبُ الْمَقَامَ.

﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾: فِيهِ إِيجَازٌ وَنَقْلٌ لِلْأَمْرِ⁽⁶⁾ التَّعْلِيْقِيُّ إِلَى صُورَةِ التَّنْجِيزِ، اعْتِبَارًا لِلْحَاصِلِ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾⁽⁷⁾، فَإِنَّهُ صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْأَمْرَ بِالسَّجُودِ كَانَ قَبْلَ تَسْوِيَةِ خَلْقِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ أَمْرُهُ بِالسَّجُودِ مَرْتَبًا عَلَى إِنْبَائِهِمْ بِالأَسْمَاءِ، بَلْ عَلَى ظُهُورِ شَأْنِ نَفْخِ الرُّوحِ فِي قَالِبِ

(1) هو محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابي، ويعرف بالمعلم الثاني... ولد بفاراب سنة 260هـ، وتوفي بدمشق سنة 339هـ. (وفيات الأعيان: 2/ 76، وطبقات الأطباء: 2/ 134، والبداية والنهاية: 11/ 224، والأعلام: 7/ 20).

(2) في ح: الجملة على الجملة.

(3) في ح: بتقدير.

(4) في ح: الضمير.

(5) في ح: لأنه.

(6) في ح: الأمر.

(7) الآية: 29 من سورة الحجر.

آدم عليه السلام، لم يصح⁽¹⁾ أن يكون ذلك اعترافاً بفضله، وأداء لحقه، واعتذاراً⁽²⁾ عما قالوا فيه.

قال أبو عمرو⁽³⁾⁽⁴⁾: يقال: سجد إذا طأطأ رأسه وانحنى، فالسجود التطامن مع خفض الرأس، وبه يفارق الركوع، وأما التذلل فاعتباره في مفهومه العرفي دون اللغوي، وقد جاء في المثل: «أَسْجَدُ مِنْ هُذْهِدٍ»⁽⁵⁾، وليس في سجوده تذلل⁽⁶⁾.

وفي الشرع: وَضَعَ الجبهة على الأرض، ولا يلزم أن يكون على قصد العبادة، فإن صلاة المرائي صلاة حقيقية، وليست⁽⁷⁾ على قصد العبادة، والسجود المأمور كان على سبيل التكرمة كسجود إخوة يوسف عليه السلام له، وكون السجود لله تعالى على أن يكون آدم عليه السلام قبلة، يردّه قوله تعالى نقلاً عن إبليس⁽⁸⁾: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ لِهَيْئاً﴾⁽⁹⁾، لأن الاعتراض بكونه طيناً إنما يتجه أن لو كان مسجوداً حقيقة، لا قبلة للسجدة كالكعبة شرفها الله.

(1) في ح: لم يصلح.

(2) في ح: واعتذاراً.

(3) هو محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، أبو منصور، من أئمة علم الكلام، والماتريدي نسبة إلى «ما تريد»، وهي محلة بسمرقند، كانت وفاته رحمه الله بسمرقند سنة 333 هـ. (انظر ترجمته في: الفوائد البهية، ص: 195، ومفتاح السعادة: 2 / 21، والأعلام: 7 / 242، وكشف الظنون، ص: 335).

(4) انظر: تفسير القرطبي: 1 / 291.

(5) انظر: مجمع الأمثال: 1 / 356.

(6) في ع: تذلل.

(7) في ح: حقيقة ليست.

(8) في ح: عن إبليس قال.

(9) من الآية: 61 من سورة الإسراء.

قال الإمام أبو منصور⁽¹⁾ ⁽²⁾: فيه دليل أن الكتاب ينسخ بالسنة، فإن جواز السجود لغير الله تعالى ثبت بقصة آدم، ثم نسخ⁽³⁾ ذلك بالخبر.

وقيل⁽⁴⁾: هو بيان استغنائه عن عبادتهم إياه وإنكاره عليهم قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾⁽⁵⁾، فقال لهم: لا حاجة إلى عبادتكم وخدمتكم، فاخدموا عبدا من عبادي لم يخدمني كثير خدمة.

﴿فَسَجَدُوا﴾⁽⁶⁾ عن⁽⁷⁾ وهب قال: أول من سجد جبرائيل، ثم ميكائيل⁽⁸⁾، ثم إسرافيل⁽⁹⁾، ثم عزرائيل⁽¹⁰⁾، ثم سائر الملائكة، وكان ذلك كما نفخ فيه الروح من غير تأخير، لقوله عز وجل: ﴿فَقَعُولٌ لَهُ سَاجِدِينَ﴾، فإن الفاء للتعقيب بلا تراخ.

﴿إِنَّ إِلَهًا لَّغَيْرِ آبَى وَامْتَكَبَر﴾: استثناء متصل، لأنه من جنس الملائكة، ولا ينافيه قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، لأن صنفًا منهم يطلق عليهم⁽¹¹⁾ الجن على ما (دل) ⁽¹²⁾ عليه قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾، ولا لأنه كان جنيا واحدا بين أظهر الألوف من الملائكة، مغمورا

(1) هو محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، أبو منصور، من أئمة علم الكلام، ومن كتبه تأويلات أهل السنة. توفي بسمرقند سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة. (انظر: الفوائد البهية، ص: 195، كشف الظنون، ص: 335، مفتاح السعادة: 2 / 21، والأعلام: 7 / 242).

(2) انظر: تفسير القرطبي: 1 / 292.

(3) انظر التفسير الكبير: 2 / 230.

(4) انظر: تفسير القرطبي: 1 / 293.

(5) من الآية: 29 من سورة البقرة.

(6) انظر: الدر: 1 / 50، وابن كثير: 1 / 77.

(7) روي عن ابن عباس في جبريل وميكائيل: كقولك: عبد الله وعبد الرحمن. (اللسان: جبر).

(8) هو الملك المكلف بالنفخ في الصور عند نهاية الدنيا. (اللسان: سرفل).

(9) هو المكلف بقبض أرواح العباد، والفرق بين الملائكة وغيرهم أفاض فيه الإمام الرازي في تفسيره. (التفسير الكبير: 2 / 232).

(10) في ح: عليه.

(11) ساقطة من ح.

(12) من الآية: 158 من سورة الصافات.

[60] بهم، فغلبوا عليه في قوله للملائكة، ثم استثنى منهم استثناء، وأعد⁽¹⁾ منهم / لما في قوله تعالى: ﴿أَسْتَغْبِزَتْ أُمُّ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾⁽²⁾، دلالة على أن تناول الأمر إياه بطريق الدلالة، لأن المعنى: أمرك دائر بين أن يكون⁽³⁾ أدنى من المأمورين بالسجود، فيتناولك الأمر دلالة، فيلزم الاستكبار، أو أعلى منهم، فتكون من زمرة العالين الذين لم يتناولهم الأمر، بل لأن تقدير الكلام: فسجدوا، والمأمورون⁽⁴⁾ به تبعا لإلا إبليس، فإنه امتنع عن السجود، واستعظم نفسه، ورفعها عن حيز المأمورين تبعا، وهذا ما قيل⁽⁵⁾: إن الجن أيضا كانوا مأمورين مع الملائكة، إلا أنه استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم، لأنه إذا علم أن الأكابر مأمورون بالتذلل لأحد⁽⁶⁾، علم أن الأصاغر أيضا مأمورون به، وليس مبني هذا على أن يرجع الضمير في ﴿فَسَجَدُوا﴾ إلى القبيلين⁽⁷⁾، لأن قوله: ﴿فَسَجَدُوا﴾ هنا في موضع ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾⁽⁸⁾ في آيات أخر.

وامتنع إبليس من الصرف للعلمية والعجمة، ومن جعله مشتقا من الإبلاس بمعنى اليأس، قال⁽⁹⁾: وشبه العجمة لكونه لم يسم به أحد من العرب، فصار خاصا بمن⁽¹⁰⁾ أطلقه الله تعالى عليه، فكأنه دخيل في لسانهم وهو علم مرتجل.

(1) في ح: واحد.

(2) من الآية: 74 من سورة ص.

(3) في ح: تكون.

(4) في ح: المأمورون.

(5) انظر: تفسير القرطبي: 1 / 294 وما بعدها.

(6) في ح: لأجل.

(7) في ح: القبيلتين.

(8) من الآية: 72 من سورة ص، وكذلك الآية: 30 من سورة الحجر.

(9) قيل: ترك إجراؤه استقلا إذ كان اسما لا نظير له من أسماء العرب. (جامع البيان: 1 / 227).

(10) في ح: عن.

والإباء: امتناع بالاختيار، والتكبر: أن يرى الرجل نفسه أكبر من شأنه، والاستكبار: طلب ذلك بالتشبع، فهو من أفعال القلوب.

وإنما قدّم الإباء عليه وإن كان أدلّ، لأن مفهوم الاستثناء وهو عدم صدور السجود عنه ناشئ عن إباطه، وإباطه ناشئ عن استكباره، فروعياً هذا الترتيب واستؤنف في ﴿أَبَى﴾، لأنه موضع سؤال، لاحتمال أن يكون ترك السجود لعذر دون استكبار، لظهور أن الامتناع بالاختيار أمر فيه تذلل لا يكون إلا عن استكبار⁽¹⁾، وكان استكباره سبباً عن كفره الأصلي، ولهذا ذيل⁽²⁾ بالجملة الاعتراضية للتعليل وهي⁽³⁾ قوله: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾⁽³⁴⁾ أي كان أصله من كفره الجنّ، فلذلك ارتكب المعصية على ما أفصح عنه قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْبِغِثِ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾⁽⁴⁾. قيل⁽⁵⁾: أي صار منهم باستقباحه أمر الله تعالى، ولو كان المعنى هذا لقليل: فكان من الكافرين.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ﴾: عطف على ﴿إِذْ قُلْنَا﴾ لا على ﴿قُلْنَا﴾، وفائدة النداء تنبيه المأمور لما⁽⁶⁾ يلقي إليه من الأمر.

﴿امْكُنْ﴾: من السكنى أي اتخذها مسكناً، ولهذا ذكر متعلقه بدون «في»، لا من السكون بمعنى ترك الحركة، وإن كان ذلك في الحقيقة راجعاً إلى السكون، لأنه نوع من⁽⁷⁾ اللبث والاستقرار.

(1) في ع: الاستكبار.

(2) في ع: زيله، والمثبت من ح.

(3) في ح: وهو.

(4) من الآية: 49 من سورة الكهف.

(5) انظر: الكشف: 1 / 273.

(6) في ح: بما.

(7) في ح: عن.

﴿أَنْتَ وَزَوْجَكَ﴾: معطوف على الضمير المستكن في ﴿أَسْكُنْ﴾ المؤكد بـ ﴿أَنْتَ﴾، والفصل بتأكيد لتصحيح الوصل على سبيل التغليب، إشعاراً بدُنُو رتبته وتبعيتها، وكأن فيه توطئة للاكتفاء بذكره في قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

﴿الْجَنَّةِ﴾: اللام للعهد، والمعهود دار الثواب لا غير.

﴿وَكُلَّامٍ مِنْهَا﴾: عدل هاهنا عن أسلوب التغليب، تنبيهاً على أن تبعيتها لزوجها في السكنى دون الأكل.

﴿رَغَدًا﴾⁽¹⁾: وصف للمصدر، أي أكلا رغداً، والرغد: العيش الدار الهنيء الذي لا عناء فيه.

[61] وقال / الليث⁽²⁾: الرغد⁽³⁾ أن يأكل ما شاء (إذا شاء)⁽⁴⁾ حيث شاء.

﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾⁽⁵⁾: حيث للمكان المبهم، أي أي مكان من الجنة شئتما، ومحل «حيث» مضافاً إلى الجملة نصب على الظرفية، علّقه بالأكل مع ظهور تعلقه بالسكنى، لأن إباحة الأكل من أي مكان كان وفي أي وقت كان مستلزمة لإباحة السكنى فيه بحسب العادة بدون العكس، وإنما أطلق لهما الأكل من الجنة حيث شاء أو متى أراد مع سعتها وكثرة أشجارها، ولم يقيد بوقت ولا موضع ولا أكل مخصوص بشيء دون

(1) انظر: اللسان: رغد.

(2) هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي بالولاء، أبو الحارث. إمام أهل مصري عصره حديثاً وفقهاً. ولد سنة 94هـ، وتوفي سنة 175هـ. (وفيات الأعيان: 1 / 438، وتذكرة الحفاظ: 1 / 207، والأعلام: 5 / 248).

(3) انظر: غريب القرآن، ص: 46، والدر: 1 / 52، ومجاز القرآن: 1 / 38، والوسيط: 1 / 121.

(4) ساقطة من ح.

(5) قال سيبويه: إن من العرب من يفتحها (أي من حيث) على كل حال. (الكتاب: 2 / 44). وقال الكسائي: الضم لغة قيس وكنانة، والفتح لغة بني تميم. (إعراب القرآن للنحاس: 1 / 213، وإملاء ما من به الرحمن، ص: 37-38).

شيء، كيلا يبقى لهما عذر في تناول من شجرة واحدة منهى عنها بتلك المبالغة.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾⁽¹⁾: نهى عن الأكل منها بطريق الكناية مبالغة، فلا نهى عن القرب منها، وقد أفصح عن هذا قوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا (رَبُّكُمَا)﴾⁽²⁾ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةَ⁽³⁾ حيث أشار بما يشار به إلى القريب، ثم إنه لم يقل عن القرب من هذه الشجرة.

﴿وَالشَّجَرَةَ﴾⁽⁴⁾: نعت أو عطف بيان، واختلفوا في تعيينها. وقال ابن جرير⁽⁵⁾: (والأولى)⁽⁶⁾ أن لا يعين، لأن العلم بها علم لا ينفع، والجهل بها جهل لا يضر، ولك أن تقول في التعيين بأنها الكرمة كما ذهب⁽⁷⁾ إليه بعضهم.

فائدة: الإشارة إلى أن الخمر أم الخبائث⁽⁸⁾ لأن أصلها هو الذي كان السبب في الخروج من الجنة أولاً، فيجب الاجتناب عنها لئلا يكون مانعاً⁽⁹⁾ من العود إليها.

﴿فَتَكُونَا﴾⁽¹⁰⁾: مجزوم عطف على ﴿تَقْرَبَا﴾، أو منصوب بتقدير «أن» جواباً للنهي، والفاء تفيد⁽¹¹⁾ السببية، سواء جعلته للعطف

(1) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1/ 214، والمحاسب: 1/ 73 وما بعدها، وإملاء ما من به الرحمن، ص: 38.

(2) ساقطة من ح.

(3) من الآية: 19 من سورة الأعراف.

(4) ساقطة من ح.

(5) انظر: جامع البيان: 1/ 233.

(6) ساقطة من ح.

(7) ذهب إلى ذلك ابن عباس وابن مسعود. (جامع البيان: 1/ 232).

(8) أخرجه ابن حبان في صحيحه: 12/ 169، ذكر ما يجب على المرء من مجانبة الخمر...، عن عثمان بن عفان، والنسائي: 3/ 228، رقم الحديث: 5176 عن عثمان أيضاً.

(9) في ع: مانع، والمثبت من ح.

(10) هو جواب النهي منصوب على إضمار «أن» عند الخليل وسيبويه. (انظر: الكتاب: 1/ 418، 421، ومعاني الفراء: 1/ 26، وإعراب القرآن للنحاس: 1/ 214، وإملاء ما من به الرحمن، ص: 38، والبيان للأنباري: 1/ 75).

(11) في ع: يفيد.

على النهي، أو الجواب⁽¹⁾ له، وفي جعله سببا للكون المذكور مبالغة أخرى في تأكيد النهي.

﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾⁽³⁵⁾ أنفسهم بنقص حقوقها بالعصيان، وحطها عن درجة القرب والكرامات إلى مهول الحرمان والهوان. والظالم أبلغ من الذي ظلم، ففيه أيضا مبالغة.

﴿فَازِلَهُمَا﴾⁽²⁾ الشَّيْطَانُ: أي حملهما على الزلة، والضمير في ﴿عَنْهَا﴾ للشجرة، أي بسببها، وتحقيقه: أصدر الشيطان زلتهما (عنها)⁽³⁾ وعن هذه مثلها في قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾⁽⁴⁾.

قيل⁽⁵⁾: يجوز أن يكون الضمير للجنة، أي أذهبهما عنها وأبعدهما، من زل إذا ذهب⁽⁶⁾. (يقال⁽⁷⁾: زلت عن الشهر كذا إذا ذهبت، ويعضده⁽⁸⁾ قراءة حمزة: ﴿فَازِلَهُمَا﴾، إذ على هذه القراءة لا يكون إلا للجنة، والفرق⁽⁹⁾ بينهما أن أزل من الزل: وهو عُثور القدم، وأزال من الزوال: وهو التنحية.

ويقوي⁽¹⁰⁾ هذه القراءة أنهما أمرا بالثبات والاستقرار في الجنة، فناسب أن يقال بعد ذلك: فازلهما الشيطان بالمعصية عن المكان الذي أمرا بالثبات فيه على وجه الطاعة. وإزاله بقوله: ﴿هَلْ أَدْخَلَكْ عَلَى شَجَرَةِ الْغُلِيِّ وَمُلْكِي﴾

(1) في ح: والجواب.

(2) أي استزلهما. (مجاز القرآن: 1 / 38).

(3) ساقطة من ح.

(4) من الآية: 81 من سورة الكهف.

(5) انظر: الكشف: 1 / 273.

(6) في ح: إذهب.

(7) ساقطة من ح.

(8) في ح: ويأباه.

(9) في ح: والفرق.

(10) في ح: ويقول.

لَا يَبْلَى⁽¹⁾، وقوله: ﴿مَا نَمَّاكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا
مَلَائِكِينَ لَوْ تَكُونَا مِنَ الْغَالِينَ﴾⁽²⁾، ومقاسمته إياهما بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ
لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾⁽³⁾.

وهذا صريح في أن إلقاء إليهما كان⁽⁴⁾ مشافهة، لا على طريق
الوسوسة، وهو قول ابن

[62] عباس وابن مسعود (رضي الله عنهما)⁽⁵⁾، وجمهور العلماء⁽⁶⁾
(رحمهم الله)⁽⁷⁾. / واختلف في كيفية توصله إلى إزالتهما بعدما قيل
له: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾⁽⁸⁾، فقليل⁽⁹⁾: إنه منع من الدخول على
جهة التقريب والتكرمة كدخول الملائكة، ولم يمنع من الدخول على جهة
الوسوسة ابتلاء لآدم (عليه السلام)⁽¹⁰⁾ وحواء.

وقيل⁽¹¹⁾: قام عند الباب فناداهما، ويردّ قوله (تعالى)⁽¹²⁾: ﴿قَوْمُومَ
لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾⁽¹³⁾، لأن الوسوسة لا تجمع النداء.

(1) من الآية: 120 من سورة طه.

(2) من الآية: 19 من سورة الأعراف.

(3) من الآية: 20 من سورة الأعراف.

(4) كررها في ح.

(5) ساقطة من ح.

(6) انظر: جامع البيان: 1 / 235-236.

(7) ساقطة من ح.

(8) من الآية: 34 من سورة الحجر، وكذلك الآية: 76 من سورة ص.

(9) انظر الكشف: 1 / 274.

(10) ساقطة من ح.

(11) انظر الكشف: 1 / 274.

(12) ساقطة من ح.

(13) من الآية: 19 من سورة الأعراف.

وقيل⁽¹⁾: أرسل بعض أتباعه فأزلهما، ورجح هذا الوجه بأنهما يعرفانه⁽²⁾ ويعرفان ما عنده من العداوة والحسد، فيستحيل⁽³⁾ في العادة أن يقبلا قوله.

ويرده قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾⁽⁴⁾ إلى قوله ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَاقِبُ الْمُيْنِ﴾⁽⁵⁾، لأنه صريح في مباشرة الشيطان للإزال، والله أعلم بحقيقة الحال.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم والكرامة، والإبهام، للتعظيم، أي مما لا يدخل تحت الوصف، أو من الجنة إن خص الضمير في ﴿عَنَّا﴾ بالشجرة، والإسناد هنا وفيما تقدم مجاز⁽⁶⁾، لأن الفاعل في الحقيقة هو الله تعالى، والشيطان سبب عادي.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾: هبط لازم ومتعد، ومصدر المتعدي الهبط، ومصدر اللازم الهبوط، وهو النزول من علو إلى سفلى. والخطاب لآدم وحواء لقوله تعالى في موضع آخر: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾⁽⁷⁾، والخطاب تلوين⁽⁸⁾ على ما تقف عليه، فلا مجال للتعدد، فلا وجه لما قيل⁽⁹⁾: المراد

(1) انظر: الكشف: 1 / 274.

(2) في ح: يعرفان.

(3) في ح: فيستعمل.

(4) من الآية: 21 من سورة الأعراف.

(5) من الآية: 21 من سورة الأعراف.

(6) في ح: مجازي.

(7) من الآية: 120 من سورة طه.

(8) في ع: تكويني.

(9) ذهب الزمخشري في تفسيره إلى أن الخطاب لآدم وحواء، حيث قال: والصحيح أنه لآدم وحواء.

(الكشف: 1 / 274).

هما وإبليس، وكذا لما قيل⁽¹⁾: المراد هما وذريتهما، لأن ما وضع لخطاب بالمشافهة لا ينتظم المعدوم حال الخطاب، لا عبارة ولا دلالة⁽²⁾، خلافا للحنابلة، وإنما جمع الضمير هنا رفعا لشأنهما كما في قوله [تعالى]⁽³⁾: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾⁽⁴⁾.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَنُقٌ﴾⁽⁵⁾: جملة في محل نصب بالحال، استغنى بالضمير عن الواو، أي متعادين، والمعادة: فقدان الملاءمة والموافقة، ومنه قيل: مكان ذو عدو⁽⁶⁾ أو قوم عدى: للأعداء والغُرباء لما بينهم من فقدان الملاءمة، وذلك بين الرجل والمرأة كثير في الخلق والخلق، حتى إن عامة ما يحمد من أخلاق الرجال يُذم من المرأة، وليس الأمر تكليفيًا حتى يلزم الإذن في المعادة بناء على أن الحال قيد، والأمر بالمقيد يتناول القيد.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾: إما حال برأسها بالواو، وإما عطف عليها، والمستقر إما موضع استقرار أو استقرار، والقرار هو السكون عن برودة، (ولما كان من شأن البرودة السكون، ومن شأن الحرارة الحركة. قيل: في الساكن⁽⁷⁾)⁽⁸⁾ برد، وفي المتحرك⁽⁹⁾⁽¹⁰⁾ اشتعل والتهب حتى شبه السريع بنار متقدة، والساكن بماء جامد⁽¹¹⁾.

(1) انظر: الكشف: 1 / 274.

(2) انظر: التفسير الكبير: 3 / 17.

(3) زيادة من ح.

(4) من الآية: 78 من سورة الأنبياء.

(5) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 214، وإملاء ما من به الرحمن، ص: 38، والبيان للأنباري: 1 / 75.

(6) في ح: عدم.

(7) وكل ما هدا فقد سكن، كالريح والحر والبرد ونحو ذلك. (اللسان: سكن).

(8) ساقط من ح.

(9) في ح: في المتحرك.

(10) انظر: اللسان: حرك.

(11) في ح: هو جامد.

﴿وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿36﴾: المتاع: انتفاع ممتد الوقت، ومنه قيل (1):
مَتَّعَهُ اللَّهُ بِكَذَا، والمراد من الحين (2) وقت الحين، إذ لا تمتَّع (3) بعده، وجَعَلَ
ابتداء يوم القيامة من الموت تكْلَفَ مستغنى عنه، وكذا جعل السكنى في
القبر تمتعا في الأرض.

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ (4) (5) التلقي كالتلقن، إلا أن التلقي
يقتضي استقبال الكلام

[63] وتصوره، والتلقن يقتضي الحذف (في تناوله) (6)، والتلقف يقاربه، /
لكن يقتضي الاحتياال في التناول.

وصيغة التفعّل للتكلف، أي تكلف في لقائها (7) بالجهد في
التفضل والتوجه. وعلى (8) قراءة (9) النصب في آدم، والرفع في كلمات
تكلفت (10) الكلمات في الوصول إليه، ليكون تزكية، وتصفّي قلبه
بالتوبة متدرجا (11).

(1) انظر: جامع البيان: 1 / 242.

(2) في ح: بالحين.

(3) في ح: إذ الانتفاع تمتع.

(4) في اللسان: وَكَلَّمَهُ يَكْلِمُهُ كَلْمًا، وَكَلَّمَهُ كَلْمًا: جرحه. (اللسان: كلم).

(5) انظر مختلف الأقوال في تفسير ابن كثير: 1 / 74-75.

(6) ساقط من ح.

(7) في ح: بقائها.

(8) في ح: على.

(9) قرأ به ابن كثير وحده، وقرأ الباقون: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾. (انظر: ابن مجاهد، ص: 154).

(10) في ح: تكلف.

(11) في ح: مندرجا.

وفي⁽¹⁾ إسناد التلقي إلى الكلمات مجاز⁽²⁾، شبه تنزلها على التدرج بالتكلف في النزول إليه، وحاصل المعنى: استقبلها بالقبول والعمل بها⁽³⁾، أو استقبلته بالبلوغ والوصول إليه.

واختلف في المراد بالكلمات⁽⁴⁾، وأكثر المفسرين على أنها قوله: ﴿قَالَ رَبِّنا هَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَلَئِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾⁽⁵⁾. وقيل⁽⁶⁾ غيره.

وأصل الكلمة الكلم، وهو التأثير المدرك بإحدى الحاستين: السمع والبصر. والكلام بحاسة البصر، فكلمته⁽⁷⁾ جرحته جراحة بان أثرها، ذكره الراغب⁽⁸⁾.

ويتضمن⁽⁹⁾ البناء في قوله: ﴿فَتَلَقَّ﴾ معنى التوبة، قال: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ مضمنا⁽¹⁰⁾ إياه معنى العطف، أي فرجع متعطفًا عليه بالقبول والرحمة بعد إعراضه، وأخبر عنه وحده، لأنه هو المواجه بالأمر

(1) في ح: في.

(2) قال أبو عبيدة: أي قبلها وأخذها عنه. (انظر: مجاز القرآن: 1 / 38).

(3) ساقطة من ح.

(4) انظر: جامع البيان: 1 / 243 وما بعدها.

(5) الآية: 22 من سورة الأعراف.

(6) وأكثر المفسرين قالوا في تفسير الكلمات: إنها عشر خصال عن السنة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد. فالتى في الرأس: الفرق (الشعر)، والمضمضة، والاستنشاق، وقص الشارب، والسواك. والتي في الجسد: تقليم الأظافر، وحلق العانة، والختان، والاستنجاء، ونتف الرفعين (الإبطين). (جامع البيان: 3 / 9، تفسير الرازي: 4 / 37، أحكام القرآن لابن العربي: 1 / 36، فتح القدير: 139 / 1، والبحر: 375 / 1، وتفسير القرطبي: 98 / 2، والوسيط: 201 / 1).

(7) في ح: فكلمت.

(8) الذي في المفردات هو: وكلمته جرحته جراحة بان تأثيرها. (مفردات الراغب، ص: 457، مادة: كلم).

(9) في ع: ولتضمن.

(10) في ح: مضمن.

والنهي، وهي تابعة له، أي⁽¹⁾ طوي ذكرها كما طوي في قوله: ﴿وَعَصَى
آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾⁽²⁾، وطوي ذكر النساء في القرآن والحديث كثير.

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ الرجاء على عباده بالمغفرة، وأصل التوبة الرجوع،
وتوبة العبد رجوعه إلى ربه من ذنبه، وتماها من العبد بالندم على ما كان،
وترك الذنب الآن، والعزم على أن لا يعود إليه في مستأنف الزمان، وفي
المظالم لا بد مع ذلك من إرضاء الخصم.

﴿الرَّحِيمُ﴾⁽³⁾ 37: المبالغ في الرحمة، يرحم التائب فيغفر حَوْبَتَهُ⁽⁴⁾،
ويقبل توبته.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾: كرر هذا، لا لأن الأول من الجنة إلى سماء
الدنيا، والثاني منها إلى الأرض، لأنه مردود بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ
مُسْتَقَرٌّ﴾⁽⁴⁾. ولا لاختلاف المقصود، حيث دل الأول على أن هبوطهم إلى
دار بلية يتعادون فيها ولا يخلدون، والثاني أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف،
لأن ما ذكر لا يقتضي التكرار، فإن الدالتين المذكورتين يمكن أن تجمعاً،
بل تتعلق⁽⁵⁾ الزيادة به في قوله:

﴿فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مُّتَنِي فَهَيَّ﴾ ليدل على أن هذا الغضب مسبق برحمة
أي رحمة، ولهذا أورد «ما» لتأكيد الملازمة، والتزموا لتقويتها زيادة النون
في الشرط، وإنما أورد كلمة الشك مع أن إتيان الهدى محقق عنده، نظراً
إلى أنه محتمل في نفسه غير واجب عقلاً، وفي هذا النظر إظهار لما⁽⁶⁾ فيه
من جهة التفضل والإحسان، فلذلك حسن.

(1) في ح: أو.

(2) من الآية: 118 من سورة طه.

(3) في اللسان: وَالْحُوبُ وَالْحُوبُ وَالْحَاب: الإثم. (اللسان: حوب).

(4) من الآية: 35 من سورة البقرة.

(5) في ع: لتعليق.

(6) في ح: بما.

وجميعا: حال في اللفظ، تأكيد في المعنى، كأنه قيل⁽¹⁾: اهبطوا أنتم أجمعون، ولذلك لا يستدعي اجتماعهم (على الهبوط)⁽²⁾ في زمان واحد، كقولك: جاؤوا جميعا.

﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾، «مَنْ» شرطية، ويجوز أن تكون⁽³⁾ موصولة، ويعضده إتيان الموصول في قسمه، ودخول الفاء على الجملة الخبرية جائز هنا. جعل الهدى بمنزلة الإمام المتبع المقتدى به، [64] وفي إضافته إليه من التعظيم ما لا يكون لو أتى⁽⁴⁾ معرفاً / باللام، وإن كان ذلك سبيل ما يكون نكرة، ثم يعاد.

وجواب ﴿قَلِماً يَأْتِيَنَّكُمْ﴾، فمن تبع ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾⁽⁵⁾: أي فلا خوف عليهم من الضلالة في الدنيا، ولا حزن الشقاوة في العقبى؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ⁽⁶⁾ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى⁽⁷⁾﴾، وقُدِّم انتفاء الخوف على انتفاء الحزن، لأن انتفاء الخوف فيما هو آت أكثر من انتفاء الحزن على ما فات، ولذلك أبرزت الأولى⁽⁸⁾ مصدرة بالنكرة التي هي أدخل في باب النفي، وأبرزت الثانية مصدرة بالمعرفة، وفيها إشارة إلى اختصاصهم بانتفاء الحزن، وإلى غيرهم بحزن.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: عطف على ﴿مَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ (إلى آخره)⁽⁹⁾، قسم له، وهو أبلغ من قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ هُدَايَ﴾،

(1) في ح: قال.

(2) ساقط من ح.

(3) في ع: يكون.

(4) في ح: لواه.

(5) في ح: تبع.

(6) في ع وح: ومن لم يتبع هداي، والمثبت من المصحف الشريف.

(7) من الآية: 123 من سورة طه.

(8) في ح: جملة.

(9) ساقط من ح.

وإن كان ظاهر التقسيم يقتضيه، لأن نفي الشيء قد يكون لعدم القابلية في الحل، فأبرز القسم في صورة ثبوتية مزيلة لهذا الاحتمال، وإنما ذكر الصلتين، ومعناهما واحد، تقريراً لقبائحهم، وتكريراً لفضائحهم، كما قال: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ⁽¹⁾ قَوْمَهُ⁽²⁾﴾ (قَوْمَهُ)⁽³⁾ وَمَا هَعَسَ⁽⁴⁾.

والآيات: العلامات الدالة على وحدانية الله تعالى وصفاته، من الكتب المنزلة وغير ذلك. وسميت آية القرآن بها لأنها علامة لانقطاع كلام عن كلام وانفصاله، وقيل⁽⁵⁾: سميت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة من الكلم، كما يقال: خرج القوم بأيّتهم (أي)⁽⁶⁾ بجماعتهم.

﴿لَوْلَيْكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁽³⁹⁾: لاصطحاب اجتماع مع طول لبث. وأولئك⁽⁷⁾: مبتدأ، ويجوز أن يكون عطف بيان أو بدلا، فيكون ﴿أَصْحَابُ﴾ خبرا عن ﴿وَالْزَيْنِ﴾، و﴿هُمْ فِيهَا﴾: خبر ثان أو تفسير، ولا متمسك للحشوية⁽⁸⁾ في هذه القصة على عدم عصمة الأنبياء⁽⁹⁾ عليهم السلام، لأن مبناه على أن يكون آدم عليه السلام (حينئذ)⁽¹⁰⁾ نبيا، وأن يكون النهي تكليفيّا، وأن لا تكون⁽¹¹⁾ التوبة إلا عن معصية، وواحد منها غير مسلم.

(1) في ح: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾.

(2) انظر ترجمته في تاريخ الطبري: 2 / 417.

(3) ساقطة من ع وح.

(4) من الآية: 77 من سورة طه.

(5) انظر: المحرر الوجيز: 1 / 56.

(6) ساقطة من ح.

(7) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 217.

(8) انظر: منهاج السنة النبوية: 2 / 500 و 3 / 99.

(9) انظر مسألة عصمة الأنبياء في: التفسير الكبير: 4 / 47.

(10) ساقطة من ح.

(11) في ع: يكون، والمثبت من ح.

وأما ما قيل: إنه أخطأ⁽¹⁾ في اجتهاده، حيث ظن أن الإشارة إلى عين تلك الشجرة، فأكل غيرها من ذلك النوع، وكأن الإشارة إلى النوع، فمردود بقوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾⁽²⁾ الآية، لأنه صريح في أنه كان الإزال في المنهي عنه.

﴿يَا بَنِي إِسْرَافِيلَ﴾⁽³⁾: انتظامه بختم قصة آدم عليه السلام أنه وعد متبع الهدى بالجنة، وأوعد مخالفه بالنار، وحثهم في هذه الآية على الوفاء بعهدده، وهو الإيمان به والطاعة، ليوفي بعهدهم، وهو إدخال الجنة، والخطاب لأولاد يعقوب عليه السلام، فإن إسرائيل⁽⁴⁾ لقبه، معناه بالعبرانية صفوة الله.

وقيل⁽⁵⁾: عبد الله، ولم ينصرف للعجمة والعلمية، وأصل بني بنين وهو جمع ابن، سقطت نونه للإضافة، والبنون يطلق على الذكور والإناث من الأولاد إذا اجتمعوا.

والابن⁽⁶⁾ من البناء وهو وضع الشيء (على الشيء)⁽⁷⁾، شبه الأب بالأُس، والإبن بما بُني عليه.

﴿لَذَكِّرُوا نِعْمَتِي﴾: أمر من الذكر الذي هو مضموم الذال وهو بالقلب خاصة، فالمراد

(1) قال ابن عطية: وتحتل هذه الإشارة أن تكون إلى شجرة معينة واحدة، أو إلى جنس. (المحرر الوجيز: 127 / 1).

(2) من الآية: من سورة الأعراف.

(3) انظر اللسان: بني.

(4) اتفق المفسرون على أن إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ويقولون إن معنى إسرائيل: عبد الله، لأن «إسرا» في لغتهم هو العبد، و«إيل» هو الله. وكذلك جبريل، وهو عبد الله. وميكائيل: عبد الله. (التفسير الكبير: 31 / 2).

(5) انظر: تفسير ابن كثير: 1 / 76.

(6) في ح: والأبناء.

(7) ساقط من ح.

[65] الحفظ الذي يضاد النسيان، / أمر بذكر النعم، وكان المطلوب القيام بشكرها، (إيماء إلى أنها من النعم الجسام التي لا مانع للعاقل عن القيام بشكرها) ⁽¹⁾ إلا الغفلة عنها. واختير تحريك الياء في ﴿نِعْمَتِي﴾ لأنه لقيها ألف ولام ⁽²⁾، فلم يكن بُدُّ من إسقاطها أو تحريكها، وكان التحريك أولى لأنه أدل على الأصل، وأشكل بما يلزم اللام في الاستئناف من فتح ألف الوصل، وإسكان الياء في قوله: ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ ⁽³⁾ أجود، لأن من حق ياء الإضافة أن لا يثبت في النداء، فإذا لم يثبت ⁽⁴⁾ فلا طريق إلى تحريكها.

﴿الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ من السابقة واللاحقة، والظاهرة والباطنة.

والنعمة: اسم للشيء المنعم به، أضافها إلى ذاته أولا، ثم أسندها إليه تعظيما لها، ثم قيدها بهم هزالهم، وحثا لطباعهم المجبولة (على حبها) ⁽⁵⁾ على القيام بشكرها.

وأما ما قيل ⁽⁶⁾: لأن الإنسان غيور حسود بالطبع، فإذا نظر إلى ما أنعم الله تعالى على غيره حملة الغيرة والحسد على الكفران والسخط، فإنما يصلح وجهها ⁽⁷⁾ لعدم تقييدها بغيرهم، وهو بمعزل عن هذا المقام، لما عرفت أن المطلوب القيام بالشكر لا مجرد الذكر.

﴿وَلَوْفُولٌ بِعَمِّي﴾ الوفاء مراعاة العهد، والغدر تضييعه، كما أن الإنجاز مراعاة الوعد، والخلف تضييعه، فالوفاء والإنجاز في الفعل كالصدق

(1) ساقط من ح.

(2) في ح: الألف واللام.

(3) من الآية: 50 من سورة الزمر.

(4) في ح: وإذا لم يثبت في النداء.

(5) ساقطة من ح.

(6) انظر: تفسير القرطبي: 1 / 331-332، وفتح القدير: 1 / 74.

(7) مكرر في ح.

في القول، والغدر والخلف كالكذب فيه، وأوفى أبلغ من وفى، (كما أن أسقى أبلغ من سقى) ⁽¹⁾.

والعهد: وهو حفظ الشيء ومراعاته حالا فحالا. قال ⁽²⁾ الخليل: أصله الاحتفاظ بالشيء وإيجاد العهد به، وسمى الموثق عهدا للزوم مراعاته يضاف إلى المعاهد والمعاهد، وهاهنا أضيف إلى المفعول، أي أوفوا بعهدي في أن لا تؤثروا عليّ غيري.

﴿لَوْ بِعَمْدِكُمْ﴾ في أن لا أمتنع منكم خيري. إيفاءه تعالى بعهدهم هو ترتيب ⁽³⁾ إنجاز ما وعدهم على ذلك، وإنما سماه عهدا على سبيل المقابلة أبرزه في صورة المشروط الملزم به، وانجزام ﴿لَوْ﴾ على جواب ⁽⁴⁾ الأمر، وهل ضمن الأمر معنى الشرط فانجزم، أو نابت عن الشرط، إذ حذفت جملته؟ قولان. ويجوز أن تكون ⁽⁵⁾ إضافته في الأول ⁽⁶⁾ إلى الفاعل، أي أوفوا بعهدي الذي قبلتم يوم الميثاق أوف بعهدكم الذي ضمنتم لكم يوم التلاق.

وقيل ⁽⁷⁾: هو ما أخذ عليهم من العهد في كتابهم بالإيمان برسولنا محمد ﷺ. قال الله (تعالى) ⁽⁸⁾: ﴿وَلِذَٰلِكَ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْغَٰثِينَ لَوْتُوْا الْكِتَابَ لِتُبَيِّنَهُ (9) لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ (10)﴾ ⁽¹¹⁾.

(1) ساقطة من ح.

(2) انظر: معاني الزجاج: 1 / 90، وجامع البيان: 1 / 557، وتفسير ابن كثير: 1 / 83، وفتح القدير: 1 / 74، وغرائب النيسابوري: 1 / 269.

(3) في ح: وترتيب.

(4) في ح: وجوب.

(5) في ع: يكون، والمثبت من ح.

(6) في ح: أول.

(7) انظر: جامع البيان: 1 / 250.

(8) ساقطة من ح.

(9) في ح: ليبينه، وهو تحريف.

(10) في ح: ولا يكتُمونه، وهو تحريف.

(11) من الآية: 187 من سورة آل عمران.

﴿وَيَايَ فَارَهُبُونَ﴾ ﴿40﴾ من باب الإضمار على شريطة التفسير، كقولك: زيدا رهبت، والفاء لتقدير⁽¹⁾ الشرط، أي وإياي ارهبوا إن كنتم رهبتهم شيئا فارهبون، وهو أوكد⁽²⁾ في إفادة التخصيص من ﴿يَايَاكَ نَعْبُدُ﴾ لتكرار الرهبة مضمرة ومظهرة، وإيقاعها على المفعول مرتين مع التقدم في الأول⁽³⁾، وإخراج الكلام على الجملة الشرطية.

والرهبة⁽⁴⁾: خوف مع تحرز واضطراب، ولتضمنه الاحتراز اختيرت على الخوف، لأن المقام [66] مقام الحث على التحرز عن نقض العهد، وحذف الياء من / {فَارَهُبُونَ} لدلالة الكسرة عليه، وكون الفواصل كالقوافي.

﴿وَلْيُنْزِلْ بِمَا أَنْزَلْتُ﴾: أي بالقرآن الذي أنزلته على محمد ﷺ.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من الكتب الإلهية حيث نزل حسب ما نعت فيها حال وذو الحال الضمير في ﴿أَنْزَلْتُ﴾ أو الموصول، ويحتمل أن تكون⁽⁵⁾ «ما» مصدرية، والتقدير: آمنوا بإنزال مصدقا لما معكم، وفيه تنبيه على أنه لا منافاة بين ما أتى به الأنبياء عليهم السلام من أصول العبادات، وإنما الاختلاف بينهم في جزئيات الأحكام وفروعها، كفاء ما يقتضيه مصلحة كل قوم وزمان، فكل مصدق للآخر فيما أتى⁽⁶⁾ به من حيث إن كلييات شرائعهم متساوية، وأن فروعها حق بحسب الإضافة إلى زمان كل واحد

(1) في ح: بتقدير.

(2) في ح: وكذا.

(3) في ح: في الأولي.

(4) الرهبة: عبارة عن الخوف، وأما الاتقاء فإن ما يحتاج إليه عند الجزم بحصول ما يتقى منه، فكانه تعالى أمرهم بالرهبة لأجل أن جواز العقاب قائم، ثم أمرهم بالتقوى لأن تعين العقاب قائم. (التفسير الكبير: 45/ 2).

(5) في ع: يكون، والمثبت من ح.

(6) في ح: في أتى.

منهم وأمته حتى لو كان أحدهم في زمن الآخر لم ير المصلحة إلا فيما أتى به الآخر.

وأما قوله عليه السلام: «لو كان موسى حيا لما وسعه إلا أتباعي»⁽¹⁾، فليس وجهه هذا، بل كونه عليه السلام مبعوثا لكافة الناس، فلا يسع من في زمنه كائنا من كان⁽²⁾ إلا أتباعه، بخلاف سائر الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَلَا تَكُونُوا لَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾: لا مفهوم هنا لقوله: ﴿لَوَّلَ﴾، فيكون قد أبيح لهم ثانيا أو آخر، وإنما ذكرت الأولية، لأنها أفحش لما فيها⁽³⁾ من الابتداء بالكفر، ولأن المعنى: لا تكونوا أئمة في الكفر، فيقتدي بكم تباعكم⁽⁴⁾، فتكونوا حاملين لأوزاركم⁽⁵⁾ وأوزارهم، كما قال [الله]⁽⁶⁾ تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾⁽⁷⁾، فلا بد من القيد المذكور لإفادته، وأضيف إلى مفرد وإن كان قبله جمع، لأن المفرد إذا كان صفة جاز أن يطابق وأن يفرد، وقد جاء ذلك في قوله:

وَإِذَا هُمْ طَعِمُوا فَلَأَمَّ طَاعِمٍ وَإِذَا هُمْ جَاعُوا فَشَرَّ جِيَاعٍ⁽⁸⁾

(1) انظر: مسند أحمد: 3 / 378.

(2) في ح: كائنا في زمنه كان.

(3) في ح: فيه.

(4) في ح: أتباعكم.

(5) في ح: لأوزارهم.

(6) زيادة من ح.

(7) من الآية: 25 من سورة النحل.

(8) انظر: جامع البيان: 1 / 252، وروح المعاني: 1 / 245.

أفرد في « طاعم »، وطابق⁽¹⁾ في « جياع »، وتأوله النحاة، فقدّره الفراء: ألام⁽²⁾ من طعم، وقدره غيره: ألام من لو طاعم⁽³⁾.

والضمير في ﴿ بِهِ ﴾ للمنزل أو المنزل عليه، ويجوز أن يكون لما معهم، فإن فيه نعته، فالكفر به كفر لما يصدق، وعلى هذا أيضا لا يكون القيد المذكور على ظاهره، (لأن⁽⁴⁾) مشركي العرب سبقوهم إليه، هذا بحسب جليل النظر، وأما الذي بحسب دقيقه فهو أنه إنما وُحِدَ الخبر عن ضمير الجمع، لأن حكمهم لتساندهم واتفاقهم على ديدن واحد، واتحادهم لذلك، وللألفة⁽⁵⁾ فيما بينهم، كان حكما واحدا، فكأنهم شخص واحد، وعلى هذا ورد قوله تعالى: ﴿ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾⁽⁶⁾. و﴿ لَوْلَا ﴾: افعل لا فعل له، وزنه « افعل »، وأصلها وولى أو أوعل، أو أول أو وأل⁽⁷⁾.

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾: استعير الاشتراء للاستبدال، والثمن القليل⁽⁸⁾ هو الرئاسة التي كانت لهم في قومهم، فاستبدلوا بآيات الله (تعالى)⁽⁹⁾، لأنهم خافوا فواتها لو آمنوا بمحمد ﷺ، وصدّقوا بكتابه، وإنما⁽¹⁰⁾ أقلها بالنسبة إلى الحق الذي كل كثير بالنسبة إليه [67] قليل، والهدى الذي كل كبير بالنسبة إليه حقير، فكيف بالمتاع الدون اليسير، / فلا مفهوم لقوله ﴿ قَلِيلًا ﴾، بل فيه التنبيه على خساسة أنفسهم، إذ يبدلون الشيء العظيم في تحصيل الشيء الحقير.

(1) في ع: ويطابق.

(2) في ح: لأم.

(3) في ح: ألام فريق طاعم.

(4) ساقطة من ح.

(5) في ح: والألفة.

(6) من الآية: 15 من سورة الشعراء.

(7) في ح: وأصله: وولى، وأولى أو أول أو وأل.

(8) انظر: الكشف: 1 / 276.

(9) ساقطة من ح.

(10) في ح: وإما.

وإنما أوتر الثمن على الشيء مع أنه أبلغ في التحقير، للتنبيه على أن الحظوظ الدنيوية وسائل لا مقاصد، والنفي على تعاكس أحوالهم وأفعالهم حيث جعلوا المثلث ثمنا، والثمن مثمنا، وفي كلمة الباء والاستعارة السابق ذكرها وجه تقوية لهذا المعنى .

﴿وَالْيَايَ فَاتَّقُونِ﴾ (41) باتباع الحق، والإعراض عن الباطل، فصلت الآية الأولى بالرهبة، لأن التحذير فيها عن الكفران، ونقض العهد وهما من المعاصي، وهذه الآية بالاتقاء وهو فرط الصيانة، لأن التحذير هاهنا⁽¹⁾ عن الكفر عقدا وعملا .

ولك أن تقول إن التقوى فوق الرهبة، فحيثما خاطب العامة عالمهم⁽²⁾ ومقلدهم، وحثهم على شكر النعمة التي يشتركون فيها أمرهم بالرهبة التي هي من مبادئ⁽³⁾ التقوى، وحيثما⁽⁴⁾ خاطب العلماء منهم خاصة، وحثهم⁽⁵⁾ على مراعاة آياته، والتنبيه على ما يأتي به أولو العزم من الرسل، أمرهم بالتقوى التي هي منتهى الطاعة .

﴿وَلَا تَلْبِسُوا⁽⁶⁾ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ عطف على ما قبله، واللبس⁽⁸⁾ والستر أخوان، وضد الستر الكشف، وضد اللبس الإيضاح، واللباس ما وارت

(1) في ح : هنا .

(2) في ح : عاملها .

(3) في ح : من مبادئهم .

(4) في ح : وحيث .

(5) في ح : وختم .

(6) انظر : اللسان : لبس .

(7) خفض بالباء . (انظر : إعراب القرآن للنحاس : 1 / 219) .

(8) اللبس : الخلط . (اللسان : لبس) .

به جسدك، ومن جملة أسبابه الخلط، وقد تقدم الكلام في الحق⁽¹⁾، فأما⁽²⁾ الباطل فالإثبات⁽³⁾ له عند الفحص عنه، والحق يناقضه، وذلك عام في الاعتقاد والمقال والفعال، والباء صلة معناها الإلصاق، أي لا تخلطوا الحق بالباطل بأن تكتبوا في التوراة ما ليس منها، أو للاستعانة أي لا تجعلوه ملتبسا⁽⁴⁾ بسبب الباطل الذي تكتبونه، فلا نظر حينئذ إلى معنى الاختلاط، كما لا نظر في الأول إلى معنى الاشتباه.

﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ بأن تقولوا ليس وصف محمد ﷺ، أو هذا⁽⁵⁾ الحكم في التوراة، فليس المراد من الحق في الموضعين شيئا واحدا.

وتكتموا: جزم⁽⁶⁾ داخل تحت حكم النهي، بمعنى: ولا تكتموا، أو منصوب بإضمار أن، والواو بمعنى الجمع، وحقيقته: لا يكن⁽⁷⁾ منكم لبس الحق وكتمان الحق، والقصد أن⁽⁸⁾ ينعي عليهم سوء فعلهم الذي هو الجمع بين أمرين، كل منهما مستقل بالقبح ووجوب الانتهاء عنه، ويجوز أن يكون المراد من الحق في الموضعين واحدا، ويكون إعادة صريح الحق دون ضميره⁽⁹⁾، لأنهم يكررون أسماء الأجناس والأعلام كثيرا، ولا سيما

(1) انظر ما بعد تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من السورة نفسها.

(2) في ح: وأما.

(3) في ح: فبالإثبات.

(4) في ح: متلبسا.

(5) في ح: وهذا.

(6) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 219.

(7) في ع: لا تكن، والمثبت من ح.

(8) في ح: إلى أن.

(9) في ح: ضمير.

إذا قصدوا التفخيم. صرّح⁽¹⁾ به الإمام المرزوقي⁽²⁾، والشيخ عبد القاهر⁽³⁾، وعلى ذلك ورد قوله تعالى: ﴿وَيَالْحَقُّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾⁽⁴⁾، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾⁽⁵⁾ وحينئذ يجوز أن يكون النهي عن الجمع، لأن الخلط بالباطل قد يكون لترويج الحق وإسماعه، فإن أسماع العوام يمجّون عن الحق الصرف، لأنه مر، فخلط الباطل الحلو به، لئلا ينبو⁽⁶⁾⁽⁷⁾ عنه طبع السامع، ليس مما ينكر كل الإنكار، فإن

[68] الضرر اليسير قد يتحمّل للنفع الكثير / ومثل هذه الرخصة، ترغيباً للمخاطب إلى الاستماع من مقتضيات البلاغة، وموجبات الخطابة.

ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا كُمْ لَعَلَّ هُنَّ لَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾⁽⁸⁾،⁽⁹⁾ كيف سرد⁽¹⁰⁾ فيه المقال على إبهام الحال وإظهار التردد فيه، توسعة لدائرة الاحتمال. وفي مصحف ابن مسعود يحيى الله: ﴿وَتَكْتُمُونَ﴾، وهو في وضع الرفع على حذف المبتدأ، أي وأنتم تكتمون.

(1) انظر: البحر: 1 / 171، والدر: 1 / 64، وفتح القدير: 1 / 77.

(2) هو أحمد بن محمد بن الحسن، أبو علي المرزوقي: عالم بالأدب، من أهل أصبهان، توفي رحمه الله سنة 421هـ. (هدية العارفين: 1 / 73، والأعلام: 1 / 212).

(3) هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر. واضع أصول البلاغة، كان من أئمة اللغة، من أهل جرجان (بين طبرستان وخراسان)، كانت وفاته سنة 471هـ. (فوات الوفيات: 1 / 297، وطبقات الشافعية: 3 / 224، والأعلام: 4 / 48).

(4) من الآية: 105 من سورة الإسراء.

(5) الآيتان: 1 و2 من سورة الإخلاص.

(6) في ح: ينفر.

(7) في اللسان: نبا عنه بصره ينبو: أي تجافى ولم ينظر إليه. (اللسان: نبا).

(8) في ع وح: ولنا وإياكم لعلى هدى...، والمثبت من المصحف الكريم.

(9) من الآية: 24 من سورة سبأ.

(10) في ح: سيرد.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁾ ﴿42﴾⁽²⁾: في محل نصب بالحال، أي في حال علمكم بذلك وبقبحه، وإنما قيّد به لأن الجهل ربما يفتقر ويجعل عذرا، فعلى هذا يكون الحذف اختصارا ورعاية للفاصلة، ويجوز أن يكون اقتصارا، أي وأنتم من ذوي العلم، ولا يناسب من كان عالما أن يكتّم الحق ويلبسّه بالباطل، ففيه تعيير لهم بأنهم يفعلون⁽³⁾ فعل الجهلاء، وتذكير لما فيهم من صفة العلم، وحث على العمل بمقتضاه، وذلك أدخل في قبول الحق وإسماعه من التقريعات الشديدة.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾⁽⁴⁾: التعريف فيهما للعهد والإشارة إلى الصلاة المعلومة والزكاة المعينة، أو للجنس كقولهم: هو الرجل، كأن ما عدا صلاة المسلمين ليس بصلاة، وكذا الزكاة لكونهما غير⁽⁵⁾ مقبولين. والزكاة: من زكا الزرع إذا نما، فإنها تنمي⁽⁶⁾ المال باستجلاب بركة الله تعالى. أمرهم بفروع الإيمان بعدما أمرهم بأصوله، فيحتمل أن يكون الأمر الثاني مشروطا بالامتثال بالأول، فلا تكون⁽⁷⁾ الآية حجة على المنكرين لكون الكفار مخاطبين بالفروع⁽⁸⁾.

(1) ﴿وَأَنْتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل مستقبل في موضع الخبر، والجملة في موضع الحال. (إعراب القرآن للنحاس: 1 / 220).

(2) من الآية: 187 من سورة البقرة.

(3) في ح: تفعلون، والمثبت من ح.

(4) وأصل الزكاة في اللغة: الطهارة والنماء والبركة والمدح، وكله قد استعمل في القرآن والحديث. (اللسان: زكا).

(5) في ح: من.

(6) في ع: تثمر.

(7) في ع: يكون، والمثبت من ح.

(8) اتفق العلماء على أن الكفار مخاطبون بالإيمان، كما اتفقوا على أنهم مخاطبون بالمشروع من العقوبات، كما اتفقوا على أن خطاب المعاملات يتناولهم. ومحل الخلاف بينهم هل يكلفون بأداء فروع الشريعة من العبادات أم لا؟

جمهور العلماء قالوا: إن الكفار مكلفون بالفروع، وحصول الشرط الشرعي ليس شرطا في التكليف. وذهب جمهور الحنفية إلى أنهم غير مكلفين بالفروع، وحصول الشرط الشرعي شرط في التكليف،

﴿وَأَرْكَعُوا مَعَ الرَّائِعِينَ﴾ (43) أي في جماعاتهم، فإن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة، لما فيها من فضيلة المشقة وفضيلة الانتظار، وقد تقرر في موضعه أن من أدرك الإمام في الركوع فقد أدرك فضيلة الجماعة⁽¹⁾، والإدراك فيما قبله ليس بشرط، ولا عبء للإدراك فيما بعده، وهذا هو السرف في تخصيص الركوع بالذكر، وإيثار عبارة «مع» على عبارة «في».

وأما الاحتراز عن صلاة اليهود فلا حاجة إليه بعدما أريد من الصلاة فيما تقدم صلاة المسلمين. وأصل الركوع الانحناء، قال⁽²⁾ صاحب «العين»: كل شيء ينكب لوجهه، فتمس ركبتة الأرض، أو لا تمس بعد أن يطأ طئ رأسه، فهو راكع.

﴿أَقَامُوا مِنَ النَّاسِ الْبِرَّ﴾ اعتراض، والبر⁽³⁾: التوسع في أفعال الخير، واشتقاقه من البر الذي هو الفضاء الواسع، ويتناول كل معروف.

﴿وَنَسُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: وتتركونها من البر والنسيان، يجيء بمعنى الترك، ومنه⁽⁴⁾ النسيء، وهو ما يسقط في منازل المرتحلين من رُذال⁽⁵⁾⁽⁶⁾

والراجع - والله أعلم - ما ذهب إليه الجمهور. (انظر مواقف العلماء في: أصول السرخسي: 1 / 73، والمستصفي للغزالي: 1 / 91، والمحصل: 1، ق 2 ص: 399، وفواتح الرحموت: 1 / 128، وإرشاد الفحول، ص: 30.

(1) انظر: الموطأ، ص: 10، كتاب: وقوت الصلاة، باب: من أدرك ركعة من الصلاة، حديث رقم: 15. وسنن ابن ماجه: 1/228، كتاب: الصلاة، باب: وقت الصلاة في العذر والضرورة، حديث رقم: 699.

(2) إشارة إلى الخليل بن أحمد بن عمرو. تنظر ترجمته في ص: 7 من هذا البحث. انظر: معاني الفراء: 1/33، ومعاني الزجاج: 1/93، والبحر: 1/171، والدر: 1/64، وفتح القدير: 1/77.

(3) البر: التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله تعالى تارة، نحو: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (من الآية: 26 من سورة الطور)، وإلى العبد تارة فيقال: برَّ العبد ربَّه: أي توسع في طاعته، فمن الله تعالى الثواب، ومن العبد الطاعة. (مفردات الراغب: برّ، ص: 37).

(4) في ح: وفيه.

(5) في ح: زوال.

(6) في اللسان: والرذال والرذالة: ما انتقي جَيِّدُهُ وبقي رديئُهُ. (اللسان: رذل).

أمتعتهم، والهمزة للتقرير، معناه: إن الأمر الذي ورد عليه الاستفهام مكشوف لا يمكن للمخاطب إنكاره، فكأنه⁽¹⁾ ملجئ إلى الإقرار⁽²⁾، والتعجيب من حالهم، والتوبيخ على الجمع بين أمر بالبر وتركه في حق أنفسهم. روي⁽³⁾ أنها نزلت في أحبار⁽⁴⁾ اليهود، كانوا يأمرسون سرا من نصحوه، ولا يتبعوه.

﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾: يعني التوراة، تبيكت بالحجة كقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾⁽⁵⁾،

[69] وفي عبارة التلاوة إشارة إلى وضوح ما في التوراة من النهي / من هذا الوصف الذميم، بحيث يقف عليه كل من يتلوه من أهل اللسان، والتلاوة اتباع اللفظ اللفظ، سواء تدبر المعنى أو لا.

وفي الآية التحريض على⁽⁶⁾ تقديم العمل على القول، والوعيد على مخالفة القول العمل، والنفي على من يعظ الغير ولا يعظ⁽⁷⁾ نفسه، وكأن المنكر تركهم أنفسهم لا أمرهم غيرهم بالمعروف، إلا أنه بدأ التوبيخ⁽⁸⁾ به إيماء إلى أن ذلك الترك بلغ⁽⁹⁾ في الشناعة غاية خرج ما يقارنه من الفعل المندوب إلى معرض المستنكر، وفيه من المبالغة في الإنكار على سوء صنيعهم ما لا يخفى.

(1) في ح: فلأنه.

(2) في ح: القرار.

(3) انظر: أسباب النزول، ص: 17.

(4) هم رهبانهم. (انظر: منهاج السنة النبوية: 1 / 482).

(5) الآيات: 22، و42، و182 من سورة البقرة..

(6) في ع: عن، والمثبت من ح.

(7) في ع: ولا يتعظ، والمثبت من ح.

(8) في ح: بالتوبيخ.

(9) في ح: أبلغ.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (44): توبيخ عظيم بالهمزة، وتوسيط الفاء أي: أتعقلون ذلك فلا تعقلون، كأنكم مسلوبو العقول، فلا تفتنون لقبح ما ترتكبون فتنتهون.

والعقل: أصله المنع الشديد، ومنه عقل البعير لمنعه إياه من الشرود، ومنه العقل للدية، لأنها تمنع ولي المقتول عن قتل الجاني، وفي إثارة نفي العقل على نفي العلم نوع تأييد لما قدّمناه، يعني أن المحتاج (إليه) (1) في إدراكه عند التلاوة إنما هو العقل الجبلي (2) لا الإدراك المكتسب، ولا دلالة فيه على أن قبح هذه الأشياء عقلي، بل دلالة على أنه شرعي، حيث رتب (3) التوبيخ على ما صدر عنهم بعد تلاوة الكتاب. والفاء للعطف، كأن الأصل تقديمها، لكن الهمزة لها صدر الكلام، فتقدمت على الفاء. وحكم الواو و«ثم» في نحو: ﴿لَوْ لَمْ يَسِيرُوا﴾ (4)، ثم إذا ما وقع حكم الفاء.

﴿وَأَسْمِعِينَ﴾: أطلبوا (5) المعونة في دفع المكاره (6)، وجلب المنافع، فالاختصار للتعميم.

﴿بِالصَّبْرِ﴾: وهو حبس النفس (على ما يكره) (7)، وقدمت (8) الاستعانة (9) بالصبر لتقدم تكاليف عظيمة يشق التزامها على من لم يألّفها. ﴿وَالصَّلَاةِ﴾: «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه (10) أمر فزع إلى

(1) ساقطة من ح.

(2) في ح: الجملي.

(3) في ح: أثبت.

(4) من الآية: 8 من سورة الروم.

(5) في ح: أي اطلبوا.

(6) في ع: المكان، والمثبت من ح.

(7) ساقطة من ح.

(8) في ع: وقدّمنا.

(9) في ع: لاستعانة، والمثبت من ح.

(10) في ح: أخبر به.

الصلاة»⁽¹⁾، وهي أرفع منزلة من الصبر، (لأنها تجمع ضروباً من الصبر)⁽²⁾، إذ هي حبس الحواس على العبادة، وحبس الخواطر، والأفكار على الطاعة، بل نقول: الأمر بالصبر تمهيد للأمر بالصلاة، فإن مرجع الجمع بينهما أن يصلوا صابرين على تكاليف الصلاة، مُحَصِّلِينَ لمشاقتها، وما يجب فيها من إخلاص القلب بدفع⁽³⁾ الوسواس⁽⁴⁾، ومراعاة الآداب، (ولهذا قال)⁽⁵⁾ : ﴿وَأَنَّمَا﴾، وخصها برد الضمير إليها دون الصبر، ولولا ذكر الصبر تمهيداً لكان حق الصلاة أن يعاد فيها حرف الباء الدالة (على)⁽⁶⁾ إعادتها علي الأصاله والجملة اعتراضية، وقيل⁽⁷⁾ : الصبر: الصوم، لأنه حبس عن⁽⁸⁾ المفطرات، ومنه قيل لشهر⁽⁹⁾ رمضان: شهر الصبر، وعلى هذا رد الضمير إلى الصلاة ليس بطريق التخصيص، بل بطريق الاكتفاء بالأعم، أو الأقدم كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا﴾⁽¹⁰⁾، وقوله تعالى: ﴿وَلِذَا رَلُّوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْمًا انْفُسُوا إِلَيْهَا﴾⁽¹¹⁾، فإن الكناية⁽¹²⁾ في أحدهما رد إلى الفضة، لأنها الأغلب والأعم، وفي الآخر إلى التجارة لأنها أفضل وأهم.

(1) انظر: مسند أحمد: 1 / 206 و26 و280، و5 / 388.

(2) ساقطة من ح.

(3) في ح: يدفع.

(4) في ح: الوسواس.

(5) ساقط من ح.

(6) ساقطة من ع.

(7) انظر: الكشاف: 1 / 278.

(8) في ع: على.

(9) في ح: شهر.

(10) من الآية: 34 من سورة التوبة.

(11) من الآية: 11 من سورة الجمعة.

(12) في ح: الكتابة.

﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ من كَبُرَ بمعنى عَظُمَ، تمثيل وتصوير لمعنى⁽¹⁾ ثقلها، وكونها شاقة على غير

[70] الخاشعين، لا من كبر / بمعنى ثقل وشق حقيقة أو مجازاً.

﴿إِنَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾⁽⁴⁵⁾: يعني لا يهون على أحد إلا على الخاشعين، لأنه استثناء مفرغ من كلام موجب، فلا بد من تأويل النفي والخشوع: هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع، وفيه إشارة إلى أن الصلاة التي تخف على غير الخاشعين (مسماة باسمها، وليست هي في حكمها).

فإن قيل: (هلا)⁽²⁾ يلزم أن يكون ثواب غير الخاشع⁽³⁾ أكثر، لما جاء في الخبر أن «أكثر الأعمال ثواباً أشقها»⁽⁴⁾؟ قلنا: لا يلزم ذلك، لأن مفهوم الخبر أن الأعمال المتساوية في اشتغال الأركان والشرائط، وسائر ما يجب رعايته أو يستحب أكثرها (ثواباً)⁽⁵⁾ أشقها.

﴿الَّذِينَ يَخُضُّونَ أَنْفُسَهُمْ مَلَاقُوفٌ رَبِّهِمْ﴾، لما كانت الملاقاة متعذرة الحمل على الحقيقة، جعلت كناية عن رؤيته تعالى، وهو الوجه فيما يروى في الأخبار: «لقي الله تعالى وهو عليه غضبان»⁽⁶⁾. والظن بمعنى العلم، ويعضده أن في مصحف ابن مسعود عَبَّيَ اللَّهُ: يعلمون، ولا يصار إلى التضمين إلا عند قيام القرينة اللفظية، وهي ذكر ما يتعلق بالمضمَّن، وهي مفقودة هنا، وفي عبارة

(1) في ح: بمعنى.

(2) في ح: هل.

(3) مكرر في ح.

(4) انظر: التفسير الكبير: 2 / 236، ومسند أحمد: 5 / 150 و 171 و 318 و 368، و 6 / 375.

(5) ساقطة من ح.

(6) انظر: الفتح: 5 / 73، كتاب الخصومات، باب: كلام الخصوم بعضهم في بعض، حديث رقم: 2416-1417، ومسند أحمد: 1 / 377-379.

الظن إشارة إلى (أنه) ⁽¹⁾ يكفي في حصول الخشوع الذي يزول به ثقل ⁽²⁾ الصلاة أدنى مراتب الاعتقاد بملاقاته تعالى .

وقيل ⁽³⁾ : المراد ملاقة ثوابه ⁽⁴⁾ ، وحينئذ يكون الظن بمعنى التوقع ⁽⁵⁾ ، لأنه وإن علم أنه لا بد من ثواب أو عقاب ، لكن من أين يعلم ما يختم به عمله ، فلا بد من صرف الظن عن معنى العلم إلى معنى التوقع اللازم له ، ويأباه قوله : ﴿وَأَنْتُمْ إِلَيْهِ﴾ ، أي إلى مشهد حكومته يوم العرض والسؤال .

﴿رَاجِعُونَ﴾ 46 ﴿إذ لا يناسبه معنى التوقع، وتقدير عامل آخر له خلاف الظاهر، وإنما ثقلت ⁽⁶⁾ على غيرهم لأنهم لم يعتقدوا بالجزاء، ولم يرجحوا ⁽⁷⁾ الثواب، فكانت في حقهم مشقة خالصة، ولم تثقل عليهم ⁽⁸⁾ ، لأنهم اعتقدوا ببقاء الجزاء، وتوقعوا ما ادخر للصابرين على متاعها ⁽⁹⁾ ، فزاولوها ⁽¹⁰⁾ برغبة ونشاط وانشراح صدر، واستلذوا بها، ومن ثمة قال رسول الله ﷺ : « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » ⁽¹¹⁾ .

﴿يَا بَنِي إِسْرَافِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ : تكرير تمهيدا لتذكير نعمة التفضيل ، وقد جاء تفضيلها في قوله تعالى : ﴿وَلِذَٰلِكَ قَالَ مُوسَىٰ

(1) ساقطة من ح .

(2) في ح : الثقل .

(3) انظر : الكشاف : 1 / 278 .

(4) في ح : الملاقة ثوابه .

(5) في ح : التوقع .

(6) في ح : ثقل .

(7) في ح : يرجحوا .

(8) في ح : عليه .

(9) في ح : الصابرين على متاعها .

(10) في ح : فزاولها .

(11) انظر مسند أحمد : 3 / 128 ، 199 ، 285 .

(لِقَوْمِهِ) ⁽¹⁾ يَا قَوْمِ لَذَكِّرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا (وَلَقَاكُمْ) ⁽²⁾ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ ⁽³⁾. وذكر تلك النعمة على الآباء إلزام الشكر على الأبناء، لأنهم يشرفون بشرفهم، ولذلك قال:

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ ولم يقل: فضلت آباءكم، والفضل: الزيادة في الخير. والجملة في محل ⁽⁴⁾ النصب معطوفة على معنى ما تقدم، أي إني أنعمت عليكم، وإني فضلتكم، ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٧﴾: الظاهر هو الاستغراق، وقد خرج إلى حيز النص بقوله: ﴿وَلَقَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ⁽⁵⁾، ولا حاجة إلى الصرف ⁽⁶⁾ إلى الاستغراق العرفي بقرينة أن المتبادر من الموجود

[71] المعتبر في مفهوم العالم الموجود بالفعل، لعدم / الدلالة فيه على التفصيل من كل جهة عموماً، ولا من جهة القرب والمكانة عند الله تعالى خصوصاً، ولذلك لم يكن فيه متمسكاً لمن فضل ⁽⁷⁾ البشر على الملك.

﴿وَنَقُولُ يَوْمًا﴾: يريد يوم القيامة، وعظمه بالتنكير، ثم بالتوصيف، والمقصود بيان كون ذلك معياراً للمخاوف، بحيث لا يكون آن من آناته خالياً عن الخوف، وهذا يجعل نفس اليوم مخوفاً، لا ما ⁽⁸⁾ فيه.

(1) ساقطة من ع.

(2) ساقطة من ع.

(3) الآية: 22 من سورة المائدة.

(4) انظر: إملاء ما من به الرحمن، : 42.

(5) الآية: 20 من سورة المائدة.

(6) في ح: إلى حذف.

(7) قال أكثر أهل السنة: الأنبياء أفضل من الملائكة، وقال المعتزلة: بل الملائكة أفضل من الأنبياء، وهو قول جمهور الشيعة. (التفسير الكبير: 1 / 234).

(8) في ح: لا يلو.

﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾: أي لا تقضي نفس ما من النفوس عن نفس، أي نفس كانت حقاً من الحقوق. و﴿شَيْئًا﴾: مفعول به، ويجوز أن يكون في موضع المصدر⁽¹⁾، أي قليلاً من الجزاء، وعلى قراءة: ﴿لَا تَجْزِي﴾: من أجزأ عنه إذا أغنى عنه، لا يكون إلا بمعنى شيئاً من الأجزاء، والجملة في محل النصب صفة لـ ﴿يَوْمًا﴾، والعائد محذوف، أي لا تجزي فيه، وهل الحذف بتدريج أم حذف برمته ابتداء؟ قولان⁽²⁾.

﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةً﴾: أية شفاعة كانت، والضمير في ﴿مِنْهَا﴾ راجع إلى النفس الثانية العاصية، أي إن جاءت بشفاعة شفيح لم تقبل⁽⁴⁾ منها، ويجوز أن يرجع إلى الأولى، لا⁽⁵⁾ تجزي منها شيئاً، وإن شفعت لها لا تقبل⁽⁶⁾، وقس على هذا قوله.

﴿وَلَا يُؤَخِّرُ مِنْهَا عَذْلٌ﴾، والعدل: الفدية، لأنها تعادل المفدى. والشفاعة من الشفع، كأن الجاني كان فرداً، فجعله الشفيح شفعاً بضم نفسه إليه، وضمير الجمع في ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾⁽⁴⁸⁾ يرجع إلى ما دلت عليه النفس المنكرة في سياق النفي الدالة على العموم، والتذكير بمعنى العباد والأناسي، والنصر أخص من المعونة لاختصاصه بدفع الضرر⁽⁷⁾، وإنما عدل عن الجملة الفعلية المعطوفة على أخواتها إلى الإسمية، للدلالة على الدوام الوضعي، أي ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ دائماً ما داموا هم (هم)⁽⁸⁾. وفيه

(1) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 221.

(2) انظر: الكشاف: 1 / 278.

(3) في ع وح: ولا تقبل، وهو تصحيف.

(4) في ح: لم يقبل.

(5) في ح: أي لا.

(6) في ح: لا يقبل.

(7) في ح: الضرر.

(8) ساقطة من ح.

إيماء إلى أنه ينصر غيرهم، وإنما قنطهم الإقنات الكلي، لأن اليهود كانوا يزعمون أن آباءهم الأنبياء (عليهم السلام) ⁽¹⁾ يشفعون لهم.

ولما كان الخطاب لليهود، وكان ⁽²⁾ تقديره لا تجزي نفس ما منكم عن نفس ما منكم، فلا دلالة فيه ⁽³⁾، على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة مطلقاً، وكأنه أريد بالآية نفي أن يدفع ⁽⁴⁾ العذاب أحد عن أحد من كل وجه محتمل، فإنه إما أن يكون بإعطاء شيء أو مجازاً ⁽⁵⁾، فإن كان الأول فإما أن يكون (بأداء ما كان عليه وهو الجزاء أو غيره وهو الفدية، وإن كان الثاني فإما أن يكون على سبيل اللطف) ⁽⁶⁾ وهو الشفاعة، أو على سبيل القهر وهو النصرة، وإنما عدل عن الترتيب الذي هو مقتضى هذا التقسيم، اختياراً لأسلوب الترقى، كأنه قيل: النفس الأولى غير قادرة على استخلاص صاحبها بقضاء الواجبات ⁽⁷⁾، وتدارك التبعات، لأنها مشغلة عنها بشأنها كما أفصح عنه قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ﴾ ⁽⁸⁾ **يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ⁽⁹⁾.

ثم إن قدرت على سعي ما مثل الشفاعة فلا تقبل ⁽¹⁰⁾ منها، وإن زادت ⁽¹¹⁾ عليها بأن يضمها

(1) ساقطة من ح.

(2) في ح: كان.

(3) قال الإمام أحمد رحمه الله: أما من جحد الشفاعة فهو جدير أن لا ينالها، وأما من آمن بها وصدقها وهم أهل السنة والجماعة فأولئك يرجون رحمة الله، ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين، وإنما ادخرت لهم، وليس في الآية دليل لمنكريها، لأن قوله «يوما» أخرجه منكراً. (حاشية الجرجاني على الكشاف: 1 / 278).

(4) في ح: يرفع.

(5) في ع: أو مجانا.

(6) ساقطة من ح.

(7) في ح: الواجب.

(8) ساقطة من ع.

(9) الآية: 37 من سورة عبس.

(10) في ح: فلا يقبل.

(11) في ح: وإن أردت.

[72] الفداء فلا يؤخذ منها، وإن حاولت الخلاص / بالقهر والغلبة، وأنى لها ذلك، فلا يتمكن منه، فالترقي من السعي .

﴿وَلِذَٰلِكَ فَجَّيْنَاكُمْ⁽¹⁾⁽²⁾﴾ : إذ: نصب بـ «أذكر»⁽³⁾، والتنجية: التخليص من مكروهه وشدة، ومثله: الإنجاء، قيل⁽⁴⁾: معنى ﴿فَجَّيْنَاكُمْ﴾: ألقيناكم على نجوة من الأرض وهي ما ارتفع منها، هذا هو الأصل، ثم سمي كل فائز ناجيا، فالناجي من خرج من ضيق إلى سعة⁽⁵⁾، ومعناه: خلصنا آباءكم، وجعل ذلك نعمة عليهم، لأنهم نجوا بنجاتهم، ومن عادة العرب هذا يقولون قتلناكم يوم عكاظ⁽⁶⁾، أي قتل آباؤنا آباءكم .
وقرى⁽⁷⁾: ﴿فَجَّيْتُكُمْ﴾، فوافق الضمير ضمير نعمتي⁽⁸⁾، وعطفها عليها كعطف جبرائيل⁽⁹⁾ وميكائيل عليهما السلام على الملائكة، أو تفصيل لما أجمله في قوله: ﴿لَذَكِّرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾⁽¹⁰⁾. والتفصيل لا يلزم أن يكون على وجه الاستيعاب، بل قد يكتفي⁽¹¹⁾ فيه بذكر المعظّمات .

(1) في ح: أنجيناكم .

(2) والتنجية: التخليص من مكروه شديد، ومنه الإنجاء . (اللسان: نجا) .

(3) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 222 .

(4) انظر: التفسير الكبير: 1 / 70 .

(5) في ح: وسعة .

(6) هو اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية، وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ في كل سنة، ويتفاخرون فيها، ويحضرها شعراؤهم، ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر، ثم يتفرقون . (معجم البلدان: 4 / 142) .

(7) قرئ أنجيناكم، ونجيتكم، قال القفال: أصل الإنجاء والتنجية: التخليص، وأن بيان الشيء من الشيء حتى لا يتصلا، وهما لغتان: نجى وأنجى ونجا بنفسه . (التفسير الكبير: 1 / 71) .

(8) في ع: تعني .

(9) روي عن ابن عباس في جبريل وميكائيل: كقولك: عبد الله وعبد الرحمن . (اللسان: جبر) .

(10) من الآيات: 40-47-122 من سورة البقرة .

(11) في ح: يكفي .

﴿مَنْ آلَ فِرْعَوْنَ﴾⁽¹⁾: وأصل⁽²⁾ آل: أهل⁽³⁾، لأن تصغيره أهيل، فأبدلت هاؤه⁽⁴⁾ ألفاً، خصّ⁽⁵⁾ بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات والأمكنة⁽⁶⁾ والصناعات.

وفرعون: علم شخصي سُمي به كل من يملك العمالقة وهم جبابرة مصر، وضعاً ابتدائياً دل على ذلك منع صرفه وجمعه، باعتبار الأفراد كقيصر⁽⁷⁾ لملك الروم⁽⁸⁾، وكسرى⁽⁹⁾ لملك فارس⁽¹⁰⁾، ولشهرة الفراعنة بالعتو، اشتق منه تفرعن إذا عتا وتجبر. وآله: قومه المناسبون له، وحقيقة الآل: هم الذين يؤول أمرهم⁽¹¹⁾ إليه في نسبة⁽¹²⁾ أو صحبة.

﴿يَسْؤُمُونَكُمْ﴾: حال⁽¹³⁾ من آل فرعون، أو استئناف حكاية حال. والسوم⁽¹⁴⁾: أصله الذهاب في ابتغاء الشيء، فهو لفظ مفرد لمعنى⁽¹⁵⁾ مُركَّب من الذهاب والابتغاء، فأجري مجرى الذهاب في قولهم: سامت

(1) انظر ما يتعلق بفرعون: تاريخ الطبري: 2 / 417.

(2) في ح: أصل.

(3) كررها في ح.

(4) في ح: هاؤها.

(5) في ح: وخص.

(6) في ح: والأمكنة والأزمنة والصناعات.

(7) انظر: تاريخ الطبري: 2 / 102 و 3 / 112.

(8) انظر ما يتعلق بالروم: معجم البلدان: 3 / 97.

(9) هو كسرى أنو شروان بن قباذ بن فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور. (تاريخ الطبري: 2 / 98).

(10) هي ولاية واسعة، وإقليم فسيح. (معجم البلدان: 4 / 226).

(11) في ع: أمورهم، والمثبت من ح.

(12) في ح: في نسبته.

(13) هو في موضع رفع على الابتداء، وإن شئت كان في موضع نصب على الحال، أي سائمين لكم. (إعراب

القرآن للنحاس: 1 / 223).

(14) سرعة المُر مع قصد الصوب في السير. (اللسان: سوم).

(15) في ح: بمعنى.

الإِبْلُ فهي سائمة⁽¹⁾، ومجرى الابتغاء في قولهم: سمته كذا، ومنه: السَّوْمُ في البيع.

﴿سَوْءَ الْعَذَابِ﴾: نصب⁽²⁾ على المفعول⁽³⁾ (لَيْسُوا مُؤْنَكُمُ)، والسَّوْءُ: مصدر ساء أي قُبْح، ومعنى سوء العذاب مع أن نفسه سيئ أقبحه وأفظعه.

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾: استئناف أو حال⁽⁴⁾ من ضمير الفاعل في ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ﴾، أو بدل منه، أو معطوفة عليه، حذف منها حرف العطف، ويؤيده ثبوته في سورة إبراهيم⁽⁵⁾ عليه السلام.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ الاستحياء: استفعال: من الحياة، (أي)⁽⁷⁾ يبقون بناتكم للخدمة، سُمِّنَ بما يؤول إليه أمرهنّ، ولما في صيغة الاستفعال من الدلالة على أن إبقاءهن كان لمصلحتهم، كأن المذكور من جملة الشدائد.

﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ﴾، (البلاء⁽⁸⁾)⁽⁹⁾: هو الاختبار، ويكون بالشر ليصبروا، فيكون محنة بالخير ليشكروا، فيكون منحة، وكلاهما محتمل هاهنا بحسب (احتمال)⁽¹⁰⁾ المشار إليه أن يكون مصدر ﴿نَجَّيْنَاكُمْ﴾⁽¹¹⁾، أو مصدر «يسومون» و«يذبحون» و«يستحيون»، والأول أوفق بقوله:

(1) والسائمة: الإبل الراعية... ولا تعلق في الأصل. (اللسان: سوم).

(2) انظر: إملأ ما من به الرحمن، ص: 42.

(3) في ح: المفعولية.

(4) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 223.

(5) انظر ما يتعلق بنبي الله إبراهيم: اليهودية لأحمد شلبي: 1 / 158.

(6) من الآية: 8 من سورة إبراهيم.

(7) ساقطة من ح.

(8) البلاء: الاختبار، يكون في الخير والشر. (اللسان: بلا).

(9) ساقطة من ح.

(10) ساقطة من ح.

(11) في ح: مصدرا لنجيناكم.

﴿مَنْ رَبُّكُمْ﴾، وأليق بأصل المقام، فإنه لتمديد النعم، والثاني ألصق بمقام تفصيل الحن، وأنسب للتذييل بهذه الجملة الاعتراضية.

﴿عَظِيمٌ﴾ ﴿49﴾: صفة بلاء، وفيما ذكر من المبالغة والتأكيد، بالإجمال والتفصيل،

[73] والتسجيل بأن الذبح (المذكور) ⁽¹⁾ أشد العذاب، وأفظعه ما لا يخفى، / ولذلك ⁽²⁾ ذيله بالاعتراض تأكيداً وتقوية له.

﴿وَلِذَٰلِكَ فَرَقْنَا﴾: الفرق والفلق كالفضل، لكن الفلق لا يكون إلا بين جسمين، والفرق يكون فيها وفي المعاني. وقرئ ⁽³⁾: ﴿فَرَقْنَا﴾ على بناء التكثير، لأن المسالك كانت اثني عشر بعدد الأسباط ⁽⁴⁾، والباء في ﴿يَكُومُ﴾ للسببية، أي بسببكم وبسبب إنجائكم، ولا يجوز أن يكون للملابسة، أي ملتبساً بكم، و«لا» للاستعانة، أي تسلكونها وتتفرق بكم كما يتفرق الشيء بالسكين عند قطعه، لأن قوله تعالى: ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ ⁽⁵⁾ صريح في أن انفصال البحر بعضه عن بعض وحصول المسالك كان بضرب العصا قبل أخذهم في السلوك، فإن في الفاء الفصيحة في قوله: ﴿فَانْفَلَقَ﴾ دلالة على عدم تراخي الانفلاق عن الضرب.

﴿الْبَحْرَ﴾، هذا البحر كان قريباً من مصر فرعون موسى عليه السلام، يقال له: أسافا، ويسمى اليوم بحر القلزم ⁽⁶⁾.

(1) ساقطة من ح.

(2) في ح: ولهذا.

(3) هي قراءة الزهري، قال أبو الفتح: معنى فرقنا: أي فعلناه فرقا، ومعنى: فرقنا: شققنا بكم البحر، وفرقنا أشد تبغيضا من فرقنا. (المختص: 1 / 82).

(4) قال ابن سيده: السبط: ولد الابن والابنة. (اللسان: سبط).

(5) من الآية: 63 من سورة الشعراء.

(6) انظر: معجم البلدان: 1 / 344.

﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾ من خطر عبور البحر، وأخرجناكم من ضيق مسالكه إلى سعة البر، وهذه الفاء أيضا فصيحة.

﴿وَأَغْرَقْنَا﴾: غرق في الماء من حد علم، أي رسب⁽¹⁾ فيه، فهو غرق إذا كان لم يمت بعد، فإذا مات فهو غريق، وجمعه الغرقى.

﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾: أتباعه، فهو أول الغرقى وأولى به، فكان غرقه معلوما دلالة، وفيما في العدول من الضمير إلى المظهر من التنبيه على (أن)⁽²⁾ السبب لذلك الحال كونهم أتباعه نوع تأييد لتلك الدلالة.

﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ 50: تقلّبون أبصاركم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب، أو تنظرون ما يفعل⁽³⁾ بأعدائكم، فعلى الأولى⁽⁴⁾ يكون النظر بمعنى طلب الإبصار⁽⁵⁾، وعلى الثاني بمعنى الانتظار. روي⁽⁶⁾ أنه تعالى أمر موسى⁽⁷⁾ عليه السلام أن يسري⁽⁸⁾ ببني إسرائيل فأتبعهم فرعون وجنوده مشرقين، ولما⁽⁹⁾ تراءى الجمعان وهم على شاطئ البحر أوحى الله تعالى (إليه)⁽¹⁰⁾ أن اضرب بعصاك البحر، فضربه⁽¹¹⁾ فظهر فيه اثنا عشر طريقا يابسًا، فسلكوها حتى جاوزوا البحر، ثم وصل إليه فرعون ورآه منغلقا

(1) في ح: سبب.

(2) ساقطة من ح.

(3) في ح: يفعلون.

(4) في ح: الأول.

(5) في ح: طلب الفعل الإبصار.

(6) انظر: التفسير الكبير: 3 / 75.

(7) انظر ما يتعلق بنبي الله موسى: اليهودية لأحمد شلبي: 1 / 138.

(8) في ح: أن يرى.

(9) في ح: فلما.

(10) ساقطة من ح.

(11) في ح: فضرب.

اقتحم (فيه) ⁽¹⁾ هو وجنوده، فالتطم عليهم ⁽²⁾، وأغرقهم أجمعين.

﴿وَلَاذَّ وَاعِدَنَا﴾ ⁽³⁾ مُوسَى آرَيْعِينَ لَيْلَةً ﴿الوعد: هو الترجية بالخير، وعد الله تعالى موسى عليه السلام بعد هلاك فرعون أن ينزل عليه كتابا ينتمون إليه (ويتمسكون به) ⁽⁴⁾، وعين له ميقاتا ذا القعدة ⁽⁵⁾ وعشر ذي الحجة، وإنما عبّر عنها بالليالي لأنها غرر الشهور، وانتصاب ⁽⁶⁾ ﴿آرَيْعِينَ﴾ على المفعول به، إذ هي الموعودة على الاتساع المعهود بجعل الزمان، لكونه شرط الموعود موعودا، ولا يجوز نصبه على الظرف، لأنه معدود، فيلزم أن يكون وقوع العامل في كل فرد فرد منها، وليس كذلك.

وقرىء ⁽⁷⁾: ﴿وَلَاذَّ وَاعِدَنَا﴾، وقال ⁽⁸⁾ الزجاج ⁽⁹⁾: هذا جيد، لأن الطاعة في القبول بمنزلة المطاوعة، فمن الله تعالى وعد، ومن موسى عليه السلام (قبول، وموسى اسم عجمي لا ينصرف

[74] للعجمة والتعريف، روي أن القبط ⁽¹⁰⁾ يقولون للماء: «مو»، وللشجر: «سى»، فلما أوجد / موسى عليه السلام ⁽¹¹⁾ في التابوت عند ماء وشجر سمي «موسى».

(1) ساقطة من ح.

(2) في ح: عليه.

(3) في ع وح: وعدنا، والمثبت من المصحف.

(4) ساقطة من ح.

(5) انظر: الكشف: 1 / 280.

(6) انظر: إعراب القرآن للنحاس: 1 / 224.

(7) وهي قراءة أكثر القراء. (انظر: السبعة، ص: 155، والحجة لأبي زرعة، ص: 96، والنشر: 2 / 212، والحجة لابن خالويه، ص: 76-77.

(8) انظر: الزجاج: 1 / 104-103.

(9) هو إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج. عالم بالنحو واللغة. ولد ومات في بغداد (311-241هـ). (نزهة الألبا، ص: 308، ووفيات الأعيان: 1 / 11، والأعلام: 1 / 40).

(10) القبط: هم أهل مصر. (اللسان: قبط).

(11) ساقطة من ح.

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾: أي اتخذتموه إلها، وحذف المفعول الثاني للعلم به، ولسماجة⁽¹⁾ ذكره، وفيه تفضيع لشأنه، حيث ترك تطهيراً، أي جعلتموه لأنفسكم معبوداً، ونسب اتخاذ إلى جميعهم، وإن كان بعضهم لم يتخذ ولم يرض به، لأن القبيلة قد تدم وتمدح بما وقع من بعضها، وفيه تنبيه على زيادة القبح في ذلك اتخاذ حتى خرج البريء مخرج الذم لمقارنته المباشر له. والتعريف في ﴿الْعِجْلَ﴾ للعهد، والمعهود ما ذكر في قوله تعالى: ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورَانٌ﴾⁽²⁾.

و﴿ثُمَّ﴾ للبعد بين مشاهدة النعم المذكورة واتخاذ العجل معبوداً، لأن معنى التراخي قد فهم من قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾، الضمير لموسى عليه السلام، والمعنى: بعد غيبته، وهي بالمضي إلى الطور⁽³⁾.

﴿وَأَنْتُمْ نَهَامُونَ﴾⁽⁴⁾ 51: إخبار بأن سجيّتهم الظلم، يُرشدك إلى هذا قوله في موضع آخر: ﴿اتَّخَفَوْهُ وَكَانُوا نَهَامِينَ﴾⁽⁵⁾، والاتخاذ المذكور يدل على أنهم مُجَسِّمَة⁽⁶⁾ أو حُلُولِيَّة⁽⁷⁾.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا﴾⁽⁸⁾: أي تجاوزنا. ﴿عَنْكُمْ﴾ حين تُبْتَم. فإن قلت: إنهم عوقبوا بالقتل على ما يأتي عن قريب، فما معنى العفو؟

(1) في اللسان: سَمَحَ الشيء بالضم: قُبِحَ، يسمح سماجة: إذا لم يكن فيه ملاحاة. (اللسان: سمح).

(2) من الآية: 86 من سورة طه، أو من الآية: 148 من سورة الأعراف.

(3) الطور: إسم للجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى ﷺ، وقيل: أي جبل كان، لأنه اسم لكل جبل بالسريانية. (انظر تفسير القرطبي: 1/436).

(4) من الآية: 148 من سورة الأعراف.

(5) انظر: منهاج السنة النبوية: 2/105.

(6) الحلولية في الجملة عشر فرق كلها كانت في دولة الإسلام، وغرض جميعها القصد إلى إفساد القول بتوحيد الصانع. وتفصيل فرقها في الأكثر يرجع إلى غلاة الروافض. (الفرق بين الفرق، ص: 254).

(7) في اللسان: وأصله المحو والطمس، وهو من أبنية المبالغة. (اللسان: عفا).

قلت: العفو قد يكون قبل العقوبة، وقد يكون بعدها، بخلاف الغفران، فإنه لا يكون معه عقوبة البتة، على أن العقوبة كانت لبعضهم، وأصل العفو المحو، من عَفَتِ الرِّيحُ الأثر إذا أذهبته، لا من عفا المنزل إذا دَرَسَ⁽¹⁾، فإنه يتعدى ولا يتعدى، و﴿ثُمَّ﴾ للبعد، فإن العفو بعد ارتكابهم ما هو الموجب لأشد العذاب في غاية البعد، وذلك في قوله: ﴿مَنْ بَعِيَ ذَلِكَ﴾، لتعظيم الشرك، أي عفونا من بعد ذلك الأمر العظيم البعيد عن العفو.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁽²⁾ ﴿52﴾ نعمة العفو، ومعنى الشكر في اللغة: عرفان الإحسان بالجنان، ونشره باللسان.

وتفسير «لعل» بـ «كي» مردود بأن جمهور أئمة اللغة اقتصروا في بيان معناها الحقيقي على الترجي والإشفاق وعدم صلوحها لمجرد معنى العلية والفرضية مما وقع عليه الاتفاق، ألا ترى تقول: دخلتُ على المريض كي أعوده، وأخذتُ الماء كي أشربه، ولا يصح «لعل»، وحملها على الإرادة إنما يصح على أصل الاعتزال⁽³⁾⁽⁴⁾، وأما على أصل أهل الحق فلا صحة (له)⁽⁵⁾، لأن إرادته تعالى يستلزم الوقوع عندهم، ولم يقع، فلا بد من الحمل على كونهم في صورة من يرجى منه الشكر، وإن لم يتعلق به الإرادة.

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾: الواو بينهما هي التي توسط⁽⁶⁾ بين الصفات المقيدة كون الموصوف جامعا لها، أي الشيء الجامع بين كونه

(1) أي داسه. (اللسان: درس).

(2) في اللسان: الشكر: عرفان الإحسان ونشره، وهو الشُّكُور أيضا. (اللسان: شكر).

(3) في ع: الإعزال، والمثبت من ح.

(4) انظر كل ما يرتبط بهذه الفرقة من حيث تعريفها وتأسيسها... الخ في: المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب: 243/ 2.

(5) ساقطة من ح.

(6) في ح: توسط.

كتاباً منزلاً من عند الله (تعالى) ⁽¹⁾، وبين كونه فُرْقَاناً يفرق بين الحق والباطل وهو التوراة، وفي توصيفه بالكتاب في مقام المدح إشارة إلى نزوله من السماء مكتوباً، وحمل الفرقان على النصر الذي فرق بينه وبين عدوه كما في قوله تعالى ⁽²⁾: ﴿وَيَوْمَ ⁽³⁾الْفُرْقَانِ ⁽⁴⁾﴾، يعني يوم بدر ⁽⁵⁾ لا يناسبه قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ [75] تَهْتَفُونَ﴾ ⁽⁶⁾ 53﴾ باتباع ذلك الكتاب المنزل والعمل بما فيه. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ ⁽⁶⁾.

﴿وَلِذَٰلِكَ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ القوم: اسم جمع لا واحد له من لفظه، ويختص بالرجال.

﴿يَا قَوْمَ﴾: المنادى إذا أضفته إلى نفسك جاز فيه حذف الياء وإثباتها كما في قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ ⁽⁷⁾، وفتحها كما في قراءة من فتح الياء، والأجود الاكتفاء بالكسرة.

﴿إِنَّكُمْ كُفَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ﴾: أي ضررتم أنفسكم بإيجاب العقوبة عليها، أو نقصتموها ثواب الإقامة على عهدي، فإن الظلم في اللغة: النقص، وفي العرف: الضرر الخالي عن نفع يزيد عليه، ودفع مضرة أعظم منه، وظلم الإنسان نفسه أفحش من ظلم غيرها.

﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: الفاء الأولى للسببية، لأن الظلم سبب التوبة، والثانية للتعقيب، فإن كانت توبتهم نفس القتل

(1) ساقطة من ح.

(2) في ح: قوله تعالى عز وجل.

(3) في ح: يوم.

(4) من الآية: 41 من سورة الأنفال.

(5) بدر: موضع بينه وبين المدينة سبعة بُرُد. (معجم البلدان: 1 / 358).

(6) من الآية: 46 من سورة المائدة.

(7) من الآية: 50 من سورة الزمر.

ف قوله : ﴿ فَأَقْتُلُوا ﴾ تفسير وتفصيل لقوله : ﴿ قَتُّوْهُ ﴾ ، ولا حاجة إلى تقدير العزيمة وإن كانت تنمة التوبة ، وسبب قبولها ، فمعناه : توبوا فاتبعوا توبتكم بالقتل ⁽¹⁾ تماما لها ، والتعديدية بـ « إلى » لما في التوبة من معنى الرجوع ، وخص البارئ بالذكر من سائر أسمائه ، لأن البارئ هو الذي خلقهم أبرياء من التفاوت في النوع ، والتشابه في الشخص ، وذلك من عجيب حكمته ، وبديع قدرته ، فغيرهم على تركهم (عبادة من هذا شأنه) ⁽²⁾ إلى عبادة ما هو مثل في الغباوة ، حتى عرضوا أنفسهم لسخطه ⁽³⁾ ، فناسب خلقهم ، وجمع بنيته ⁽⁴⁾ باللفظ قتلهم ، وفك تركيبهم بالقهر حيث تقابلا ، والنفس هاهنا : هي هذه البنية الإنسانية ، والقتل وهو ⁽⁵⁾ إزهاق الروح ، وحمل قوله : ﴿ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ على الظاهر وهو النجع ⁽⁶⁾ ، أي قتل أحد نفسه ، ويجوز أن يكون على التجوز بجعل المقتول نفس القاتل ، لما بينهما من التعلق والاتحاد في الاعتقاد .

قيل ⁽⁷⁾ : أمروا أن يقتل بعضهم بالسيف بعضا ، وقيل ⁽⁸⁾ : من لم يعبد العجل أن يقتل العبد ⁽⁹⁾ .

﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ : أي ذلك القتل والرجوع أنفع لكم من الحياة ، بالإصرار المؤدي إلى العذاب المخلد في النار ، ولما كان ظهور نفعه

(1) في ح : القتل .

(2) ساقطة من ح .

(3) في ع : بسخطه .

(4) في ح : بينهم .

(5) في ح : هو .

(6) انظر اللسان : نجع .

(7) انظر : الكشف : 1 / 281 .

(8) انظر : الكشف : 1 / 281 .

(9) في ح : العبد .

في الآخرة بالحياة الأبدية، والبهجة السرمدية، نبّه عليه بقوله: ﴿عَنْ بَارئِكُمْ﴾، وإعادة بارئكم كإعادة الحق في قوله تعالى: ﴿وَالْعَقُّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْعَقُّ نَزَلَ﴾⁽¹⁾.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ إخبار بالتوبة وعطف على محذوف، أي فامتثلتم ذلك فتاب عليكم، وهاتان الجملتان مندرجتان تحت الإضافة إلى الظرف الذي تقدم، والتفات من الغيبة إلى الخطاب، حيث عبّر عنهم بطريق الغيبة بلفظة «قومه». وأما اندراجهم تحت قول⁽²⁾ موسى عليه السلام على تقدير شرط محذوف، أي (إن) ⁽³⁾ فعلتم ففيه أن دخول الفاء الجزائية على الماضي المتصرف من غير «قد» غير جائز، وإضمارها ضعيف، وحذف فعل الشرط وأداته⁽⁴⁾ معاً، وإبقاء الجواب مما نوزع في صحته⁽⁵⁾.

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾⁽⁵⁴⁾: المبالغة في الوصف الأول لكثرة توفيقه (تعالى)⁽⁶⁾.

[76] التوبة، وقبولها مرة / بعد أخرى، والمبالغة في الوصف الثاني لعدم الاستعجال⁽⁷⁾ في أمر العقوبة والإهمال إلى زمان التوبة بدءاً وعوداً.

﴿وَلَاذُ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾ يعدّد عليهم ما صدر عنهم من سوء الاقتراح، وفي ندائهم موسى كليم الله باسمه دليل على سوء أدبهم معه، وقد تكرر ذلك منهم.

(1) من الآية: 105 من سورة الإسراء.

(2) في ح: قوله.

(3) ساقطة من ح.

(4) في ح: وأدته.

(5) انظر: البحر المحيط: 1 / 209.

(6) ساقطة من ح.

(7) في ح: الاستعمال.

﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾: تعدية الإيمان باللام باعتبار تضمينه معنى الوثوق، وما قيل: أي لأجل قولك يأباه قوله: ﴿حَتَّىٰ قَرِئَ اللَّهُ⁽¹⁾﴾، لأن عدم إيمانهم لأجل قوله لا ينتهي عند رؤيته تعالى، بل يستمر، والرؤية بصرية، وأكدت بقوله: ﴿جَهْرَةً﴾، أي غير مستتر عنا بشيء مبالغة في الإبصار، وانتصب⁽²⁾ على المصدر لأنها نوع من الرؤية، أو على الحال بمعنى ذوي جهرة.

وقرئ⁽³⁾: ﴿جَهْرَةً﴾ بفتح الهاء، وهي إما مصدر كالغلبة، وإما جمع جاهر، وأوجه الأوجه هو أن يكون بمعنى جهرة، لأن كل اسم كان ثانيه من حروف الحلق يجوز تحريكه قياساً مطرداً، كبَحْرٍ وَبَحْرٍ، ونَهْرٍ وَنَهْرٍ، والأصل في القراءتين التوافق، والجهر حقيقة في ظهور الشيء بإفراط، صوتاً كان أو غيره، والقائلون هم النقباء⁽⁴⁾ السبعون الذين خرج بهم موسى عليه السلام إلى الطور.

وقيل⁽⁵⁾: قاله عشرة آلاف منهم، والمؤمن به أن هذا كتاب الله تعالى، وأنت سمعت كلامه، وأنه أمرنا بقبوله والعمل به.

﴿فَاخْذُكُمُ الصَّاعِقَةَ﴾: (لا)⁽⁶⁾ لاستحالة المسؤول، بل لأنهم لم يسألوا سؤال استرشاد، بل سألوا سؤال تعنت، وأسأوا الأدب في السؤال، حيث قالوا: لن نؤمن لك؛ والصاعقة كل أمر هائل مميت أو مزيل للعقل

(1) في ح: نرى الله جهرة.

(2) هو مصدر في موضع الحال. (إعراب القرآن للنحاس: 1 / 227).

(3) هي قراءة سهل بن شعيب النهمي. (المختسب: 1 / 84).

(4) النقباء: جمع نقيب، وهو كالعريف على القوم، المقدم عليهم، الذي يتعرف أخبارهم، وينقب عن أحوالهم، أي يفتش. (اللسان: نقب).

(5) انظر: الكشف: 1 / 281.

(6) ساقطة من ح.

والفهم غالبا، والمراد الصيحة الهائلة الحاصلة بالرجفة لقوله (تعالى)⁽¹⁾ في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾⁽²⁾، وأصلها الاضطراب، فخرّوا صعقين ميتين يوما وليلة.

﴿وَأَنْتُمْ تَنْصُرُونَ﴾⁽³⁾ 55: دل هذا على أنها جاءتهم معاينة بالنهار وهم أيقاظ يبصرونها، وذلك أفضع وأشد وقعا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾: البعث إثارة⁽⁴⁾ البارك والنائم عن مكانه، ونشر الميت كبعث النائم، فالتقييد⁽⁴⁾ بقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ﴾، أي بسبب الصاعقة لتعيين المراد ودفع الاشتباه.

﴿لَقَدْ كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁽⁵⁾ 56: نعمة البعث، أو نعمة الهداية بعد الضلالة.

﴿وَمَا لَنَا عَلَيْهِمُ الْقَمَامَ﴾: أي وجعلنا الغمام يُظلكم، وذلك في التيه⁽⁶⁾، سخر الله [تعالى]⁽⁷⁾ لهم السحاب يسير⁽⁸⁾ سيرهم، يُظلمهم من الشمس.

والظل في اللغة: الستر. والغمام: جمع غمامة، وهي ما ابيض من السحاب، سمى بها لستره⁽⁹⁾، فإن كل ما يستر شيئا فهو غمة.

(1) ساقطة من ح.

(2) من الآية: 37 من سورة العنكبوت.

(3) في ح: إشارة.

(4) في ح: فالتعبير.

(5) انظر اللسان: ظلل.

(6) التيه: حيث تاه بنو إسرائيل: أي حاروا، فلم يهتدوا للخروج منه. (اللسان: تيه).

(7) زيادة في ح.

(8) في ح: يسيرهم.

(9) في ع: لستره، والمثبت من ح.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنِّ⁽¹⁾﴾: هو الترنحبين⁽²⁾، وكان ينزل كهيفة الثلج، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

﴿وَالسَّلْوَى⁽³⁾﴾: هو السمانى⁽⁴⁾، وكانت ريح الجنوب تحشره عليهم.

﴿كُلُوا﴾ على إرادة القول. ﴿مِنَ هَبَاتٍ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من المشتتهيات الخاليات عن الأدواء والمضرات، وعن الحرمة والكراهة، لأن أمر الإباحة لا يتناولهما⁽⁵⁾.

﴿وَمَا تَطْلُمُونَا﴾ عطف على مقدر، أي فظلموا بكفرانهم هذه النعم، ﴿وَمَا تَطْلُمُونَا﴾:

[77] فالواو فصيحة، ولما أخبر عن وقوع الظلم ونفى / أن يصل إليه تشوقت النفس إلى ذكر من وقع به الظلم، واتصل به ضرره، فاستدرك ببيانه فقال:

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾⁽⁵⁷⁾، فتقديم المفعول للتخصيص، والجمع بين كان، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجديدي.

﴿وَلِذَ قُلْنَا لِمُخْلُوءٍ﴾ الدخول: الانتقال من العورة إلى الحصن.

﴿هَذِهِ الْقَرْيَةُ﴾ هو كقولك: هذا المال، وذاك الرجل تنبيهها على كماله، فإن الشيء إذا عظم أمره يوصف باسم جنسه.

(1) في اللسان: المن: طُلَّ ينزل من السماء، وقيل: هو شبه العسل كان ينزل على بني إسرائيل. (اللسان: من، وتفسير المشكل من غريب القرآن لمكي، ص: 28، وغريب ابن قتيبة، ص: 49، والطبري: 1 / 233، والقرطبي: 1 / 406، والبحر المحيط: 1 / 214).

(2) الترنحين: بتشديد الراء وتسكين النون: هو ما يقع من السماء، شبيه بالعسل. (غريب ابن قتيبة، ص: 49).

(3) والسلوى: طائر لا واحد له. (انظر: أبو عبيدة: 1 / 41، وتفسير مشكل غريب القرآن لمكي، ص: 28، وغريب ابن قتيبة، ص: 50، والطبري: 1 / 234، والقرطبي: 1 / 408، واللسان: سلا).

(4) هون نوع من الطيور. (غريب ابن قتيبة، ص: 50).

(5) في ح: لا يتناولها.

والقرية: الأبنية التي هي مجتمع الناس، من قولك: قريت الماء في الحوض أي جمعته، والمراد بالقرية هنا بيت المقدس⁽¹⁾، وقيل: إيلياء⁽²⁾، وهي البلدة التي فيها بيت المقدس، وقيل⁽³⁾: أريحا⁽⁴⁾ وهي بقرب بيت المقدس، أمروا به بعد التيه، وقد أمروا بالدخول في الأرض المقدسة مرة أخرى، وذلك الأمر قبل التيه، دل على ذلك ما في سورة المائدة⁽⁵⁾ من ترتيب التيه على عدم امتثالهم بهذا الأمر.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، أي أبحنالكم، ووسعنا عليكم، فتعيشوا فيها أين شئتم، بلا تضيق ولا منع. وذكر الأكل لأنه معظم المقصود، والفاء أفاد تسبب دخولهم للأكل منها، لأنه كناية عن استيلائهم عليها وهو سبب الملك المعبر عنه بالأكل.

﴿رَغَدًا﴾: واسعا، نعت لمصدر محذوف، ويجوز أن يكون في موضع الحال.

﴿وَلَدْخُلُوا الْبَابَ﴾: يعني باب القرية. قال⁽⁶⁾ مجاهد⁽⁷⁾ والسدي⁽⁸⁾: هو الباب الثامن من بيت المقدس، يعرف اليوم بباب حطة⁽⁹⁾، والأمر على

(1) انظر ما يتعلق ببيت المقدس في: معجم البلدان: 5 / 166.

(2) اسم مدينة بيت المقدس. (معجم البلدان: 1 / 293).

(3) انظر: الكشف: 1 / 283.

(4) انظر ما يتعلق بأريحا: معجم البلدان: 1 / 165.

(5) انظر الآيات: 20 إلى 26 من سورة المائدة.

(6) انظر: جامع البيان: 1 / 299، والكشاف: 1 / 285-284.

(7) هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي مولى السائب بن أبي السائب، قال سفيان الثوري: خذوا التفسير من أربعة: مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والضحاك. توفي سنة 104 هـ. (طبقات ابن سعد: 5 / 466، وتهذيب التهذيب: 10 / 42، والأعلام: 5 / 279).

(8) هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي، تابعي، حجازي الأصل، سكن الكوفة... صاحب التفسير والمغازي والسير، كان إماما عارفا بالوقائع وأيام الناس. توفي رحمه الله سنة 128 هـ. (النجوم الزاهرة: 1 / 308، والأعلام: 1 / 317).

(9) حطة: أي كلمة تحط عنكم خطاياكم، وهي كلمة لا إله إلا الله. (اللسان: حطط).

لسان يوشع بن نون⁽¹⁾ عليه السلام، فلا ينافي عدم دخولهم بيت المقدس في حياة موسى عليه السلام.

﴿مُجَدَّآ﴾: أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكرا لله تعالى وتواضعا، وقيل⁽²⁾: أمروا بالدخول بخشوع وإخبات.

﴿وَقُولُوا حِطَّةً﴾: فعلة من الحطّ، وهو إنزال الشيء من علو، وحطّ الذنب إسقاطه⁽³⁾، وهو كاللقاء الحمل عن الظهر، وحط حطا متعدا، وحط حطوطا لازم، وهي خبر مبتدأ محذوف أي مسألتنا حطة، (أو أمرك حطة)⁽⁴⁾، والأصل النصب بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة. وإنما رفعت لتُعْطِي معنى الثبات. وقرئ بالنصب⁽⁵⁾ على الأصل على أنه مفعول «قولوا». وقيل⁽⁶⁾: معناه أمرنا حطة، أي أن نحط في هذه القرية، ونقيم بها.

﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾: جواب الأمر مرتب⁽⁷⁾ على دخول الباب بقيد السجود وقول حطة. الغفر والغفران والمغفرة: الستر، ومنه الجم الغفير: الجمع الكثير الذي يستر بعضه بعضا، والخطايا: جمع خطيئة بمعنى الإثم، يقال: خطيئ إذا أثم متعمدا، وأخطأ إذا لم يتعمده.

﴿وَمَنْزِلَةُ الْمُحْسِنِينَ﴾⁽⁵⁸⁾ ثوابا، يعني من كان خاطئا غفرنا له خطاياه، ومن كان محسنا زدناه في عطاياه، ففي الكلام جمع وتفريق.

(1) هو الخليل يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. (قصص الأنبياء لابن كثير، ص: 527).

(2) انظر: الكشف: 1 / 283.

(3) في ح: إسقاط.

(4) ساقط من ح.

(5) هي قراءة إبراهيم بن أبي عبلة. (البحر المحيط: 1 / 222).

(6) انظر: الكشف: 1 / 283.

(7) في ح: مترتب.

أما عدم انجزام «سنزید» مع عطفه على مجزوم فلخروجه عن صورة الجواب بدخول السين المانعة عن الانجزام، ونكتة الإخراج الدالة⁽¹⁾ على أنه يفعل البتة، لأن تلك الزيادة إذا كانت عن [78] وعد الله تعالى كانت / أقطع مما⁽²⁾ إذا كانت مسببة عن فعلهم.

﴿قَبَّلَ الْغَيْنَ تَهَلَّلُوا﴾: وضع المظهر موضع المضمّر، فيدل⁽³⁾ على أن التبديل ظلم أو مسبب عن ظلمهم، وعادتهم في وضع الأشياء غير مواضعها، وأن المبدلين بعضهم لا كلهم.

﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾: أي أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار، فبدلوا به قولاً معناه غيره⁽⁴⁾، وليس الغرض أنهم أمروا بلفظة معينة، فجاؤوا بغيرها، لأنهم لو قالوا مكان «حطة»: نستغفرك ونتوب إليك، أو ما أشبه ذلك، لم يؤاخذوا به، ولم يعذبوا.

وقيل⁽⁵⁾: قالوا مكان «حطة»: حنطة، استهزاء وإعراضاً عن طلب ما عند الله تعالى (إلى)⁽⁶⁾ طلب ما اشتتت نفوسهم.

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الْغَيْنِ تَهَلَّلُوا﴾: الإظهار في موضع الإضمار للتنصيص على عدم تعدي العذاب عن الذين ظلموا إلى غيرهم، فإن منه ما يتعدى إلى غير الظالم على ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَتَقُولَنَّ فِتْنَةً لِّأَصْيَيْنَ الْغَيْنِ

(1) في ع: الدالة.

(2) في ح: ما.

(3) في ح: ليدل.

(4) في ح: غير.

(5) انظر الكشف: 1 / 283. وقيل: هذه اللفظة من ألفاظ أهل الكتاب، لا يعرف معناها في اللغة العربية، والله أعلم. (المهذب، ص: 84). قال الراغب: كلمة أمر بها بني إسرائيل، ومعناه: حط عنا ذنوبنا، وقيل: معناه قولوا صواباً. (مفردات الراغب: حط، ص: 121-122).

(6) ساقطة من ح.

تَهْلِكُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً⁽¹⁾ . وأما الإشعار بأن الإنزال عليهم بظلمهم المذكور فقد حصل من الفاء الدالة على التسبب فيما تقدم .

﴿رِجْزٌ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ : عذاباً في غاية الاشتداد خارجاً عن حد المعتاد، فإن النسبة إلى السماء للإشارة إلى هذا المعنى . روي⁽²⁾ أنه مات منهم بالطاعون في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً، وقيل⁽³⁾ : سبعون ألفاً .

وها هنا وجه آخر وهو أن العذاب ضربان : ضرب يحصل بالأسباب الظاهرة فيظن أنه يمكن دفعه كالهدم والغرق، وضرب يحصل بأسباب غير ظاهرة، فلا يظن أنه يمكن دفعه كالطاعون والصاعقة، وقد شاع في متعارف الناس نسبة هذا الضرب إلى السماء .

الرجز⁽⁴⁾ : إنما يطلق على العذاب الموجب للاضطراب، يقال : ارتجز إذا ارتعش .

﴿يَا كَاذِبُونَ﴾ 59 بسبب اعتيادهم بالخروج عن الطاعة .

﴿وَالَّذِي امْتَنَسَقَى⁽⁵⁾ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ ، الاستسقاء : طلب السقي أو الإسقاء، والسقي أن يجعل له ما يشربه، والإسقاء التعريض للماء وجعله له ليتناوله متى أراد، فهو أخص معنى من السقي، وقد دل ذلك على أنهم عطشوا واشتدت حاجتهم إلى الماء، وكان العطش في التيه ودخول القرية بعدها، ولم يراع الترتيب في ذكرها، لأن المقصود تعديد⁽⁷⁾ النعم، والتقريع على

(1) من الآية : 25 من سورة الأنفال .

(2) انظر : الكشف : 1 / 283 .

(3) انظر : الكشف : 1 / 283 .

(4) في ح : والرجز .

(5) في ع : وإذا، والمثبت من ح .

(6) في اللسان : واستسقاءه : طلب منه السقي . (اللسان : سقي) .

(7) في ح : تقدير .

في خوارق العادات الصادرة عن الأنبياء صلوات الله عليهم⁽¹⁾ أجمعين سعي في سد طريق دلالة المعجزة⁽²⁾ على صدق النبوة.

﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَ عَيْنًا﴾: متعلق بمحذوف يفصح عنه الفاء الفصيحة، تقديره: فضرب فانفجرت، ونكتة الحذف الدلالة على سرعة الامتثال وظهور الأثر في الحال، وعلى أن المقصود بالأمر أثر الضرب لا الضرب نفسه، والإشارة إلى (أن)⁽³⁾ ترتب الانفجار وإن كان في الظاهر على ضرب موسى عليه السلام، لكنه⁽⁴⁾ في الحقيقة على أمر الله تعالى به وبتعليقه عليه. والفجر: الشق، ومنه الفاجر لأنه فسق، فشق عصا المسلمين بخروجه إلى الفسق.

والعين: ينبوع، وهي مؤنثة سماعاً، ونصب على التمييز، وجاز اجتماع علامتي التأنيث في اثنتا⁽⁵⁾ عشرة، لأنهما في شيئين.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾، الأناس: اسم جمع لا واحد له من لفظه، والمراد كل سبط من أسباط بني إسرائيل، وكانوا على عدد العيون.

﴿مَشَرَبَهُمْ﴾، المشرب: موضع الشرب، والعلم بموضع الشرب كناية عن عدم التجاوز عنه، كما يقال: فلان يعرف حده، أي لا يتجاوز عنه، ففي الكلام إيجاز بليغ، حيث دل على سبق التعيين والتخصيص، قيل⁽⁶⁾: كانوا ستمائة ألف، وسعة⁽⁷⁾ المعسكر اثنا⁽⁸⁾ عشر ميلاً.

(1) في ح: وسلامه عليهم.

(2) في ع: المعجز.

(3) ساقطة من ح.

(4) في ح: لكن.

(5) في ح: اثنتي.

(6) انظر: الكشف: 1 / 284.

(7) في ع: وتسعة، والمثبت من ح.

(8) في ح: اثني.

كفرانها نعمة نعمة على التفصيل والتفريق، أدل على ذلك لأنها لو وردت مرتبة كانت قصة واحدة، فيُظن أن المراد ذكر نعمة واحدة.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْعَجْرَ﴾: كانت عصاه من آس⁽¹⁾ الجنة، وله شعبتان تتقدان في الظلمة، واللام في الحجر للعهد على ما روي⁽²⁾ أنه كان حجرا أهبطه آدم عليه السلام من الجنة، فوقع إلى شعيب عليه السلام، فأعطاه مع العصا، أو حجرا طوريا حمله معه⁽³⁾، أو الحجر الذي قرَّبْ ثوبه لما وضعه عليه ليغتسل، وبرأه الله تعالى به عما رموه من الأُدرة⁽⁴⁾، فأشار إليه جبرائيل عليه السلام بحمله، أو للجنس على ما قيل⁽⁵⁾: لم يأمره أن يضرب⁽⁶⁾ حجرا معينا، ولكن لما قالوا: كيف

[79] ينالوا؟/ فضينا إلى أرض لا حجارة بها، حمل حجرا في مِخْلَته، وهذا أظهر في الحجة، والأول أنسب لتعريف قرينه.

قال ابن عطية⁽⁷⁾: لا خلاف أنه كان حجرا منفصلا مربعا يطرد من كل جهة ثلاثة عيون، إذا ضربه موسى عليه السلام، وإذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفت العيون، وإياك أن تتوهم أن هذا من قبيل ما يستند إلى الطبائع من الخواص، كجذب بعض الأحجار الحديد، وحلق بعضها الشعر، لأنه لا يتبع الإرادة والحاجة، والحق أن فتح باب أمثال هذا⁽⁸⁾ التوجيه الباطل

(1) الآس: العسل، وقيل: البَلَح، وقيل: ضرب من الرياحين، وقيل: شجرة ورقها عطر. (اللسان: أوس).

(2) قال الزمخشري: وقيل: أهبطه آدم من الجنة، فتوارثوه حتى وقع إلى شعيب، فدفعه إليه مع العصا. (الكشاف: 1/ 284).

(3) في ح: منه.

(4) الأُدرة بالضم: نفخة في الخصية. (اللسان: أدر). والخصية: البيضة. (اللسان: خصا).

(5) انظر: الكشاف: 1/ 284.

(6) في ع: أن يضرب، والمثبت من ح.

(7) انظر هذا الكلام في: المحرر الوجيز: 1/ 152.

(8) في ع: هذه، والمثبت من ح.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ على تقدير القول . (﴿مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ من المَنَّ والسلوى وماء العيون) (1). وقيل (2): الماء ينبت منه الزروع والثمار، فهو رزق يؤكل منه ويشرب، ولا وجه له في هذا المقام، لأنهم في التيه ما كانوا يأكلون من زرع الماء وثمره (3). مِنْ: للابتداء أو للتبعيض، والرزق: المرزوق، والإسناد إلى الله تعالى لعدم التوقف على الكسب العادي، وإلا فالرزق كله مستند إليه تعالى خلقا وإيجادا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (60) لما كان قد تهيأ لهم المأكول والمشروب من غير تعب نهوا عن الفساد، إذ كان ذلك قد يدعو إليه كما قال الشاعر:

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَّةَ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيْ مَفْسَدَةٌ (4)(5)

والعُثْي على ما ذكر في العين أشد الفساد، والفساد: خروج الشيء عن أن يكون منتفعا به، وربما لا يكون منها، بل يكون واجبا، كهدم دور المشركين، وحرق زروعهم (6). ولذلك قُيِّد بقصد الإفساد المستفاد من قوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾، فإن المفسد من باشر الفساد عمدا لا من صدر عنه الفساد [80] مطلقا ولو سهوا، وفائدة ما في مفهوم العُثْي من الشدة الدالة (7) على أن أشد الفساد غير منهي (إذا كان لمصلحة) (8)، فكيف الفساد في الجملة؟!

(1) ساقط من ح.

(2) انظر: الكشف: 1/284.

(3) بعده في ح كرر ما أسقطه في الهامش.

(4) في ع: المفسدة، والمثبت من ح.

(5) انظر: اللسان: فسد، وعجزه فيه برواية:

* مفسدة للعقل أي مفسدة*

(6) في ح: زرعهم.

(7) في ع: الدلالة.

(8) ساقط من ح.

قال الراغب⁽¹⁾: والعيث والعثي يتقاربان، نحو: جذب وجبذ، إلا أن العيث أكثر ما يقال فيما يدرك حسا، والعثو فيما يدرك حكما.

﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَيَرُدُّهُنَّ إِلَىٰ صُلُبِهِنَّ﴾، يعني ما رزقوا به في التيه.

قيل⁽²⁾: كان ينزل عليهم المن وحده، ثم ملّوه، فأرسلت عليهم السلوى، وكان هذا الكلام منهم قبل نزول السلوى. وقيل: أريد بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدل، فلا ينافي التعدد.

﴿فَادْعُوا رَبَّكُمْ﴾: سله لنا بدعائك إياه، وفي معنى التربية التي هي مأخذ الرب مناسبة للمقام.

﴿يُخْرِجُ لَنَا﴾: جزم على أنه جواب، فادع كأنهم طلبوا حصول ما طلبوه على سبيل خرق العادة كنزول المن والسلوى، ولذلك قالوا: ﴿يُخْرِجُ﴾، أي يظهر، ولم يقولوا: ينبت، وإنما كرر ﴿لَنَا﴾ مع أن في الثاني منهما غنى⁽³⁾ (عن)⁽⁴⁾ الأول، إظهارا للصلة الدعاء النافع، اهتماما في شأنه.

﴿إِنَّمَا تُنْبِتُ الْآرْضَ﴾: من: للتبعيض، والإنبات: عمل طبيعة الأرض في تربية البذر، ومادة النبات بتسخير الله تعالى إياها وتدبيره⁽⁵⁾، وذلك أمر آخر وراء إيجاد وإيجاد أسبابه، والعمل إنما يُسند حقيقة إلى من باشره لا إلى من خلقه وأوجده. فالمنبت والمولد والمصور ونحو ذلك حقيقة المباشر

(1) انظر المفردات: عثي، ص: 333.

(2) في ح: وقيل.

(3) في ح: عين.

(4) ساقطة من ح.

(5) في ح: وتدبره.

لأسباب⁽¹⁾ هذه الأعمال لا البارئ تعالى، وإنما نسب⁽²⁾ إليه كنسبته⁽³⁾ القتل والقطع والكسر إليه، لكونه المتمكن⁽⁴⁾ منها.

﴿مِنْ بَقْلٍهَا وَقَتْنَانِمَا وَفُومَهَا وَعَدَسِمَا وَبَصَلِيمَا﴾: تفسير وبيان وقع (في) موقع الحال من الضمير، تقديره مما تنبته⁽⁶⁾، كائنا من بقلها، أو بدل بإعادة الجار.

والبقل: كل ما يؤكل مع الطعام من الخضر.

والفوم: الحنطة عند الأكثر، وقال مجاهد: الفوم: الخبز، يقال: فوموا لنا: أي اختبزوا. قال⁽⁷⁾

الفراء⁽⁸⁾: هي لغة قديمة. وقيل⁽⁹⁾: الثوم، ولا دلالة في قراءة⁽¹⁰⁾: ﴿وَفُومَهَا﴾ عليه، لأن الثاء يبدل⁽¹¹⁾ من الفاء، كما قالوا مغاير⁽¹²⁾ ومغاير⁽¹³⁾،

(1) في ع: بأسباب.

(2) في ع: نسبته.

(3) في ع: لنسبة.

(4) في ع: الممكن.

(5) ساقطة من ح.

(6) في ح: تنبت.

(7) انظر: معاني الفراء: 1 / 42، والبحر: 1 / 231، ومعاني الزجاج: 1 / 115، والتبيان: 1 / 67، والدر: 1 / 73، وجامع البيان: 2 / 125، وفتح القدير: 1 / 91.

(8) هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، مولى بني أسد (أو بني منقر)، أبو زكرياء، المعروف بالفراء: إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، ولد بالكوفة سنة 144هـ، وتوفي في طريق مكة سنة 207هـ. (وفيات الأعيان: 2 / 228، ونزهة الألباء، ص: 126، والأعلام: 8 / 145-146).

(9) انظر: الكشف: 1 / 285. ويدل عليه قراءة ابن مسعود: وثومها. (المصدر نفسه والصفحة نفسها).

(10) هي قراءة ابن مسعود وابن عباس، قال أبو الفتح: يقال: الثوم والفوم بمعنى واحد. (المختص: 1 / 88).

(11) في ح: تبدل.

(12) المغاير: غسل حلو. (اللسان: غفر).

(13) المغاير: شيء ينضج الرمث... حلو كالغسل. والرَّمْتُ: هو من بين الحمض. (اللسان: غثر).

وَجَدَفَ⁽¹⁾ وَجَدَثَ⁽²⁾. ولو كان المراد الثوم، لكان المناسب أن يذكر بعد العدس، والقثاء: جمع قثاة، وهو نوع آخر من جنس الخيار، واختير صيغة الجمع هنا لفصاحتها، وأما معنى الجمع فقد بطل بالتعريف لعدم مناسبة المقام. قيل⁽³⁾: كان القوم فلاحه فزعوا⁽⁴⁾ إلى عكرهم⁽⁵⁾⁽⁶⁾، واشتهوا ما ألفوه.

﴿قَالَ﴾: أي الله (تعالى)⁽⁷⁾ أو موسى عليه السلام، أي دعا فأجابه⁽⁸⁾ الله تعالى (لما دعا، فقال الله تعالى)⁽⁹⁾ أو موسى عليه السلام بإذنه.

﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾، أي أتطلبون تبديل الذي هو أدنى، والمنصوب هو الحاصل، والذي يدخل عليه الباء هو الزائل، وأدنى أفعل تفضيل من الدنو المستعار من القرب المكاني للخسة، كالقرب المستعار للشرف والرفعة، أو من الدون وهو الرديء، فقلب. أو أصله أدنى، فسُهلّت همزته بإبدالها ألفاً⁽¹⁰⁾ من الدناءة، وقد قرئ بالهمزة.

﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾: (يريد به)⁽¹¹⁾ المن والسلوى، وإنما كان خيراً لحصوله بلا تعب،

(1) الجَدَفُ: القطع. (اللسان: جدف).

(2) الجَدَثُ: القبر. (اللسان: جدث).

(3) انظر: جامع البيان: 1 / 311.

(4) في ح: فنزعوا.

(5) في ح: عسكرهم.

(6) العِكرُ: العادة والديدن. (اللسان: عكر).

(7) ساقطة من ح.

(8) في ح: فأجاب.

(9) ساقطة من ح.

(10) في ع: الفاء، والمثبت من ح.

(11) ساقطة من ح.

[81] ووصوله من جهة الرب تشريفا، / وخلوصه عن شبهة الخطر، وكونه ذي خطر⁽¹⁾، بخلاف القول⁽²⁾.

﴿اهْبِطُوا مِصْرَآ﴾: انحدروا (إليه)⁽³⁾، فإن القادم على قطر كأنه منصب عليه، والمصر: البلد العظيم، أي انزلوا بعض الأمصار إن كنتم تريدون هذه الأشياء، ويحتمل أن يريد العلم، أعني مصر فرعون، وصرفه لعدم سبب آخر على إرادة البلد، أو لسكون وسطه، ويؤيده أنه غير ممنون⁽⁴⁾ في مصحف أبي (رضي الله عنه)⁽⁵⁾، وقراءة ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقيل⁽⁶⁾: أصله مصرائيم، فعُرب. ولصرفه حينئذ وجه آخر، وهو أنه لا اعتداد بالعجمة لوجود التعريب والتصرف.

﴿فَإِنْ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾: لما كان هذا في قوة قوله، فوجدوا ما سألوهم، عطف عليه قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾، وفي الجمع بينهما إشارة إلى أن الذلة والمسكنة من روادف ما اتبعوه من الزراعة والحراثة⁽⁷⁾، وقد جاء في الخبر⁽⁸⁾: والذل⁽⁹⁾ في أذنان البقر، والكلام كناية عن كونهم أذلاء

(1) في ح: أخطر.

(2) في ح: القبول.

(3) ساقط من ح.

(4) في مصحف عبد الله: وقرأ به الأعمش، قال الحسن: الألف في ﴿مِصْرَآ﴾ زيادة من الكاتب، فحينئذ تكون معرفة، فيجب أن تحمل على ما هو المختص بهذا الاسم، وهو البلد الذي كان فيه فرعون، وهو مروي عن أبي العالية والربيع. وأما الذين قرأوا بالتنوين وهي القراءة المشهورة، فقد اختلفوا. فمنهم من قال: المراد البلد الذي كان فيه فرعون، ودخول التنوين فيه كدخوله في نوح ولوط. وقال آخرون: المراد: الأمر بدخول أي بلد كان، كأنه قيل لهم: ادخلوا بلدا أي بلد كان لتجدوا فيه هذه الأشياء... فقال كثير من المفسرين: لا يجوز أن يكون هو البلد الذي كانوا فيه مع فرعون. (التفسير الكبير: 1 / 108).

(5) ساقط من ح.

(6) قال الزمخشري: وقيل: هو مصرائيم، فعُرب. (الكشاف: 1 / 285).

(7) في ع: والحراث.

(8) انظر مسند أحمد: 2 / 308 و 5 / 250.

(9) انظر ما يقارب هذا في اللسان: ذلل.

متصاغرین، مبنایا علی الاستعارة، إما فی الذلة تشبیها لها بالقبة، فهي مكنیة، وإثبات الضرب تخیل⁽¹⁾، وأما فی الفعل، أعنی ضربت، تشبیها لإلصاق الذلة⁽²⁾ ولزومها بضرب الطین علی الحائط، فتكون⁽³⁾ تصریحیة تبعیة، والذلة: فعلة من الذل، كأنها هیئة والحال⁽⁴⁾، والمسكنة: من المسکین.

وقال⁽⁵⁾ الزجاج: هي مأخوذة⁽⁶⁾ من السكون، وهي هنا زيّ الفقر وخضوعه، وإن وجد يهودي غني فلا يخرج⁽⁷⁾ من زي الفقر ومهانتة، مخافة أن تضاعف جزيتهم.

﴿وَيَأْمُرُ بِالْعِزِّ مِنَ اللَّهِ﴾: رجعوا به، أي لزمهم ذلك، ومنه قوله عليه السلام في دعائه ومناجاته: «أبوء بنعمتك علي»⁽⁸⁾، أي أقر بها وألزمها نفسي، هذا على ما ذكره⁽⁹⁾ الفراء أن «باء» بمعنى رجع.

وقال الكسائي⁽¹⁰⁾: ولا يكون «باء» إلا بشيء، إما بخير وإما بشرّ، ولا يكون لمطلق الانصراف، وحلوا مباءهم—ومعهم غضب الله تعالى—أي عقوبته.

(1) في ح: تخييلي.

(2) في ع: للذلة، والمثبت من ح.

(3) في ع: فيكون، والمثبت من ح.

(4) في ح: هيئة وحال.

(5) انظر: معاني الزجاج: 1/ 114، ومعاني الفراء: 1/ 60، ومعاني الأخفش: 1/ 273، وغريب القرآن، ص: 51، والدر: 1/ 73، والبحر: 1/ 220، وجامع البيان: 2/ 138.

(6) في ح: مأخوذة.

(7) في ح: فلا يخلو.

(8) انظر: فتح الباري، كتاب الدعوات، باب: ما يقول إذا أصبح، رقم الحديث: 6323: 11/ 130. وسنن ابن ماجه، كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى، رقم الحديث: 3872: 2/ 34. ومسند أحمد: 4/ 132 و5/ 356.

(9) انظر: معاني الفراء: 1/ 42، ومعاني الزجاج: 1/ 114، والدر: 1/ 73.

(10) هو علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء، الكوفي، أبو الحسن الكسائي، إمام في اللغة والنحو والقراءة. من أهل الكوفة، ولد في إحدى قراها، وتعلم بها، وقرأ النحو بعد الكبر، وتنقل في البادية، وسكن بغداد، وتوفي بالرّي سنة 189 هـ عن سبعين عاما. (وفيات الأعيان: 1/ 330، وطبقات النحويين، ص: 138، وإنباه الرواة: 2/ 256، والأعلام: 4/ 283).